

فتره التكوين في حياة الصادق الأمين

الكتاب : فترة التكوين في حياة الصادق الأمين
المؤلف : خليل عبد الكريم
الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠٠٤
الناشر : دار مصر المحرسة
المدير العام : خالد زغلول
مدير النشر والتوزيع : يحيى إسماعيل
المدير الفنى والتنفيذى : إيناس حسنى
المراجعة اللغوية : عبدالمنعم فهمي
رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٥٧٠ / ٢٠٠٣

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر دار مصر المحرسة

١٢ شارع قوله امتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة

٣٩٦٠٥٠٠ : فاكس - تليفون

الآراء الواردة بهذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن دار مصر المحرسة
يحظر إعادة النشر أو الاقتباس إلا بإذن كتابي من الناشر أو الإشارة إلى المصدر

**فترة التكوين في
حياة الصادق الأمين**

خليل عبدالكريم

القاهرة ٢٠٠٤

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٩	مدخل
١٥	قيدام
٢٢	فرشة
٣١	الفصل الأول؛ هذا الشاب لابد أن أباعله
٧٧	الفصل الثاني؛ الأم الرؤوم
٩٥	الفصل الثالث؛ التحديق في الهندوز
١٤٥	الفصل الرابع؛ التفرس في اليусوب
١٧٥	الفصل الخامس؛ موجبات الاختيار
٢٢٣	الفصل السادس؛ أطوار التجربة الكبرى
٢٦١	أولاً: المصادر
٢٦٢	ثانياً: كتب الأحاديث وشرحها
٢٦٢	ثالثاً: المراجع
٢٦٥	رابعاً: المعاجم والقاميس وكتب المفردات

**مدخل
قيادم
فرشة**

- أ - طيبة أولى
ب - طيبة أخرى

مدخل

(١)

في وسط جزيرة العرب وغربها وبالأخص في منطقة الحجاز وقبيل الثالث الأخير من القرن السادس الميلادي كانت كافة الظروف تستدعي «القادم الجديد» بل تلح في طلبه وتستعجله وقد أعطينا الأحوال المادية بسائر ضروبها حظها من التحميص والبحث والدراسة في كتابنا «قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية».

أما عن الجانب التيولوجي^(١) فنكتفى بتسطير ما أورده ابن هشام في السيرة النبوية بشأنه:

– قال ابن إسحق: وكانت الأخبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه، أما الأخبار من يهود والرهبان من النصارى فعما وجدوا في كتبهم من صفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه، وأما الكهان من العرب فأتأثتم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع إذ كانت هي لا تحجب عن ذلك بالصدف بالنجوم، وكان الكاهن والكافر لا يزال يقع منها ذكر بعض أموره لا تلقى العرب لذلك فيه بالأ حتى بعثه الله تعالى ووقيعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها^(٢).

وكانت آنذاك في قرية القدس - مكة - فئة مع قدر معلوم من التجاوز يمكن أن نطلق عليها الأنجلونتسيا^(٣) هي أكثر أهلها تشبعاً بفكرة القادر الجديد أو النبي المنتظر وأعظمها تشوقاً إليه وأشدتها تشوقاً إلى ظهوره.

ومن بين تلك الفئة السيدة خديجة بنت خويلد التي تجيد القراءة والكتابة وهذا ما سنطرح في أوانه أدلة الثبوت عليه وهي من رهط أسد بن عبد العزى «من قريش» الذي ظهرت فيه النصرانية^(٤). وتعمق في دراستها بعض بنيه حتى وصل إلى رتب منيفة فيها مثل ورقة بن نوفل «القس» وعثمان بن الحويرث «البطرك» وقتيلة أو أم قتال أخت ورقة «الكافر» والثلاثة هم أبناء عمومة

خدیجة وارتقت العلاقة بينهم « خاصة القس والکاهنة » وبينها إلى مستوى الحميمية المقرونة بالاختلاط.

وحيثيت خديجة قبل الإسلام بألقاب ذات نكهة دينية لا تخفي على ذى اللب ولا تستبهم على الفطن ولا تستغل على الأريب فهى: « سيدة نساء قريش » أو « سيدة قريش » وهذا للتو لا على التراخي يستحضر إلى ذاكرتك ما وصفت به مريم بنت عمران في الإسلام: « سيدة نساء العالمين » وسيأتي في شايا البحوث أو الدراسات القوادم أن محمدًا كثيراً ما كان يقرن بين السيدتين: « سيدة نساء العالمين » و« سيدة نساء قريش أو سيدة قريش »، يقرن بينهما في المقام والدرجة في منازل جنة عدن ولم يأت ذلك اعتباطاً أو عفو خاطر فاحشاً أن يفعل محمد ذلك.

ومن الألقاب التي حلت جيدتها «=الطاهرة» وهو لقب تفوح منه أيضاً رائحة مسلك ديني أو لاهوتى ويدركك بلقب تحمله مريم أم المسيح لدى النصارى وهو «معدن الطهر والجود والبركات» وفي القرآن عنها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكُمْ وَطَهَرَكُمْ وَاصْطَفَاكُمْ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٥).

وليس مصادفة إضفاء ذلك اللقب على خديجة بل لعلة كامنة «أو مكونة» وإلا فلماذا لم تلقب بالشريفة أو الكريمة أو العفيفة مع أنها تحوزها بجدارة؟ ولماذا هي دون غيرها فازت بهذا اللقب ولم ينفع لامرأة خلافها إن قبل الإسلام أو بعده^(٦)؟

وفي المسيحية يبدأ التطهير من الداخل أى من القلب وناشد ابن مريم تبعه أن يحبو بشدة بعضهم بعضاً من قلب طاهر^(٧).

خلالص القول إذن أن لقب الطاهرة تضمخ بعقب ديني أو لاهوتى نفاد، وأن من المستحيل أن تجيء إضافته في حق خديجة مصادفة أو خطط عشواء.

إن اللقبين « سيدة نساء قريش والطاهرة » لهما دالة لا تغيب عن ذهن الذكى اللوذعى، أو ذلك الذى يقرأ سيرة محمد بعقل يقظ وعين مفتوحة وبصيرة ثاقبة ولب واع وهذا ما نادينا ولازلنا ننادي به.

إذن فاز بنوأسد بسهم وفير من بين فروع قريش بصفة الأنجلجنتسيا فكانت من بينهم القس «ورقة بن نوفل» والبطرك «عمان بن الحويرث» والکاهنة «قتيلة أو مقتل بنت نوفل» والطاهرة وسيدة نساء قريش « خديجة بنت خويلد ».

بيد أن الذى لا ريب فيه ولا يختلف بشأنه اثنان ولا ينطمح فيه عنزان أن خديجة فلجمت على الثلاثة الآخرين وبرزتهم لأنها امتازت عليهم بخصال وملكات نفسية افتقرت إليها، يأتي فى مقدمتها استشراف المستقبل والفراسة التى لا تخيب وموهبة الإلهام الصادق وغريزة اختيار المجرى «السابق والفاتئ» والرهان عليه، والصبر العرى عن الضروب « الذى لا مثيل له ولا حتى شبيه » للوصول إلى

الهدف وتحقيق الغاية والحصول على المنية.

فالطاهرة من دونهم لم تنتظر القادم الجديد فحسب، بل فلت مجتمع مكة وخاصة شبابه ودقت النظر في قوادمه وخوافيه وحدقت في حناته ولم تتعجل أو تتسرع وصبرت سنوات طولة قاربت الربع قرن حتى اهتدت إليه: إلى القادم الجديد وبمعنى أدق إلى من يصلح لذلك، وهنا ضربت عرض الحائط بالتقاليد الرواسخ رسوخ الجبال بل وحطمتها فقدمت نفسها إليه ومدت هي يدها إليه ولم تعبا بفارق السن والمال حتى إذا تشيأ الحلم على الأرض وتحول إلى واقع انتقلت من مرحلة الفرز والتجنيب والسبر والاختبار إلى مرحلة الإعداد والشحن والإمداد والتعبئة والتهيئة واستغرقت تلك المرحلة من عمرها المبارك «خمس عشرة سنة» قدمت فيها تضحيات جسمية من المال والنفس والبدن حتى أثمرت الشجرة وطرحت أكلها الحلو وأن للطاهرة أن تعلم لأهل مكة: هاكم «القادم الجديد» الذي طال انتظاركم له وشوقكم إليه.

(٢)

أما ورقة بن نوفل أو القس فلم يكن دوره هامشياً أو جانبياً كما قد يتبارد إلى الذهن، صحيح أن ابنة عميه قد استعملته كأحد العوامل الفاعلة في تحقيق الهدف الذي تفيته بيد أن ذلك لا يعني أنه كان ألعوبة في يدها، إذ من المستحيل تصور ذلك لأنه الأستاذ والمرشد والمستشار والمرجعية وكان بجوارها خطوة وراء خطوة ومرحلة إثر مرحلة ولكنه على نقىض سيدة قريش كان متسرعاً عجولاً وكثيراً ما كان يصرح متى يا خديجة.. لقد طال صبرى.. إلخ، إنما هي لرجاحة عقلها أدركت أن مثل هذا العمل يحتاج إلى وقت ممدود لأن التجارب الخطيرة تستغرق قدرًا وفيراً من الحشد الذي يستغرق زمناً وسيراً وأن العجلة تقسىها ولو أنها طاوعت أستاذها ومرشدتها لقدر لها الإخفاق ولما نجحت ذلك النجاح الذي لم يكن يخطر على بال أحد.

ولكن الحق يقال فإننا نلتمس العذر للقس فقد غدا في أواخر فترة التأسيس وإبان الإعداد وزمن التكوين شيئاً كبيراً فقد بصره ولذا فإنه قد توفي بعد أعوام قلائل - قيل إنها لم تزد على ثلاثة - بعد الإعلان عن نجاح التجربة ورفع السotor عن القادم الجديد وكان القس يتمنى لو كان جذعاً آنذاك لينصر الله نصراً مؤزراً لا يعلمه إلا هو، ولكن ما هو دور القس الذي نفينا عنه الهامشية والجانبية؟

كان ورقة بن نوفل واحداً من أهم شخصيات تيار الحنيفية الذين رفضوا التعديدية الإلهية وأمنوا بالتوحيد أو بوحدانية الله بيد أنه اختار النصرانية وقرأ التوراة والإنجيل وتبحر في علوم الكتاب، ولم يكتف بذلك بل خطا خطوة فادحة وهو تعلم اللغة العبرية أو اللسان العبراني مما أتاح له نقل أجزاء عديدة من

التوراة والإنجيل الأمر الذي أتاح لمن يقرأون ويكتبون، قراءتها واستظهارها، ولاشك أن الذاكرة الحافظة كانت لدى أفراد ذلك المجتمع قوية أشد ما تكون القوة وقد طالعنا في ذلك أخباراً معجية فعبد الله بن عباس بن عبد المطلب كان يحفظ القصيدة الطويلة غب «بعد» ما تلقى عليه مرة واحدة، وما لنا نذهب بعيداً فالمسلمون الأوائل حفظوا سور وآيات القرآن بعد سمعها من محمد على الفور وهناك حديث ذو دلالة عميقة يصفهم في هذه الخصوصية بأنهم «أنجيلهم في صدورهم» فإذا كان النصارى قد دونوا إنجيلهم فإن صحبه قد استودعوا صدورهم القرآن.

بعد هذه الاستطرادة نعود إلى السياقة:

خديجة هي ابنة عم ورقة وعلى صلة وثيق به وهناك اختلاط وزارات متبادلة وكانت تقرأ وتكتب فهى ومن باب اليقين قد استوعبت تلك الأسفار التي نقلها القس من العبرانية إلى العربية من التوراة والإنجيل وحفظتها واحتزنتها في ذاكرتها، تلك كانت واحدة.

أما الأخرى ففى ليالى مكة الطويلة فإن عقد جلسات ممتدة يشكل ورقة أحد أطرافها أمر محظوظ وفيها كان يطرح ما ورد بالتوراة من أخبار وقصص ونوازل بداية بالخلق والتكون وأدم وحواء والشيطان والشجرة والحياة ومروراً بقصص أنبياء بنى إسرائيل وفي مقدمتهم قصة موسى ثم حكاية فرعون وبين إسرائيل وما جاء بالإنجيل عن عيسى ولادته الفريدة ومعجزاته المدهشة ونحن نرجح أن تلك الجلسات الطوال كانت من أهم مكونات فترة التأسيس وأنها أفادت فوائد لا تقدر بعد إعلان نجاح التجربة.

بخلاف ذلك.

فإننا نستطيع أن نقول إن ظهور القس في مسيرة التجربة بدأ مبكراً فما إن عزمت أم هند «خديجة» على الزواج بمحمد حتى بارك هذا الاختيار وتحمس له إذ تنقل إلينا بعض كتب السيرة المحمدية ذات الوزن الثقيل والمقام المحمود أن ورقة كان حريصاً على حضور مجلس العقد وما إن انتهى أبوطالب عم محمد من إلقاء خطبته التي أبدى فيها الرغبة في مصاورة بنى أسد في خديجة زوجاً لمحمد؛ حتى انبرى ورقة وتكلم مبدياً الموافقة رغم وجود عمها عمرو بن أسد الذي كان يعتبر وليتها في عقدة النكاح الأمر الذي لفت انتباه أبي طالب وأفصح عن ضرورة سماع رأى العم والولي.

هل كان القس يخشى أن يرفض العم والولي أو حتى يتتردد ويتأجلج لأنه بمقاييس ذلك الزمان كان من حقه أنه يرفض إذ إن هناك روايات تنص على رفض أبيها خوبيد بن أسد بل وتفوهه بعبارات سقيمة في حق محمد - الأمر الذي كان سوف يثير حفيظة بنى هاشم ويثيرون لكرامتهم وينصرفون وبذلك

يفسد التدبير الذى نسجت خيوطه السيدة خديجة وصدق عليه ابن العم ورقة ومعلوم أن ذلك كان بداية الشوط.

لا نستطيع أن نصدر حكماً قاطعاً في هذه الخصوصية بيد أن الذى ندرى على وجه اليقين أن القس كشف عن حماس بين فى إتمام الزواج بعد أن اقتنع بصواب بنت عمه أم هند فى اختيار محمد زوجاً من بين شباب ورجال قريش. بعد ذلك ثابر القس فى مد يد العون الذى لا يقدر لسيدة نساء قريش فى اجتياز مراحل الإعداد والتهيئة والخشود بكافة ضروبها: من الإتاحة لها بالاطلاع على الأسفار المترجمة إلى اللسان العربى ولا نستبعد السماح لها بأخذها إلى دارها .. إلى جلسات المذاكرة والمدارسة والمحاضرة والنقاش والحوالى ...

وقد أخبرتنا كتب السيرة أن القس سافر إلى الشام وقابل الأخبار والقسسين والرهبان والبطارقة وناظرهم ووعى ما لديهم من أفكار ونظريات ولذلك قيل عن ورقة إنه قد استحكم فى علم الكتاب، ومن غيره كان يصلح أن يغدو موجهاً ومرشدًاً ومعلمًا؟

ونظراً لتلك الصلة الوثيق فقد كان على إحاطة تامة بأدوار الترقى والصعود من درجة إلى درجة ولا بأس من تقديم النصيحة وطرح المشورة وإعطاء الرأى السديد وفتح الفكرة الحكيمية. إذن هو كان على علم دقيق بمحりات التجربة وتفاصيل مسيرتها ودقائق خطواتها . إنما الذى كان يعييه أنه كان عجولاً يتسرع قطف الثمرة قبل نضجها بل قبل بدوها بعكس الطاهرة فقد كانت متأنية رقيقة صبورة لأنها كانت على ثقة تامة وقيين كامل بحسن اختيارها وصواب نظرتها ونفذ بصيرتها، وأخيراً نجحت وفازت وتكللت مساعدتها التى سلخت من عمرها المبارك خمسة عشر عاماً والتى كلفتها ما لا يحصيه إلا الله وحده من الجهد والمال والمعاناة توجت بالنصر الساحق إذ ما فتئ وجود «القادم الجديد» أن غداً حقيقة بعد أن كان حلمًا .

وفرح القس . ساعتداك . فرحاً طاغياً أخرجه عن وقار الشيخوخة ومرق به عن موجباتها وفاه بعبارات تتم عن ذلك .

تلك التجربة المدهشة التى قادتها وخاضتها الطاهرة بتمكن وإقتدار يعزى على المثل والذى ظاهراها فيها القس ورقة باستاذية ومهارة فائقتين، تدفعنا إلى ضرورة دراستها دراسة موضوعية عبر مسيرة هاتين الشخصيتين اللتين تفانان منا كل إجلال وتقدير.

قِدَام

نحن نؤمن أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب لم يطالع صحيفة أيا كانت المادة المصنوعة منها ولم يمسك قلماً ولم يخط بيديه كلمة ولا حرفًا، ومع تقديرنا للبحاث الذين أجهدوا أنفسهم لإثبات أنه لم يكن أمياً بل كان يعرف القراءة والكتابة فإننا نرى أن ما طرحوه لا يعدو أن يكون قرائنا لا ترقى إلى رتبة الأدلة.

ونصدق ما جاء بالقرآن من أنه كان أمياً وما ورد في العديد من الآيات التي تقطع بذلك منها «الذين يَبْغُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ»^(٨)، «وَقُلْ لِلَّذِينَ أَتَوْا الْكِتَابَ وَالْأَمْمَيْنَ أَسَلَّمُتُمْ»^(٩)، «وَمَا كُنْتَ تَتَلَوَّ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ»^(١٠).

١ـ أما ما يدعوه بعض المستشرقين إن من الفرنجة أو من الصقالبة أن المقصود بكلمة «الأمي» التي ذكرت في القرآن وصفاً لمحمد أنه «الأمي» أي من قوم لا يدينون بالكتاب المقدس «اليهود والتنصاري» ويعبدون الأوثان وغير موحدين ولا يوجد لديهم كتاب أو أنبياء أو رسائل فهذا مردود عليه بأن القرآن لم يكن يعجزه أن يقول - على سبيل المثال: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ فِي الْأَمَمِيْنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ» «وَقُلْ لِلَّذِينَ أَتَوْا الْكِتَابَ وَالْأَمْمَيْنَ» «وَالنَّبِيُّ الْأَمِيُّ» وهكذا.

ذلك أن اللغة العربية تطلق على من لا يعرف القراءة والكتابة أمي وقيل فيه عدد من التفسيرات أبسطها أن الأمي حاله كحال من ولدته أمه «الأمية = مصدر صناعي بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة»^(١١). وفي مفردات غريب القرآن: «الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وعليه حمل» «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِيْنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ»^(١٢). ثم يستمر الأصفهاني في تأكيد ذلك فيقول:

«منه قوله تعالى: «وَمِنْهُمْ أَمِيْونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي» أي إلا أن يتلى عليهم. قال الفراء: هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب و«النَّبِيُّ الْأَمِيُّ» الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل» قيل منسوباً إلى الأمة الذين لم يكتبوا لكونه على عادتهم.. وقيل سمي بذلك لأنه لم يكتب ولم يقرأ من كتاب

وذلك فضيلة له لاستغاثة بحفظه واعتماده على ضمان الله له^(١٢).
وفي هذا غنية (بضم الغين وكسرها) لأننا لسنا بصدق كتابة بحث في هذه
النقطة.

وما نقلناه عن الراغب فيه رد كاف على مزاعم أولئك المستشرقين الذين
صرحوا بأن العلة الكامنة وراء ادعاء المسلمين أمية محمد هو إثبات معجزة
القرآن إذ كيف يتأنى لأمني أن يورد فيه ما حواه من قصص الخلق والتكوين وأدم
وحواء وإبليس والحياة والطوفان والأنبياء والرسل بخلاف العقائد والعبادات
المواعظ والرقائق والأخلاقيات والحدود والحكم والشرائع... إلخ؟ إذن لابد أن
هذا القرآن منزل من عند الله سبحانه وتعالى، والذى نراه أن هذا المنزل يؤكد
فسولة رأى أولئك النفر من المستشرقين وضيق أفقهم وعطن فكرهم وفساد
نظرتهم ووهن ذهنهم وضعف قريحتهم وسوء استباطهم وأعوجاج استقرارهم
 وأنهم قرأوا سيرة محمد قراءة عجلى وطالعوها مطالعة نزقة ولم يمعنوا النظر
فيها ولم يدققوا التحديق فيها ولم يفلوا قوادها ولم يبحثوا في خوافيها، مع أن
المشهور عنهم العكس.

ولو أنهم قرأوها «= سيرة محمد» قراءة مستأنفة وطالعوها مطالعة صبوره
ودرسوها على ريث ولبدوا «= أقاموا ولزقوا» بين صفحاتها ولم يفروها^(١٤) لما
كانت بهم حاجة لطرح تلك الفكرة الخائبة فإن الأمر أهون من ذلك ولا يحتاج
إلى هذا التمحل ولا يستدعي ذلك التكلف ولا يستفر ذلك الاصطنان كما سوف
يلمس القارئ بحواسه قبل أن يدركه بعقله ويرى ببصره قبل أن ينفذ إليه
بصيرته وسيتبين بوجданه قبل أن يفقه بوعيه.

٢. سبق صناديد مكة أولئك المستشرقين الذين ذكرناهم بفكرا لا تقل ركا
وتتفاسها في السخف وتباريها في الضعف وهي أن محمداً تعلم القرآن من قين
«حداد» بمكة يسمى بلعام وفي رواية من عبدين صقليين أحدهما يسمى يسار
والآخر جبر وتلاثتهم من النصارى ولقد سجل القرآن تلك الأحداثة^(١٥) وقد
أورد السيوطى بشأنها روایتين:

● أخرج ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ
يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان أعمى اللسان وكان المشركون يرون رسول الله
ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنما يعلمه بلعام فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ
مُبِينٌ﴾^(١٦).

● وأخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين عن عبدالله بن مسلم الحضرمي
قال: كان لنا عبدان أحدهما يقال له يسار والآخر جبر وكانا صقليين فكانا

يقرآن كتبهما ويعلمان علمهما وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيستمع قراءتهما
فقالوا: إنما يتعلم منها فنزلت الآية...»^(١٧).

هذه الحكاية أو هاتان الحكايتان تحملان في طياتهما أدلة عوارهما فـ:

أ. من المستقر عليه لدى الباحثين في تاريخ منطقة الحجاز في ذلك الإبان أن العبيد النصارى الذين كانوا في مكة علمهم بـ«الكتاب» كان مهزولاً وكانت لدى بعضهم وريقات من الإنجيل لا تسمن ولا تغنى من جوع وبالتالي فمن الحال أن يغدوا محمدًا بذلك الكم الوفير من المعلومات والقصص... إلخ حتى ولو فرض أنه كان لديهم إصلاحات من التوراة فينسحب عليها ذات الحكم.

بـ. أن الفالبية العظمى من أولئك العُبدان النصارى كانوا أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وفائد الشيء لا يعطيه.

جـ. أولئك العبيد كان في لهجتهم أو لغتهم عجمة وفي لسانهم حكمة مما يجعلهم عاجزين أو معوقين عن نقل ما لديهم من علم، هذا مع التسليم الجدلى البحث بأنهم يحوزون علمًا.

وحقيقة أن محمدًا بما أotti من فصاحة ورزق من بلاغة ونفع من لسن ومنح من ذرابة كان في مقدوره ترجمة ما يتلقاه منهم إلى اللسان العربى المبين بيد أن المشكلة تكمن في البداية وهى صعوبة أو عسر توصيل ما عندهم من معارف إلى محمد وهذا مشاهد فىمن يريد أن يشرح وجهة نظره بلغة لا يجيدها فيعسر عليه ذلك.

د. المدة التي كان يمكثها محمد مع بلعام أو يسار أو جبر حتى ولو كان هؤلاء يجيدون الحديث باللغة العربية لا تتيح لهم أن يمدوه بهذا الفيض الزاخر من المعارف، ولم تقل لنا إحدى الروايتين أو كلتاهم أن محمدًا كان دائم اللباث عندهم أو كان كثير اللزام لهم أو كان طويلاً المكث لديهم يقضى معهم الليالي الطوال أو يعقد معهم الجلسات المديدة أو يمضى معهم اللقاءات الواسعة أو ينفق لديهم وقتاً في المقابلات الفسيحة.

وترتيباً عليه فإن تلك العادات الخاطفة يستحيل في ميزان المنطق أن تطرح هذا المتصحول الشرى من العلم الذي تحتويه سور وآيات القرآن على الأقل المكية منه.

إذن ترهات أئمة «الكفر فى مكة» زمن محمد وشطحات بعض المستشرقين «فرنجة وصقالبة» التي عرضناها آنفاً لا تعدو أن تكون محاولات متهاكلة لتفسير ما جاء بالقرآن العظيم وانضواه على هذه الروائع في كل الأغراض وبداهة هم ينسبونه إلى محمد وبالتالي يقدمونها «الترهات والشطحات» كتعليق

لتصوره أى القرآن الكريم منه وقد قمنا بتفنيدها جمیعها وکشف زيفها ورفع الحجاب عن فسادها وتبيین تهافتها والإفصاح عن وهنها وتوضیح رکاكتها وتوصیف هزالها ونحن على يقین أن القارئ بعد أن طالع ما سطرناه بشأنها القاتها جانبًا وأعرض وننأى عنها بل ضرب بها عرض الحائط بعد أن فقدت في نظره كل قيمة وافتقرت لأى قدر من الثمانة.

٣. وهذا الكتاب يقدم رؤية جديدة نزعم أنها غير مسبوقة لحل هذا اللغز الذي «**هلاً الدنيا وشغف الناس**» وقد التزمنا فيها «**الرؤية**» بالمنهج الأثير لدينا والذي غلب على مؤلفاتنا الأخيرة وهو المنهج التاريخي.

فقد بدأنا مع محمد قبل أن يلتقي أبوه بأمه ثم وهو جنين في بطن أمه ثم صاحبناه ليلة مولده ثم وهو مولود ثم طفل ثم صبي ثم شاب حتى التقى به «**سيدة قريش**» بعد أن توسمت فيه بفراسة يعز مثلها أنه هو «**القادم المنتظر**» الذي طال شوق أصحاب جميع الملل وكل الأديان والمعتقدات وسائر النحل إليه وعلى رأسهم سدنة الأصنام والكهان والرہبان والأخبار ثم قيامها بمعونة سخية من ابن عمها «**القس**» الذي استحكم فن «**علم الكتاب**» بدور لا نجد له في تاريخ الأديان مجرد شبيه. ملحمة خالدة سلخت من عمر الطاهرة والقس عقداً ونصف عقد من الزمان في الإعداد والتصنيع والتهيئة والتأهيل حتى طرح ذلك العمل الصبور الدؤوب المتأني المخطط والمرسوم بدقة متاهية ثمرته الناضجة. وحدثت واقعة «**غار حراء**» بصورة فاذة معجبة أدهشت حتى فاعليها «**بفتح اللام**»: سيدة نساء قريش وورقة لأنها جاءت بصورة لم تكن تخطر لها على بال ولم يحلما بها قط.

ولاشك أن هذا النجاح الكبير والفلج الفريد والفوز المبين يؤوب بنسبة كبيرة إلى موضوع التجربة نفسه فقد كان عبقريا لا يفرى فريه أحد ذلك أن سيرته الذاتية وخبراته الشخصية وملكاته العقلية والنفسية واللسانية كانت ركائز أساسية في فلاح التجربة.

ولم يسيطر هدف هذه الدراسة علينا ونحن نبحث وننقر وننقب ونحضر بل العكس هو الصحيح فقد كنا نقاوم هذا الفرض ونعارضه بل ونفرجه وننفيه بيد أنه بسلوك منهج البداء بالشك ثم السير والتقصيم والاختبار والامتحان والاستباط والاستقراء ولكل منها كما هو معلوم أدواته الخاصة، وبصبر ودأب عبر قراءة العشرات من المصادر «**الكتب التراثية**» والمراجع «**الكتب الحديثة**» واللسوق بين صفحاتها والمكوث الطويل بين دفتيرها .. غب هذا الجهد المضني والمشقة البالغة والمعاناة الشديدة.. بدأ الهدف يظهر وخطوة إثر خطوة طفت ملامحه تبدو وقسماته تبين حتى اشتد عوده واستوى على ساقيه بالأيات^(١٨) التي يطالعها القاريء.

ونحن لا نزعم أن غاية الكتاب هي الحقيقة المطلقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها إنما هي جهد متواضع لفتح مغلاق طالما أرق الكثرين رفع مرتجاه «أى فتحه».

ثم نورد ملحوظة نذهب إلى أنها على درجة كبيرة من الأهمية والخطر وهي أنه مما كانت الجهود التي بذلتها «الطاهرة» وعارضتها فيها ابن عمها «القس» فإنها لا تتفى عن التجربة وفي مقدمها «حادث الغار» جانبها الغيبى وناحتتها الميتافيزيقية إذ لا تعارض بين الأمرين بل إن كلاً منهما يكمل الآخر ويدعمه.

وأمل وهذا أمر متوقع - لا يسىء البعض فهم هذه الدراسة ويفسراها على نحو لم يرد على خاطرنا وكنا قد طلبنا وألحنا بل أحلفنا في الطلب بضرورة كتابة التاريخ العربى الإسلامى كتابة علمية موضوعية بدياب الحبيب المصطفى وكرنا أن الكتابة فيه بطريقة مغايرة للكتابة التقليدية يتبعين أن تقابل بأفق رحيب ونظر ثاقب وعقلانية رصينة وبصيرة واعية ونظرة هادئة بعيدة عن التشنج والعصاب ونذكر هؤلاء بأن الأمين ذاته أكد أن من اجتهد وأخطأ فأجر ونحن نأمل أن نحظى بالأجرتين: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة.

٤. وسوف يلاحظ القارئ أننا أخذنا بما جاء في الكتب التراثية حجة مسلمة خاصة فيما يتعلق بالخوارق والمعجزات والمدهشات التي ارتبطت به «أبى القاسم» من قبل ولادته ثم حمله فوضعيه ورضاعته وطفولته وصباه.. إلخ مما يراه البعض حتى من بين الكتاب الإسلاميين المحدثين بعيداً عن العقلانية ومجافياً لطبيائع الأمور ومضاداً للمنطق وكانت البواعت الدوافع لولوج هذا الدرس ولسلوك هذا الطريق عديدة نكتفى منها بالآتى:

أ. أن الطعن في هذه الأخبار يعطى خصومنا في الرأى سلاحاً . ولو أنه مغلول . أتنا نطعن في الأحاديث والسنة وهي المصدر الثاني للشرعية الإسلامية ووجه القل في هذا السلاح أتنا في كل كتاباتنا دافعنا عن السنة ووصفناها بأنها «ديوان الإسلام» وطالبتنا بقبول الأحاديث حتى المعلول منها لأنها تعكس صورة ولو تقريرية عن أحوال ذلك المجتمع المعجب .

ب . أن المعجزات والأعجائب والمدهشات والمخارق جزء من معتقدات تلك البيئة شبه المتبدية ومكون من مكونات شخصياتهم ونذهب إلى القول إن احتقارها وتجاهلها والتعالي عليها هو المسلك أو المنزع اللاعقلاني والرجل أو المرة في ذيak الزمان الطريف والذى شاء له حسن حظه أن يسيطر بتوجهاته وأفكاره علي عقول أتباع «يد ولد آدم» لأكثر من أربعة عشر قونا . نعود هنا قول إن الرجل أو المرأة آنذاك كان أسيراً لذلك التفكير الخرافى الأسطورى الذي يؤمن بالقوى الغيبية والكائنات اللامنظورة والعواول المستخفية ... إلخ فائى من

يكتب عن تلك البيئة ويشخصها أن يتغاضى عن العجزات والمدهشات والأعاجيب والخاريق ولو فعل ذلك هل تغدو كتابته موضوعية أم العكس هو الصحيح؟

جـ . إن تلك الأعاجيب والعجزات والخاريق والشعبذات جزء عضوي في البانوراما التي جهدنا لتقديمها للقارئ عن ذلك الجو «الفضاء» الذي تشكلت فيه الأحداث التي عنينا بدراستها قدر الطاقة «عنایة» مضاعفة ولا يدل هذا على أنها جاءت كاملة عربية من أي نقص.

وفي معتقدنا أننا لو أسلقنا من حسابنا تلك العجزات والشعبذات للحق بها «الدراسة» القصور ووسمنا الإهمال وركبها العجز وشابها التهاؤن.

د . أن الشعبذات والخاريق استمرت تضرر المجتمع الإسلامي حتى الآن فعلى سبيل المثال نرى جمال الدين أبوالفضل الأفريقي المصري المشهور بابن منظور الذي صنف واحداً من أشهر المعاجم والقاميس «لسان العرب» والذي ولد في الثلث الأولى من القرن السابع الهجري، وتوفي في أول سنة من العقد الأول من القرن الثامن الهجري يفتح كتابه ذاك بطبع الحروف وطمسات الكتابة «وأنه إذا تمازجت طبائع الحروف مع أفعال الكواكب المقدسة نجمت عن تمازجها أسرار.. تخرق عقول من لا يهتدى إليها»^(١٩). بل إن تلك الخاريق متواصلة في مجتمعاتنا الإسلامية «عربية وعجمية» وقد أهل علينا القرن الحادى والعشرون .

فكيف يتسى غض البصر عنها إذا عزمنا على الكتابة عن هذه المجتمعات منذ فجر الإسلام حتى وقتنا هذا كتابة علمية؟

هـ . تلك الأعاجيب وخوارق العادات حملتها لنا كتب تراثية عظيمة الاحترام وفيرة التقدير فإذا نأينا بجانبنا عنها رُميـنا بالطعن في التراث والهجوم عليه وتحقيقـه .. إلخ أو على أقل تقدير إهمالـه وتجاهـيفـه وهذه تهم يسـارعـ كثيرـ منـ الكـتبـةـ المـحـدـثـينـ المـحـسـوبـينـ عـلـىـ الإـسـلامـ بـتـوجـيهـهـاـ لـكـلـ مـنـ يـكتـبـ بـمـنهـجـ يـخـالـفـ الطـرـيقـةـ التـقـليـدـيـةـ الدـوـجـمـاطـيـقـيـةـ التـيـ تـيـبـسـتـ عـقـولـهـمـ عـلـىـ هـاـ فـلاـ تـفـرـزـ سـواـهـاـ .

وـ إـزـاءـ تـلـكـ الـخـوـارـقـ وـالـعـجـزـاتـ فـإـنـ الـكـتـابـ الـمـحـدـثـينـ «الـإـسـلامـيـيـنـ» لـهـمـ مـوقـفـ مـتـاقـضـ وـمـرـجـعـ تـاقـضـهـ هوـ المـنـهـجـ الـأـنـتـقـائـيـ إـذـ إـنـهـ فـيـ الـوقـتـ الـذـيـ يـدـيـنـونـ أوـ يـسـتـكـرـونـ أوـ حتـىـ يـتـجـاهـلـونـ كـثـيرـاـ مـاـ حـدـثـ فـيـ السـيـرـةـ الـمـحـمـدـيـةـ مـنـ عـجـزـاتـ مـثـلـ: اـنـفـلـاقـ الـبـرـمـةـ التـيـ وـضـعـ مـحـمـدـ تـحـتـهـ غـيـرـ وـلـادـتـهـ . أوـ إـنـصـاتـ إـلـىـ الـهـوـاـنـفـ مـنـ قـبـلـ أـمـهـ أـشـاءـ حـمـلـهـ بـهـ ثـمـ عـنـدـ وـلـادـتـهـ إـيـاهـ . أوـ سـمـاعـ صـوتـ يـدـلـ أـهـلـهـ عـلـىـ مـكـانـهـ عـنـدـمـاـ فـقـدـوـهـ . أوـ تـصـدـيـهـ وـهـ صـبـيـ لـلـفـحلـ الـذـيـ كـانـ يـقـطـعـ الـطـرـقـ عـنـدـمـاـ كـانـ فـيـ سـفـرـ بـصـحبـةـ أـحـدـ أـعـمـامـهـ . أوـ رـؤـيـةـ غـلامـ خـدـيـجـةـ مـيـسـرـةـ

ملكين يظلانه من حرارة الشمس أثناء سفره إلى الشام في تجارة لها وكذلك رؤية الطاهرة إياهما هي ونسوانها لما عاد محمد إلى بيته ليقدم لها كشف حساب عن المكاسب التي حققها في تلك الرحلة .. إلخ.

في حين أن «الكتبة الإسلامية للمحدثين» يصدقون بالعجزات الأخرى مثل شق صدر محمد على أيدي ملكين عندما كان في بادية بنى سعد في حضانة المرضعة حليمة السعدية وبعجزة شق القمر في مكة أمام أبصار المشركين ومعجزة الإسراء والمعراج التي يؤكدون أنها كانت عيانية وليس منامية .. فلماذا يكفرون بالأولى ويؤمنون بالأخرى، قد يكون بين الاشتين فرق ولكنه درجي لأن نوعي فهمها في آخر المطاف يستدان معًا إلى قوى غيبية.

أليس شق البرمة أيسير من شق الصدر وما تلاه من إخراج القلب وغسله وتقطيته من العلقة السوداء ومن شق القمر فلتقتين كل واحدة منهما على جبل وأيهما أقرب للتخيل تظليل الملكين له وهو يسير في الصحراء أم الإسراء من مكة إلى القدس على الحيوان العجيب «البراق»؟

ولا يقال دفعاً لذلك إن الأخيرة وردت في القرآن المجيد ذلك: أن شق القمر من الممكن تأويله تأويلات أخرى لا تعنى حدوث معجزة الشق حالاً وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنه سوف يحدث في الآخرة.

كذلك الإسراء والمعراج لم ينص القرآن الكريم على أنهما حدثا عياناً لا مناماً دعك من الاستناد إلى كلمة «عبد» في الآية ﴿سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَدْهِ﴾ لأن هذا ت محل في التفسير فهذه الكلفة كانت تقرؤها عائشة بنت أبي بكر ومع ذلك ذهب إلى أن الإسراء والمعراج حدثا في المنام وهي «عائشة» أعلم بما لا يقاس من المتحذلقين الذين يؤكدون أنهما حدثا عيانا بحججة واهية هي كلمة «عبد» والتي يدللون بها بصورة استعراضية فيها المزيد من الترجسيّة لأنما قدموها كشفاً باهراً مثل تفتيت الذرة وما أدركوا أنه ساذج وعنيف وأنه أقل قيمة من تكسير الجرة.

هذه واحدة.

أما الأخرى:

فإن عدداً لا يستهان به من العجزات الأولى وردت في بعض كتب الصحاح الستة التي تلقتها الأمة الإسلامية بمنتهى الاحترام لا يعني عدم الاعتراف بها طفناً مستترأً في هذه الكتب المجمع على تقديرها وكدت أكتب تقديسها وفيما إذن نعيهم على الآخرين طعنهم في السنة المصدر الثانية في الإسلام.

أما الثالثة: ليست التفرقة بين نوعي العجزات بانكار النوع الأول والاعتراف

بالنوع الآخر ثم السماح لأنفسهم بالطعن الضمنى للصالح الستة وحظر ذلك على غيرهم أليس هذا وذاك كيلاً بمكيالين وازدواجية معيبة في المسلك الفكري؟

ونتهى هذه الفقرة بأن إيراد المعجزات التي سوف يطالعها القارئ فيما بعد لا يعيي الكتاب ولا ينزع عنه صفة العقلانية بل هو على العكس يتسع مع المنهج التاريخي الذي التزمناه فيه لأن تلك المعجزات جزء أصيل من الأحداث التي شكلت السياق التاريخي الذي أنتج تلك النازلة المفردة «واقعة غار حراء» وما أعقبها والتي نحاول في هذا الكتاب أن نقدم تفسيراً جديداً لحدوثها غير مسبوق آملين أن يكتب لنا التوفيق في إقناع القارئ به.

فرشة

• الطية الأولى:

خديعة هي التي سعت للزواج من محمد ورويات هذا السعي الحديث متعددة واختلف الباحثون في البواعث اختلافاً كثيراً بيد أن لنا رأياً فإذا فيها لا رغبة في الفنود أو الإغراب أو الإدهاش ولكنه ضفييرة من نسيج الفكرة التي يتمحور أو يتمركز عليها الكتاب وسوف يكشف القارئ ذلك بنفسه.

إن زواج خديعة من محمد آثار في حينه دهشة جميع المحيطين بهما ومن بينهم خاصة أهلها: أبوها في مذهب من قال إنه كان حياً وقت إتمام عقدة النكاح^(٢٠) وعمها عمرو بن أسد الذي أنسى العقد وكان ولد خديجة فيه، بل إن الدهش لحق بنى هاشم وبنى عبدالمطلب لدرجة أن أبا طالب فرح فرحاً طاغياً لأنه لم يتوقعه.

فخديعة سيدة قريش أو سيدة نسوان قريش ذات مكانة اجتماعية سامية وتاجرة ناجحة تملك المال الوفير بكافة أنواعه: النقد والعروض والعبدان والإماء والعقارات ووصفها الوصافون بالجمال والوضاءة وتقدم خطبتها العديدة من وجوه قريش وأعيانها أصحاب الحسب والنسب الأغنياء وقدموا لها الأموال الطائلة كمهر أو سياق ولكنها صدتهم فرجعوا خائبين.

وفي الطرف المقابل محمد فقيير مملق لا يملك شروى نقير يرعى الغنم بأشياد على قراريط^(٢١) وهي عُملة لا تليق به فهو من بنى هاشم أحد أخذاد قريش السوامق بيد أنه فتى يفيض شباباً وقوه وحيوية وسيماً قسيماً بل يعتبر مثالاً للبهاء وقد ورث ذلك من أبيه عبدالله بن عبدالمطلب الذي بمحياه الطلاق أحرق قلوب نسوان القبيلة: عذاري وأيامي. وهو لا ضروب له في حسن الخلق: الصدق في القول والوفاء بالوعيد وأداء الأمانة فاشتهر في محيطه بـ «الصادق» والأمين».

ولكن الأمر في قريش اختلف من أثر التحولات التي ضربت مجتمعها بعد ازدهار مكة كمركز تجاري يصل الجنوب بالشمال والغرب بالشرق وإثر تدفق الأموال لدى التجار والمربين لم يعد ذلك المجتمع يعبأ بعراقة النسب ولا أصالة الحسب وغدت الثروة هي ميزان التقييم شأنه «مجتمع مكة» شأن المجتمعات الرأسمالية.

وتفككت عرى التقاليد القبلية التي لها موازينها وموجباتها الخاصة^(٢٢) ونتيجة لذلك لم يجد محمد ما يتعيش منه سوى رعي الفنم مع أنه من بطن أو فخذ أو فرع في نظر الناس يعد من القمم العوالى والذرا الشوامخ. وعمل محمد في رعي الأغنام قطع نياط قلوب الكثيرين ومنهم أم هند «خديجة» فضربوا كفأ بكف وتساءلوا متعجبين أو تعجبوا متسائلين كيف يحدث هذا؟ كيف يحترف سليل هاشم وحفيد عبدالمطلب سيد قريش منذ أعوام قلائل هذه المهنة التي هي وقف على العبدان والقصاء والزعانف الدين يشكلون قاع المجتمع والطبقة ذات السفولة والغور.

وليس خديجة فتاة غرة طائفة ذات غفلة أو شابة مأفونة قليلة التجربة وتعوزها الخبرة وتتقصدتها الدرية بل هي سيدة عاقلة لبيبة حاذقة حازمة في طور الكهولة عركت الحياة أو عركتها الحياة وأنضجت رأيها وعمقت بصيرتها صاحبة حجي موфор وحكمة بالغة كيف لا وقد تزوجت مرتين وأنجبت البنين والبنات ولها تجارة واسعة تديرها بحنكة.

وأختلف الروايات في عمرها أو سنها عندما نكحها محمد فمن قال: أربعون ومن أخبر أنها ثلاثة وأربعون ومن أكد أنها خمسة وأربعون.

فكيف تقبل أن تنكح شاباً في سن أولادها عمره واحد وعشرون أو ثلاثة وعشرون أو خمسة وعشرون وهو المشهور أو الشائع^(٢٣) ونحن نتبذل بصراحتنا لمح إليه بعض كتبة السيرة المحمدية التي هي كما المسك الفائق من أن الباعث الدافع لنكاح خديجة محمدًا هو شبابه الرائع وفتنته الظاهرة وقوته الواضحة فضلاً عن قسماته ووسامته وجماله وحسناته.

وأنه إذا تقدم لخطبتها ذوو النسب والحسب والنسب «المال» فإنهم افتقرموا إلى الشباب والفحالة الذين يسبّيان قلوب النساء ويساران عقولهن خاصة الشهـلات الكـھـلات^(٢٤). ورغم أن هذا الرأي الفطير جمع بين السفولة والفسولة أو السفالة والفسالة فإنه لا ريب أثبت أن معرفة أولئك الكتبة بالظاهرة وشلة علمهم بتاريخها ضحل وإدراكهم لاتجاهاتها التيولوجية مهزول وتحيف وأعجف.

ولو أنهم أمعنوا النظر في سيرتها المعطار وتفرسوا في مشوارها المبروك

وحدقوا في خطابها المبرورة قبل نكاحها لمحمد لما أقدموا على عرض هذه الفكرة الخائبة.

وإذ إن الشيء بالشيء يذكر فقد اطلعت على عدد من الكتب التي خبت وأوضعت في الكلام عن سيدة نسوان قريش فلم أر واحداً منها أولى حقبة ما قبل افتراضها بأبي القاسم قدرًا ولو ضئيلًا من الاهتمام كأنما تاريخ الطاهرة لم يبدأ إلا بعد تماستها بـ «الأمين» بدليًا باستئجارها إياه ليتجر لها في سوق حباشة أما قبل ذلك فهو من نافلة القول أو سقط المقام.

ولو أنهم طالعوا قصة خطى عمرها المبرور بال بصيرة لا بالبصر فحسب لأجابوا على السؤال الذي حير الباحث في الماضي والحاضر:

لماذا نكحت «المعصوم» دون غيره من فتيان قريش الذين هم مثله يفيسون شباباً وفعالة وبهاء؟ ولماذا لم ترسل لأحد هم دسيساً لخطبته أو لجس نبضه؟ ولماذا كما فعلت مع «سيد الخلق» لم تتقدم إلى أحد أولئك الشباب الملوثين قوة وقسامة وتقول له إنني رغبت فيك وذلك بعد أن ترملت أو طلقت من زوجها الأخير «الثاني»^(٢٥) ولماذا ظلت أيامًا «بلا زواج» ردحاً من الزمان قبل أن تبدى رغبتها «للصادق المتصدق» صراحة دون مواربة في نكاحه ولماذا ضربت بالتقاليد والأعراف المتمكنة من النفوس والغاية في أعماق حنايا المجتمع عرض الحائط وأهمها اثنان:

الأول: أنها نكحت شاباً في سن ولدها وربما أصغر، غير عابئة بأى نقد أو تجريح أو غمز أو همز.

الآخر: أنها تقدمت إليه سواء بنفسها أو بإيفاد مرسل تقول إنني رغبت في الاقتران بك وإنني ذلت كل العقبات وسهلت كل الصعاب وأزلت كل الحواجز ورفعت كل الموانع من طريقك وليس عليك إلا أن تحضر أنت وعمومتك ستجدون كل شيء معداً حتى الجواري «الإماء» الرواقص في الفرج^(٢٦).

هذه الألغاز والأحاجي سوف تحلّ ونحن نمضي في هذا الكتاب صفحة وراء صفحة فقط كل ما نرجوه من القارئ أن يطالعه بعين يقظة وبصيرة ناذنة وعقل متتحرر من الوهم أو الخبل الناشيء عن المقدسات الزيوف^(٢٧) وباتفاق واسع لا تحده أو تحجر عليه التقيود أو السدود التي تراكمت عبر السنين.. وأن يبعد عنه الأفكار السوابق بحججة أنه مسور عليها بأسوار لا يجوز القفز عليها دعك من اقتحامها وألا يهاب مما يطلق عليه سدنة الإسطير وحراس التراث «المحرمات» لأنها من صنفهم فهم الذين ابتدعواها لا أبدعواها ويعضون عليها بالتوажд لأن مصالحهم ومنافعهم ومكاسبهم تتعلق بها وتدور حولها.

وتراهم يتوعدون كل من يقترب منها مجرد اقتراب بالويل والثبور وعظامهم الأمور ويهيجون عليه العامة ويثيرون عليه الطبقة الشعبية الواسعة العريضة المخوممة «طيبة القلوب» بشتى أنواع التهبيج وكافة ضروب الإثارة حتى المنابر. كما حدث منذ قريب ضد واحد ظلوا يعدونه منهم وفي صفهم لمجرد أنه حرم من بعيد حول إحدى تلك التي يسمونها «محرمات» وما هي كذلك واضطر أصحابهم «ولا نقول صاحبنا كما هو الدارج» إلى تبني أحد أفكارها وهو: كل شيء قابل للنقد والتفسير سوى «النصوص المقدسة».

● الطيبة الأخرى:

على إثر أن فلحت أم هند في نكاح محمد بعد أن بذلت في ذلك جهوداً مختلفة طفقت على الفور تتضرر إليه وتعامله معاملة الأم الحنون لابنها الفرد الذي رزقت به بعد لأى، وتعاضد على ذلك أمران:

الأول: غريزي أو طبيعي أو عاطفي حسب النظر إليه فالبعض يرى أن رئمان الوالدة على ولدها هو غريزة والآخر يذهب إلى أنه طبيعة مركبة في المرة «المرأة» والثالث يرجح أنه أقرب إلى العاطفة. ومهما كان الأمر فإن هناك شطراً منه وجد لدى الطاهرة نحو «الحبيب المصطفى» لأن فارق السن بينهما تراوح ما بين خمسة عشر عاماً وربع قرن «وقد رجحنا الأخير أ.ه.».

الآخر: إن معاملة سيدة قريش لبعلاها كأم حنون وإشعاره بذلك دائماً وبالجاج دفعه إلى الاقتناع بتلك الفكرة خاصة وأن أبوه مات وهو جنين وفي رواية أنه ابن ثلاثة سنوات، أما أمه فمن المتفق عليه أنها توفيت وهو في السادسة من عمره المبارك وهي عائدة من يثرب إلى قرية القدسية بكة ودفنت في الأبواء أي أنه حرم رعاية الأب وحنان الأم ودفعه عاطفتها.

فما إن منحته إياه خديجة حتى تلقفها تلقي الصادي للماء البارد في يوم قائظ، ونذكر أنه آن ذاك قد عدى العشرين بعام واحد أي أنه تخطى الصبا منذ قليل.

وحتى إذا قلنا إنه تجاوز العشرين بخمسة أعوام فإنه أيضاً قد ترسب في نفسه شعور البنوة نحوها لأنها تكبره بربع قرن «من الزمان» أو بأقل من ذلك بعشرة أعوام.

فعلى كلا الفرضين فإن الشعور الذي أمعنا إليه قائم ومتتحقق إذ إننا بعد قليل سنجد الباحث المحدثين الذين يعتقدون بالفارق الأقل يومئون إلى أن الشعور بالبنوة لدى الأمين وعاطفة الأمومة عند الطاهرة متباينان بل متواتران فإذا تمكنا هو من وجدان «سيد الخلق» غدا طلاب «بكسر الطاء» الطالب ومنية

المتمنى لدى خديجة لأن ابن غالباً إزاء أمه يصبح على قدر كبير من المهاودة والموادعة والملاينة والمطاوعة.. بخلاف البعل فهو يقف في وجه بعلته في أكثر الأحيان وقفه المجادلة والمحاورة والمشاكسة والمعاندة والملاحة، والصنف الأول من هذه الصفات هو المطلوب هنا بحزم وهو المرغوب دون سوم لأن الأمر جد كله لا هزل فيه والتجربة المقبلة خطيرة وصارمة تخلو من أقل ذرة من الهزء^(٢٨)، وتناقض العبث وتتأي بجانبها تماماً عن اللعب كيف لا والذين مرروا بها «التجربة» هم من ذوى العزم عرقووا بالحزم وركبهم الهم وملاً نفوسهم الغم ولا زمهم الحزن وصادقهم الأسى لأنهم رجال بخلاف غيرهم من الناس وعلى النقيض من أمثالهم من البشر، وبديايات التجربة أصعب ما فيها وأقسى مراحلها وأنقل وأوغر درجاتها فإن لم يصر محلها أو موضوعها مطاوعاً سهلاً لينا خبتاً تعود على الموافقة وربى قبل دخوله إليها على المسالمة فلا يقدر لها النجاح ولا يكتب لها الفوز.

وسيدة قريش بأسرها كما نقلت إلينا كتب السيرة المحمدية الفاتحة بالمسك حازمة رجلة في عزمها وإرادتها^(٢٩) قوية الشكيمة.

واشتغلت بالتجارة فنجحت فيها نجاحاً لم يتحققه كثير من الرجال ذوى اللحى حتى إنها تملكت على الدوام شطر «نصف» القافلة المسافرة إلى الشام أو اليمن وباقى بطون وأفخاذ قريش الظواهر والبطاح كلها لها الشطر الآخر.

ومن ثم فإنها إذا خاضت تجربة أو أقدمت على مشروع أو هندزت بناءً فهى نعم الهندز لا تسمح بأى خلل ولا ترضى بأى تجاوز ولا تتقبل أى هفوة.

وبالتالى فإن من يشاركتها التجربة لابد بطريق الحتم واللزوم أن يصير ضرورياً لها في تلك النوعوت شيئاً لها في تلك الخصائص وهي بسعة أفقها ونفاد بصيرتها أدرك أن المبادئ «البدائيات» هي المهمة وأن الأساس هو الذي عليه المعمول، ومن ثم اختارت الزوج الابن لكن تلقى منه الحب والمطاوعة معًا فيقيض للتجربة الفوز المبين وذاك ما حدث فقد فاجت «التجربة» فلجاً لم يخطر على بال أحد من أطراها وتركت وراءها أثراً أو آثاراً لم يحملوا بها لا في نمام ولا في يقظة.

وعندما اختارت خديجة الزوج الابن أو الابن الزوج لم تخير أى «زوج ابن» أو أى «ابن زوج» فهذا من المحال في حق سيدة نسوان قريش بل اختارته بعناية دققة أشد الدقة وانتقته بأعمق الانتقاء إذ ظلت تلاحظه لمدة عشرين عاماً. هذا في معتقدنا أو لمدة ربع قرن كما تذهب إليه الأغلبية دون تمحیص. لقد طفقت تتلقى أخباره قبل أن ترى عيناه الكريمتان نور الدنيا فمثلاً منذ أن حاولت عرافتان أو متكهنتان أن تغوا أبياه مع بذل إغراء مالى كبير «مائة ناقة»

له ليتقل إلى إحداهما نوره المبارك وفاتها أنه من المحال أن يجئ إلى العالم الذي ظل ينتظر قدومه الميمون بطريق الحرام، واستمرت تتبع معجزاته منذ الحمل حتى رحلة الشام مع عبدها ميسرة وهنا تيقنت أنه هو هو وليس آتيا بعده أحد مثلاً سأله العمدان ابن مريم أنت هو هو أم الآتي؟

فحين إذن تحركت بكل ثقلها لكي تتوجه «لتتزوجه» خاصة وأن هناك أمراً قد يهدى لها من مرجعية رفيعة المقام لكي تفعل وفعلت ونفذت الأمر وبدأت معه التجربة الفريدة التي تعد في نظرنا من أخطر التجارب التي شهدتها العصور الوسيطة.

الهوامش

- (١) يعرف توماس الأكويني التيولوجيا أنها تلك التوجيهات الصادرة من الله والتي يعلمنا إياها لكي تقدوتنا إليه.
- (٢) سيرة ابن هشام . الجزء الأول ص ٢١١ . تحقيق د. محمد فهمي السرجاني . د.ت/ن المكتبة التوفيقية .
- (٣) قاموس وبسترل العالم الجديد يعرف الأنجلجنتسيا: هم الناس الذين ينظر إليهم أو هم ينظرون إلى أنفسهم أنهم الطبقة أو المجموعة المثقفة .
- (٤) وهي غير المسيحية وأبسط مظاهر التفرقة بينهما أن النصرانية لا تؤمن ببولس ولا تعترف به بل تتهمنه بأنه هو الذي بدل دين المسيح ولذا نجد أن القرآن تحدث عن النصارى لا عن المسيحيين . الآية ٤٢ من سورة آل عمران .
- (٥) والمطهر عند النصارى هو مكان تطهر فيه النفس بعد الموت بعذاب موقوت . المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية .
- (٦) القاموس الموجز لكتاب المقدس . مادة: تطهر . الطبعة الثانية ١٩٩٢ م . مكتبة كنيسة الإخوة بمصر .
- (٧) الأعراف: ١٥٨ .
- (٨) آل عمران: ٢٠ .
- (٩) العنكبوت: ٤٨ .
- (١٠) الأعراف: ١٥٧ .
- (١١) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهانى تحقيق محمد سيد كيلانى، طبعة ١٢٨١ هـ . ١٩٦١ م، مكتبة مصطفى البابى الحلبي بمصر .
- (١٢) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهانى . مصدر سبق ذكره .
- (١٣) في قواميس اللغة: فر . أسرع .
- (١٤) في مختار الصحاح للرازي . الأحدوثة بوزن الأعجوية . ما يتحدث به ويزيد المعجم الوسيط: أنها الكلام المضحك أو الخرافه . أ.ه، ونضيف أن العامة في مصر تقول: الحدوة .
- (١٥) النحل: ١٠٢ .
- (١٦) أسباب النزول للسيوطى . ص من ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ هـ ١٢٨٢ م، طبعة الشعب . دار التحرير للطبع والنشر . القاهرة .
- (١٧) في القاموس المحيط الأبياء هي الهيئة .

- (١٩) لسان العرب لابن منظور . باب ألقاب الحروف وطبعاتها وخواصها . المجلد الأول ص ١٥، ١٦ .
 نقلًا عن كتاب «نقد العقل العربي . إشكاليات العقل العربي» لجورج طرابيشي، ص ١٤١، ١٤٢ .
 الطبعة الأولى ١٩٩٨ م . دار الساقى بيروت . لبنان .
- (٢٠) البعض يرى أنه توفي في حرب الفجار أو قبلها أو في عامها أ.ه.
- (٢١) اختلف شراح السيرة العطرة هل القيراط مساحة من الأرض كما هو عند أهل مصر أم نوع من العملة أ.ه.
- (٢٢) لمزيد من المعرفة بهذه النقطة: فضلاً ارجع إلى كتابنا «قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية».
- (٢٣) نرجح أنه في الواحد والعشرين وهي في الخامسة أو السادسة والأربعين أي أن الفارق بينهما في العمر حوالي ربع قرن . أ.ه.
- (٢٤) في القاموس المحيط للقيروز أبادي . الشهلة . المرأة النصف «فتح النون والصاد» العائلة . أ.ه.
- (٢٥) اختلف كتاب السيرة الحمدية الرائعة في ترتيب زوجي سيدة قريش وهل انفصمت عرى النكاح بالموت أو الطلاق بالنسبة لكل منهما . أ.ه.
- (٢٦) «الإماء» الرواقيض في الفرج، الفرج: حلقة العرس «محدثة» من المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية . أ.ه.
- (٢٧) لا المقدسات الصحيحة التي لا يمكن لكتائن مهما سما قدرة المساس بها . أ.ه.
- (٢٨) في المعجم الوسيط: هزر الرجل هزراً أي ضحك .
- (٢٩) في الحديث كانت عائشة رضي الله عنها رجلة الرأي . أ.ه.

الفصل الأول

هذا الشاب لابد أن أباعله

ضرورة نكاحه (هو) أو هذا الشاب الذي (هو) لا بد أن أباعله

استقر في بؤبؤ عين يقين خديجة أن محمدًا (هو) أي القادر المنتظر الذي أظل أو أطلا زمانه وتحدث عنه أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان القبائل وسدنة الأصنام والكمببات^(١)، وتؤكد د. بنت الشاطبي: «أن التبؤات بظهور نبي جديد حان مبعثه كان يتناقلها الرواة والسمّار على رهبان النصارى في الشام ونجران وأحبار اليهود في شمال الحجاز ومكة عن الخصوص والتي كانت المركز الذي تلاقى فيه تلك الإرهاصات ثم تضييف إلى أولئك الذين يبشرؤن بالقادم المنتظر شعراء العرب وحكماءهم وكهانهم وأن كل هذه الإرهاصات والتبؤات ترببت في وعى السيدة خديجة»^(٢).

ويقول ابن إسحق: «وكانت الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى فيما وجدوا في كتبهم من صفة وصفة زمانه لما كان في عهد آنبيائهم إليهم فيه»^(٣).

وفي عجالة سريعة أن من يقرأون كتب أهل الكتاب من صفة أهل مكة توقعوا ظهور «القادر الجديد» أو النبي المنتظر ومنهم السيدة خديجة فمنذ أن حملت به أممه آمنة فهي ما انفككت تذيع أخباراً مُعجبة عن حمله وولادته ورؤى تراها وهو اختلف تخاطبها إلى أن وضعته بخلاف ما لمسته بعد ذلك من أمور معجزات عند ولادته .. وابنة وهب لدة لأم هند وكلاهما من قريش.

وبني زهرة وبني أسد من البطون السامة ولابد أن الود بينهما موصول وأن الطاهرة هنأت أم محمد بوليدها وأن الأخيرة قصت عليها الأعاجيب التي ألمت بها في الحمل والولادة.

• • •

ربطت سيدة قريش بين ما سمعته من بنت وهب وبين ما حدث منذ عهد قريب من فداء لزوجها عبد الله «أبي محمد» بمائة من كرائم الإيل منجا له من الذبح وفأء للنذر الذي صدر من والده عبد المطلب دون رؤية أو تدبر وهو الشیخ

الوقور ذو العقل الوفير.

وتدكّرت الطاهرة تعرّض الكاهنتين أو المتكهنّتين (وقييل ثلاثة) «لعبد الله» وطلبّهما منه بجراة غير معهودة لا في نسوان العرب ولا في نسوة العربان الجفّة أن يقع على أيٍّ منهما وتتفحّصه عدداً من الإبل مماثلاً لإبل نذر أبيه. وكلّتا هما . مثّلها تجييد القراءة والكتابة وتقرأ كتب اليهود والتصارى، وهما ليستا من أصحاب الريب ولم تعرّف عن أيٍّ منهما عهورة حتى الخشومة الحسينية.

أولاً هما هي بنت عمها وتسمى «قتيلة أو أم قتال» وكلّتا هما صرحت بأنّها إنما عاينت في جبينه نور النبوة وأنه بعد أن رفضها وضاجع زوجته انتقل إليها ذاك النور فنهيئاً لآمنة به، وأضافت أم قتال أنها أقدمت على ذلك لأنّها سمعت بقرب ظهور نبي من أخيها القس ورقه.

ومن ثم فـمن الـحـتـم الـلـازـم أـنـ اـبـنـةـ الـعـمـ «ـنـعـنـ خـدـيـجـةـ» سـمـعـتـهـ مـنـ ذاتـ الشـخـصـ «ـوـرـقـةـ» لـلـصـلـةـ الـقـوـيـةـ الـتـىـ تـرـيـطـهـماـ .

ولم تبلغ الطاهرة هذه «النبيّة يوشك ظهور القادم المأمول» من أعلم المكيين بالتوراة والإنجيل فحسب بل تعلّمت على يديه الكثير والكثير مما فيهما . فـما دامت قتيلة بـنـتـ نـوـفـلـ تـقـرـأـ وـتـكـتـبـ وـمـتـلـ أـخـيـهاـ طـالـعـتـ الـكـتـبـ «ـنـعـنـ الـقـدـسـةـ لـدـىـ أـهـلـ الـكـتـابـ وـلـكـنـ بـدـاهـةـ أـقـلـ مـنـهـ»، فإنـ مـعـرـفـةـ سـيـدـ نـسـاءـ قـرـيـشـ بـالـقـرـاءـةـ وـالـكـتـابـ تـغـدوـ أـثـبـ وـأـعـقـ خـاصـةـ وـأـنـهـ «ـوـلـوـ أـنـهـ حـدـثـ فـيـمـاـ بـعـدـ» صـاحـبةـ تـجـارـةـ وـسـيـعـةـ تـسـتـدـعـ إـجـادـةـ الـقـرـاءـةـ وـالـكـتـابـ وـمـنـ ثـمـ يـصـيرـ أـمـرـ استـعـارـتـهـ لـلـصـفـحـ الـتـىـ تـرـجـمـهـاـ وـرـقـةـ مـنـ التـورـاـةـ وـالـإـنـجـيـلـ «ـوـنـحـنـ نـرـجـحـ أـنـ إـنـجـيـلـ الـعـبـرـانـيـنـ» قـرـيبـ الـاحـتمـالـ بـلـ إـنـهـ مـتـشـيـئـ .

بعد هذه الاستطراد نؤوب إلى السياق: خديجة بعد أن ترافق إلى أذنيها هذا الكم الوفير مما حدث لأم محمد من أتعاجيب أثناء حملها «سيد الخلق» عند وضعها إياه وربطت ذلك كله بما حدث لأبيه عبد الله قالـتـ معـ القـائـلـينـ وـعـلـىـ رـأـسـهـمـ الـجـدـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ وـالـأـمـ آـمـنـةـ بـنـتـ وـهـبـ إـنـ لـهـذـاـ الـمـولـودـ لـشـائـنـ وـأـيـشـ .

وظلت عاماً بعد عام وسنة وراء سنة تتلقى أخبار أتعاجيب محمد ومعجزاته الباهر حتى أيقنت أنه «هو» الموعود أو المنتظر أو المأمول الذي طال شوق الناس وحنينهم إليه، ولهذه الأتعاجيب والمعجزات والخوارق والمدهشات والمضادات للنواويس الطبيعية باب مستقل ندرسها فيه ببساط لا يعرف التجاوز وطلقة لا ينالها التقليد وحل «فتح الحاء» لا يقرره الإسار وفتح لا يجوز عليه المغلاق.

لماذا؟

لأن تلك الأمور المعجزات التي تتّبعت وتتوالّت مع أطوار محمد منذ الولادة

حتى الشباب حازت قصب السبق وكبشت^(٤) نصيب الأسد من انتباه الظاهرة إلى محمد وأنه فاذ لا مثيل له وفريد لا ضروب له ووحيد لا شبيه له وأنه دون غيره هو القادر والمنتظر والمأمول الذي بشرت به الكتب التي ترجمها ورقة إلى العربية وقرأتها عنده.

وإضافة إلى أمور أخرى منها:

أ. إنه جاء في «الكتب» أنه قرب ظهوره وأظل زمانه ودنا إبانه وحان وقته وظهرت بشائره وفتحت أكمامه ومن المستحيل ألا يتحقق فالعهد بهذه الكتب صدق نبوءاتها.

ب . خصائص محمد الرائعة ونعته السامية وصفاته المدهشة وأخلاقه الحميدة وشمائله الكاملة.. لأن الآتي أو القادر المنتظر يتعين وبطريق الحتم واللزوم أن يغدو على هذه الشاكلة وأن يجيء على هذه الآية وأن يصبح على هذه الصورة.

وكل الذين سبقوه هم كذلك، إذ من الحال أن يتصرف «المنتظر» بأنه مهتس العقل «مسلوبه» أو هجزع «جبان» أو ذو زعارة «شراسة» أو أفكاك أو أثيم أو كذوب أو خائن أو سيئ الخلق... إلخ.

• • •

ولذا نلحظ أن سيدة نساء قريش ركزت على هذا الجانب من «البشير النذير» فمثلاً عندما تقدمت إليه لخطبته لنفسها ثم لتنكحه «تزوج به» قالت له لقد رغبت فيك لأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ولما... إلخ، ولما مر بحادث الغار المدهش الذي ذكر في قصته وهو المصدق أنه التقى بملك الرب جبريل أول مرة أسرع إلى بيته وتلقفته بين ذراعيها وأسلمته حضنها الدفء وقال مذعوراً لقد خشيت على نفسي فكان ردّها حاسماً: والله لن يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرحم وتقرى الضييف وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتعين الكل... إلخ.

هذه هي صفات جميع «الآتين» قبله كما قرأتها في الصحف أو الإصلاحات التي نقلها القس ورقة من اللسان العبراني ودرسها لها وعلمتها إياها فاستوعبتها وخزنتها في ذاكرتها. إنما الذي يلفت البصر وال بصيرة مما أن سيدة نساء قريش وصلت صفات «حامل لواء الحمد» الممتازة بأحقيته كيما يتحول إلى «المنتظر» الذي طال شوق الناس إليه خاصة أولئك الذين نسميههم المثقفين «الأنثراجنسيا».

كذا وضعـت خصائصه العالية والعلـى في بـؤرة شعورـها بحسبـان أنها المقـاييس الذي لا يخـيب والمـيزان الذي لا يختـل.

جـ. إن مرجعـية دينـية ذات مقـام محمود ورتبـة عـالية ودرجـة رـفيعة لدى خـديجة

أشارت عليها بأن هذا الفتى هو «المأمول» وأنه حتم لازم أن تباعله لكي تبدأ معه تجربة التأهيل والإعداد والتصنيع والتحضير والصدق والتهيئة الضرورية كيما ينتقل من فتى قرشى هاشمى إلى القايد المنتظر قال خديجة لـ محمد قد أخبرنى به ناصح غلامى وبحيرى الراهب أن أتزوج منك أكثر من عشرين عاماً^(٥).

بعد أن تكاملت كل الخيوط فى يد أم هند رفعت شعار «هذا الشاب الذى هو لابد أن أباعله» ومن الازم اللازم أن انكحه بل وأسارع حتى لا تتشه منه^(٦). إحدى عذرارات أو أيام قريش وعلى رأسهن بنت عمها أبي طالب أو غير قريش من القبائل مثل ثقيف التى موطنها الطائف والقريبة من مكة أو جارية «فتاة غضة» من بنى النجار أخواله فى يثرب.

إن هاجس قيام شابة بكر أو ثيب «متلها» فى بكرة أو ما حولها بنشل الحبيب المصطفى^(٧) ونكاحة أرق خديجة وطير النوم من عينيها الاثنين ودفعها إلى ملاحتقته بهيئة تشتى بالإلحاح وتقطع بالإلحاف وتؤكد الإصرار وتدل على المثابرة. إن موسوعات السيرة المحمدية المعطار أجمعـت على أن الطاهرة سيدة كاملة وفيـرة العقل عميقـة الحـجا، رزان فـطـنة، لـبيـة حـكـيـمة لا تـسـيرـها العـاطـفة.. إلـخ.

ورغم ذلك فإن العجب يملؤك والدهش يستولى عليك والحيرة تأخذ أقطار نفسك وأنت تطالع أخبار المحاولات الدؤوب والعروض المتلاحقة كيما يواافق «الأمين» على المبادلة ويرضى بالنكاح ويسلم بالزواج منها.

* * *

فى موضع آخر قـندـنا الرأى الفطـير الذى ألمـحـ إليه فى جـبـنـ وـخـسـاسـةـ وـهـاءـ بعض كتبـةـ السـيـرةـ المـحـدـثـينـ منـ أـنـ سـرـ اـختـيـارـ خـديـجةـ لـ «ـالـصـادـقـ الـمـصـدـوقـ»ـ هو إعـجابـهاـ بشـبـابـهـ وـقـسـامـتـهـ وـقـوـةـ عـضـلـاتـهـ وـفـحـالـتـهـ وـفـتوـتـهـ وهـيـ الصـفـاتـ إـعـجابـهاـ بشـبـابـهـ وـقـسـامـتـهـ وـقـوـةـ عـضـلـاتـهـ وـفـحـالـتـهـ وـفـتوـتـهـ وهـيـ الصـفـاتـ التي تأخذ بدبـلـ الكـهـلـاتـ وـالـشـهـلـاتـ مـثـلـهاـ^(٨)ـ،ـ وـنـضـيـفـ إـلـىـ توـهـيـنـ هـذـاـ الرـأـىـ وـتـهـزـيـلـهـ وـإـضـعـافـهـ دـلـيـلـاـ آـخـرـ بـخـلـافـ ماـ سـبـقـ لـنـاـ أـنـ طـرـحـاهـ وـهـوـ:ـ أـنـ قـرـيشـ الـظـواـهـرـ وـالـأـبـاطـحـ عـجـتـ آـنـ ذـاكـ بـالـشـبـابـ الـذـينـ يـتـمـلـكـونـ تـلـكـ الصـفـاتـ وـيـتـمـتـعـونـ بـذـاتـ الـخـصـائـصـ وـمـنـهـمـ مـنـ اـنـتـمـ إـلـىـ بـطـونـ الذـرـوـةـ مـثـلـ:ـ بـنـىـ عـبـدـ الدـارـ وـبـنـىـ مـخـزـونـ وـبـنـىـ أـسـدـ «ـرـهـطـهاـ»ـ وـبـنـىـ أـمـيـةـ وـبـنـىـ زـهـرـةـ وـمـنـ هـؤـلـاءـ مـنـ لـاـ يـقـلـ عـنـ بـنـىـ هـاشـمـ مـكـانـةـ فـىـ ذـيـاـكـ الزـمـانـ لـأـنـ هـؤـلـاءـ لـمـ يـتـسـنـمـواـ الـقـمـةـ إـلـاـ بـعـدـ ظـهـورـ أـمـرـ مـحـمـدـ وـصـيـرـورـتـهـ «ـسـيـدـ وـلـدـ آـدـمـ»ـ فـلـمـاـذـاـ لـمـ تـخـتـرـ مـنـ أـوـلـئـكـ وـاحـدـاـ إـذـاـ كـانـ الـقـصـدـ هـوـ التـمـتـعـ بـالـفـحـولـةـ وـالـفـتـوـةـ وـقـوـةـ الـعـضـلـاتـ وـطـلـاقـةـ الـمـحـياـ معـ الـوـضـعـ فـىـ الـحـسـبـانـ أـنـ بـيـنـ هـؤـلـاءـ مـنـ هـوـ أـغـنـىـ مـنـ «ـالـأـمـيـنـ الـمـأـمـونـ»ـ «ـرـاعـيـ الـغـنـمـ»ـ .ـ الـفـقـيرـ .ـ الـيـتـيمـ».ـ إـنـاـ نـصـكـهـمـ بـهـذـهـ الـحـجـةـ وـنـصـدـمـهـمـ بـهـذـاـ الـبـرـهـانـ وـنـفـاجـئـهـمـ بـهـذـهـ الـقـرـيـنـةـ فـلـاـ يـمـلـكـونـ إـجـابـةـ وـيـسـقـطـ فـىـ أـيـدـيـهـمـ.

إذن انتقاء السيدة الطاهرة لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب لم يتم بدافع جسدي أو عاطفى بل نتيجة تمحيص وتدقيق وفحص ثم اقتناع بأنه الآتى الذى فاض كيل الصبر فى انتظاره والتشوف إليه.

وبعد قراءة مستأنية فى أمهات مؤلفات السيرة المحمدية الذكية الريح مثل الند تبين لنا أن سيدة قريش جفّ ريقها وحفيت قدماها وداخت السبع دوخات كما يقول التعبير الدارج حتى وافق «إمام الأولين والآخرين» على خطبتها فنكاها. لقد ساقت إليه العديد من الأشخاص منهم ذكور وإناث أحرار وعبدان وموالى وأقارب وأبعد ومنهم من كلمه وألح عليه مرات عديدة مثل نفيسة بنت منية صاحبة أبرز الأسماء فى المراسيل «جمع مراسل» الذين بعثتهم إليه.

ولما أوشكت حبال صبرها أن تقطع لم تجد مناصًا من توجيه مندوبة تمنهن عمالة «بضم العين» دينية لها فى قريش مكانة مرموقة وهى المستشئة^(٩). ولا يقال دفعًا لذلك إن أم هند كما ذكرنا حازت ثقافة دينية كتابية وعلى تماส بمن لديهم علم من الكتاب كالقس وعداس وبحيرا «سوف يأتي ذلك تفصيلاً فى موضعه» وقرأت الصحف التى عربها ابن عمها ورقة بعد أن نسخها من التوراة والإنجيل وقام هو بتعليمها إياها.

فكيف إذن يصح فى العقول أن تستعينن بمستشئة أى كاهنة «قريش»؟
والجواب على ذلك:

إن الشخص عندما يقع فى ورطة أو يتعرض لأزمة أو يجد نفسه فى زناق^(١٠) أو يمسى فى مخنقة يعجز عن العثور على فكاك لها يوم من يتوهם - ولو مجرد توهם . أنهم يساعدونه على الحل ونحن الآن فى أوائل القرن الحادى والعشرين نرى أعداداً جمة غفيرة ممن يحملون شهادات عليا عندما ينتابهم قلق أو يلم بهم غم أو تدهمهم أزمة يفرزون إلى أضরحة أولياء الله الصالحين عليهم يجدون عندها الدواء الناجع مع أنهم يسمعون من أهل السنة والجماعة أنه نوع من الشرك الخفى. هذه واحدة.

• • •

أما الأخرى فهى أنه فى العادة أن من يمارسون الكهانة والعرفة والعيافة لديهم من اللباقة واللسان والفصاحة.. ما ليس لغيرهم ومن ثم فهم أصحاب قدرة على التفهم والإقناع والتبييض وبالتالي فإن الكاهنة أو المستشئة التى زقتها^(١١) خديجة على محمد . فى نظرها أقدر من غيرها على استخلاص موافقتها على المباغلة.

أما الثالثة والأخيرة فهى أنه:

كما أن الكاهنة أو المستشئة تتمتع فى قبيلتها بقدر من المكانة الاجتماعية وتحظى بتجلة واحترام، ولقد قرأنا فى السيرة المحمدية التى هي كالورد المفتح

الذى ينشر شذاته فى كل اتجاه أن جده عبدالمطلب رأى رؤيا أفزعته فذهب إلى كاهنة «مستشئه» قريش ولم يقبل يدها . كما يفعل سائراهم - ثم قص عليها الرؤيا فأولتها بظهور حميد له يملك العرب والعم و الشرق و الغرب .

والذى يهمنا أن تقبيل يد الكاهنة أو المستشئه فرض واجب على القبيل «أفراد القبيلة» و معنى ذلك أنها تتمتع بمكانة اجتماعية مرتفعة^(١٢) . وبالتالي فإنها أى الكاهنة «المستشئه» إذا قصدت أحدهم فى طلب فإنه من باب الحياء «ليس ضرورياً من باب الاعتقاد فيها أهـ» يجيبها إليه ويوافقها عليه . إذن طلب أم هند المعونـة من مستشئـة قريـش لـإقنـاع «المعصـوم» بنـكاحـها إـيـاه لا مـاسـسـ له بـعـقـيدـتها وـلـيـسـ شـرـطاًـ أـنـهاـ غـدتـ منـ شـيعـتهاـ .

وأخيراً فإن هذا التحرك من جانب سيدة قريش . التى لا ترد لها الكاهنة المستشئه رغبة ولا تخيب لها رجاء . يدل وحده على أن خديجة أعيتها الحيل ، وضربتها الحيرة وعمتها اللخمة^(١٣) . وشملها التردد والعجز وأسقطت فى يدها فلم تجد مناصاً من أن تؤم الكاهنة لتحصل منها بما تتمتع به من موقع متميز فى القبيلة على فرج لهذه المعضلة التى نفقت عليها عيشتها وأوقعتها فى ربك شديد وليس من الضروري أنها آمنت بالأساطير التى تمتها تلك الكاهنة أو المستشئه كل هذا من جانب .

• • •

أما من الجانب الآخر:

فإن الأخبار التى حملتها مؤلفات سيرة محمد ذات الرائحة التى ترد الروح كما تقول العامة تقطع بأن أم هند فى وقت من الأوقات دارت أو لفت حول نفسها وبلغت ذرى اليأس، إذ قرأنا أن المراسيل الذين خاطبوا سيد الأولين والآخرين فى هذا الشأن لم يتركوا نوعاً من أنواع الإغراء إلا أوصلوه إلى سمعه الشريف فأفهموه أنها سيدة حازمة شريفة جميلة نبيلة من أعظم قريش حسباً ونسباً وأكثرهم مالاً وتقديم لزواجهها كثير من الأغنياء فرفضت أن تتزوج أحداً منهم .

وقالوا له بسان واحد : يا محمد لقد دعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة وكفيت «أى لا مؤنة عليك بأى نوع» ردًا على جوابه كيما ييرر رفضه إياها «ليس بيدي ما أتزوج به» فيتعهد له المرسال «أو الرسول» أنه سوف يذلل له كل العقبات ويسهل جميع الصعوبات ويعرف من طريقه كافة الموانع ويحل سائر المشكلات، فما إن يهز رأسه الكريمة بالموافقة حتى يجد كل شيء معداً وكل شأن جاهزاً وكل أمر حاضراً من وليمة العرس حتى الجوارى «الإماء» الرواقص اللائى يحبين الفرح وهو إغراء عريض وإغواء شديد وترغيب عميق لشاب مثل «أبى القاسم» فى تلك الأيام مليط من المال عرى من النشب خالى الوفاچـ.

إن هذا الحشد القوى والتجييش المضاعف والتعبئة المخططة من قبل سيدة النساء إزاء «البشير النذير» وهذا الحصار المحكم له حتى رفع الراية البيضاء وسلم لها بطلبها ورضى أخيراً نكاحها إياه رغم الاعتراضات التي انتصبت في نفسه وشخصت في وجوداته والتي لها في هذا الكتاب محل رحب سيغدو مصلياً ويجيء تاليًا نقول إن لذلك كله علة مفردة لا توأم لها وهي أنه «القادم» الذي طال انتظاره و«المأمول» الذي مر حين من الدهر من التسوق إليه و«الغائب» الذي تقطعت الرقاب لإياه والـ «هو» الذي بشرت به التوراة والإنجيل.

* * *

وعسى أنه قد حان الأوان لالقاء نظرة عجل على الوسائل التي استعملتها سيدة قريش» والطرق التي سلكتها والفجاج التي اقتحمتها لإصابة هدفها والوصول إلى بغيتها وتحقيق طلبها:

رغم مكانتها السامية وحسبها الشريف ونسبها الرفيع وغنائها الوسيع وثرتها المدودة وكهولتها وحزمها ورجاحة عقلها فقد ضربت بتقاليد القبيلة وكافة القبائل عرض الحائط، تلك التقاليد الرواسخ كالجبال وتقدمت إلى سيد أهل الله» بنفسها تقول له «إنتي رغبت فيك» ولم تعبأ بفارق السن الذي يقارب أو يجاوز الأربع قرون وعرضت نفسها عليه ولم يحدث أن سيدة قبلها جرئت على ذلك.

* * *

إن الكتاب المحدثين للسيرة المحمدية التي هي أللذ من عسل الموصل سطروا في كتبهم العجيبة أن أول اتصال بين «أم هند» و«خيرة قرابين الله» تم في سفرته إلى الشام مع عبدها المخلص ميسرة والتي حقق لها فيها ربحاً وفيراً في متاجرته بماليها وما حكاه ذلك العبد عن خصاله المدهشة وأموره المحيرة مثل إظلال الملكين له وما قاله الرهبان عنه.

وهذا غير صحيح ونحن نتحرى الدقة المطلوبة في كل بحث موضوعي علمي فنقول: إن هذا بعض الحقيقة وليس كلها . لقد بدأ التماس بينهما قبلها:

«عن ابن شهاب الزهرى وقد قال ذلك غيره من أهل البلد: إن خديجة إنما كانت استأجرت رسول الله ﷺ ورجلًا من قريش إلى سوق حباشة بتهمة»^(١).

ولقد ورد هذا الخبر في (الروض الأنف) برواية الزهرى أيضاً: «روى أن رسول الله ﷺ قال شريكه الذى كان يتجر فى مال خديجة معه: هل فلنتحدث عند خديجة وكانت تكرمهما وتحفهما»^(٢).

وقد جاء به أن الزهرى أورده فى سيرته التي هي أول سيرة ألفت فى الإسلام . ومما يؤسف له أنها مفقودة.

ويضع المقرىزى تحت باصرتنا تفصيلات لم ترد لدى غيره من المؤرخين

القدامى ممن أتيح لنا الاطلاع على مؤلفاتهم فيقول: «وكان حكيم بن حزام =ابن أخي خديجة» قد رأى رسول الله ﷺ بسوق حباشة واشترى منه بزا من بز تهامة، فذلك حين أرسلت خديجة إلى رسول الله ﷺ تدعوه أن يخرج في تجارة إلى سوق حباشة^(١٦). وهذا الخبر ينفحنا بمعلومة مهمة وهي أن أم هند هي التي أرسلت إلى «سيد ولد عدنان» كيما يخرج في تجارتها إلى حباشة وهو سوق من أسواق العرب - قبل الإسلام - في تهامة. ثم يضيف المقرizi «ثم أجر نفسه من خديجة سفرتين بقلوصين». أى سفر محمد لحساب سيدة النساء قد تكرر مرتين أو ثلاثة لسوق جياشة ويمضي المقرizi قائلاً: «وخرج ثانية إلى الشام في تجارة ومعه غلامها ميسرة»^(١٧).

وهذا يؤكد ما نقول به إن اتصال سيدة قريش بـ«البشير النذير» لم يبدأ بمرحلة الشام بل قبل ذلك في سفره الذي تكرر إلى سوق حباشة. ومن أميز كتب الأحاديث «المستدرك» قد حمل لنا هذا الحديث أو الخبر: «عن جابر بن عبد الله قال: استأجرت خديجة رسول الله سفرتين كل سفرة بقلوص»^(١٨).

ومن الوهم أن ينصرف هذا الحديث إلى سفرة «المنصور بالرعب قرابة شهر» مع ميسرة إلى الشام والتي سوف يأتي الحديث عنها فإنها كانت سفرة واحدة كما أن الأجر أو الجعل الذي اتفقت بشأنه مع «العصوم» أو مع عمه أبي طالب ضعف هذا الأجر ثم ضاعت ما سنته له.

والزهري الذي عن طريقه روى الحديثان ليس مجرد تابع بل هو من كبار التابعين وسادتهم ومن أوثقهم وأعرقهم في الرواية وله مقام محمود في مجال السنة أو الأحاديث، فعندما يروى لنا أن أم هند استأجرت «الأمين» مرتين إلى سوق حباشة «وكان ذلك قبل سفره في تجارتها إلى الشام» فإن هذا الخبر يصير صحيحاً لا مطعن عليه «وهو أى الزهري قرشي من تابعى المدينة رأى عشرة من أصحاب النبي ﷺ وكان من أحافظ أهل زمانه وأحسنهم سياقاً متون الأخبار وكان فقيهاً فاضلاً روى عنه الناس»^(١٩)، ونخلص عن ذلك إلى أن سفر «خيار بن عبد مناف» إلى حباشة في تجارة لخديجة خبر أكيد وبالتالي فإن اتصالهما لم يبدأ بسفرة أو رحلة الشام مع العبد ميسرة.

● ● ●

يبد أن سيدة النساء لم تضع وقتاً، إذ بعد عودته من الشام بشهررين وعشرين يوماً وقيل بعد شهر وعشرين يوماً ظفرت به بعلاً بعد أن أمرطه بوايل من المراسيل والمعوثين والمندوبيين من كافة الأشكال والأصناف حتى سلم لها فنكته.

وهناك خبر آخر يمدح فيه «أبو القاسم» السيدة خديجة ويصفها بأنها أخير

أو أحسن «صاحبہ عمل» إذ كل ما يعود هو وصاحبہ من سوق حباشة يجدها قد خبأت لهما «تحفة من طعام» وتجلس تتحدث معهما :

«فقال رسول الله ﷺ وهو يحدث عنها والله ما إن رأيت صاحبة لأخیر من خدیجة ما كنا نرجع أنا وصاحبی إلا وجدنا عندها تحفة من الطعام تخبئه لنا»^(٢٠). وقبل أن نغادر هذه النقطة يجعل بنا أن نذكر أن الزهري قال: «كانت سن رسول الله ﷺ يوم تزوج خدیجة إحدى وعشرين سنة»^(٢١).

وقد سبق أن أثبّتنا أن المحب الطبری فی «السمط الشمین» ذکرہ، أيضًا أورد أصلان عبدالسلام ما يؤیده «وقبل الواحد والعشرين أو نحو ذلك أی فی شرح الصبا»^(٢٢).

وقال الصالحی فی سیرته «وقيل إحدى وعشرون سنة وقدمه فی الإشارة»^(٢٣). كما أورد ابن الأثیر الجزری: «أن هناك من يقول إن خدیجة عندما نكحت **الصادق المصنوق** كان عمره إحدى وعشرين سنة»^(٢٤). ومعنی ذلك أن اتصال سید الناس ودیان العرب بسدة النساء تم والأول فی الثامنة عشرة من عمره المبارك أی أنه تجاوز الصبا بقليل وأن عملية تشکیله وتطویعه لدخول التجربة بدأت مبكرًا.

والسفر إلى سوق حباشة يعكس السفر إلى الشام ففضلا عن المفاوز التي يتعمّن قطعها فإنها «= حباشة» تقع كما سلف فی تھاما المشهورة بشدة صواعقها حتی قيل «لا صواعق كصواعق تھاما»^(٢٥). وترتیبًا على ذلك فلا يقدم على المخاطرة بالقيام بها إلا العمال التجاریون ذوو العوز والحواجء واحتلال الحال.

إذن القصد الذى تغیتھ الطاهرة من وراء تکلیف **«المصطفی»** بإنجاز هذه السفرات الخطرة الشاقة يتمثل فی أمرین :

أ. اختبار معدنه وهل هو ناهض العزیمة قوى الشکیمة يتمتع بروح معنوية مرتفعة وإرادة ماضیة ومن ثم یعتبر أهلاً لکی یغدو موضوعاً للتجربة على الوجه الأکمل.

بـ. التعرف على قریب قریب على مدى مطاویته وملاينته ومسالیته وهل لديه ولو ذرة واحدة من المعارضة والمناؤة والمشاكسة.. إلخ.

وما یهمنا فی هذه الأخبار هو أن سيدة نساء قریش طفت بعدها تعامل **«البشير النذیر»** معاملة فيها احتفاء مقرنون بالحنیة والتقریب لکی تزاد تفسیساً فيه وتحدیقاً فی أحواله وتبصرًا بشؤونه فمن ناحیة للتأكد أنه موضوع التجربة الخطیرة المقدمة علیها وأیضاً لاختبار صلاحیته للنکاح والمباعدة لأن الأمرین مفترنان متشابکان.

أما رحلة الشام التي تحتل حیزاً فی فصل **«المعجزات»** ولها نصیب وافر فی

إثبات أن «الأمين» هو «القادم المنتظر» من وجهة نظر سيدة قريش.
فما إن وصلت القافلة إلى مكة وحاسبت محمدًا على ما حققه من ربح
جزيل وضاعفت له الجُعل الذي سمح له بأى حدوده له وهو في الأصل ضعف
أجر العامل العادى أى أنها نفتحت «سيد ولد آدم» أربعة أضعاف ما درجت على
إعطائه لأى آخر نقول إنها ما إن أنجزت ذلك.. حتى طفت تصوب لأبن
القاسم السهم تلو السهم وما إن يطيش أحدها حتى تبادر إلى توجيه آخر بعزم
لا ينفي عنإصابة الهدف حتى تم لها ما أرادت.

• • •

نحن نبدأ هنا بالمحاولات التي شرعت فيها بنفسها لأنها الأولى والسابقة
لكن لأنها الأهم وذات الوزن الثقيل والمغزى العميق والدلالة الصريحة والمفهوم
الواضح. إنما قبل طرح هذه المبادآت ندرج على الأفعال التي حايتها أو حدثت
قبلها والتي في نظرنا لا تفصل عنها وتشكل معها كلاً لا يتجرأ ومجموعاً لا
ينفصّم.

بدأت قافلة قريش تتجهز لرحلة الشام «وكان خديجة
مال كثير حتى إن عيرها الذي يحمل بضائعها كان يعادل عير قريش كلها في
حجمه ونفاسته ما اجتمع عليه من بضائع التجار»^(٢٦) ومن كتب التراث التي
تؤكد أن حصة خديجة في قافلة قريش توازي أو تجاوز النصف: كتاب «عيون
الأثر» لابن سيد الناس.

«وكانت خديجة امرأة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام
وتكون عيرها كعامة عير قريش»^(٢٧).

وكذلك السيرة الشامية:

«وكانت خديجة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فيكون
عيرها كعامة عير قريش»^(٢٨).

ووصل إلى علم أبي طالب عم «الحبيب المصطفى» خبر القافلة المسافرة إلى
الشام وأن شطرها بالتمام والكمال تملّكه سيدة قريش التي تستأجر رجالاً
«عمالاً تجاريين» يتجررون في مالها ولهم جعل معلوم فخاطب العم ابن أخيه
قائلاً إنه أملط^(٢٩) من المال وقد أضررت بهم السنون العجاف واقتصر عليه أن
يذهب إلى الطاهرة يعرض عليها أن تستخدمه كسائر العمال بيد أن «الصادق
المصدوق» معترض بكرامته يشعر بأنه ليس كالآخرين وأن أنفته تائب عليه ذاك
وعزة نفسه ترفضه وحميته تتفر منه فلم يجد العم البائس الفقير بدا من أن
يمشي بنفسه إلى أم هند «أبو طالب كل خديجة حتى وكلت إلى رسول الله ﷺ
بتجارتها»^(٣٠).

ونذكر هنا أن أبو طالب رغم حوجته فهو سيد قريش بعد أبيه عبدالمطلب

وقيل إنه من القلة القليلة أو النادرة التي تسيدت على قبيلتها رغم عوزها وفاقتها .

• • •

استقبلته خديجة بترحاب يليق بمكانته ولأنه عم «القادم المنتظر» ولم يضع وقتاً ودخل في الموضوع مباشرة فقال لها: «هل لك يا خديجة أن تستأجرني محمد؟» فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً بيكرين ولستنا نرضي لمحمد دون أربعة أبكار، وكان رد خديجة: لو سألت ذلك لبعيد بغرض فعلنا فكيف وقد سأله حبيب قريب^(٢١).

إن من العيب^(٢٢) والبله والغفلة أن نظن أن جواب سيدة النساء على أبي طالب عفو الخاطر أو زلة لسان أو رمية من غير رام. إن هذه العبارة كشفت عن مكنون شعورها وخبيء إحساسها ودفين وجданها نحو الفتى المأمول والقادم والمنتظر إذ أنها وصفته بالحبيب. القريب.

الوصف الأول ينصرف إليه كيبل المستقبل الذي عقدت العزم على نكاحه أما النعut الأخير فهو توصيف لموضع التجربة فهي في قرارها نفسها عزمت إلا تلفي منه سوى المقاربة والألفة والمطاوعة.

وقد استجابت لما طلبه العم الشيخ بأن تتفتح «الأمين» ضعف ما تعطى لغيره من الوكلاء أو العمال التجاريين أو المضارعين وقد وفت بما وعدت، بل إن سيرة محمد التي فحاوتها طيب وعنيبر تخبرنا دواوينها أنها «الطاهرة» منحته ضعف ما سنته له أى أنها أعطته أربعة أضعاف ما تعودت على إعطائه لغيره أى أنها إذا درجت على تسليم الأجير العادي بيكرًا أو قلوصًا فإنها نفتحت «سيد الناس» أربعة ولم يتهيأ له ذلك لأنه حقق لها رباعًا وفيراً فحسب كما ذهب إليه كتاب السيرة الشريفة القدماء ثم تابعهم عليه المحدثون بل إنها أقدمت على مضاعفة الأجر إلى أربعة أمثال كنوع من التحية أو الترغيب أو المراضاة ليقابلها = «المضاعفة» بالتوافق مع ما رسمته وطفقت تلح عليه حتى حقيقته بعد أقل من ثلاثة أشهر وهو نكاحها إيه الذي هو بدوره فرشة للتجربة الكبرى التي صممته على إنفاذها.

• • •

وهناك ملحوظ فائق الأهمية شديد الدقة بالغ المدى من الحساسية غاب عن الجميع وبهذه المناسبة فإن هذا الكتاب من أهم أغراضه الكشف عما فات القدامي والمحدثين في السيرة المعطار خاصة في علاقة سيدة قريش بـ«المصطفى» وهي مقدمها ذاك الذي حير الجميع فك طلاسمه وحل رموزه وتوضيح شفترته.

ثم نعود إلى السياق:

ذلك الملحوظ هو أن مبالغة الطاهرة في الترحيب بشيخ قريش والموافقة الفورية على شرطه مع أنها «خدية» تاجرة ماهرة تحسب لكل شيء حسابه من أهم دواعيه وأبرز عللها وأوضح دوافعه: أن أبا طالب هو أبو أم هانى التي شكلت في ذيak الإبان منافسًا خطيرًا لسيدة قريش لأن محمدًا كان يأمل في زواجه إذ إنهم تربوا في بيت واحد ولابد أن نشأت بينهما عاطفة طاهرة شريفة مصيرها المباغلة، إذ إن العرف استقر آنذاك ومازال حتى الآن في شبه الجزيرة العربية المباركة بل في صعيد مصر الذي دهست أراضيه قبائل كثيرة مع الغزو العربي الاستيطاني بقيادة عمرو بن العاص ذلك الذي فعل الأفاعيل هو وجنته في مصر المحروسة عكس ما يزعمه حملة المبادر من المؤرخين المحدثين، جرى العرف على زواج ابن العم بابنة عمه فعلى سبيل المثال السريع: العدوى عمر بن الخطاب مع ابنة عممة زيد بن عمرو بن نفیل، وأوشك أن «يعملها» ورقة بن نوفل مع ابنة عمه خديجة بنت أسد. إن ترحيب الطاهرة بالعلم وزوالها على شرطه بلاشك أنه يسل سخيمته عندما تستلب «الأمين» من كريمته ذاك الذي طالما سمع من أبيه عبدالمطلب أن مستقبلاً باهراً في انتظاره لا يعلم به أى عربي. هذا من ناحية.

ومن الجانب الموازي فإن سيدة نساء قريش حينما تضاعف الجعل أربعة أضعاف لمحمد فإنها بذلك تبلسم^(٣٢) ما قد يعتور قلب محمد من ندوب وما قد يصيب شغاف فؤاده من جراحات عندما تطير منه أم هانى لما تفلح سيدة قريش في نكاحه، وسوف نرى ونحن نهرون في صفحات هذا الكتاب أن عملية المداواة أو البسمة هذه استمرت وتواصلت وكافت خديجة ما لا يعلمه إلا الله وحده من الثمن الجزييل والمالي الوفير والتقديرات النفيسة.

إنما كيف فعلت ذلك وهي التجارة الناجحة والتاجر الموفق لا يصنع ذلك بل إنه كما يقول التعبير الشائع «يحسب الهواء الطائر» إن العثور على الجواب السديد لا تعوزه الفطانة ولا يحتاج إلى الذكاء ولا يفتقر إلى الالمعية. إن الطاهرة لم تقدم عليه من موقع التجارة الشاطئية «كلمة فصيحة» بل من موقف «منفذة» تجربة فائقة الخطورة ومن ثم فهي لا تلتقت إلى حساب المكسب والخسران.

* * *

إنها بما تتمتع به من أفق رحيب ونظر بعيد وبصيرة نفاذة تعلم أن «موضوع التجربة» ينبغي عليه أن يولي ظهره للماضي وينساه بالكلية حتى يتفرغ تماماً للتجربة التي يعنيها ويكتابدها كيما يقيض لها الفوز، ومن أهم ما يعاوضد على التفرغ هو الإغرار في البهنية والإغراق بلا حساب والغمز في النعيم وهذا ما صورة «الصادق المتصوق» الذي لا ينطق عن الهوى حينما قال: «الحمد لله الذي

أطعمنى الخمير وألبسى الحرير وزوجنى خديجة و كنت لها عاشقاً^(٣٤). فهنا نجده قرن بين لبس الحرير وأكل الخمير وعشق خديجة، ومن المنطقى بل البديهى أن هذا العشق - عشقه لخديجة - قد جبّ ما قبله ومحا ساقه وأزال ما تقدمه وأزاح سلفه.

ولكن من هى أم هانئ تلك التى خايلت الطاهرة منذ قليل؟ «اختلاف فى اسمها قيل هند وقيل فاطمة وقيل فاختة وهى أخت على وأمها فاطمة بنت أسد التى أولاهما محمد معزّة فائقة واعتبرها بمثابة أمه، أسلمت أم هانئ يوم فتح مكة وهرب زوجها هبيرة وهى التى نقلت عن محمد صلاة الصبح»^(٣٥).

وقد تكررت محاولات «المعصوم» للزواج من فاختة أو أم هانئ: وكان النبي ﷺ قد خطبها إلى أبيها أبي طالب فى الجاهلية ولكن أبو طالب كان قد وافق على خطبتها إلى هبيرة فقال لابن أخيه: يا ابن أخي إننا قد صاهرنا إليهم والكريم يكافئ الكريم.

وحين انفصمت علاقتها بزوجها «بعد أن هرب ومات كافراً أـه». بعد إسلامها خطبها النبي ﷺ إلى نفسها «بداهة حدث ذلك بعد وفاة خديجة أـه». فقالت: والله ما كنت لأرفض طلباً لرسول الله ولكنني امرأة كثيرة الأولاد . وقيل إنها قالت: يا رسول الله . لأنت إلى من سمعى وبصرى وحق الزوج عظيم فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأنى وولدى وإن أقبلت على ولدى أن أضيع حق الزوج»^(٣٦).

وعبارة أم هانئ التى وجهتها لـ«ديان العرب» لأنـت أحب إلى من سمعى وبصرى، شديدة الوضوح حتى إنـها غنية عن التعليق.

ولم تتوقف محاولات محمد نكايتها إذ بعد أن كبر أولادها وسقط عذرها ولم يعد لديها ما تحتاج به تلا على تبعه الآية الخمسين من (سورة الأحزاب) التي قصرت زواج «الحبيب المصطفى» على بنات عمـه الـلـائـى هـاجـرـنـ معـهـ وـهـىـ لم تـقـعـ فأـصـبـحـتـ لاـ تـجـوزـ لـهـ^(٣٧).

وهـناـ كـفـ مـحمدـ عـنـ طـلـبـهاـ لأنـهاـ غـدـتـ مـحرـمـةـ عـلـيـهـ بـنـصـ الـقـرـآنـ الـعـظـيمـ. وـيـبـدوـ أـنـ أمـ هـانـئـ تـمـتـعـتـ بـقـدرـ وـفـيـرـ مـنـ الـمـلاـحةـ وـالـحـسـنـ وـنـظـرـاـ لـحـدـاثـةـ عـهـدـهـاـ بـالـإـسـلـامـ فـلـمـ تـرـبـأـ مـنـ إـظـهـارـ جـمـالـهـاـ وـوـسـامـتـهـاـ وـفـيـ ذاتـ مـرـةـ أـبـصـرـهـاـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ عـلـىـ هـيـأـةـ اـعـتـقـدـ سـاعـتـهـاـ أـنـ فـيـهـاـ مـخـالـفـةـ فـلـفـتـ نـظـرـهـاـ وـأـفـهـمـهـاـ أـنـ شـفـاعـةـ مـحـمـدـ لـنـ تـجـيـهـاـ مـنـ الـمـسـأـلـةـ فـشـكـتـ الـعـدـوـىـ إـلـيـهـ فـغـضـبـ «ـمـصـطـفـىـ»ـ وـصـعـدـ الـمـنـبـرـ وـقـالـ فـىـ خـطـبـتـهـ:ـ إـنـ شـفـاعـتـهـ سـوـفـ تـنـالـ «ـحـاـ وـحـكـمـ»ـ فـكـيـفـ لـاـ تـنـالـ رـهـطـهـ الـأـدـيـنـ أـيـ بـنـ هـاشـمـ. وـ«ـحـاـ وـحـكـمـ»ـ قـبـيلـتـانـ مـنـ الـقـبـائـلـ السـكـ

ثم نعود إلى السياق:

إن الروايات التي قصّت علينا ذهاب العم أبي طالب إلى سيدة قريش قليلة إنما غالبية مؤلفات السيرة المحمدية الطيبة سواء التراثية أو الحديثة نصت على أنها «خدِيجة» هي التي أرسلت إلى «الصادق الأُمين» ورجته أن يخرج بمالها «تجارتها» إلى الشام ووعدته بأن تعطيه أكثر مما تعطى غيره:

«فَلَمَّا بَلَغُهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ مَا بَلَغُهَا مِنْ صَدْقِ حَدِيثِهِ وَعَظِيمِ أَمَانَتِهِ وَكَرَمِهِ أَخْلَاقُهُ بَعْثَتْ إِلَيْهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَجَرْ لَهَا فِي مَالِهَا وَيَخْرُجْ إِلَى الشَّامِ وَتَعْطِيهِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ التَّجَارِ ثُمَّ أَضَعَفَتْ لَهُ مَا سَمِّيَ»^(٣٩).

إن هذا العدد الوافر من المصادر الذي ضم الذرا الشوامخ والقمم العوالى من دواوين السيرة المحمدية العظيمة مثل سيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام والسيرة الشامية وتاريخ الطبرى وإمتاع الأسماع وأنساب الأشراف... إلخ.

ومن المراجع التي صنفها أصحاب أسماء لواهم مثل: طه حسين والحضرى وبنت الشاطئ وعبدالوهاب حمودة «وتَرَجَمَ أَحَدُهَا الشَّيخُ عبدُ الْحَلِيمُ مُحَمَّدُ شَيْخُ الْأَزْهَرِ»... إلخ، جمِيعُهَا أَطْبَقَتْ عَلَى أَنَّ الطَّاهِرَةَ سَعَتْ إِلَى «الأُمَّى» وتوسلتُ إِلَيْهِ لِكَى يَتَوَلَّ أَمْرَ تَجَارَتِهَا. ضَمَّنَ قَافْلَةَ قَرِيشَ الْمُتَوَجَّهَةَ إِلَى الشَّامِ وَتَعْطِيهِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ، وَفِي رَوَايَةِ ضَعْفٍ مَا تَمْنَعَ غَيْرَهُ وَإِثرَ عُودَتِهِ سَالِمًا رَابِحًا أَضَعَفَتْ مَا وَعَدَتْهُ.

وما قلناه عن علة تلك المبادرات من قبل أم هند في الفقرة الخاصة بسفارة العم أبي طالب إليها ينطبق هنا وربما أكثر لأنها هي بنفسها التي يمتد شطر «سيد الناس» ورجته في الحاف أو الحفت في رباء لكن يقبل أن يرحل بغيرها في القافلة إلى الشام متجرًا في مالها وأغرته بمضاعفة الجعل، وحين أوبته وقد سلم وغمض عيده ضعف الضعف أى أربعة أمثال الأجر المتعارف عليه في سوق العمالة التجارية.

ولعله من التوافق أن نسطر أن هذا كله تمهد لإتمام عقد النكاح بينها وبين «الأُمَّى» الذي هو بدوره المدخل لفمسه في «التجربة الكبرى».

يبدأ أنه لماذا هو على وجه التعيين والتحديد فمكة تطفح بالعمال التجاريين الذين يرضون شاكرين ممتنين بالأجر أو الجعل العادى ولا شك أن فيهما أمناء خاصة وأن أم هند كانت تشرط أن يسافر معهم عبدها الأمين ميسرة بمثابة عين لها حتى يغدو الأجير منهم تحت الرقابة الصارمة. نسطر هذا ردًا على من يقول إن دافعها لاستئجار «سيد ولد آدم» هو أمانته. هذا من جانب.

ومن جانب آخر هناك فتية وشبان قريشيون لا يأنفون من وكالة خديجة لهم لأن فروع أو بطون قريش ليست جميعها موسرة بل فيها بطون بين بين، نذكر منها تيم رهط ابن أبي قحافة وعدي عشيرة العدوى عمر بن الخطاب بالإضافة

إلى ناشئة قريش البطاح مثل عبيدة بن أبي الجراح، كل هؤلاء وأولئك يسعدهم أن تستخدموهم الطاهرة في تجارتها وتسلمون لهم عروضها ليتجرروا لها فيها مع الوضع في الاعتبار أن تحمل التوكيل عن خديجة في البيع والشراء هو في النهاية عمل تجاري وقريش كما أخبرنا المؤرخون قوم تجار ومن ليس تاجرًا فيهم فهو لا شيء.

فضلاً عن أن الناشئ أو الشاب أو الفتى يعثر في هذه الوكالة على ضالته، إذ أنه يحصل على خبرة أو دربة هو في أمس الحاجة إليها إذ إنها تقيده عندما يكبر ويستقل ويصبح هو نفسه رب عمل تجاري كما أنه «الناشئ أو الشاب أو الفتى» يجد متعة في الرحلة إلى الشام من نواح عديدة. يرى بلداناً ويقابل أشخاصاً ويزور معاالم لا تتاح له فرصة الاطلاع عليها لولا السفر الذي يقول مثلهم عنه إن فيه فوائد سبعة ثم عندما يؤوب يلقي لديه خزيناً وفيراً من الحكايا والأخبار والطرائف يقصها على لذاته وأتراه في مجالس السمر في ليالي مكة الطويلة.

إذ اختيار سيدة نسوان قريش لـ «الصادق المصدق» لم يأت اعتماداً كذلك ليس مرجعه أمانته وصدقه إذ لا يعقل أن تخلو قرية القدس من الشرفاء ذوى الأمانة عداء.

من هنا فإننا نؤكد أن اختيار «المنصور بالرعب» لا يؤوب لأمانته فقط. بدأه أن أمانته لا ينطح فيها عنزان. بل لأن المرشح الأوحد للنکاح وتوابعه شديدة الخطير بالغة الأهمية.

• • •

تعددت المراسيل التي بعثتها الطاهرة لـ «أبي القاسم» لكي يوافق على أن تتوجه ذلك أنها كما ذكرنا صممت عليه وبيت النية وعقدت العزم فلا يشيشها عن طلبتها شيء ولا تتنصب في سكتها عقبة ولا يحول دونها حائل، ولا تضارب بين سعيها الحديث وتقدمها بنفسها إليه وعرضها بسانها ذلك وبين أن تمطره بوابل من المبعوثين لأنها عملية حصار محكمة فهؤلاء الرسل منهم من يذهب إليه في موطنها وثان يقابلها في الطريق وثالث يفتعل المقابلة وكأنها مجرد صدفة رابع يفاجئه إبان زيارته لسيدة نساء قريش وأثناء حديثه معها فيفاتحه في الموضوع مباشرة مع التقدير أنه آنذاك في الواحدة والعشرين من عمره أو قريباً من ذلك.

«قالوا لما جاوزت سنو رسول الله ﷺ العشرين قال له أبو طالب: يا ابن أخي إن خديجة امرأة موسرة.. فسارعت ورغبت فيه ووجهته إلى الشام» (٤٠).

فإذا كانت سفرة الشام استغرقت ثلاثة أشهر وتم الزواج بعدها في أقل من شهرین فإن معناه أن «أول شافع وأول مشفع» بالكاد بلغ تلك السن.

ولدينا واحد من الكتبة المحدثين يعتقد هذه الفكرة: «ومع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجته ما يقرب من ثمان وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين»^(٤١). فإذا قلنا إن «حبيب الله» في عام الحزن وهو عام وفاة السيدة خديجة وصل إلى الحادية والخمسين ومكث معها ثمانين وعشرين سنة فإن دلالته أنه عندما نكحته لم يكمل الثالثة والعشرين إذن هو في مجلس خديجة عندما يفاتحه المتذوب أو المفوض أو المرسال أمامها مباشرة في أمر نكاحها إيه يتراوح عمره ما بين الحادية والعشرين والثالثة والعشرين وهي في السادسة والأربعين (أي بينهما ربع قرن من الزمان) وهذا ما نص عليه البلاذري^(٤٢).

بالإضافة إلى المصادر السوابق التي وثبتت ذلك وأنه أجير لديها فإن النتيجة المتوقعة أو المحتملة أن يوافق من باب الحياة كما في الخبر الذي أورده السهيلي وسنطره فيما بعد.

إذاء ذلك يجد «المعصوم» نفسه في دائرة محكمة أفرادها متعددة منهم ذكور أحرار نسوان حرائر وعبدان وموالى وكاهنة فلابد أنه إذن يستسلم لرغبة سيدة النساء، فقد قرأتنا في سيرته التي تتضمن روائح طيبة أنه حتى آخر لحظة من سن حياته المبروكة ظل كالعذراء المخدرة حياء وأدبًا.

إن أبرز الأسماء في مضمار المراسيل الذين سلطتهم الطاهرة عليه: نفيسة بنت منية فقد نسبة الواقدي أحد أكابر كتاب السيرة المحمدية القدامي والذي قيل بشأنه إن الناس عيال في السيرة عليه وكتابه عن الغزوات الذي حققه مارسدن جونز من أوثق المؤلفات في هذا المضمار.

«قال الواقدي: كانت التي سفرت بين رسول الله ﷺ وبين خديجة نفيسة بنت منية أخت يعلى التميي حليف بنى نوبل بن عبد مناف. أسلمت نفيسة عام الفتح فذكرت رسول الله بما كان منها فبرها وأكرمها»^(٤٣).

أما أن «سيد العرب والعلم» بربها وأكرمها فلا غرابة في ذلك فهو المثل الأعلى للوفاء وكثيراً ما قال لتبوعه من عمل فيكم معروفاً فكافئوه خاصة وأن ابنة منية لا مشاحة «وجه السعد» عليه كما تقول العبارة الشعبية الدارجة. واختلف البُحاث القدامي والمحدثون في توصيف صلة نفيسة بأم هند فمن قائل إنها صاحبتها أو أنها سفيرتها أو ذات قرابة وأخطأ محمد رضا في كتابه «محمد رسول الله» عندما قال عنها إنها مولاً لخديجة مع أنه باحث رصين ومؤلفه هذا من أميز كتب السيرة المحمدية في المحدثين. وهذا هو الخبر الذي ورد بشأن نفيسة في هذه الخصوصية.

«أم سعد بنت سعد بن ربيع عن نفيسة بنت منية قالت: كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة جلدة شريفة فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع

بعيرها من الشام فقالت يا محمد ما يمنعك من أن تتزوج؟ قال: ما يبدي ما أتزوج به؟ قلت: فإن كفيت ذلك ودعني إلى المال والجمال والشرف والكفاءة لا تجib؟ قال: فمن هي؟ قلت خديجة. قال: فكيف لي بذلك؟ قال: قلت على هذا. قال: فأنا أفعل. فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه أن أئن ساعدة كذا وكذا»^(٤٤).

وقد طرحته لنا عشرات المؤلفات التراثية والكتب الحديثة في السيرة الحمدية التي هي أطيب من رائحة العود الهندي. قد يزيد جملة هنا أو ينقص جملة هناك ولكن النقاط الرئيسة في كل منها واحدة، وهنا ملحوظ لا يفوت العين اللاقطة أى التي تلقط اللمحات الموحية ذات الدلالة العميقية وهو أن تلك الكتب أجمعـت أو كادت على أن بنت منية اعترفت أن أم هند أرسلتها «دسيسًا لـ«سيد ولد آدم» فمن هو الدسيس؟

هو الذى تدسه ليأتـيك بالأخبار^(٤٥). ويضيف المقرى الفيومى معنى جديداً أصدق بالوصف الذى درجت كتب السيرة الحمدية الفاخرة على إطلاقه على نفيسة بنت منية فيقول: «يقال للجاموس: دسيس القوم»^(٤٦).

وهناك تعبير دارج يتداوله العامة فيما بينهم ولا نرى ثمة بأسا من استعارته منهم وهو «يجلس نبضه» أى يعرف تواليه ويدرك مراميه ويتبهـ إلى مقاصدهـ ويفقهـ أهدافـه.. إلخـ، يفعل ذلكـ قبلـ محـادـثـهـ فيـ المـوـضـوـعـ مـباـشـرـةـ فإنـ وـجـدـ «الـدـسيـسـ» عـنـهـ قـبـولاـ فـاتـحـهـ هـوـ أـوـ مـنـ أـرـسـلـهـ فـيـ الـأـمـرـ وـلـاـ طـوـيـ أـورـاقـهـ وـانـصـرـفـ.

ونورد فيما يلى ثبتـاـ بالـمـصـادـرـ ثـمـ نـتـبـعـهـ بـالـمـرـاجـعـ التـيـ تـؤـكـدـ أنـ نـفـيسـةـ هـيـ دـسيـسـ الطـاهـرـةـ^(٤٧).

• • •

وينتهي الخبر بنجاح «الدسيس» نفيسة في مسعاهـا ويوافق «محمد» على مطلب خديجةـ أنـ تـكـحـهـ فـتـهـرـ إـلـيـهاـ وـتـبـلـغـهاـ بـالـنـتـيـجـةـ الـبـاهـرـةـ التـيـ تـوـصـلـتـ إـلـيـهاـ وـلـاـ تـضـيـعـ الـفـرـصـةـ وـتـسـارـعـ إـلـىـ اـهـتـبـالـهـاـ وـتـطـلـبـ إـلـىـ دـسيـسـهاـ أـوـ سـفـيرـتهاـ أـنـ تـبـلـغـهـ أـنـ يـأـتـيـ سـاعـةـ كـذـاـ وـكـذـاـ فـيـ حـضـرـهـ وـأـعـمـامـهـ فـيـ جـدـوـنـ كـلـ شـءـ مـعـدـاـ وـيـتمـ عـقـدـ الـقـرـانـ وـبـعـدـ الـولـيمـةـ وـرـقـصـ الـجـوارـ يـدـخـلـ بـهـاـ دـوـنـ تـبـاطـؤـ.

إنـماـ أـىـ دـافـعـ هـذـاـ الذـىـ حـثـ الطـاهـرـةـ عـلـىـ الإـسـرـاعـ وـتـجـهـيزـ كـلـ شـءـ مـنـ الـأـلـفـ إـلـىـ الـبـيـاءـ وـالـدـخـولـ بـهـاـ عـلـىـ الـفـورـ لـاـ عـلـىـ التـراـخـىـ؟ـ لـاـ نـسـتـطـيـعـ أـنـ نـجـزـمـ فـتـطـرـحـ باـعـثـاـ مـعـيـنـاـ إـذـ إـنـ هـنـاكـ اـفـتـرـاضـاتـ مـتـعـدـدـةـ وـمـتـبـاـيـنـةـ مـنـهـاـ عـلـىـ سـبـيلـ المـثالـ لـاـ الحـصـرـ:

أنـ يـقـعـ الشـابـ الغـضـ الإـهـابـ الذـىـ جـاـوزـ مـرـحلـةـ الصـبـاـ مـنـذـ قـرـيبـ تـأـثـيرـ عـمـاتـهـ وـكـنـ مـتـعـدـدـاتـ إـذـ تـلـعـنـ لـهـ:ـ ماـ الذـىـ يـدـعـوكـ إـلـىـ الـارـتـبـاطـ بـ«ـثـيـبـ»ـ تـزـوـجـتـ مـرـتـينـ وـأـنـجـبـ الـبـنـينـ وـالـبـنـاتـ

وفي عمر والدتك «لو عاشت» وقرיש مليئة بالعذارى الأبكار الجميلات اللاتى
يتنين نكاحك؟

أو ينتصب اعتراف «وقد حدث ذلك فعلاً» من أبيها سوف تفند رأى من قال
إنه توافق من قبل أو من عهدها أو من أخيها فيحتاجون قائلين أو يقولون محتاجين:
ما هي الضرورة التي تلجهك لنكاح يتيم قريش الفقير راعي الفنم وقد تقدم
إليك «وما زالوا يتقدمون» عليه ملا قريش الذين يملكون المال الوفير والقسماء
والرجلة والنضج؟

أو تضغط عليها صواحبها وقد أخبرنا العميد طه حسين أنهن عارضنها
عند ما لمحت لهن به؟

أو ربما ينجح أصحاب «دورة بنى هاشم» وأصدقاؤه في إثنائه عن عزمه
وينصحونه بالتريث والانتظار فالمستقبل - في التجارة - أمامه مفتوح فهو علاوة
على أنه من رهط رفيع المستوى في القبيلة فإنه يملك كافة مقومات النجاح في
التجارة مثل طلاقة اللسان والجد في العمل والصدق في القول والأمانة، كما
أنه لا داعي للعجلة فهو لم يتجاوز العشرين إلا بعام أو أقل.

• • •

كل هذه الاحتمالات قائمة ولاشك أن الطاهرة التي اشتهرت بسعة الأفق
والتفكير العميق وال بصيرة النافذة تدبّرتها وأدارتها في رأسها وتعتمدت في
دراساتها فلم تر مناصًا من التمجيل بإنجاز عقدة النكاح قولاً وفعلاً.

ولاشك أنها فطنت أن كل هؤلاء في وادٍ وهي في واد آخر فهى لم تختر
«الحبيب المصطفى» لشبابه أو فحالته أو جمال محياه إنما لتخوض به تجربة
كبرى لم تدر بأخلاقهم.

• • •

نجء إلى مرصال من نوع خاص وهو المستشنة وسبق أن تحدثنا عن
عمالتها وموقعها الديني ومكانتها في القبيلة التي وزت سيدة قريش وزوجة^(٤٨).
لأن تهراول إليها كيما تسفر بينها وبين «سيد ولد آدم» لكي تلحف في رجاوته
ليقبل نكاح الطاهرة إياه ولتباعله وهي أى الكاهنة شكل لقاءها بـ «الصلاق
الصدوّق» نوعًا من الرسم أو التخطيط أو التدبير وربما يعود ذلك إلى المكانة
الاجتماعية التي لها والتي تحول دون ذهابها إليه؛ لأن العادة جرت والعرف
ترسخ على أن القبيل «أفراد القبيلة» هو الذي يسعى إليها حتى لكي تفسر له
رؤيا رأها.

ولا سبيل إلى بعث أو إرسال محمد إليها وإلا انكشفت التلعاية^(٤٩). إذن لا
حل لهذا الأمر الملتبس سوى تدبّير لقاء بينهما كأنه تم مصادفة.
«وعن الزهرى في سيرته أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة ليتحدث

عندما قام جاءت امرأة (سوف يأتي فيما بعد أنها الكاهنة أو المستشئة أ.ه.) فقالت: أخطأتك يا محمد فقال: كلا. قالت: ولم؟ فوالله ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا ترك كفئا لها فرجع رسول الله ﷺ خطأتك خديجة مستحيًا منها»^(٥٠).

وهنا يثور امتناع:

كيف تزور الكاهنة أو المستشئة خديجة وسبق أن قلنا إن القبيل «أفراد القبيلة» يزورها وهي لا تفعل. حتى عبدالمطلب جلال قدره أنها ولم تأتهم؟ والرد على ذلك أن عبدالمطلب عندما أنها «قصد إليها» إنما بهدف تأويل رؤياه أى جاءها من أجل عملها كما يذهب المريض إلى الطبيب والمتقاضي إلى المحامي والمعيون إلى الرافق، والكافنة هنا ذهبت إلى سيدة نسوان قريش لتزورها لا لتمارس عملها.. أما إذا قصدت «الرحمة المهدأة» فلأى غرض؟

وفي الخبر إيحاء شديدة وإغراء له بخطبة خديجة وتبيين ملحوظتها وهي الوقت نفسه تهيئة لـ«الأمين» بإخباره أن أي مرة في مكة تعتبره كفيلاً لها وذلك لتكتُ «تکسر» أي تردد في نفسه وهذا ما حدث بال تمام والكمال فقد فعل فعل السحر إذ لم يلبث «محمد» برهة يسيرة إلا ورجع خطأتك وهذا على وجه التعيين ما سطرناه عن لباقته هذه النوعية من البشر وذلاقة لسانها وقوتها منطقها.

ومن لديه ذرة من ريبة أن المرأة التي ورد ذكرها في خبر السيرة الشامية هي المستشئة فليرجع إلى السهيلى:

«جاءت امرأة مستشئة وهي الكافنة كذا قال الخطابي في شرح الحديث فقالت له جئت خطأتك إلى آخر الخبر»^(٥١).

ثم توضح لنا بنت الشاطئ الأثر الذي تركته كلمات الكافنة على محمد بعد أن قالت له ما قالت مما حمله إلينا الخبران السالبان في «السيرة الشامية» و«الروض الأنف» ثم لم تكن إلا فترة قصيرة المدى حتى تلقى دعوة خديجة فسارع إليها ملبياً^(٥٢).

• • •

هكذا حمل إلينا خبر الكافنة أو المستشئة اثنان من ذروة سنام كتب التراث ومصنف حديث وضعته باحثة جادة.

وهذه المؤلفات الثلاثة إنما أوردناها للتلميح لا الحصر أو الاستقصاء وفيها الغنية للتدليل على أن من بين مراسيل أم هند كافية قريش أو المستشئة وهذا يقطع بدوره على أن خديجة عزمت عزمًا أكيدًا على نكاح «محمد» مهما تعددت إليه الوسائل.

• • •

عمار بن ياسر مولى من موالي قبيلة مخزوم وهي ذات مرة بعد أن أعلن

«محمد» دعوته وفي قرية يشرب حدث مشاحنة بينه وبين خالد بن الوليد بن المغيرة في حضرة «صفوة الخلق»، ويبعد أن ابن ياسر أغاظ القول لモلاه السابق وابن سيد مخزوم «الوليد بن المغيرة» وأحد صناديدها وصاحب المال الممدود كما وصفه القرآن العظيم فأخذت الحمية خالداً فوجهه «لهم» سؤالاً: أتركت هذا العبد يشتمني؟ فرد عليه «أبو القاسم» معلماً إياه: «من أغضب عماراً فقد أغضبني ومن أغضبني فقد أغضب الله» وهنا اضطر سيف الله المسلول إلى ابتلاء خنزانته «كبيراته» واعتذر لابن سمية مولاه السابق.

كما أن عماراً من السابقين من تبع «الحبيب» وعذب هو وأمه وأبوه في سبيل دعوته. أما قبل الإسلام فإن الخبر القادر يشي بأن العلاقة بينه وبين «ديان العرب» وطيدة ورغم أنه من القمة الشامخة من قريش إنما لتواضعه وحسن أخلاقه وكرم شمائله صادق العُباد والموالي واللصقاء... إلخ، ومن ثم ربطه بعمار صلة حميّة، والطاهرة وقد وضعت «المحصوم» تحت المجهر وعلمت الصغيرة والكبيرة من شأنه تقضي إلى عمق صحبة الاثنين ومن ثم انضاف ابن سمية «عمار» إلى طابور رسليها إلى «محمد» بيد أنه نظرًا لمكانتها السامية وقدرها الرفيع ومقامها المحمود استحال عليها أن تخاطب عماراً مباشرة فهو مولى أو عبد. كما وصفه القائد المظفر الذي لم يهزم في جاهلية أو إسلام والذي شكلَّ أهم العوامل المؤثرة في الهزيمة الوجيعة التي أصابت المسلمين في الفزوة الثانية «أحد». ومن ثم سلطت عليه أختها فحادثه وهو بدوره فتح الموضوع مع «المزمل»^(٥٣).

«عن عبدالله بن الحارث أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة ويكترون فيه يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها إن كنت تربأ له وكنت إلها له وخدنا خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم حتى وإذا كنا بالحرّورة (ضاحية بمكة) أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيّعها فنادتني فانصرفت إليها ووقف رسول الله ﷺ فقالت: أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته: فقال: بل لعمري. فذكرت لها قول رسول الله ﷺ فقالت: أبدوا علينا إذا أصبحنا فندونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة»^(٥٤).

في هذا الأثر وصف عمار العروة الوثقى التي شدته به المدثر فهو= ترب وخدن وإلف ولاشك أن أم هند أدركت ذلك لأنها وضعت «محمدًا» تحت رقبتها من زمان، وترتباً عليه اختارته أى عمارًا سفيرًا لـ«سيد ولد آدم» ليجس نبضه في عزمهما على نكاحه، وفي خبر أيضًا أن «صاحب القبلتين» ما إن أعطى إشارة التسليم حتى طلب منه الحضور في الصباح الباكر من اليوم التالي وعند ذهابه. هو ومن معه. وجدوا أن كافة الاستعدادات قد أنجزت وضي مقدمها ذبح بقرة،

وفي كتب التراث عند الحديث عن عرس «فرح» نقرأ عبارة «فأولم بشاء» بيد أن الطاهرة للفرحة الغامرة التي شملتها مع ثروتها الطائلة ذبحت بقرة.

أما ادعاء ابن سمية «أنا أعلم الناس بنكاح خديجة من محمد» فهذا غير دقيق فهو في ذيak الوقت مجرد مولى لا خلطة له بعلية قريش وعلى رأسهم سيدة نسائها حتى يمكنه أن يتعرف على أحوالهم ويعلم دخائلاهم، وهو لم يرتفع قدره إلا بعد ذلك بأكثر من عقدين من السنين عندما غدا لسابق إسلامه من أقرب المقربين لـ«سيد ولد قصى».

روى بعضهم عن عمار بن ياسر أنه قال: أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله خديجة بنت خويلد: كنت صديقاً له فبانال نتمشى بين الصفا والمروءة إذ بخديجة وأختها هالة فلما رأت رسول الله ﷺ جاءته اختها هالة فقالت: يا عمار أما لصاحبك حاجة في خديجة؟ قلت: والله ما أدرى فرجعت فذكرت ذلك له فقال: ارجع واضعها يوماً وعدها يوماً نأتيها فيه فقلت (أى) فقلت ذلك لهالة أخت خديجة) فلما كان ذلك اليوم.. إلى آخر الخبر الذي سوف نسرده في فاصلة من الذي تولى العقد عن خديجة»^(٥٥).

من هذا الخبر الذي حمله إلينا اليعقوبي في تاريخه عدة معطيات:

١. إن اسم الأخت هالة ولم يذكر أنها تبيع أدمًا أو خلافه.
٢. أن خديجة آنذاك بصحبة هالة.
٣. ذهبت هالة لعمار تعرض عليه أن تنكح خديجة «سيد ولد آدم» وبدهة أن ذلك ليس من عندياتها بل بإيعاز من الطاهرة.
٤. أمر «المصطفى» عمارًا أن يرجع إليها لتحديد يوم يأتيها فيه.
٥. ودلالة ذلك أن «المحصوم» لم يعط كلمته بالموافقة وهذا ما سبق أن المحسنة إليه، ومع ذلك فإن خديجة «حسب نص الخبر» اعتبرت ذلك موافقة وأسرعت في الاستعداد، إنما في اعتقادنا أن عجز الخبر يتعين أن يؤخذ بحذر لأن الطاهرة اشتهرت بالحصافة.

وفي السيرة الشامية ورد هذا الخبر بالصورة الآتية:

«عند يعقوب بن سفيان في تاريخه عن عمار قال: مررت أنا ورسول الله ﷺ بأخت خديجة فنادتني فانصرفت إليها ووقف له رسول الله ﷺ فقالت: أما صاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ فقال عمار: فأخبرته. فقال: بلى لعمري، فذكرت لها ذلك فقالت: أعدوا علينا إذا أصبحنا قدفونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسو خديجة حلة»^(٥٦).

وهو خبر مختصر عن سابقه لم يذكر عمار صلته بالحميمة بـ«سيد الأولين والآخرين» ولا بأنه أعلم الناس بقصة نكاح الطاهرة إياه.

إنما أضاف أنهم وجدوا خديجة قد لبست حلة الفرح أو العرس وهو معطى عميق الدلالة هو أن أم هند دللت جميع العقبات خلاً موافقة «المصطفى» فلما

أعطهاها إياها عن طريق أختها اعتبرت أن النكاح تم لأن لبس الحلة أو فستان الفرج بالتعبير الحديث هو شارة إتمام الزواج، إذ لا يعقل أن سيدة رفيعة المقام مثل خديجة تقبل أن تغدو مضفة الأفواه وموضع أحاديث مجالس السمر في قرية القداسة ولغط عجائزها إذ يقال إنها لم تست حلة الزفاف لمحمد بن عبدالله لكنه أى العرس أو الفرج لم يكتمل لأن أباها أو عمها أو أخاها أو لأن رهط بنى هاشم اعتربوا.

* * *

فى هذين الخبرين اللذين أورد أولهما ابن كثير وآخرهما الصالحي الشامي أن الأخت . أخت الطاهرة ما إن سمعت الوفاق من «الأمين المأمون» حتى ردت أن أغدوا علينا إذا أصبحنا فهى لم تطلب منها الليثة قليلاً أو كثيراً حتى ترد عليهما بأن تستأمر أم هند ثم ترجع إليهما بالرد أو الجواب بل على الفور لا على التراخي دعتهما للحضور فى صبيحة اليوم التالى إلى دار العروس.

علم يدل هذا؟

الجواب معروف لأنه بديهي أن طلب الأخت حالة من «طه». عن طريق عمار تزويج خديجة لم يصدر منها بل هي مأمورة به من قبل أم هند .

اعرضى على «الحبيب» عن طريق صاحبه الأليف أو إلفه الصاحب أن يستجيب إلى طلبي أن أنكحه فإن فعل فامرهمما أن يحضررا غداً، وسوف يجدان كل شيء جاهزاً وسأنتظرهم وأنا فى حلة العرس أو فستان الفرج إذ ليس من المنطقى أن تخاطر الأخت بذلك فإذا أتيت للدار لم يلتفيا شيئاً.

إذن الدعوة عن طريق الأخت كانت محضطة ومرتبة ومرسمة.

* * *

فى الفقرة السابقة الخاصة بالمولى ابن سمية جاء دور أخت سيدة نسوة قريش وهو ما يمكن أن نطلق عليه الرسول أو المرسال غير المباشر، فهى حادثت عمارة وهذا خاطب سيد الناس وبيان العرب» فالاخت فى الخبرين كليهما لم تكافحة «تواجده». ورغم القرائن القوية التي طرحناها لإثبات أنه من المستحبيل أن تقدم عليه من نفسها فإننا . منعاً لأى مشاكسة أو معارضة . نورد هذا الخبر «حدث أبو مجلز أن خديجة قالت لأختها: انطلقى إلى محمد فاذكرينى له أو كما قالت وأن أختها جاءت فأجابها بما شاء وتواتروا على أن يتزوجها رسول الله ﷺ^(٥٧).

هذا الخبر يقطع بأن الطاهرة هي التي أمرت أختها بأن تتطلق أى تذهب مع قدر من العجلة والهروبة والسرعة إلى «أبى القاسم» وتسأله نكاح خديجة إياه فتواطأوا عليه أى توافقوا «ومتواطئ أى المتواافق وهى من المجاز وحقيقة كأن كلاً منها وطئ ما وطئ الآخر»^(٥٨).

فيما سلف تناولنا سفارة عمار والأخت إذ إن خبرين منها جمعاً بينهما .
بقى المرسل الأخير وهو العبد ميسرة والشأن أن لجوء سيدة قبيلة قريش كلها
إلى عبد من عبادتها كيما يغدو رسولها إلى «الصادق المتصدق» في مسألة المبايعة
أى لتصير هي بعله^(٥٩). يقطع بصحة ما سطرناه منذ قليل أنها تعنت تعبّاً
شديداً ولغبت لغويّاً بالغاً وأرهقت إرهاقاً وجيعاً حتى أعيت فلم تر مناصاً من
اللجوء إلى ميسرة ومهما كانت صلته بها فهو غلام من أغيلمها ومملوك من
ماليكها لكي تظفر ببعولة «خير من وطئت قدماه الأرض».

في رحلة الشام الثانية ذاق ميسرة حلاوة أخلاق «الأمين» بل تضلع منها
وشرب علاً بعد نهل ورغم أنه في السفر تظهر سجية المسافر على حقيقتها
فإن غلام أم هند لم يجد لدى «خير شافع ومشفع» سوى رقة الشمائـل وحسن
المعاملة وأدب الخطاب وتواضع النفس فلا مشاحة أن العبد ميسرة ظن في
مبدأ الأمر أن هذا الذي في الرحلة سيظهر له التعالي ولا يلتف منه إلا الكرباء
ولن يقابله سوى بشموخ الأنف كيف لا وهو من بنى هاشم ذروة سنام قريش
 خاصة أن السفر يظهر الفرد على حقيقته ويكشف عن وجهه الحقيقي ويسفر
عن صفاتـه وأخلاقـه دون زيف أو تصنـع:

«لما أراد الحسن البصري الحج قال له ثابت البناني: يا أبا سعيد بلغنى أنك
تريد الحج فأحبيبـتـ أنـ نـصـطـحـبـ فـقـالـ: وـيـحـكـ دـعـنـاـ نـتـعـاـشـ بـسـتـرـ اللـهـ إـنـيـ
أـخـافـ أـىـ نـصـطـحـبـ فـيـرـىـ بـعـضـنـاـ مـنـ بـعـضـ مـاـ تـنـمـاـتـ عـلـيـهـ»^(٦٠).

يـدـ أـنـهـ فـوـجـئـ بـالـعـكـسـ: دـمـاثـةـ فـىـ الـخـلـقـ وـلـينـ فـىـ الـقـوـلـ وـكـمـالـ فـىـ الـأـدـبـ
وـلـطـفـ فـىـ الـمـعـاـلـمـ.. وـلـنـتـرـكـ جـانـبـ الـمـعـجـزـاتـ الـتـىـ شـاهـدـهـاـ بـعـينـهـ وـالـحـايـاـ
وـالـتـجـلـةـ الـتـىـ قـاـبـ الـرـهـبـاـنـ بـهـاـ «مـحـمـدـاـ»ـ وـكـذـاـ مـنـ يـمـلـكـونـ عـلـمـاـ وـفـيـرـاـ بـالـكـتـابـ.
فـهـذـهـ سـتـمـاـلـاـ مـكـانـاـ وـسـيـعـاـ فـىـ بـابـ الـمـعـجـزـاتـ.

إنـماـ الـذـىـ يـهـمـنـاـ هـنـاـ الـخـلـقـ الـعـظـيمـ الـذـىـ لـمـسـهـ الـعـبـدـ مـنـ «سـيـدـ النـاسـ»ـ فـىـ
رـحـلـةـ الصـيفـ وـشـعـرـ بـمـضـاعـفـةـ الـإـحـسـاسـ بـالـامـتـانـ وـالـعـرـفـانـ لـسـيـدـتـهـ لـأـنـهـ
أـتـحـفـتـهـ بـصـحـبـةـ هـذـاـ الشـابـ الـذـىـ بـالـكـادـ تـخـطـىـ سـنـوـاتـ الصـبـاـ وـولـجـ مـرـحلـةـ
الـشـابـ عـلـاـوـةـ عـلـىـ الـأـمـانـةـ وـالـصـدـقـ فـىـ الـقـوـلـ... إـلـخـ، وـمـنـ ثـمـ توـطـدـ الـعـلـاـقـةـ
بـيـنـ الـعـبـدـ وـسـيـدـهـ وـتـقـطـنـتـ أـمـ هـنـدـ لـعـقـمـ هـذـهـ الـوـشـيـعـةـ بـيـنـ أـجـيـرـهـاـ وـغـلامـهـاـ مـاـ
أـشـارـ بـهـ الـأـخـيـرـ عـلـىـ الـأـوـلـ بـضـرـورـةـ سـرـعـةـ الـذـهـابـ إـلـيـهـاـ كـيـماـ يـيـشـرـهـاـ بـالـتـوـفـيقـ
فـىـ السـفـرـ وـالـأـرـبـاحـ الـوـفـيـرـةـ الـتـىـ تـحـقـقـتـ مـعـ أـنـ العـادـةـ أـنـ هـوـ الـذـىـ يـفـعـلـ ذـلـكـ
حتـىـ يـظـفـرـ مـنـهـ بـالـبـشـارـةـ وـالـحـلـواـنـ»^(٦١).

وـمـاـ ذـكـرـهـ لـهـاـ .ـ بـانـبـهـارـ وـأـعـجـابـ .ـ عـنـ شـمـائـلـ مـحـمـدـ الـتـىـ لـاـ ضـرـبـ لـهـاـ
وـأـخـلـاقـهـ الـتـىـ لـاـ مـثـيلـ لـهـاـ فـاـسـتـجـتـ أـنـ مـيـسـرـةـ يـصـلـحـ لـيـسـفـرـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ «ابـنـ
عـبـدـالـلـهـ»ـ وـأـنـ يـقـنـعـهـ بـالـاسـتـجـابـةـ لـرـغـبـةـ سـيـدـتـهـ الـعـارـمـةـ بـأـنـ تـكـهـ، وـفـيـ شـايـاـ

الخبر وردت عبارات تكشف عن ذلك «فأسرعت لأبشرها فغمّرها السرور» وربما إدراكه لتلك الإرادة والرغبية من جانبها هو الذي زفه زفيفاً «دفعه دفعاً إلى الإسراع لـ«حبيب الله» وإلى إصراره على إنجازها والنجاح فيها.

قال ميسرة: أرسلتني سيدتي بعد شهر وعشرين يوماً من عودتنا من الشام إلى محمد فقلت له: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما يبدي ما أتزوج به. قال: فإذا كان ما تملكه على قلته يكفي ودعبيت إلى الجمال والشرف والكفاءة لا تجيئ؟ قال: فمن هي؟ قال: إنها خديجة. قال: إنك هايل كيف أجرؤ على أن أتقدم لطلب يدها وما أملك من مهر؟ قال ميسرة: لا عليك وأنا بحل تلك العقدة لكفيف وكانت نفمة سيدى في حديثه كافية لمعرفة عواطفه نحو سيدتي فأسرعت في العودة لأبشرها فغمّرها السرور فأخذت في الاستعداد للزواج»^(٦٢).

ولقد أيد المقريزى سفارة العبد ميسرة (وقيل سفر بينهما ميسرة)^(٦٣). فى هذا الخبر نقاط على درجة من الأهمية منها أن خديجة أرسلت غلامها لـ«سيد ولد آدم» بعد خمسين يوماً فحسب من عودتها من الشام أى أنها عجلت من أمرها ومتعلقة على النكاح.

وأن عبدها ميسرة طرح مغريات شتى أمام عينى «أول من تنشق عنه الأرض».

الجمل - المال - الشرف - الكفاءة.

وهي مرغبات كفيلة بأن تدفع شاباً خرج من الصبا منذ وقت قريب إلى القبول الفوري إذ ما الذي يبغيه في الزوجة أكثر من هذا بالإضافة إلى حل مشكلة المهر التي تتكسر على شاطئها أمواج الخاطبين حتى الآن.

ومنها رد «الحبيب المصطفى» على الغلام أو العبد: إنك هايل. لأنه «الأمين» لم يدر بخلده أن الطاهرة تنكحه وهو منذ أقل من شهرين عمل أجيراً لديها وهي ليست صاحبة عمل عادلة بل هي ذات ثراء ممدوح حتى إنها تملك نصف القافلة وسائل قريش بالكاد تملك الشطر الآخر.

ومنها أن غلام خديجة استشف من حديث «سيد ولد عدنان» عاطفته نحوها وهذا أمر متوقع لأنه إذا اقتربن بها فسوف يجد عندها العطف والحنان اللذين حرم منها مبكراً بموت أبيه ولم يتخط الخامسة إلا بقليل ييد أن هذه العاطفة منه ألا تتعارض مع ما ذكرناه أنه قد شدته إلى أم هانئ عاطفة دفعته إلى خطبتها إنما لم يكتب له التوفيق؟

إن الرد على ذلك يتحصل في أمرين:

أ. أن عاطفته نحو الطاهرة تولدت بعد يأسه من أم هانئ إثر خطبتها لهبيرة أو خطبة هبيرة إياباً.

ب - بعد تماسه بسيدة نساء قريش وجلوسه معها كما ألمعنا تولدت لديه أو

بمعنى أدق تيقظت في حناءا صدره عاطفة البنوة أى شعوره بالحاجة الملحة إلى حنان الأم، ومنها أن السرور غمر الطاهرة فأسرعت على الفور لا على التراخي في عمل الترتيبات الالزامية لنكاح «الذى سيفه على عاتقه» لتأكدها من فلوج الخطة شديدة الإحكام للظفر بـ«المصووم» زوجاً من ناحية موضوعاً للتجربة من جانب آخر.

• • •

هذه حكايا المراسيل أو المندوبين الذين أطلقتهم على «راكب الآثار» حتى استجواب لندائها وهذا بخلاف ما سردناه سابقاً ونعني «الجهود الذاتية» التي باشرتها هي بنفسها، وطرحها جميعها لازم لتبيّن أو توضيح الأمور التي سبقت التجربة الفادحة ولكن لماذا تعددت المساعي ألا يكفي أن ينجح أحدها فتقنع خديجة به ولا ترى بعده أى حاجة لغيره؟ بمعنى أنه إذا فلحت هي في الحصول على موافقة «أول من يفيق من الصعقة» على النكاح فما الذي يدعوها إذن للاستعانة بالمستشئة أو بعمار أو بأختها أو بصديقها أو بصاحبتها الروح بالروح نفيسة بنت مينة؟

• • •

نحن لا نشكك في الأحاديث ونخاصم فكريًا بكل قوّة أولئك المتنطعين والمتفهّمين والمتشدّقين الذين ينادون بمقاطعة الأحاديث والأخبار والآثار المتعلقة بـ«صاحب لواء الحمد» والاكتفاء بالقرآن العظيم ونرى أنها دعوة فسيدة لم يتمّقّع أصحابها دراسة العلوم الإسلامية بكلّة جوانبها، ومع ذلك فنحن لا نرميهم بتهمة العمالة لعدو الإسلام، كل ما في الأمر أنه ينقضهم النضج في التفكير والاستقامة في المنهج (ومن جانبنا فإننا نسبق بخطوات أهل السنة والجماعة في تقديم حتى الأحاديث الضعيفة ونرى أن صرف النظر عنها عوج وهوج وقلة حنك لأنها «=الأحاديث» هي «ديوان الإسلام» ومن أراد أن يتعرّف عليه فليتوجه إليها ويدرسها بأنّة وعمق. سبق أن ذكرنا ذلك في أحد أسفار كتابنا «شدو الربابة» آ.هـ.

ومن هذا المنطلق فإننا لا نشك في الآثار والأخبار التي قدمت لنا مسألة التعديدية المرسالية من قبل سيدة نسوة قريش وهي مذهبنا أنها أقرب إلى المنطق وأدّعى للتصديق وأدنى إلى العقل. لماذا؟ تلك الأخبار تقص علينا وقائع تجسدت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ونسبة لأشخاص «إناث وذكور» عاشوا في بيئه مغايرة لبيئتنا وفي مجتمع مخالف لهذا المجتمع الذي نحيا بين جنباته.

ومن أهمّ مظاهر التباين - ولا أقول التناقض - بين ذيak المجتمع والمجتمع الراهن هو التقدّيس المبالغ فيه للتقاليد والقيم والموجّبات الاجتماعية في مكة

وداخل قبيلة قريش وقت ذاك؛ لأنه من ناحية فهو محدود العدد بخلاف مجتمعات المدن الكبيرة مثل القاهرة ودمشق وبيروت والتي تضم أشتاتاً من الأعراق والجنسيات والطوائف، وأفراد ذلك المجتمع تربطهم بعضهم البعض وشائع القرى والنسب والمصاهرة والولاء حتى إنه يمكن أن يقال إن كل واحد أو واحدة فيه يعرف الآخر أو الأخرى معرفة وثيقة. «الملا أو قمة هرم أو ذروة جبل ذلك المجتمع أكثر تمسكاً بتلك التقاليد والأعراف والموجبات... إلخ، والسيدة الطاهرة منهم.

• • •

وفي مضمار موضوعنا هذا وهو عقدة النكاح فإن من أوليات الأمور التي تواضعوا أو تواطأوا عليها هو أن العروس وأهلها لا يعلنون الزواج إلا إذا استوقفوا من جدية العريس أو الخاطب لأنهم إن أذاعوا الزواج ثم استبان أن العريس أو الخاطب وأهله هازلون وعابثون لصارت العروس أو المخطوبة وأسرتها موضع سخرية وهزء في القبيلة كلها ومحل زرارة في المجالس بين الرجال وفي البيوت بين النساء خاصة في حالة اتسام الزواج بقدر من الإدهاش وأدنى إلى التكذيب مثل عدم الكفاءة بين الطرفين إما بسبب المكانة الاجتماعية أو الغنى أو وجود فارق في العمر بين طرفيه.

فهنا يتبعن على العروس أو المخطوبة وأهلها أن يستوثقوا ويثبتوا من جدية العرض وأن العريس أو الخاطب - من شواهد الحال - يتم عقد النكاح أو أنه لن يفتحه^(٦٤). وإن لم يفعلوا وصموا بالغفلة ورموا بالعبط ووصفو بأفن العقل^(٦٥) وضعف التفكير والبلادة والوحجة «الافتقار» إلى النضج وبالنزرق والطيش.

• • •

وخدية سيدة قريش كلها بعيدة عن هذه الصفات الذميمة وإلا لما حازت هذا اللقب المنيف لهذا وجب عليها ألا تذيع خبر نكاحتها لـ«الظفوري- محمد» إلا إذا ملأت يديها الاثنين من صدق الخبر ووثقت تماماً من الموافقة وهذا لا يتأتى إلا إذا وصلتها « تلك الموافقة أ.ه. »، وتمكنت منها وكما يقال في التعبير الدارج وضعتها في جيبيها، ومن ثم فليس أمامها سوى أن تسمعها من شخص ثق فيه وتطمئن إليه وجريت صدقه أكثر من مرة. فأرسلت إلى «الأعظم» أكثر من مندوب وساقت إليه عدداً من المراسيل وبعثت إليه بعضاً من السفراء كلهم أمناء أشد ما تجيء الأمانة وأعمق ما يتواافق من الإخلاص وأكثر ما يحوز من الصدق حتى إذا نقل إليها وفاق «صاحب الملحفة» اطمأن إليه ووثقت فيه وإذا تواترت مصادر الخبر دل ذلك على مصداقيته إذ لا يعقل أن أولئك المراسيل أو المرسلين الذين غالبيتهم من خاصة بطانتها^(٦٦). وأقرب وليجتها إليها^(٦٧) ومحض^(٦٨) المقربين إليها وزبدة^(٦٩) المحيطين بها مثل: أختها

ونفيسة صاحبتها وميسرة غلامها أو عبدها والمستشئة كاهنة قريش أن يكذبوا عليها أو يزيفوا الخبر لديها أو يطرحوا الدخل (الفساد) والريبة أمامها، خاصة إذا علم أن غيره قد كلف بالحصول عليه إذن لابد أن يأتي الخبر من جمعيتم موثقاً فيه.

ومن جانب آخر: فلندع الكذب والتزييف والدخل (فتح الخاء) جانبًا ولنقدم فرضاً آخر وهو أن أحدهم أو بعضهم أخطأ في الفهم أو تسرع في الاستنتاج أو شط في التقدير ففهم السكوت موافقة والتربيث إجابة والتمهل قبولاً فإن باقيهم لا يعقل أن يجيئوا على هذه الشاكلة أو ينسجوا على ذات المنوال أو ينهجوا نفس الطريق.

هذا هو الباعث الدافع أو هذه هي البواعث الدوافع التي حثت الطاهرة الحصيفة الأربعية على اختيار مسلك التعذدية في المراسيل ولم تكتف بذلك بل تعمدت أن يصبحوا تشكيلة^(٧٠). فمنهم الحرة والعبد والقريبة والمولى لأن ذلك أدعى للثبت من صدق الخبر. إذن ليس في الأمر تضارب في الأخبار أو تناقض في الآثار أو التباس في الواقع أو تناقض في الأحداث كما قد يتadar إلى الأذهان.

وبعد أن تأكّدت سيدة نسوان قريش من أن «الأوسط» قد أعطى شارة القبول وعلامة الموافقة وأية الرضى تقدّمت إليه بنفسها وأبلغته أنها رغبت فيه لتتحققه وجاء جوابه كما توقعت: مرحباً بك يا ابنة العם بعلا لي. «وعند ابن إسحق في المبتدأ أن خديجة قالت له: يا محمد لا تتزوج؟ قال: ومن؟ قالت: أنا. قال: ومن لي بك أنت أمي قريش وأنا يتيم قريش، قالت: أخطبني، وكان تزويجه لها بعد مجئه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً»^(٧١).

أما في السيرة بقلم ابن إسحق: «فقالت له فيما يزعمون يا ابن عم إنني قد رغبت فيك. ثم عرضت نفسها عليه»^(٧٢).

إن صدور هذا التخطيط المحكم والتدبير المتقن والرسم الدقيق من الطاهرة خديجة ليس عجيباً أو مستغرباً فهي قد عرفت بالحنكة واشتهرت بالعقل وذاع عنها الحزم والدرية واللب (العقل).

وبهذه الصفات الباهرة والتعوت المدهشة والخصائص المذهلة أدارت بمقدمة قائمة يعز مثلها لا في نسوان ذيak الزمان المفرد بل بين نساء كل الأزمان بعدها حتى الآن، أدارت «التجربة الكبرى» التي غيرتجرى تاريخ الجزيرة العربية وما حولها. فيها لها من سيدة تعد من القليلات اللائي تركن وراءهن أثراً بعيد الغور.

• • •

بعد أن حظيت سيدة نساء قريش بأمل حياتها ومنية عينها وطلبة «بكسر الطاء» عمرها نعنى شرف موافقة «الستقيم» على أن تتحكّه. خاضت معركة أخرى لا تقل شراسة وهي رضاء وليها في عقد الزواج: أبيها في رواية وعمها عمرو بن خويلد في رواية أخرى. أما أنه أخوها عمرو بن أسد فهو قول ضعيف. فأبواها كان يعارض بقوسها هذا الزواج فهي قد رفضت كل من تقدم لها من سادة قريش حسباً ونسبةً وثروة.

فكيف إذن تباعل يتيم قريش أو يتيم أبي طالب راعي الفتن الفقير الملقى الذي لا يملك حتى قيمة المهر أو الصداق الذي يسوقه إليها.

واختلف القدامي فيما بينهم عمن زوجها هل هو أبوها أو عمها عمرو بن أسد فمنهم من قال الأول ومنهم من قال الأخير لا حبأ في الخلاف أو هو في الاختلاف إنما لأنهم «القدامي» كما ذكرنا سالفاً ونكرره يسطرون ما توصلوا إليه دون أي اعتبار، بيد أن المحدثينطبقوا على أن ولن عقدة النكاح هو عمها لعلة سوف يأتي كشفها في حينه.

فزوجها «خدية» منه «أول من تشق عنه الأرض» أبوها وقيل عمها وقيل أخوها^(٧٣).

فهنا نجد الإمام البرزنجي لم يستطع أن يجزم فذكر أباها وعمها وأخاهما وهو أيضاً يسمى عمرو مثل عمها، أما ابن سيد الناس فقد وافق ابن إسحاق أن الزوج لها هو أبوها «فخرج مع عمه حمزة بن عبدالمطلب رض حتى دخل على خويلد فزوجها»^(٧٤). وفي أميز كتب السيرة المحمدية التي هي ذات ريح أجمل من رائحة الغبر الأصهب.

«فقالت خديجة ذلك (إباء رغبته في نكاحه) لرسول الله صل ذكر ذلك لأعمامه فخرج معه حمزة بن عبدالمطلب رحمة الله حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها...»^(٧٥).

وابن هشام هنا . كما في غالبية سيرته . نقل عن محمد بن إسحاق بالحرف الواحد : «حدثنا أحمد قال : حدثنا يونس عن ابن إسحاق قال : فلما قالت لرسول الله صل ما ذكر ذلك لأعمامه . فخرج معه منهم حمزة بن عبدالمطلب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها رسول الله صل»^(٧٦).

ومما هو جدير بالذكر أن المحققين طه عبدالرؤوف وبذوى طه ذكرا في هامش الصفحة (١٥٤) «قيل كانت سنه رض إحدى وعشرين» وهو ما رجحناه فيها سلف . وشيخ المؤرخين الطبرى أكد أن خويلدا هو الذى تولى التزويج «فلما قالت لرسول الله صل ذلك ذكره لأعمامه . وخرج معه حمزة بن عبدالمطلب عمه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها»^(٧٧).

محمد ابن إسحاق كتب السيرة المحمدية العطرة فى وقت مبكر ثم جاء ابن

هشام فاختصرها ومن ثم اعتبر مؤلفه «بفتح اللام» هو المصدر الذى مات(٧٨). منه كتاب السيرة القدامى أو أغلبهم لأنهم عولوا على ابن هشام ومن ثم يسرده يغدو موثوقاً به:

«روى محمد ابن إسحاق أن خوبلد بن أسد زوج خديجة ابنته من رسول الله ﷺ ومات بعد الفجار بعد خمس سنين» ولو أن أمانته العلمية أبنت عليه إلا أن يذكر رأى غيره فى هذه الخصوصية أى فى تاريخ وفاة أبي خديجة «وروى بعضهم أنه قتل فى الفجار أو مات عام الفجار»(٧٩).

والزهرى الذى سبق أن سطرنا أنه كتب فى السيرة الحمدية العظيمة مؤلفاً يعتبر من أوائل ما كتب فيه ولكنه للأسف مازال مفقوداً فقد «ذكر الزهرى فى سيرته أن خوبلدا أباها هو الذى زوجها منه»(٨٠). ويخبرنا الذهبي أن:

«بعثت خديجة إلى محمد تقول يا ابن عمى رغبت فيك لقرباتك وأمانتك وحسن خلقك ثم عرضت عليه نفسها فقال ذلك لأعمامه فجاء معه عم حمزة حتى دخل على خوبلد فخطبها منه وأصدقها عشرين بكرة»(٨١).

على عكس المحدثين الذين أطبقوا على رفض خبر تزويج خوبلد لخديجة من «سيد الأولين والآخرين» كتب فتحى رضوان أن ذلك تم بولايته هو: «قبل إن خوبلدا لم يكن موافقاً على هذا الزواج فقد كان يرى شأن محمد الفقير راعى الغنم أصغر من أن يبني بابنته الغنية.. ولكن الذى لاشك فيه أن أبا خديجة دهش حينما أحس من ابنته ميلاً إلى إتمام هذا الزواج»(٨٢).

ومع ذلك لا يفوتنا أنه ذكر الخبر بصيغة التمريض أو التشكيك «قيل» ولا غرابة فى أن يرفض خوبلد «الرحمه المدهاه» زوجاً لابنته فهو من ناحية صنديد شريف غطريف سميدع(٨٣) ومن ناحية خديجة فهى كما وصفناها فى حين أن «الغوث» فى نظر خوبلد: فقير - مليط - يتيم - راعى غنم ليس بيده ما يتزوج به.

* * *

نأتى بعد ذلك إلى المؤرخين القدامى الذين ذهبوا إلى تولى العم عمرو تزويج خديجة .. الواقعى:

«والثبت عندنا أن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ وأن أباها هلك قبل الفجار وهو المحفوظ عندنا عن عائشة وعن ابن عباس»(٨٤).. قال الواقعى بإسناده: وكانت امرأة عاقلة حازمة برزة مرغوباً فيها لشرفها ويسارها فدست إلى رسول الله من عرض عليه أن يتزوجها فرغرب فى ذلك فبعثت إليه أن أئتها فى وقت كذا فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد فحضر وحضر رسول الله ﷺ ومعه عماء أبوطالب وحمزة وغيرهما من عمومته فزوجها إياه ومات بعد تزويجها بقليل»(٨٥).

وذكر محقق سيرة ابن هشام في هامش ص ١٩٥: «عن ابن عباس وعن عائشة رضي الله عنهمَا أن عمرو بن أسد «العم» أنكح خديجة رسول الله وأن خويلاً كان قد هلك قبل الفجار»^(٨٦).

• • •

«وقال المؤمل: المجمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه وهذا هو الذي رجحه السهيلي وحکاه عن ابن عباس وعائشة قالت كان خويلاً مات قبل الفجار وهو الذي نازع تبعاً حين أرادأخذ الحجر الأسود إلى اليمن فقام خويلاً في ذلك وقام معه جماعة من قريش»^(٨٧).
هذا الخبر أيده الواقدى والسهيلي من القدامى ونقله عنهم السرجانى . من المحدثين أحد محققى سيرة ابن هشام - وإذا تفرسنا في الخبر نجد أن مصدره اثنان عائشة وابن عباس .

أما عائشة فإنها لم تتحدث عن ولّي خديجة في نكاحها لـ محمد وإنما تحدث عن منزلة خويلاً وتصديقه لطبع عندما عزم على نزع الحجر الأسود من الكعبة ونقله إلى اليمن وهذا يؤيد ما سطRNAه قبل قليل أنه (أى خويلاً) كان في قريش من المزايدة^(٨٨) الجحاج^(٨٩). ومن ثم فهو لا تعتبر مصدراً لقيام عمرو عم سيدة نساء قريش بتزويجها لـ «سيد الثقلين» أما ابن عباس فواقعية التزویج هذه حدثت قبل ولادته بأكثر من ثلاثين عاماً لأنه عندما انتقل ساپق العرب إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً لم يتجاوز عمره العاشرة إلا بعامين أو ثلاثة فهو لم يشهدها .

وقد أخذ على ابن عباس إكثاره من رواية الأحاديث والأخبار وأنه كان يروي ما لم يحضر أو يعاين أو يسمع مباشرة دون أن يبين السنـد الذي تلقاه منه وهو بهذه الطريقة يوهم أنه سمع الحديث من المعصوم مباشرة أو أنه شاهد الخبر بذلك وعاينه بنفسه . والمثل يقول ليس راء كمن سمع، والمثل الآخر يقول ليس الخبر كالعيان وسنورد بعد سطور معدودة رواية عمار بن ياسر الذي أكد أنه حضر عقد القرآن وأن ولّي النكاح عن سيدة نسوان قريش هو أبوها خويلاً لا عمها عمرو .

أما ما يقوله المؤمل: إن المجمع عليه أن عم خديجة عمرو هو الذي زوجها من المصطفى فهو قول فسيد وبعد قليل سنقدم أدلة فساده وللأسف فإن هناك طائفـة من المؤرخين أو الباحثـين تطلق أحكاماً دون تدقـيق أو تمحـيسـ.

• • •

إذا قارنا بين المصادر التي ذكرت أن خويلاً هو المبادر أو الولي في التزویج وبين التي قالت إنه العم عمرو نلـفـي أن الأولى هي الأكثر عدداً والأعلى مقاماً فمن بين ذكر الآباء:

١. السيرة النبوية: ابن إسحق.
 ٢. سيرة ابن هشام.
 ٣. عيون الأثر: ابن سيد الناس.
 ٤. تاريخ الطبرى.
 ٥. تاريخ اليعقوبى.
 ٦. الزهرى: صاحب السيرة المفقودة ونقل عنه ذلك كثير منهم.
 ٧. الصالحى الشامى فى السيرة الشامية.
 ٨. السيرة النبوية للذهبي.
- بينما ذكر العم:

١. الواقدى وقد نقله عنه البلاذرى فى:
- أنساب الأشراف.

- وكذلك نقل عنه «أى عن الواقدى» الطبرى فى تاريخه.
- السيرة النبوية لابن كثير.

وإذا نحنينا جانبًا الكثرة العددية التى رجحت جانب الأب فإنه من المحال أن نغمض العين عن الثقل العلمى لأولئك الأثبات الذين أكدوا أن خويلاً هو الذى باشر العقد بصفته ولهاً عن ابنته الطاهرة خديجة.

إن مما يجافي المسالك الموضوعى والمنهج العلمى للذين لا تحرکهما العواطف الفجعة والحماسة الفطيرية «غير الناضجة» أن ننأى بجانبنا عن: سيرة الزهرى وسيرة ابن إسحق وسيرة ابن هشام والسيرة الشامية وعيون الأثر... إلخ ونغلب عليه أى مؤلفات أخرى فى نطاق السيرة المحمدية الذكية المعطار وهذا ما فعله للأسف الشديد كتاب السيرة المحمدية المحدثون. إن من العرب أو الأعاجم (فى كتبهم التى ترجمت إلى العربية) مما يدفعنا دفعاً إلى أن نؤكد أن كتاباتهم فى السيرة بل وفى غيرها من العلوم بعيدة بعد السماء عن الأرض عن المنهج العلمى الموضوعى بل لا نبدو مغالين إن قلنا إنهم يجنحون إلى التزييف ولكن لماذا يفعلون ذلك؟ لعل الإجابة على هذا السؤال لا تحتاج إلى ذكاء ولا تقترب إلى فطنة.

أما فى هذه الخصوصية ونعني بها تأكيد أن العم هو ولّى عقد النكاح دون الأب بحججه أنه مات فى حرب الفجار أو قبلها وهو خبر واه أضعف من بيت العنكبوت.

وفيها «هذه الخصوصية» فإن العلة تتضح بعد قراءة الأخبار الآتية:
«أخبرنا محمد بن عمر بغير هذا الإسناد أن خديجة سقطت أباها خمراً قال حتى سكر ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة فلما صحا قال: ما هذا العقير وما هذا العبير وما هذا الحبير؟ قالت: زوجتني محمداً. قال: ما

فعلت أنا أ فعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أ فعل^(٤٠).
محمد بن عمر الذي ورد اسمه في الخبر هو الواقدي أستاذ ابن سعد المشهور بكتاب الواقدي كما ذكرنا من الذي نفوا مقولته أن أبا خديجة خويلداً هو الذي تولى عقدة نكاحها بصفته ولها مما يقطع بأنه نقل أخباراً سمعها وليس خبر تزويع خديجة على يد عمها عمرو الذي نسب إليه فيما سبق هو رأيه الذي أعتقده وجزم به.

وفي الخبر أن الطاهرة سقت خويلداً خمراً حتى سكر وطبيته بطيب وخلعت عليه حلة حبرة وهي ثوب يمان من قطن أو كتان مخطط مزين لأن حبر الشيء زينه ونمقه مأخذ من الحبور وهو أثر النعمة والحسن والوشى^(٤١).

وفي حالة سكره البين وافق على الزواج فلما أفاق تساءل عن كل شيء: البقرة المذبوبة والطيب الفاتح والحلة اليمنية الفالية. فسارعت خديجة وأخبرته بأنه زوجها من «الزمزمي» فأنكر ذلك بل استكره وأتى ببرهانه وهو رفضها العلية من قريش فكيف يباعلها محمدًا!

وخلع خديجة على أبيها الحلة الحبرة نوع من الرشوة ليوافق على التزويع أما ذبح البقرة فهو من ناحية يشى بثراه أم هند الوسيع لأن العامة في مثل هذه المناسبة تذبح شاة يقال أولم بشاة، والوليمة هي طعام العرس.
ومن ناحية أخرى يقطع بأن سيدة نسون قريش انتابها فرح طاغ إذ يبدو أنها يئست من إتمام الزواج للأسباب العديدة التي ألمتنا إليها.

• • •

«في التبيهات على باب نكاح خديجة محمدًا أورد الصالحي الشامي ما يلى: وذكر الزهرى فى سيرته أن خويلداً أباهما هو الذى زوجها منه وكان قد سكر من خمر فألفت عليه خديجة حلة وضمّخته بخلوق فلما صحا من سكره قال: ما هذه الحلة وما هذا الطيب؟ فقيل له إنك أنكحت محمدًا خديجة وقد ابتنى بها فأنكر ذلك ثم رضي ووافقه ابن إسحق على ذلك»^(٤٢).

فى هذا الجزء أكد الصالحي الشامي صاحب السيرة الشامية وهى من أطول مؤلفات السيرة المحمدية الطيبة أن الزهرى أورده فى سيرته وأن ابن إسحق وافق عليه وهو «الخبر» لا يخرج فى مضمونه عن سابقه عدا أنه يعد توثيقاً لمسألة إسكار خويلد وإنكاره أنه رضى بنكاح خديجة محمدًا ثم رضاوه بعد ذلك ولعل مرده حدوث الدخول الفعلى.

أورد ابن سعد خبراً آخر عن ذات الموضوع بيد أنه أشد وعورة مما سبق:
«وأن أبا خديجة سقى من الخمر حتى أخذت منه ثم دعا محمدًا فزوجه قال وألفت على الشيخ حلة فلما صحا قال: ما هذه الحلة؟ قالوا كساكها ختنا محمد. فغضب وأخذ السلاح وأخذ بنو هاشم السلاح وقالوا: ما كانت لنا فيكم

رغبة ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك»^(٩٣).

في هذا الخبر معطى بالغ الخطير هو أن خويلا سقى خمراً^(٩٤) فلما صحا من سكره رفض الزواج بل غضب وأكثر منه أنه امتشق سيقه ليقاتل دون إمضاء القرآن وفعل بنو هاشم ذات الصنيع (=رفعوا أسلحتهم) وصرحوا بما تكهن صدورهم وهو عدم ميلهم لهذه المباغلة وكاد ينشب قتال بين الحسين «بنى هاشم وبنى أسد» لولا أنه كالعرف المستقر في قريش عدم نشوب قتال بين بطونها فانتهى الأمر إلى المصالحة.

وهذا الأمر يؤكّد ما قلناه إن هناك عقبات كبيرة وقفت في طريق الطاهرة تحول بينها وبين نكاح «ذى الميسّم» ومن اختمرت في ذهنه ذرة منريب فيما سطرناه يجيء هذا الخبر فيلقى اليقين في روّعه والاطمئنان في نفسه والتصديق في وجده أنه فيومن أن أم هند خاضت وقعة عنيفة لتغدو بعلاً لـ«المصلح» لتتولى به ومعه عملية الصقل والتدريب والتشذيب والسنفنة^(٩٥). ولتضيع على أرض الواقع وتشيئ في حيز الحقيقة الأمر الذي صدر لها (=خديجة) من مرجعية ذات مقام محمود بحتمية نكاح «المسد» وصيروتها بعلاً له.

«وقال خديجة له . يعني الليبب . قد أخبرنى ناصع غلامى به وبحيرا الراهب أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»^(٩٦).

قال الواقدى أيضاً إن خديجة أرسلت إلى النبي ﷺ تدعوه إلى نفسها تعنى التزويج فدعت أباها فسقته خمراً حتى ثمل ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة ثم أرسلت إلى رسول الله ﷺ في عمومته فدخلوا فزوجه . فلما صحا قال: ما هذا العقير وما هذا العبير «الخلوق» وما هذا الحببر «الحلة الحبرة التي ألبسته خديجة إياها» قالت: زوجتنى محمداً بن عبد الله . قال: ما فعلت أنى أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل . قال الواقدى: وهذا غلط والثابت عندنا أن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ وأن أباها هلك قبل الفجار وهو المحفوظ عندنا من حديث مسلم عن عائشة وعن ابن عباس»^(٩٧).

هذا الخبر أورده الطبرى فى تاريخه وتاريخ الطبرى مثل تفسيره يحظى بفائق الاحترام من أهل السنة والجماعة .

وبالإحالـة إلى ما ورد في عجز الخبر على لسان الواقدى فقد سبق لنا تفنيده والكشف عن عواره والإبانة عن خطئه وتوضيح خطله .

أما صدر الخبر فهو يؤكّد الأخبار السوابق في واقعة الإسكنار حتى الثمولة ويوضح أن ذلك تم بيد أم هند «فدعـتـ أباها فـسـقـتـهـ خـمـراـ حتـىـ ثـمـلـ» ثم عند صحـوهـ استـكـرـ الأبـ خـويـلـ حـادـثـ التـزوـيجـ وـتـعلـيلـهـ ذـلـكـ تـعلـيلـاـ .ـ يـبـدوـ منـطـقـيـاـ .

قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته فقال: بلى لعمري - فذكرت قول رسول الله ﷺ فقالت: أخذوا علينا إذا أصبحنا فعدونا عليهم فوجدناهم قد دبّحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة وصفرت لحيت وكلمت أخاهما فكلم أباه وقد سقى خمراً فذكر له رسول الله ومكانه وسأله أن يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً فقال: ما هذه الحلة وما هذه الصفرة وما هذ الطعام؟ فقالت له ابنته التي كانت كلمت عمّاراً هذه حلة كساها محمد بن عبد الله ختك وبقرة أهدتها لك فذبحناها حين زوجته خديجة فأنكر أن يكون زوجه وخرج يصبح في الحجر وخرج بنو هاشم برسول الله فجاؤه فكلموه - فقال أين أصحابكم الذي تزعمون أنى زوجته خديجة؟ فبرز له رسول الله ﷺ فلما نظر إليه قال إن كنت زوجته فسبيل ذلك وإن لم أكن فعلت فقد زوجته.

وقد ذكر الزهرى فى سيرته أن أباها زوجها منه وهو سكران وذكر نحو ما تقدم حكاہ السهيلي^(٦٨).

هذا الخبر ينفرد بميزة تفتقر إليها الأخبار السابقة وهي أنها رواية عمار بن ياسر خدْن «المترحم» وخله كما وصف هو نفسه - قبل الإسلام . وصاحبه ومن أخلص تبعه ومن السابقين للإيمان بعد دعوته وممن عذب بسبب إسلامه، ومن له هذه المناقب المنيفة من المستحيل أن يفترى هذا الخبر. أما الذي حمله إلينا فهو شيخ المؤرخين وشيخ المفسرين الطبرى وهكذا أحاطت بالخبر عوامل تأى به عن التزييف وتبعده عن التدليس وتحمييه من التزوير.

• • •

خمسة أخبار ضممتها مؤلفات تعد في الذروة السامة من دواوين السيرة الحمدية العظيمة؛ فلماذا ينبذها الكتبة المحدثون الذين ألفوا فيها ويتمسكون بخبر أعجف مهزول مشكوك في سنته وهو أن أبا خديجة مات في حرب الفجار أو قبلها أو في عامها وهذا تضارب يدعو إلى الشك فيه.
هل بسبب ما ورد فيه أن خديجة أسركت أباها حتى أخذه الثمل من كل أقطاره^(٦٩).

وماذا في ذلك؟

من ناحية: الطاهرة لم ترتكب محراً لأن المزة «الخمر» مباحة ولا تشريب على ساقيها وشار بها وكان تعاطيها شائعاً في الفترة السابقة على الإسلام .
ومن ناحية أخرى:

من مستلزمات الأغراض «الأفراح» تقديم الزرجون «الخمر» لشهوده وحاضريه سواء من أهل العروسين أو من المدعويين .
فإذا قدمت أم هند العروس وقد أخذتها فرحة عارمة الصرافية

«الخمر»^(١٠٠). لأبيها كضرب من التحية فإنها لم تفعل منكراً بل جرت على عرف مستقر وقت ذاك وربما حتى الآن «عند غير الملتزمين» فإذا انتهزها خويلد فرصة ليروي غليله وشرب منها نهلاً بعد عل وتعجب^(١٠١). فهذا ليس ذنبها «أم هند» ولا في مقدورها أذناك أن تحوشه^(١٠٢) فهو في نفس الوقت أبوها كما أنه ليس من اللائق أن تمنع العروس واحداً من حضروا الحفل من أكل أو شرب.

إذا سكر أبوها فقد وعيه فيما جريرتها في ذلك؟

(قال ميسرة: فأسرعت في العودة لأبشرها «سیدتی خديجة» فغمّرها السرور وأخذت في الاستعداد للزواج وأول ما فكرت فيه أن تحصل على موافقة أبيها الذي كان يرفض دون ما رحمة كل الطامحين إما أنهم ليسوا من ناحية الشرف أكفاء وإما لأن ثرواتهم أقل مما ينبغي لهذا استعملت ابنته في الوصول إلى ما تريد طريقة التحايل الآتية:

صنعت طعاماً وشراباً ودعت أباها ونفراً من سادات قريش ومحمدًا وأعمامه وكان خويلد يحب النبيذ حبًا جمًا فشرب منه حسب عادته أكثر مما ينبغي فانتهزت ابنته الفرصة وقالت: أبي إن محمد بن عبد الله طلبني للزواج وأرجوك الموافقة على ذلك، وكان خويلد تحت تأثير الخمر يأخذ الحياة من جوانبها السارة فقبل عرض ابنته بدون تفكير وما إن حصلت على رضاء أبيها حتى قامت حسب عادتهم إلى تعطير أبيها وألبسته حلقة نفيسة وصحا خويلد من سكره فسأل ابنته ما هذا؟ قالت: إنك يا أبت به عليم فقد قبلت زواجي بمحمد بن عبد الله. قال: أنا أزوجك اليتيم الذي كفله أبوطالب؟ كلاماً إن هذا لا يحدث ما دمت على قيد الحياة. قالت: لا تستحي أن تسفة نفسك عند قريش تخبر أنك كنت سكران، وضررت خديجة على تلك النغمة طويلاً حتى ارتبك واضطر إلى القبول النهائي^(١٠٣).

هذا الخبر يؤيد الأخبار الخمسة السابق ذكرها والتي حملتها شوامخ مؤلفات سيرة سيد ولد آدم، أن المزوج هو الوالد لا العم وأن إسكار الأول تم بتدبیر سيدة نساء الأرض «كما ورد في حديث للفخر» بل إن الخبر وصف فعلها بأنه «تحايل» وأنها بعد صحوه عزفت أم هند نفحة إقناعه وفي مقدمتها أن قريشاً سوف تغيره بسكره. كما أن هذا الخبر له قيمة ويحمل إマرة ثماناته ففضلاً عن أن مؤلفيه مسلمان أولهما مستشرق مسلم وحسن إسلامه فإن مترجميه أولهما غدا فيما بعد شيخا للأزهر «رأساً للمؤسسة الدينية الرسمية في مصر» وآخرهما «ثانيهما» أستاذ في الأزهر مما يجعلهما بمنأى عن التجريح والغمز واللمز.

هكذا أثبتنا أن امتناع الكتبة المحدثين عن ذكر هذه الواقعة وبسببها أصرروا

على رفض تولي خويلد مراسيم العقد نوع من الطفولة أو المراهقة الفكرية ومن أسف أن من بينهم أصحاب أسماء لوامع.

● ● ●

وإذ إن الكتبة المحدثين لا يقرأون بتدقيق ولا يطالعون بتمحيص ومن ثم فإن مؤلفاتهم محشوة بالعبارات البينانية والصيغ الإنسانية والجمل البلاغية فهي قراءة من البحث العلمي^(١٠٤) جراء من الدراسة الموضوعية.

إنهم لو قرروا أن العلة التي من أجلها استبعدوا الأب من مجلس العقد والولاية عن الزوجة ونعني بها =العلة= هي معاورته القهوة «الخمر» فهي متوافرة تماماً في العم الذي يصررون على أنه هو ولـيـ الطـاهـرـةـ خـديـجـةـ فـيـ عـقـدـ نـكـاحـهـاـ لـالـعـارـفـ.ـ العـابـدـ» وإذ إنـناـ لـأـنـقـىـ الـكـلـامـ عـلـىـ عـواـهـنـهـ بـلـ تـنـصـبـ لـهـ الدـلـيلـ فـإـنـاـ نـطـرـحـ أـمـاـمـ عـيـونـهـ الـخـبـرـ الآـتـيـ.

«قال لعمار: ارجع فواضعها وعدها يوماً ناتيها فيه فلما كان ذلك اليوم أرسلت إلى عمرو بن أسد فسنته ذلك اليوم ودهنت لحيته بدهن أصفر وطرحت عليه حبراً ثم جاء رسول الله في نفر من أصحابه تقدم أبوطالب فخطب أبوطالب فقال... إلخ فتروجها وانصرف فلما أصبح عمها عمرو أنكر ما رأى فقيل له هذا ختنك محمد أهدي لك هذا قال: ومتى زوجته؟ قيل له بالأمس، قال: ما فعلت. قيل له: بل نشهد أنك فعلت فلما رأى عمرو رسول الله قال أشهدوا أنت إن لم أكن زوجته بالأمس فقد زوجته اليوم...»^(١٠٥).

وليس ما رواه عمار بن ياسر هو المصدر الوحيد على أن خديجة سقت عمها الريفيق «الخمر» ليوافق على نكاحها لمحمد وهو أى عمها عمرو بن أسد مخمور، بل البلاذرى فى أنسابه ينفعنا بخبر آخر رواه عن الكلبى يوثق أن العم عمرأً أجاز المباولة أى أن تغدو الطاهرة بعلاً لصاحب السيف» وهو «سكران».

«قال الكلبى: بعثت خديجة سراً إلى النبي ﷺ أن أخطبنى إلى عمرو بن أسد وكان شيخاً كبيراً فأمرت شاة فذبحت واتخذت طعاماً ودعت عمها عمرأً وبعثت إلى رسول الله ﷺ فأتى معه حمزة وأبوطالب فأكلوا وسقت عمرأً ثم قالت لرسول الله ﷺ قل لأبي فليخطبنى فخطبها أبوطالب إلى عمرو فزوجها رسول الله على اثنين وعشرين أوقية ونشأ... والأوقية أربعون درهماً»^(١٠٦).

في الخبر الأول نجد أن الذى رواه هو عمار بن ياسر وقد سبق منذ قليل أنه أكد بين الأخبار الخمسة أن الأب خويلد هو الذى باشر العقد وفي هذا الخبر يوضح أنه العم فكيف السبيل إلى حل هذه الإشكالية؟

أما نحن فلا نرى أن فى الأمر أدنى إشكالية لأنك لو على مذهب القائلين بأن العم عمرأً هو متولى العقد فعليك أن تأخذ بشهادة الصحابى عمار أنه سُقِّيَ الهباء «الخمر» حين مضاه ولما أفاق من سكره أنكره.

أما إذا كنت مثلى تعتقد أن خوilyداً هو ولّي ابنته فى إتمام النكاح فالخطب يسير إذ نهضت عدة حجج على صحته.
الخلاصة إذن أنه على كل الفرضين تم العقد ووكيل الزوجة غائب عن وعيه تحت تأثير الشموم «الخمر».

بيد أنه لماذا فعلت سيدة نسوان قريش ذلك؟ الإجابة على هذا السؤال جاهزة إنها اضطررت اضطراً لأنَّه من الحتم اللازم أن تنكح «محمدًا» أى تتخذه زوجاً أى تصير هى بعله لأنَّها من جانب تعطى أمراً صارماً صدر لها - من سنوات كثيرة تفعل وسبق أن قدمنا دليلاً ثبوته.

ومن جانب آخر فإن مباعلة «الشدق أم البليغ المفوه» هي الطريق الأوحد لكن يغدو الزوج الابن أو الابن الزوج «وجود ربع قرن من الزمان هو فارق السن بينهما» وتسهل من ثم عملية التشكيل والإعداد والتهيئة وهذا هو الركن الأقل أهمية. أما الركن الجوهري والعمود الفقري فهو أنه ولا أحد غيره لا في قريش ولا في ثقيف ولا في غيرهما هو المرشح لكي يصبح «القادم المنتظر».

هذه هي السيدة خديجة الأرستقراطية ذات الحسب العريق والنسب الرفيع بنت أحد صناديد قريش ومن رهط قوى من النزوة والتي تملك الثروة الممدودة والمال العريض والتجارة الواسعة والمثقفة والتي ساعدت معرفتها بالقراءة والكتابة على مدها بمقومات الثقافة في زمانها والتي سمعت ما ردده الرهبان والأحبار الذين لابد أنها تعودت الاجتماع بهم فهى بربة تقابل الرجال الذين يجلسون عندها للحوار والحديث وعلمت منهم منذ سنوات أمر «القادم المنتظر»، وقرأت الصحف والإصلاحات التي ترجمها ابن عمها اللازق إلى اللغة العربية فتوثق لديها وترسب في وجданها أحدوثة الموعود المأمول ظهوره ثم دققت البصر في فتيان ورجال القبيلة حتى عرفته بالمعجزات التي سبقت مولده الشريف وحاليت ذلك الميلاد المدهش وما حدث بعده وظلت تعاصره مرحلة إثر مرحلة وكذلك بصفاته الخلقية «بضم الخاء» والخلقية «بكسر الخاء» وزاد الشأن سفوراً وتبياناً عندما أشار إليها المرجع العالى المقام السامي الرتبة الرفيع الدرجة بأن هذا الصبي أو الشاب هو المأمول والمنتظر وأن عليها أن تنكحه.

وهنا قررت أن تباعله وصممت على زواجهها منه وبذلت فى ذلك كل وسعها وطاقتها حتى ظفرت به وقد سطرنا فيما سلف الأفاعيل التى قامت بها فى هذا السبيل.

وذلك أيضاً هو رأى اليусوب لأنَّه فقه أن نكاحها إيهام مع فارق العمر الذى يبلغ كما ذكرنا خمسة وعشرين عاماً سوف يؤدى بطريق الحتم واللزوم إلى نجاح عملية تحويله من يتيم قريش كما وصف نفسه لديها أو يتيم أبي طالب

حسب تعبير والدها إلى ذلك الذي تتطلع إليه العيون في اشتياق وترقبه القلوب مع نفاد صبر، ولذا فما إن المحت سيدة نساء الأرض إلى القس بعزمها على نكاح «المطاع.المطاع» حتى هرول إلى الموافقة وأسرع إلى القبول وبادر إلى التبريك، وهذا ما حكاه لنا الدكتور طه حسين في كتابه المعجب «على هامش السيرة»: «ولكن خديجة استبقيته «ورقة» قائلة: أقم فإن حديثي لم ينته قال ورقة أقدمي يا ابنة عم على ما تدرين في نفسك لا تحجمي ولا تترددي فأنت أسعد نساء قريش بل أسعد نساء الأرض إن أتم الله لك.. وتلطفي في تدبير أمراك فإن أحبت توفيقاً فاذنني بذلك فإني أتمنى أن تكون لي يد ما في هذا الزواج الذي سيكون له في حياة الناس أسعد الأثر وأبقاء^(١٠٧).

ولقد أحسن العميد وأجاد في تصوير موقف اليهوس من أمر الزواج، زواج «المتصريع في الدعاء» من الظاهرة، فهو ما نصحتها بالتلطف في تدبير أمراها إلا أنه يعلم أن هناك صعوبات كأداء سوف تقف في طريقها، وصرح بحرصه على قيامه بدور في هذه المناكحة وهو ما حدث بالفعل كما سنوضحه بعد سطور . بيد أن الأخطر والأهم والأوغر هو تقريره بأن هذا الزواج سيغدو غائر الأثر في حياة الناس لأنه سيسهل عليهما «أم هند والقس» فلاج التجربة التي سيقومان بها والتي سوف تغير تاريخ المنطقة وما حولها تغييراً كلياً ولقد صدق القس في مقاله.

المواهش

- (١) وجدت آنذاك في وسط وغرب جزيرة العرب اشتان وعشرون كعبة بخلاف التي في قرية القدسية بكة .أ.هـ.
- (٢) مع المصطفى في عصر المبعث: لـ بنت الشاطئ ص ١٨ وما بعدها.
- (٣) السيرة النبوية لـ ابن إسحاق، المجلد الأول ص ١٨٢ ، ط أخبار اليوم.
- (٤) في المعجم الوسيط: كبش الشيء كبشا . تناوله بجمع يده أ.هـ.
- (٥) السيرة النبوية: لـ ابن كثير، الأول ص ٤٠٧ وما بعدها.
- (٦) في القاموس المحيط لـ فيروز آبادي، وفي المعجم الوسيط: نتشن الشيء، جذبه واستخرجه والعلامة في مصر تستعمل الكلمة في ذات المعنى أ.هـ.
- (٧) في القاموس المحيط لـ فيروز آبادي: نتشل الشيء، انتزعه بسرعة أ.هـ.
- (٨) تناولت سنهما ما بين الأربعين والستين والأربعين حسب الروايات التي ذكرتها كتب السيرة المحمدية التي هي أعلى من تقاض الشام مضرب المثل في الحالوة.
- (٩) الكاهنة: سميت بذلك لأنها تستثنى الأخبار أي تبحث عنها أو هي تستحدث الأمور وتجدد الأخبار. من تاج العروس من جواهر القاموس للزيدي .أ.هـ.
- (١٠) العامة تقول مزنق أ.هـ.
- (١١) كلمة عربية فصيحة.
- (١٢) لا زال حتى الآن بعض رجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية يبوس «كلمة فصيحة» أتباعهم أيامهم كلية البركة أ.هـ.
- (١٣) لخم فلانا شغله بما ثقل عليه. أ.هـ.
- (١٤) تاريخ الطبرى: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثاني، ص ٢٨١.
- (١٥) الروض الأنف للسهيلى: ص ٢١٤ سابق.
- (١٦) إمتناع الأسماء (الأول) المقريزى ص ٣٦ .
- (١٧) السابق ص ٣٦ .
- (١٨) المستدرک للحاکم التیسابوری الحديث ٤٢٤، ٤٢٤ المجلد الثالث سابق. وقال عنه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
- (١٩) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية: د. فاطمة محجوب، المجلد الرابع والعشرون حرف الزين ص ٥٩٣ وما بعدها، الطبعة الأولى، دتن الناشر: دار الغد العربي، بمصر.
- (٢٠) أخرجه الدولابى: السمعط الثمين للمحب الطبرى، ص ١٢، ١٣ ، ط الكليات الزهرى.
- (٢١) عيون الأثر لـ ابن سيد الناس: ص ٥٠ المجلد الأول، سابق.
- (٢٢) زوجات الرسول ﷺ: أصلان عبد السلام حسن، ص ١١ .
- (٢٣) السيرة الشامى: للصالحي، الثاني، ص ٢٢٥ .

- (٢٤) أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير الجزري، تحقيق محمد إبراهيم البنا وأخرين، المجلد السادس، كتاب النساء، ص ٨٠، دار الشعب بالقاهرة.
- (٢٥) كتاب المسالك والمالك: لأبي عبيد البكري تحقيق وتقديم وفهرست أدريان فان ليوفن واندري فيري، الجزء الأول فقرة ٨٤ من إصدارات بيت الحكمة مع وزارة الثقافة.
- (٢٦) دراسات في السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وأخر، ص ٨١، ٨٢، سابق.
- (٢٧) عيون الأثر: لابن سيد الناس الأول، ص ٤٧ سابق.
- (٢٨) السيرة الشامية: للصالحي الشامي ص ٢١٥.
- (٢٩) الأملط الذي لا ريش أو شعر له، أ.هـ.
- (٣٠) إمتناع الأسماع: للمقرizi الأول، ص ٣٦.
- (٣١) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول من ١١٢، «حياة محمد» لهيكل ص ١٣٧، «محمد التاثير الأعظم» لفتحى رضوان ص ٨٩.
- (٣٢) الافتقار إلى النضج أ.هـ.
- (٣٣) في المجمع الوجيز: الباسم دواء تضمن به الجروح أ.هـ.
- (٣٤) المستدرك للحاكم التسافوري: الحديث رقم ٤٨٤٠-٤٨٤٣ المجلد الثالث.
- (٣٥) أسد الغابة لابن الأثير الجزري، كتاب النساء، المجلد السابع، ٧٦١٢، ص ٤٤، ط كتاب الشعب بمصر.
- (٣٦) حياة الصحابيات: د. حمزة التشرنى وأخرين، ص ١٤٨ وما بعدها.
- (٣٧) المرجع ذاته ص ١٥٠.
- (٣٨) السُّكُن: البئر الضيق الخرق وسد الشيء والدرع الضيقة الحلق من «القاموس المحيط» للفيروز آبادى، والعامة فى مصر تقول هذا الرجل سَكَنة أى قليل القيمة، أو درجة ثانية أ.هـ.
- (٣٩) **أولاً: المصادر أو الكتب التراشية:**
١. السيرة النبوية لابن إسحاق، الأول، ص ١٥٣.
 ٢. السيرة النبوية لابن هشام الأول، ص ١٩٣.
 ٣. السيرة الشامية للصالحي الشامي الثاني، ص ١٤.
 ٤. الخصائص الكبرى للسيوطى الأول، ص ٢١١.
 ٥. عيون الأثر لابن سيد الناس الأول، ص ٤٧.
 ٦. تاريخ الطبرى: الطبرى الثانى، ص ٢٨١.
 ٧. السمط الثمين: المحب الطبرى، ص ٣٢.
 ٨. الوها بأحوال المصطفى لابن الجوزى الأول، ص ١٤٣.
 ٩. السيرة النبوية للذهبي، ص ٣٠.
 ١٠. إمتناع الأسماع للمقرizi الأول، ص ٣٦.
 ١١. أنساب الأشراف للبلاذرى الأول، ص ٩٧.
- ثانياً: المراجع أو المؤلفات الحديثة:**
١. على هامش السيرة لطه حسين الثاني، ص ١٤٨.
 ٢. محمد لتوفيق الحكيم، ص ١٥.
 ٣. محمد رسول الله لناصر الدين آتين دينيه، ص ٩٥.
 ٤. نساء النبي لينت الشاطئ، ص ٢٧.
 ٥. الرسول فى بيته لعبد الوهاب حمودة، ص ٧.
 ٦. نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين للحضرى، ص ١٨.
 ٧. محمد رسول الله لجلال مظہر، ص ٤٥.
 ٨. حياة سيد المرسلين للأبراши، ص ٢٢.

٩. موسوعات أمهات المسلمين لعبد الصبور شاهين وأخرى، ص ٧٥.
١٠. أوائل العرب، الأول لحبوش، ص ١٠٩.
١١. دراسات في السيرة وعلوم السنة لموسى شاهين وآخر، ص ٨١.
- (٤٠) أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول، ص ٩٧.
- (٤١) زوجات الرسول ﷺ: لأصلان عبد السلام حسن، ص ١١ سابق.
- (٤٢) أنساب الأشراف: للبلاذري، الجزء الأول، ص ٩٩، مصدر سابق.
- (٤٣) أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول ص ٩٨.
- (٤٤) عيون الأثر: لابن سيد الناس، المجلد الأول ص ٤٩، د. ت الناشر دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- (٤٥) القاموس المحيط: للفيروز أبيادي.
- (٤٦) المصباح المنير: للمقرئ الفيومي والجاسوس والجسيس من يتجمس أخبار الأعداء وتتجسس الخبر جسه «المجم المحيط».
- (٤٧) **أولاً: المصادر:**
١. السيرة الشامية: الصالحي الأول، ص ٢٢٢.
 ٢. عيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٤٩.
 ٣. الطبقات الكبرى الأولى لابن سعد، ص ١١٣.
 ٤. أنساب الأشراف: للبلاذري الأول، ص ٩٩.
- ثانية: المراجع:**
١. على هامش السيرة: طه حسين الثاني، ص ١٧٨.
 ٢. محمد رسول الله: ص ٣٩، محمد رضا.
 ٣. حياة محمد: هيكل، ص ١٢٨.
 ٤. محمد الثائر العظيم: فتحي رضوان، ص ٩٢.
 ٥. دراسات في السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وأخر، ص ٨٣.
 ٦. الرسول ﷺ: لمحات من حياته وتفحصات من حياته: عبدالحليم محمود، ص ٧٠.
 ٧. موسوعة أمهات المؤمنين: عبد الصبور شاهين وأخرى، ص ٧٨.
 ٨. محمد رسول الله ﷺ: جلال مظہر، ص ٤٥.
 ٩. محمد: لتوفيق الحكيم، ص ١٧.
 ١٠. حياة سيد المرسلين: الأبراши، ص ٢٣.
 - (٤٨) الوزورة: مقاربة الخطوط وسرعة الوثب، من القاموس المحيط للفيروز أبيادي.
 - (٤٩) العامة في مصر يقولون: انكشف الملعوب أهـ.
 - (٥٠) السيرة الشامية: للصالحي الثاني، ص ٢٢٢.
 - (٥١) الروض الأنف: للسهيلي الأول، ص ٢١٤.
 - (٥٢) نساء النبي: بنت الشاطئ، ص ٣٢.
 - (٥٣) في مصحف عبدالله بن مسعود «المتزمل» انظر كتاب د. عبد الصبور شاهين «تاريخ القرآن» ص ١٤١ من الطبعة الأولى ١٩٦٦م، دار القلم الناشر، الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص ٢١٢، ٢١١ من الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٤م والناثر هو المؤلف.
 - (٥٤) السيرة النبوية: لابن كثير الأول، ص ٢٥١.
 - (٥٥) تاريخ العقوبي: الثاني ص ٢١، ٢٠.
 - (٥٦) السيرة الشامية: للصالحي الشامي الثاني، ص ٢٢٢.
 - (٥٧) الطبقات الكبرى: لابن سعد الأول، ص ١١٣.
 - (٥٨) تاج العروس من جواهر القاموس: الجزء الأول للزبيدي.
 - (٥٩) ويقال للمرأة أيضاً بعلة، من مختار «الصحاح للرازي».

- (١٠) ثمار القلوب في المضاد والمنسوب: لأبي منصور الثعالبي النيسابوري، ص ٢٢ سابق.
- (١١) الحلوان بالضم: العطاء، من «الصباح المنبر» للمقرئ الفيومي، العامة في مصر تقول: الحلاوة.
- (١٢) محمد رسول الله: لناصر الدين آتين دينيه وسلیمان ابراهیم بتعریف الشیخ عبدالحليم محمود وابنه، ص ٦٧.
- (١٣) إمتاع الأسماء: للمقریزی الأول، ص ٣٧.
- (١٤) في المعجم الوجيز: فنخ العقد لم يمضه والعامنة في صعيد مصر يتداولون فيما بينهم هذا اللقطة بذات المعنی. أ.هـ.
- (١٥) في المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية: أقن الشيء، أفتا، نقص.
- (١٦) يقال فلان بطاعة لفلان أي مداخل له مؤسس «المجم الكبیر» مجمع اللغة العربية.
- (١٧) الولیجۃ من تتخذه معتمداً إلیه من غير أهله من «المعجم الوسيط» مجمع اللغة العربية.
- (١٨) في المعجم الوسيط: المحضر كل شيء خلص حتى لا يشوه شيء يخالطه.
- (١٩) في المعجم الوجيز: زيدة الشيء، خلاصته.
- (٢٠) شكل الأمر التبس: القاموس المحيط للفیروز أبادی.
- (٢١) السیرة الشامیة:الجزء الثاني، ص ص ٢٢٤-٢٢٢.
- (٢٢) السیرة النبویة: لابن إسحاق،الجزء الأول، ص ص ١٥٣، ١٥٤ تحقيق طه عبد الرؤوف وبدوى طه، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ط أخبار اليوم.
- (٢٣) مولد النبي: للبرزنجی، ص ١٣.
- (٢٤) عيون الأثر: لابن سید الناس، الأول، ص ٤٩.
- (٢٥) سیرة ابن هشام: الأول، ص ١٩٥، تحقيق السرجانی طبعة ١٩٧٨، المکتبة التوفیقیة بمصر.
- (٢٦) السیرة النبویة: لابن إسحاق،الجزء الأول، ص ١٥٤، ط أخبار اليوم بمصر.
- (٢٧) تاريخ الطبری: الثاني ص ٢٨١.
- (٢٨) في القاموس المحيط: متح الماء، نزعه.
- (٢٩) تاريخ الیعقوبی: الثاني، ص ص ٢٠، ٢١.
- (٣٠) السیرة الشامیة: الثاني، ص ص ٢٢٥-٢٢٧.
- (٣١) السیرة النبویة: للذهبی، ص ص ٣٢-٣٠.
- (٣٢) محمد التأئ الأعظم: فتحی رضوان، ص ص ٩٣، ٩٢.
- (٣٣) السمیدع: السيد الموطا الأکناف من کتاب «تفقیف اللسان وتفقیح الجنان» لابن مک الصقلی ص ١٢٧، أما في «القاموس المحيط» للفیروز أبادی فهو السمیدع بالذال المعجمة.
- (٣٤) تاريخ الطبری: الثاني، ص ٢٨١.
- (٣٥) أنساب الأشراف: البلاذری، ص ص ٩٧-٩٦.
- (٣٦) هامش ص ١٩٥ من سیرة ابن هاشم، الأول، بقلم السرجانی الذي حقق الكتاب طبعة المکتبة التوفیقیة.
- (٣٧) السیرة النبویة: ابن کثیر، الأول، ص ص ٢٦٦، ٢٦٧.
- (٣٨) جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم «المعجم الوسيط».
- (٣٩) الججاج جمع ججاج وهو السيد المسارع إلى المکارم من «أساس البلاغة» للزمخشري.
- (٤٠) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١١٣.
- (٤١) وهي ثوب يمان من قطن أوكتان مخطط مزين لأن حب الشيء زينه ونمقة مأخذ من الحبوب وهو أثر النعمة والحسن والوشاء من المصباح المنير والمجم الوجيز والقاموس المحيط».
- (٤٢) السیرة الشامیة:الجزء الثاني، ص ص ٢٢٧-٢٢٥.
- (٤٣) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١١٣.

- (٩٤) جاء الفعل مبنياً للمجهول ولستنا في حاجة إلى زكانته لمعرفة ساقيه الخندريس أو الخمر. أ. هـ.».
- (٩٥) الصنفورة ورقة مرممة يلمس بـالخشب، من المجمـع الـوجـيز.
- (٩٦) السيرة النبوية: ابن كثـير، الأول، ص ص ٤٠٧ - ٤١٠.
- (٩٧) تاريخ الطبرـي: الثاني، ص ٢٨١، صفحـة ٢٥٧.
- (٩٨) السيرة النبوية: ابن كـثير، الأول، ص ص ٢٦٧، ٢٦٦.
- (٩٩) العامة في مصر تقول: «سـكران طـينة».
- (١٠٠) أسماء الخمر التي وردت في هذه الفقرة من كتاب «نظام الغريب في اللغة» ص ٩٤ مصدر سابق.
- (١٠١) في المعجم الوسيط: تعـب الشـراب تجـرهـه بكـثرة وأـلح فـيه حتى فـقد وـعيـه. أـهـ، والعـامة في مصر تقول: «سـكرـسـكـرة يـنـيـ».
- (١٠٢) تـمعـنهـ وهيـ كـلمـةـ فـصـيـحةـ.
- (١٠٣) محمد رسول الله: الآئـينـ دـينـيـهـ نـاصـرـ الدـينـ وـسـلـيمـانـ بـنـ إـبرـاهـيمـ، تـرـجمـةـ الشـيـخـ عـبدـالـحـلـيمـ مـحـمـودـ وـابـنـ الشـيـخـ مـحـمـدـ، صـ صـ ٩٨ـ٩٦ـ، طـ أولـىـ ١٩٧٩ـمـ، دـارـ المـعـارـفـ بـمـصـرـ.
- (١٠٤) في المعجم الوسيط: قـرعـ الـفـنـاءـ، خـلاـ منـ السـاكـنـينـ.
- (١٠٥) تاريخ اليعقوبي: الثاني، ص ص ٢١، ٢٠.
- (١٠٦) أنسـابـ الأـشـرافـ: البـلـادـزـيـ، صـ صـ ٩٧ـ٩٩ـ.
- (١٠٧) على هامـشـ السـيـرةـ: طـهـ حـسـينـ، الثـانـيـ، صـ ١٧٧ـ سـابـقـ.

الفصل الثاني

الأم الرؤوم

الأم الرؤوفة فاتحة أطوار التجربة

فى الفرشة ذات الطيتين والثى نأمل لا يسامها القارئ لطولها النسبى إذ حاولنا أن نوصل إليه ما يعينه على استيعاب الفكرة الرئيسة التى يدور حولها الكتاب فطرحنا فيها «الفرشة» ما نعده إرهاصات لها =«لفكرة الرئيسة» تجمع بين القادر(١) والمدماك إذ إنها تمهد لها وتحبكتها أى تشدق إزارها فى نفس الوقت.

ولقد أدرك الأقدمون ذلك وهذا يتضح بسهولة فى كتبهم التراثية التى خلفوها لنا والتى ذكروا فيها كل الواقع حتى التى يسرع إلى الذهن أن فيها ما فيها مما يحمل أو يستحسن ستره أو إخفاؤه.

بعكس الكتبة المحدثين الذين فعلوا النقيض، بل إن الأمر وصل ببعضهم إلى حد التدليس أحياناً والتلفيق أحياناً أخرى والتبرير والتسويف ولدى أعناق النصوص أحياناً ثلاثة. نقول إن القدمى أدركوا حقيقة العلاقة بين «سيد الناس وديان العرب» كما قال له الأعشى فيما بعد ومعنى به محمداً وبين سيدة النساء خديجة إذ لم يخف عليهم شعور البنوة الذى أبداه محمد، نحوها وعاطفة الأمة الفياضة بالحنو التى سكبتها عليه.

وفى بدء التجربة . وقد عدت ذلك من بشائر نجاحها . ما إن يلقى محمد ملاك الرب جبريل فتتلقاء بين ذراعيهما وتأخذه فى أحضانها وتهدهده وتطمئن فؤاده وهى تفعل ذلك كما الوالدة على ولدها .

ومن جانب آخر كيما تثبته حتى لا يتوقف فتفسد التجربة بأسرها وتذهب هباءً منثوراً أدرج الرياح كل الجهد الذى بذلتها والأموال التى أنفقتها . . . ثم انصرف «=ملاك الرب جبرائيل» ثم انصرفت إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيماً إليها . يعني ملتصقاً(٢) .
ونكتفى بهذا العدد من المصادر والمراجع .

فى هذا الخبر ما إن فارق ملاك الرب «الصين.المصون» حتى سارع إلى الطاهرة جالساً على فخذها ملتزماً بها شأن الابن الصغير مع أمه الحبيبة

الشفيقة عليه وهي تدعه جالسًا على فخذها وتحضمه إلى صدرها بقوه وحنية.
وهنا يتبعين علينا أن نتذكر أن محمدًا في الأربعين من عمره أو الثالثة
والأربعين على مذهب من يقول إن إسراويل «وفي رواية ميكائيل» لازمه ثلاثة
أعوام قبل جبرائيل، ومع سلخه هذه السنوات من عمره المبارك فقد ظل يشعر
نحو أم هند بشعور الابن نحو أمه الحنون.

لماذا؟ لأن سيدة قريش تعاهدته به «هذا الشعور» منذ أول لحظة نكحته
فيها واستدام معه ينمو بنموه ويكبر معه حتى طور الكهولة لأن من شب على
شيء شاب عليه، والمحب الطبرى يخبرنا في «السمط الثمين» أن محمدًا بنى
خدية وهو ابن احدى وعشرين سنة (ص ١٤) ولو أنه يضيف: وقيل خمس
وعشرين وعليه الأكثر.

والمحب الطبرى ليس وحده هو الذي ذهب إليه «ابن إحدى وعشرين سنة»
بل العديد من الأقدمين والمحدثين شاركه فيه.

• • •

أما المحدثون الذين ألفوا كتاباً في السيرة المحمدية التي تتضمن مسماً فقد
تناولوا العلاقة بين الزوجين المباركين لكن تفاوت منهجهم تفاوتاً كبيراً.
فمثلاً نرى كارين أرمسترونج وهى كما يشي به اسمها من الفرنجة أثبتت
أنها على قدر لا يأس به من الأمانة العلمية: «ألقى محمد بنفسه في حجرها
«خدية» وهو يزحف على يديه ورجليه بينما يرتعد الجزء الأعلى من جسده..
فأخذته خدية بين ذراعيها وهى تخف عنه وتحاول أن تبعد عنه الخوف..
وفيما بعد كان يتلقى الرؤى إلى جانب الجبل وكان أيضاً في كل مرة يسرع
إلى خدية راجياً إياها أن تحتضنه وتذرئه في عباءته.. لكن خدية لم تكن
شخصية أم تبعث الطمأنينة فحسب... إلخ^(٣).

أما الكتبة المحدثون العرب فقد ألحوا ولم يصرحوا وجمجموا ولم يبينوا:
«... وكانت خدية ربة البيت تستقبله بوجه مبتسم ونفس راضية وقلب
يحتوا عليه ثم يحيطه بكل أنواع الرعاية...»^(٤).

هذا كل ما قدر عليه المؤلفون، إنهم يصفون ما صدر عن أم هند: الاستقبال
بالوجه المبتسم والنفس الراضية وحنون القلب والتحويط بكل أنواع الرعاية..
وترکوا لفطانة القارئ لكي يترجمه بشعور الأم نحو ولدتها ولا تشريب عليهم
إذ فعلوا لأن عاطفة الوالدة إذا اقتربت بحنون الزوجة أضاف إلى رصيدها زيادة
وضاءعف مكانتها، وكانت هي «أم هند» في الأربعين من عمرها «أى عند
مبالغتها أو نكاحها لمحمد أ.ه.». فغوضه الله سبحانه وتعالى عن أمه التي
فقدتها في صدر حياتها وقت الحاجة إليها بزوجة وأم وخير رفيقة في الحياة^(٥).
«... ووهبته ما تملك في سبيل الدعوة وكانت له الصدر الحنون ساعات

روعه ومحنته.. وظلت إلى جانب الرسول ﷺ تعااضده وتعينه»^(١).
ورغم أن خديجة نفتحت محمدًا في ساعات المحن وأيام المحن صدرها
الحنون ولم تقتصر على أوقات الأزمات مما يدل على خطأ حبوش في تحجيره
وصرفه لزمن الشدة فحسب فإن عبارته كشفت عن تفطنه إلى كنه العلاقة بين
«راكب الجمل» و«خديجة وأحرى بحبوش أن يقيمهما» =«العلاقة» ويسطرها في
كتابه، ومنهم من قال:

«تزوج محمد من السيدة خديجة بنت خويلد التي وهبته إخلاصها
وحنانها»^(٧).

وباخت آخر لا يكفي بهبة الطاهرة محمدًا حنانها وإخلاصها بل قال عليها
«إنها لتذوب رحمة به وحنانًا وإشفاً عليه وخوفاً»^(٨). والذى لا مشاحة فيه أن
الأم هي التي تذوب رحمة وحنانًا وإشفاً وخوفاً على ابنها الوحيد الذى لا
ثاني له أما الزوجة فإن شعورها لا يصل إلى هذا المرقى العالى والذروة المرتفعة
ولا يتجسم هذا المصعاد الجهيد.

بيد أن الكاتب نكص على عقبه ولم يمض حتى آخر الشوط فيضع تحت
نظر القارئ أو بمعنى أوضح ينقل إليه ما استبان له من حقيقة الصلة الوشيجة
التي ربطت بين «الشهم» والسيدة الطاهرة.

مثل العرب الذى يقول: «قطعت جهيزه قول كل خطيب» ينطبق على الدكتورة
عائشة عبد الرحمن أو بنت الشاطئ، وهى كما يعرف القارئ كاتبة إسلامية أو
مفكرة إسلامية ذات مقام محمود اتسمت فى تناولها لهذه النقطة بقدر وفير
من الشجاعة الفكرية فقد أكدت بوضوح لا لبس فيه أن شعور خديجة نحو
محمد هو شعور الأم التى تفيض حناناً وعطافاً وحبًا ورئماناً على ولدتها الذى لم
ترزق بغيره.

وهذا بعض ما ذكرته: «... فأمسك الشاب اليتيم دمعة كادت تخونه وهو
يذكر ما ذاق من حرمان منذ أن تركته أمه فى السادسة من عمره صبياً ل تعرض
عليه لكي يتقدم ليخطبها إذ إنها راغبة فى نكاحه. أ.هـ.» وتدت عيناً محمد
وهو يفتقد أمه آمنة فإذا يد لطيفة رقيقة تأسو الجرح القديم فى حنان غامر»
(ص ٣٢).

«... وضمته إلى صدرها وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة فى قلبها ..
واستشعر الراحة والطمأنينة وهى تقوده فى رفق إلى فراشه فتنبضه فيه كما
تفعل أم بطفلها الوحيد ثم تهدده بصوتها الحلو وتتشير على مضجعه أنسى
الأحلام» (ص ٣٦) .. «وتلقته خديجة من صحوه بين ذراعيها وحدثه بما سمعت
من ورقة بن نوفل . المرجعية الذى طلقه يتتابع التجربة عن كثب ويشير على
الطاهرة بما تفعله فى كل مرحلة. أ.هـ. فرنا محمد ﷺ إليها ملياً بنظره تفيض

شكراً وامتناناً» (ص ٣٧)^(٩).

لقد أجادت وأبدعت بنت الشاطئ في وصف العلاقة بين خديجة ومحمد وربما يرجع ذلك إلى أن الدكتورة عائشة تحس بشعور الأم لأنها أنس وأم.. والعبارات التي أورتها في توصيف الرابطة تتطق بذاتها وليس في حاجة إلى شرح أو توضيح.

بيد أن الذي غاب عن المؤلفة في هذه الخصوصية مع أنها فطنة لبيبة أن هذا الشعور الدفاق الذي دلقته أم هند مبعثه ليس شعور الأمومة فقط إنما يضاف إليه حرصها المكين على فلج التجربة التي بدأتها مع «صاحب الرداء» منذ ما يقرب من عشرين عاماً فهذا الشعور له أثر السحر على محمد البيت الذي حرم منه وهو صغير فدفعه أن يقدم المزيد من التوافق مع السيدة الطاهرة. وهو ركن جوهري لا غنى عنه كيما يكتب للتجربة الظفر الكامل والفوز المبين.

● ● ●

من له أدنان فليسمع من له عينان فليبصِر ومن له عقل فليتدبر ومن له فهم فليفقه ومن له بصيرة فليدرك.

إذ ربما ينبرى لنا قارئ فلحاوس من إياهم^(١٠). من باب المعاندة وبقصد المخالفة ولجرد المفارقة ويدعى على غير وجه حق أن ما طرحته آنفًا ليس فيه مقنع بأن «الحبيب المصطفى» نظر إلى الطاهرة نظرة الابن لأمه الحنون ولا أنها عاملته كما تعامل الوليد الوحيد أو أنها أغدقته عليه فيوضاً من حنانها أو أغرقته في بحار عطفها أو حوّطت عليه بيرها. حقيقة ربط بينهما ود متبدل بيد أنه لم يخرج عن دائرة ما يحدث بين زوج وزوجة ولم يغادر نطاق ما بين بعل وبعلته^(١١).

ولكى نقطع عليه طريق المشاكسة ولكن نسلك عليه منفذ المعارضة فإننا نضع تحت باصرته هذا الخبر: «قال محمد يا خديجة هذا جبريل، قالت: يا ابن عم قم فاجلس على فخذى اليسرى فجلس قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فاقعد على فخذى اليمنى فجلس على فخذها اليمنى قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فاجلس فى حجرى ففعل، قالت: هل تراه؟ قال: نعم فتحسست وألقت خمارها ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: اثبت وأبشر فوالله إنه ملك وما هذا بشيطان^(١٢).

وهناك إضافة للخبر المذهل:... يومنا عن ابن اسحق قال: فحدث عبد الله بن الحسن «بن الحسن بن على بن أبي طالب» فقال: سمعت فاطمة بنت حسين «وهي أمه» تحدث بهذا الحديث عن خديجة إلا أنى سمعتها تقول: أدخلت رسول الله عليه السلام بينها وبين درعها «يعنى قميصها» فذهب عند ذلك جبريل عليه

السلام^(١٢).

وتكلمة أخرى لذات الخبر المعجب: وهي أن اختبار الآتى لمحمد أو تعبير السيدة الطاهرة «صاحبك» لمعرفة هل هو من الملائكة أو من الشياطين أنسج يارشاد ورقة بن نوفل^(١٤).

والقس كما رأينا هو «مدير المتابعة» بالتعبير الحديث لـ«التجربة» المذهلة التي تقودها وتتفذها بدقة ومثابرة سيدة قريش.

بيد أن ورقة لم يأمرها سوى بالتحسر أى نزع الخمار أما إجلال «المعظم» على فخذيها ثم على حجرها ثم إدخاله فى قميصها فهذا من إبداعها وصنعها. لما ذكرنا

مرجعه إلى شعورها بعاطفة الأمومة الذى غدا طاغيًّا تجاه «الخالص» حتى بعد أن ناهز الثالثة والأربعين هذا من جانبها.

أما من جانب «الخاشع» فلاشك أن القارئ لم يفته أنه أصبح مثلاً فاذًا في المطاوعة والملائنة. اجلس على فخذى يجلس - تعال فى حجرى.. يأت. ادخل بين قميصى وجسدى.. يدخل.

وهذا له دلالة من لديه ذرة من زكانة أو مسكة من فطانة على أن «الخاضع» غدا ينظر إلى زوجته نظرة الابن إلى أمه الحبيبة الذى يرى سعادته فى برها ومهماودتها وأن ما تأمر به واجب النفاذ العاجل لأن الوالدة الحنون لا تشير إلا بكل ما هو فى صالحه ولفائدته حتى ولو لم يعرف كنه الطلب ولا مغزى الأمر. فهنا نجد صورة نادرة أشد الندرة للتفاتى فى المحبوب بل للفاء فيه حتى إنها تذكرنا بالتعبير الشائع: «جسمدان فى روح واحدة» ونسائل: هل هو حلول أم فتاء أم اتحاد؟

آخر ما شئت إنما الذى لا مشاحة فيه أنها صورة أندى من الكبريت الأحمر كما يقال فى حب الزوج الابن أو الابن الزوج للزوجة الأم أو الأم الزوجة.

• • •

ولا نريد أن ننمط سيدة النساء حقها فى هذه الخصوصية وحتم علينا أن نقر ونعترف بمهاراتها عديمة الضريب فى المزج الرائع بين الأمومة الفياضة بالحب والحنان وبين الإعداد الدقيق لتلقى التجربة ولو لا هذا الخلط البارع الذى طالعنا آياته^(١٥) منذ قليل لما قدر لها «التجربة» الفلح الذى ملأ الدنيا وشغل الناس منذ أربعة عشر قرناً ومازال يشغلهم حتى الآن وربما لأمد بعيد ما لم تتبدل جذریًّا أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وما لم يتخلل حراس الإسطير المخيم وحالات التراث المبارك عن أماكنهم الميمونة.

• • •

بعد الرحلة المباركة التى قطعتها السيدة خديجة انتقلت روحها الطاهرة إلى

بارئها راضية مرضية بعد أن هدأ المرض وسوء التغذية طوال مدة الحصار الذي فرضه عليهم طواحيت قريش الذين خلت قلوبهم من الرحمة والإنسانية ورغم أنها ليست من بنى هاشم إلا أنها أثرت أن تظل بجوار بعلها وابنها الحبيب شاطره الشدة وتقاسمها المحنـة وتشاركه العسرة.

ذاك موقف يعجز القلم عن تصويره، فالسيدة البالغة الثراء المنعمـة المترفة التي عاشت في رغد وباهـنية لم تـشـأ لها أخـلاقـها السـاميـة أن تـترك «الأـوـاهـ» وحـدهـ يـعـانـيـ مشـقـاتـ الحـصارـ الـظـالـمـ ولكنـهاـ لمـ تـتـحـمـلـ لأنـهاـ نـاهـزـتـ الخامـسـةـ والـستـينـ . فأـسـلـمـتـ الرـوـحـ وهـيـ قـرـيـرـةـ العـيـنـ بـعـدـمـ رـأـتـ وـسـمـعـتـ وـلـسـتـ نـجـاحـ التجـربـةـ العـظـيمـةـ التـىـ اـسـتـهـلـكـتـ مـنـ مـالـهـ الـكـمـ الـوـفـيرـ وـمـنـ صـحـتـهاـ الـقـدـرـ الـذـيـ لـاـ يـعـلـمـ مـدـاهـ إـلـاـ اللـهـ .

ويـكـفـيـ مـلـازـمـتهاـ لـ«إـمـامـ المـتقـينـ»ـ كـلـمـاـ رـاحـ لـغـارـ حـرـاءـ الـذـىـ يـبـعدـ عـنـ دـارـهـ ثـلـاثـةـ فـرـاسـخـ الصـعـبـ الـمـرـتـقـىـ الضـيقـ الـمـوـلـجـ . فـىـ بـداـيـةـ التـجـربـةـ عـلـىـ الـأـقـلـ مـدـةـ خـمـسـ سـنـوـاتـ وـالـمـلـازـمـةـ أـمـرـ لـاـ غـنـىـ عـنـهـ وـقـتـ ذـاكـ حـتـىـ يـقـيـضـ لـهـ «=ـالـتـجـربـةـ»ـ الفـوزـ وـالـفـلاحـ وـالـتـىـ لـوـلـاـهـ لـصـارـ نـجـاحـهـ مـشـكـوـكـاـ فـيـهـ .

وـبـدـونـ الإـرـادـةـ الـفـوـلـاذـيـ وـالـشـكـيمـةـ الـحـدـيدـيـةـ وـالـعـزـيمـةـ الـصـلـبةـ وـهـيـ الصـفـاتـ الـتـىـ تـمـتـعـتـ بـهـاـ الطـاهـرـةـ وـالـخـصـائـصـ النـادـرـةـ الـتـىـ تـمـتـعـتـ بـهـاـ لـاـ أـفـلـحـتـ التـجـربـةـ وـلـاـ طـرـحـتـ الشـمـرـةـ النـاضـجـةـ الـبـاهـرـةـ .

● ● ●

صـعـقـ مـوـتـ خـدـيـجـةـ «ـالـحـبـيبـ الـمـصـطـفـىـ»ـ صـعـقـاـ وـجـيـعـاـ حـتـىـ إـنـهـ سـمـىـ عـامـ وـفـاتـهـ «ـعـامـ الـحـزـنـ»ـ خـاصـةـ وـأـنـ فـيـهـ تـوـفـيـ عـمـهـ أـبـوـ طـالـبـ حـامـيـهـ وـكـافـلـهـ وـمـؤـازـرـهـ . وـيـذـكـرـنـاـ حـزـنـهـ الدـفـينـ عـلـيـهـ بـحـزـنـهـ الشـدـيدـ عـنـ مـوـتـ مـوـتـ وـرـقـةـ الـذـىـ اـقـرـنـ بـهـ فـتـورـ الـوـحـىـ أوـ اـنـقـطـاعـهـ لـدـرـجـةـ أـنـهـ هـمـ عـدـةـ مـرـاتـ أـنـ يـلـقـىـ بـنـفـسـهـ مـنـ رـؤـوسـ شـوـاهـقـ الـأـجـبـلـ لـوـلـاـ أـنـهـ كـمـاـ حـدـثـاـ فـىـ آـخـرـ لـحـظـةـ يـظـهـرـ لـهـ مـلـاـكـ الـرـبـ جـبـرـيـئـلـ . فـيـشـيـهـ عـنـ إـمـضـاءـ عـزـمـهـ .

● ● ●

كان الأسى المريـرـ عـلـىـ فـقـدـ خـدـيـجـةـ أـمـرـاـ بـدـيهـاـ لـأـنـهـ الـأـمـ الـرـؤـومـ وـالـوـالـدـةـ الـحـنـونـ وـالـزـوـجـةـ الـحـبـيـبـةـ الـتـىـ آـزـرـتـهـ وـعـضـدـتـهـ وـشـيـتـهـ وـشـيـتـهـ وـلـوـلـاـهـ لـاـ أـكـمـلـ التـجـربـةـ حـتـىـ نـهـاـيـتـهـ وـهـيـ الـتـىـ فـتـحـتـ لـهـ خـرـائـهـ يـغـرـفـ مـنـهـ كـيـفـمـاـ يـشـاءـ وـالـتـيـ وـضـعـتـ بـيـنـ يـدـيـهـ كـلـ مـاـ تـمـلـكـ وـرـفـعـتـ عـنـ كـاهـلـهـ هـمـ الرـزـقـ وـخـوـفـ الـخـلـقـ وـفـرـغـتـهـ كـيـمـاـ يـجـتـازـ الـمـراـحلـ مـرـحـلـةـ وـرـاءـ أـخـرىـ ، وـهـيـ الـتـىـ أـتـاحـتـ لـهـ التـمـاسـ بـالـقـسـ وـرـقـةـ وـغـيـرـهـ مـثـلـ عـدـاسـ وـبـحـيـرـىـ وـقـضـاءـ الـلـيـالـىـ الـطـوـالـ مـعـ اـبـنـ نـوـفـلـ فـيـ الـمـارـسـةـ وـالـمـذـاـكـرـةـ وـالـمـحاـوـرـةـ .

أـوـ تـقـرأـ لـهـ وـهـيـ الـأـمـيـ بـشـهـادـةـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ الصـحـفـ الـتـىـ قـامـ الـقـسـ بـنـقلـهـ إـلـىـ الـلـسـانـ الـعـرـبـىـ .

وهي التي هيأت له الاختلاط بأصحاب كافة الملل والنحل والعقائد والأديان الذين اكتنلت بهم بكرة التي يؤمنونها «يتوجهون إليها ويقصدونها» لأغراض متباعدة: الموعظة، الدعوة، التجارة، الجاسوسية، الحج إلى البيت الحرام الذي اعتقدوا أنه إرث إبراهيم أبي الأنبياء وأكبر البطاركة.

ولولا التفرغ الدائم أحد عطايها أم هند لما انفسحت له الفرصة الثمينة، إذ لا شك أن الخلطة بهم شكلت جزءاً من الخطة المرسومة لما انصوت عليه «الخطبة» من تمرس واستماع وحفظ وحوار ومدراسة وتخزين معلومات فمن المعروف أن الأمي يتمتع بذاكرة خارقة.

منذ فجر التجربة المعجبة أدركت السيدة الليبية بصيرتها النافذة وعقلها الراوح وأفقها الوسيع أن احترافه التجارة بما يتطلبه من سفر وعقد صفقات وسوم ومقابلات سيستنزف وقته وجهده بالكامل ولا يدع له فسحة من الوقت. في حين أن التجربة تحتم ضرورة التفرغ لها بالكامل وطلاق كل ما يشغلها طلاقاً بائناً بينونة كبرى.

• • •

كذلك فإن «التجربة» علاوة على ما ذكرنا لها جانب شديد الأهمية بالغ الخطير وهو الانزال عن الناس لفتره معينة في كل عام للتحنف والخلوة والتحنث والتبرر وهذه كلها تمثل الجانب الروحي وإعداد النفس والجسم معاً لتلقى الرؤى والهواطف واستقبال الكائنات العلوية غير المنظورة للناس العاديين والحديث معها. وتراثات أهل الكتاب وموريات غيرهم من سائر الملل والديانات الأخرى مليئة بأمور مماثلة أو حتى مشابهة.

وهنا نذكر بقىام ورقة بالتدريس وبترجمة صحائف من الكتاب المقدس وقراءة الطاهرة لها . فهى تقرأ وتكتب . واستيعابها ثم تلقينها وتحفيظه إليها. بقى التطبيق العملى الذى مارسته بصدق ومهارة يعز مثلهما ونفذه الابن البار المتفانى في المحبة والمهاودة . نفذه بصورة عربية عن الضروب ولا غرو فهو عبقرى لا يفرى فريه أحد ومنذ ظهوره المبروك، لم تزل له جزيرة العرب نظيراً وحتى مقارباً.

• • •

وظلت ذكرى سيدة نسوان قريش متاجدة في نفس محمد لم تفارقها لحظة وبقى حتى آخر يوم في عمره الميمون شديد الوفاء الذي يتغلغل في أعماق حنايا نفسه لها .

وحتى عندما أصبح سيد الجزيرة العربية بأسرها وديان العرب جميعهم فإنه طرق يصرح بأعلى صوته أنها صاحبة الفضل عليه وأنها وحدها من دون الجميع آمنت به بينما كذبه قومه وآزرته وغضنته ووقفت بجواره في الحالك

والآزمات ورزق منها الولد في حين عجزت سائر نسائه .
وسوى بينها وبين الصديقة المصطفاة على نساء العالمين بنص القرآن الكريم
مريم بنت عمران وأم المسيح عيسى «عن عبدالله ابن جعفر عن على بن أبي
طالب - رضي الله عنه . سمعت رسول الله ﷺ يقول خير نسائها مريم بنت
عمران وخير نسائها خديجة»^(١٦) .

ولقد أورد البخاري أصح كتاب بعد الذكر الحكيم ذات الحديث بنفس السند
برواية على بن أبي طالب فإذا خرج البخاري والحاكم حديثاً فلام مطعن عليه ولا
يتجرأ سالم على تجريحه أو غمزه حتى ولو انتسب إلى نفاة السنة أو
المشككين فيها، هدأهم الله . وهذا الحديث ليس هو الفذ أو اليتيم بل أمثاله
كثير وقد اكتفيينا به منعاً من التطويل وفي أحاديث أخرى سوى بين خديجة
واسارة وأسيا زوج فرعون .

ونستغنى بالحديث المذكور ففيه التصريح بالمساواة التامة بين مريم أم
عيسى على الحقيقة «دعك الآن من مسألة الولادة العذراوية وما دار حولها من
بحوث تيولوجية فلا مجال لها هنا فضلاً عن أنها باللغة التعقيد أـهـ» وبين
سيدة نسوان قريش أم محمد عن طريق المجاز أو أمه المعنوية أو الاعتبارية .
فالأولى: مريم . بنص القرآن العظيم . مصطفاة نساء العالمين أى سيدتهن
ومقدمتهن، وصديقة فبالمثل تغدو الأخرى «أم هند» في ذات الرتبة والمقام
والدرجة وتتمتع بالألقاب نفسها فضلاً عن أن هذه التسوية بين السيدتين
الجليلتين لها مدلول عميق ومغزى غائر وإشارة خبيثة سوف تتفتح أكاميمها
سنة سنة^(١٧) من هذا الكتاب .

وعود محمد على بر صديقات الطاهرة وقل أن يذبح شاة دون أن يهدى
إليهن منها ولح مرة وهو يمشي مع بعض أصحابه واحدة منهن فانتجح جانبها
من الطريق وسلم عليها ووقف يحادثها ويبدو أن الحديث طال . لأن من شمائله
الجميل كما الورد المفتح لا يترك محدثه حتى ينصرف عنه . فسأله أحد هم
عنها فرد عليه أنها اعتادت تزورهم أيام خديجة .

● ● ●

ولا شيء يشير ثأرة محمد ويدفعه إلى الغضب ويحثه على الحنق ويجره إلى
الغيط قدر كلمة فيها إساءة أو تعريض بسيدة قريش مهما بلغ قائلها من مكانة
سوء في المجتمع أو في نفسه هو .

فعائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة أصبي زوجاته وأجملهن وأصغرهن
خطبها وهى فى السادسة ودخل بها فى الثامنة وقد ناهز الخامسة والخمسين .
ومن هؤلاء ما فتئت تتذلل عليه وما انفك هو يصرح بحبه إياها .
وسائل نسونه عرفن ذلك عنه فغيرن منها إنما الغيرة المكتومة لأنها لو ظهرت

فستجر على صاحبها المتاعب.

الزوجة منها إذا أيقنت أنه لم يعد لديها ما يغري **صاحب الهراء** «باستبقاءها على ذمته و تستشعر عزمه على فراقها تسرع إليه و تطلب إليه بالحاج أن تظل زوجة له و تهب ليلتها لعائشة».

إذ هي تدرك مدى حبه لها وتليها أم سلمة ثم زينب بنت جحش «لجمالهن الفائق وحسنهن الزايد وبهائهن المفرط» ثم حفصة «لاملاحتها إنما لأنها ابنة العدوى عمر بن الخطاب».

ففي القرآن المجيد **﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُرْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾**^(١٨) «وكان فيمن أرجأ رسول الله ﷺ سودة وأم حبيبة وميمونة فأراد فراقهن فقلن لا تفارقنا ودعنا على حالنا وأقسم لنا ما شئت من نفسك ومالك فتركهن على حالهن وقسم لهن ما شاء قال وكان منهن آوى عائشة وأم سلمة وزينب وحفصة وكانت قسمته من نفسه وما له بينهن سواه».

وهذا الحديث في مسند أحمد.

وقال المحقق في هامش الصفحة: «أرجأهن بعد أن كبرن فلم يقسم لهن أيامهن...»^(١٩).

ونضيف أن مرجع ترجي سودة وأم حبيبة وميمونة منه «المعلم» عدم طلاقهن واستبقاءهن دون قسم الليالي هو اعتقادهن أنها لو بقين على ذمته لدخلن معه أعلى علية في الفردوس بخلاف لو طلقهن لما ظفرن بهذه الرفقة.

● ● ●

وفي وقت من الأوقات اجتمع محمد بعدد من صحبه في حجرة عائشة على غداء أو عشاء فأرسلت زوجة أخرى هي صفية بنت حبي طبقاً فيه طعام «ونظراً لأنها يهودية ومن العلية بين قومها فهي على درجة حضارية أرقى ومن ثم تجيد الطبيخ أهـ».

فما إن رأت بنت أبي بكر الطبق حتى كسرته واندلق ما فيه أمام «المتوكل» ومن حضر فلم يزد على قوله «لقد غارت أمكم» وأمرها أن تصنع طعاماً بدله وترسله إلى ضرتها صفية.

هذه الأحداثة^(٢٠) تقدم الحجة الساطعة والبرهان القاطع على مدى تدلل بنت أبي بكر على **صاحب التاج**.

يبد أن هذا الخبر أوغر: «هشام بن عمرو عن أبيه عن عائشة أنها كانت تقول لنساء النبي ﷺ أما تستحي المرأة أن تهب نفسها فأنزل الله تعالى: **﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُرْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِنْ عَزَّلَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾** (الأحزاب: ٥١) فقالت عائشة: أرى ربك يسارع لك في هواك»^(٢١).

وفي رواية ابن إسحاق بذات السنيد: «قالت عائشة: كنت أغمار فقللت لأمرأة

ممن وهبت نفسها لرسول الله ﷺ أما تستحب المرأة أن تهب نفسها بغير صداق وكان رسول الله ﷺ قد اعتزل بعضهن وكتت على رجاء فلما نزلت الآية المذكورة «تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ» ... إلخ أيسرت وقلت إنّي لأرى ربّك يسأرك في هواك»^(٢٢).

العبارة الأخيرة الواردة في الخبر ذي المصدررين والرواية الواحدة وهي قول عائشة: «أرى ربّك يسأرك في هواك» لا تجرؤ مسلم سوى التيمية بنت ابن أبي قحافة على التفوه بها فهي تقطع بأن الذات العلية تهرب إلى مرضاة محمد في هواه وتلبى طلباته فوراً وحاشا لله جل جلاله أن يفعل.

ومن طريق آخر نسبت الهوى إلى «الناطق بالحق» وهو كما نعلم جميعاً ما ينطق عن الهوى وثالثاً أن الهوى الذي نسبته التيمية بنت ابن أبي قحافة إلى «الهمام» يتعلق بأمر نسائي - حتى لو في نطاق الحلال الصرف - والمأمول منها أن تزدهر عنه، وبهذه المناسبة تقفز إلى ذهاننا العاصفة التي أثيرت أخيراً من أن كتب الأحاديث حتى الصاحاج منها فيها أحاديث شديدة الواقع على نفس المسلم التقى^(٢٣).

وعلى أي حال فإنّ الذي لا مشاحة فيه أن التيمية بنت ابن أبي قحافة لها عند صاحب النعلين مكانة عالية حتى إنها جرئت على أن تقول له وتفعل في حضرته ما لا يتجرأ على قوله مسلمة أو مسلمة ومرجعه إلى صغر سنها «بالنسبة إليه» ووضاعتها وأنها الوحيدة من بين نسواته التي تزوجها عذراء بكرأ.

فضلاً عن أنها بنت «الثانية في الغار»، إن الزوجة الفندورة^(٢٤) اعتقدت أن بما لها من حظوة لدى راكب البعير أن تدوس على طرف سيدة النساء الطاهرة. بيد أنها فوجئت بأنه قابلها بغضب عارم وأمسك بشدقها «جانب فمها» وحضرها من العودة لمثله فامتثلت وحرمت.

● ● ●

في مرة قالت عن سيدة نسوان قريش إنها عجوز حمراء الشدقين وإن الله أبدله خيراً منها فبان الغضب على قسمات وجهه بشدة شديدة وصكها بقوله إنه غير صحيح بالمرة وإن الله لم يبدلها خيراً منها:

فقد آمنت حين كفرت قريش به وواسطه بنفسها وما لها وآزرته ورزق منها الولد في حين أن أي واحدة من نسائه التسع لم تفعل.

وفي خبر آخر «أن أم رومان =أم عائشة» دخلت حجرتها فوجدت صاحب الشملة» مغضباً من ابنته فقالت له يا رسول الله مالك ولعائشة إنها حديثة «أى صغيرة إذ يبلغ الفارق بينهما في السن أكثر من خمسة وأربعين عاماً» أ.هـ. وإنك أحق من يتجاوز عنها - فأخذ بشدق عائشة وقال: ألسن القائلة: كأنما ليس على الأرض امرأة إلا خديجة والله «أى أنه أقسم» لقد آمنت بي إذ كفر

قومك ورزقت منها الولد وحرمت موه»^(٢٥).
وفي حديث آخر والله «قسم» ما أبدلني الله خيراً منها.

● ● ●

والعجب كله أن الإخباريين يضيفون إلى صفات التيمية بنت أبي قحافة الذكاء والفطانة فكيف لم تدرك أن خديجة بالنسبة لمحمد ليست زوجاً وأما فحسب بل هي صاحبة الفضل وهندوز التجربة التي خلدت اسمه في الأولين والآخرين ودفعت تبعة «المصدقين به» أن يقرنوا باسم رب العزة ذى الجلال والإكرام تقدست آلاوه، اسمه الشريف فكيف يرضى إذن بأى مساس بها حتى ولو من أصبه زوجاته وأحلاهن وأملجهن وأباهاهن^(٢٦).

ولقد ترك «الذى تناهى عنه ولا ينام قلبه» عدداً وفيراً من الأحاديث التي لا تعبر فحسب بل تقطع بعلو مكانة وارتفاع مقام وسمو قدر أم هند عنده وعن مدى اعترافه بالجميل لها وقد وردت «الأحاديث» فى دواوين السنة التي تقدسها أمة لا إله إلا الله.

وفي مقدمها على سبيل المثال لا الحصر صحيح البخارى الذى وصف بأنه أصح كتاب بعد الذكر الحكيم نذكر منها:

١. سمعت عبدالله بن جعفر عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة.

٢. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: - وأتى جبريل النبي ﷺ . فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إماء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها بيته في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

٣. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : قال «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ومريم بنت عمران وأسيا بنت مزاحم امرأة فرعون»^(٢٧). بيد أن حديثاً صدر من «الألعن» وقفت عنده ملياً.

٤. عن ابن أبي داود قال دخل رسول الله ﷺ على خديجة في مرضها الذي ماتت فيه فقال لها بالكره مني ما أثني عليك يا خديجة وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً أما علمت أن الله تعالى زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلم أخت موسى وأسيمة امرأة فرعون فقالت وقد فعل ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم، قالت: بالرفاء والبنين^(٢٨).

ولقد استشعر «صاحب الخلق العظيم» ما في نقل هذا الخبر إلى خديجة من حرج ولذا قال لها «بالكره مني» لأنه يعلم أنه ما يسوء الزوجة شيء قدر الزواج عليها أى إحضار ضرة لها حتى ولو في مكانة مريم أم عيسى وأسيمة حرم فرعون خاصة وأن الطاهرة تلقت هذا الخبر وهي في مرض الموت.

إنما «المعروف عليه مفاتيح خزائن الأرض» له حجته لأنه من نص الحديث ذاته أن الذى زوجه أولئك النسوون - حسب ما قال - هو ربه أى لم يقع بمحض إرادته. والسؤال الذى يدور فى الذهن: هل النسوة فى الجنة بل فى أعلى علىين منها يشعرن بالغيرة كما تشعر بها نساء الدنيا؟

وما هو إحساس الطاهرة آنذاك عندما تعلم أن «المعطى جوامع الكلم» قد نكح بعد وفاتها عدداً كبيراً من الزوجات؟ اختلف كتاب سيرته التى هى أحل من سكر الأهواء فى تحديده. وبحسب أحاديث المشرفة لأبد أنهن سيرافقنه فى ذات المقام الذى سوف يتموضع فيه بأعلى الفردوس.

وهنا قد ينبرى أحدhem فىعرض أن صاحب «أسد الغابة» لم يظهر لنا سنده. فرد عليه الآتى:

«عن أبي إسحاق عبد خير عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ مسروراً فقال: يا عائشة إن الله عز وجل زوجنى مريم بنت عمران وأسيبة بنت مزاحم فى الجنة. قالت: قلت بالرفاء والبنين يا رسول الله»^(٢٩).

هذا الحديث رواه ابن ماجة فى سننه وهو أحد الصحاح الستة. وأخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم الليلة»، وأورده السيوطي فى «الجامع الكبير». ونشره مجمع библиотека الإسلامية وهو هيئة تابعة للأزهر أعطى نفسه فى الأيام الأخيرة الحق فى الرقابة على الكتب والدراسات التى تبحث «الإسلاميات».

• • •

إذن لا يمارى أحد فى صحته.

والذى نراه بعد إمعان الفكر والمزيد من التدبر ومضاعفة التأمل أن «صاحب الفضل العظيم من الله» أراد به زيادة رفع مكانة خديجة بأن قرناها بمريم بنت عمران ذات المقام المحمود فى القرآن فهى صديقة ومطهرة ومصطفاة على نساء العالمين وقانتة وساجدة وراكعة.

وقد وضع الذكر الحكيم اسمها على رأس سورة من أميز سوره. ونحن نؤكى أن تمجيد أو تقديس القرآن للعندراء البتوأ أم عيسى فاق بما لا يقاس ما جاء بالأناجيل الأربع.

هذا بخلاف كلثم أخت موسى وأسيبة بنت مزاحم بعلة فرعون ولكل منهما ذكر حميد فى القرآن المجيد.

هذا الحديث رغم تزويج الله سبحانه وتعالى لـ«الورع. الوجيه» ثلاث ضرائر على خديجة فى أعلى علىين فى جنة عدن، فهو تكريم لسيدة نسون الدنيا ومن ثم فإنه «نعممة الله» أخبرها به وهى على سرير مرض الموت لأنه بعشرتة الطويلة

لها علم أنها سوف تتفطن إلى المعنى الخبيء الكامن بين طياته ومن ثم يحق لنا أن نصل إلى نتيجة حاسمة وهي أن هذا الخبر من شواهد سمو قدر أم هند عند محمد ومن أدلة عرفانه بجميلها وامتانه لها.

ولم يتركنا «زوابعة قريش» لكي نستخلص براهين ثبوت إقراره بفضل خديجة عليه من أحاديثه الشريفة فقط بل ترجمه عملياً وطبقه فعلياً وشيأه على أرض الواقع:

«عن أبي مليكة عن عائشة قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال: كيف أنت كيف حالكم، كيف كنتم بعذنا؟ قالت: بخير بأبى أنت وأمى يا رسول الله. فلما خرجت قلت يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة وإن حسن العهد من الإيمان»^(٢٠).

هذا الأثر الشريف لاشك بلغ الذروة من الصحة والتوثيق وارتفع عن الطعن وبعد عن التوهين وسما عن التشكيك وهو صريح النص والدلالة معا على أن «المرتضى» برهن على عميق وده وساقع امتنانه لسيدة قريش بحفاوته البالغة المقرونة بالإكرام لعجوز من صواحب خديجة ومن ثم فقد أورده «=الحديث» الإمام ابن حجر العسقلاني في الفتح في باب «حسن العهد من الإيمان». وقد حق لـ«المتين» أن يتغلغل في عمق نفسه وحنايا وجданه الشعور بأسمى آيات العرفان بالجميل لخديجة صانعة التجربة المذهلة التي خلدت ذكره أبد الدهر.

الهواش

- (١) جمعها قوادم: ريش في أول جناح الطائر.
- (٢) تاريخ الإسلام: للذهبي ص ٥٩، والسيرة النبوية: لابن هشام . تحقيق السرجاني، المجلد الأول ص ٢٤٦، وعيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٨٦، والخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ٢١٨، والمستدرك: للحاكم النيسابورى تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، والسمط الشين: للمعبى الطبرى، ص ٤٠ وما بعدها، والاكتفاء: للكلاعى، ص ٢٦٥، شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام: لأبى ذر الخشنى، وتاريخ الطبرى: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الثاني، ص ٣٠٢، السيرة الشامية: للصالحي، الجزء الثانى، ص ٣١٤، السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ١٩٢، ط أخبار اليوم .
- ومن المحدثين: الرحىق المختوم: للمبارك فوري، ص ٥٩ .
- (٣) سيرة النبي محمد: كارين آرمسترونج، ص ١٣٠ .
- (٤) قصص القرآن: لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين، ص ٣٠٠ .
- (٥) دراسات في السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وآخر، ص ٨٣ .
- (٦) أوائل العرب عبر العصور والحقب: الجزء الثانى، حبوش، ص ١٠٦ .
- (٧) الرسول في رمضان: لعلى حسن الخريوطلى، ص ١٦ .
- (٨) محمد الثائر الأعظم: لفتحى رضوان، ص ١٠٢ .
- (٩) نساء النبي: لبنت الشاطئ، صفحات ٣٧-٣٦-٣٢-٣٠ .
- (١٠) في القاموس المحيط: للفيروز أبادى: الفلاحى: السمج والعامة فى مصر تقول فلحوص، أ.هـ.
- (١١) ويقال بعلة «المذكر والمؤنث»: لأبى بكر الأنبارى ٢٢٨هـ، تحقيق الشيخ عصيمه ومراجعة د. رمضان عبد التواب ١٤١٩هـ/١٩٩٩م المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .
- (١٢) **أولاً: المصادر:**
- تاريخ الإسلام: للذهبي، ص ٦٠ .
 - الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ٢١٩، ٢١٨ .
 - السيرة الحلبية: للحلبى، الأول ص ٣٨٦ . ثم ذكرها أيضاً ص ٤٥، سيرة ابن هشام، بتحقيق السرجانى الأول، ص ٢٤٧ .
 - تاريخ الطبرى: الثاني، ص ٣٠٠-٢٩٨ .
 - السيرة النبوية: لابن كثير، ص ٢٩٨ - ٣٠٠ .
 - السيرة الشامية: الثانية، ص ٣١٤ .
- ثانياً: المراجع:**
- حياة محمد: لهيكل ص ١٥٢، ومحمد رسول الله: لناصر الدين آتين دينيه، ص ١٠٩ .
 - وهوامش المترجمين الشيخ عبد الحليم محمود وابنه محمد .

- الرسول في بيته: لعبد الوهاب حمودة.
- الرسول في رمضان: للخربوطى، ص ٢١.
- محمد: لتوفيق الحكيم، ص ٢٤.
- (١٣) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ٤٠٤، ط ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، عن قطاع الثقافة بأخبار اليوم بمصر.
- (١٤) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٦.
- (١٥) في القاموس المحيط: للفيروز أبادى الأية هي الهيئة وزناً ومعنىًّا. أ.هـ.
- (١٦) المستدرک على الصحيحين: للحافظ الحاكم التيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، المجلد الثالث رقم ٤٤٥/٤٤٧.
- (١٧) أطلقت السنة بفتح السنين مع التشديد على الفصل الواحد مجازاً، «المصباح المنير» للمقرئ الفيومي والعامية في مصر تقول سنة بكسر السنين. أ.هـ.
- (١٨) سورة الأحزاب: آية ٥١.
- (١٩) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ٣٤٥ وهامشها، ط أخبار اليوم مصدر سبق ذكره.
- (٢٠) في مختار الصحاح: للرازي، الأحودة بوزن الأعجوبة وهو ما يتحدث به والعامية في مصر تقول: الحدوة. أ.هـ.
- (٢١) رواه البخاري في صحيحه.
- (٢٢) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول ذات الصفحة، مصدر سابق.
- (٢٣) إخوتنا الفرس أو الإيرانيون يسمون المسلم المتمسك بالحرفيات والشكليات والمظاهر: مسلم أحماق أ.هـ.
- (٢٤) في المعجم الوسيط: الغندور الناعم الحسن الشيبانى أ.هـ.
- (٢٥) الروض الأنف: للسهيلي، الأول ص ٢٧٨/٢٧٧، مصدر سابق.
- (٢٦) في صعيد مصر يقولون: مرة صبية أى جمعت خصال الجمال والبهاء والحسن مع صفر في السن وفي «مختار الصحاح» للرازي يقال للجارية صبية والجمع صبياً مثل مطية ومطايا، ونضيف أن المقصود بالجارية هنا الفتاة الصغيرة أو الشابة الصغيرة لا الأمة أو العيدة أو الجارية المملوكة أ.هـ.
- (٢٧) مسند الإمام أحمد: ٣١٦/٢٩٣-٣٢٢ عن أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعز الدين بن الأثير الجزرى، تحقيق محمد إبراهيم البنا وأخوه، المجلد السابع، كتاب «النساء» ص ٨٣، دون تاريخ، طبعة الشعب مصر، وسبيل الرشاد في سيرة خير العباد: للصالحي الشامى، ج ١٢ ص ٤٠، نقلًا عن «حياة الصحابيات» لمحمة الشرشى وأخرين، ص ٩، د.ت. د. من القاهرة.
- (٢٨) أسد الغابة: المجلد السابع، ص ٨٥، مصدر سبق ذكره.
- (٢٩) جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير: للإمام جلال الدين السيوطي ١٤٩١/٩١١هـ، العدد السابع والعشرون من الجزء الخامس من السنن القولية، ص ٣٤١٤ - الحديث ٦٨٢/٢٧١٥، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر مصر.
- (٣٠) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: للإمام ابن حجر العسقلاني، والمستدرک: للحاكم التيسابوري، وقال عنه صحيح على شرط الشیعین أى البخاری ومسلم والذهبی في التلخیص وأورده البیهقی في شعب الإيمان - والحديث في كنز العمال في الفصل الثالث والدیلمی وأورده السیوطی في جمع الجوامع الكبير ص ٣٤٢١، رقم ٢١٧٧/٦٩٥ من العدد السابع والعشرين من الجزء الخامس من السنن القولية من موسوعة السنة رقم ٥ - مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

الفصل الثالث

التدريج في الهندوز

التحقيق في الهندوز

• في البدى من هو الهندوز؟

يقال رجل هندوز: مجرب جيد النظر صحيحه، والجمع: هنادزة، ويقال هم هنادزة هذا الأمر أى علماء به^(١).

وإذ يقال للريح الطيبة التي تبشر بالخير والمطر ريح نشور «لا نشور» وللمرة التي لا تكتم السر مرة فروج «لا فروجة»^(٢).

فيغدو وصف سيدة نساء الأرض بالهندوز لا الهندوزة صحيح، وهى «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وأمها فاطمة بنت زائدة بن جنوب تزوجت عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وأبا هالة نباش بن زراة من بنى أسيد بن عمرو بن تميم حليف بنى عبدالدار بن قصى»^(٣).

وقد اختلف الإخباريون اختلافاً كبيراً في ترتيب هذين الزوجين أيهما الأول وأيهما الآخر وفي طريقة فصم عروة الزوجية وفي عدد الأولاد الذين خلفتهم من كل منهما بيد أن الذى يعنينا أن أحدهما من بنى مخزوم الفرع الذى حاز أبناؤه مالاً ممدوداً حتى انهم فى تلك الأيام الخواли تمنع عدد منهم بجوار يونانيات أو روميات نصرانيات وهذا أحد الأدلة على انتشار النصرانية فى مكة، وكما كان لبني مخزوم جوار يونانيات كان لدى العباس جوار يونانيات.. «وكان هذا الرقيق الأبيض ذكوراً وإناثاً من جنسيات متعددة منهم من كان من أصل رومى.. ومنهم من أهل العراق مثل نينوى ومنهم من كان من بلاد الشام أو أقباط مصر وهم على النصرانية فى الغالب»^(٤).

ولقد أخطأ محمد حسين هيكل فى «حياة محمد» عندما ذكر أن الزوجين مخزوميان.

«كانت خديجة امرأة تاجر ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها بشيء تجعله لهم ولقد زاد فى ثروتها أنها وكانت من بنى أسد قد تزوجت مرتين فى بنى مخزوم مما جعلها من أوفر أهل مكة غنى»^(٥).

ونكاح أم هند للمخزومي نرجع أنه أحد أسباب ثرائها العريض.
«وخدية من بنىأسد وهم يشكلون مفديعاً قوياً في قبيلة قريش وأبواها
خويلد بنأسد بن العزي من سادة قريش ولدت بمكة عام ٥٥٦ للميلاد الموافق
٦٨ قبل الهجرة وكان أبوها من أشراف مكة وموسرتها وزاد شرفاً عندما حالف
بنى عبد الدار بن قصى ثم مات في عام الفجر»^(١).
أما ما ذهب إليه المصنفان أن خويلداً هلك في عام الفجر فقد طرحتنا أدلة
فساده.

وقد ذهبت كارين آرمسترونج أن عشيرة بنىأسد في ذياب الوقت أقوى من
بنى هاشم «عشيرة سيد الخلق».

«كانت خديجة قد تزوجت مرتين وأنجبت عدداً من الأطفال وتتنتمي إلى
عشيرة بنىأسد التي أصبحت في بداية القرن السابع الميلادي أكثر قوة من بنى
هاشم»^(٢).

إنما الذي لا مشاحة فيه أنه بعد ظهور «مقدم عترة الله» وإعلانه الإسلام
غدا بنو هاشم أكثر شرفاً من بنىأسد بل إنهم بزوا كل بطون قريش بل كل
العرب والعالم.

و قبل ذلك اشتتعلت المنافسة بين العشيرتين على تننم ذروة المجد وقمة
الشرف في مكة بأسرها.

ومن أدلة شرف بنىأسد وارتفاع مقامهم في مكة وفي قريش أنهم حفروا
بيراً أطلقوا عليها «سقية» قبل أن يحفر عبدالمطلب جد «الحمدود» بئر «زمزم».
وحضر البيار علامة من علامات السؤدد وشارارة تدل على الرفعة وأية تبئ
عن السمو وقيل إن بنىأسد حفروا «سقية» بعد أن حفر بنو هاشم بئرهم «بذر»
كأنما يعلنون لأهل الحرث أن مقامهم محفوظ وأنهم لا يقلون عن الهاشم مكانة
ورتبة^(٣).

ولخويلد ذاته مواقف مشهودة تقطع بأنه أحد صناديد^(٤) قريش فهو الذي
تصدى لتبع حينما شرع في قلع الحجر الأسود^(٥) من الكعبة ونقله إلى اليمن
كذا ضمه وقد قريش لسيف بن ذي يزن لتهنته بانتصاره على الحبش^(٦). بيد
أنه لا يفوتنا أن نذكر أن عبدالمطلب بن هاشم جد «المتربيص» ترأس ذلك الوفد
ونفعه سيف بن ذي يزن ضعف ما منح أي عضو في الوفد واحتلى به وبشره أنه
سيأتي من بين أحفاده من له مقام محمود وذكر خالد على مدى الدهر.
وعضوية الوفد تعد مكرمة لا ينالها إلا الغطارييف الججاج في القبيلة لأن
الوفادة على الملوك تحتاج إلى خصائص فريدة ومناقب سامية.

* * *

«خدية كانت تسمى سيدة نساء قريش ورد ذلك في سيرة التميمي وكانت

تسمى الطاهرة في الجاهلية والإسلام»^(١٢).

هذا ما جاء في سيرة ابن هشام وهي أشهر دواوين السيرة ومنها استقى كل من جاء بعدها، وأن تلقب بسيدة نساء قريش فهذا مناسب نظرًا لشرفها وانتمائتها لعشيرة بنى أسد القوية ولثرتها العريضة، أما تلقيبها بالطاهرة فهو ما يلفت النظر ويُشحذ الذهن لمعرفة العلة الكامنة وراءه إذ إنه: لقب له عبق ديني فمريم أم عيسى يلقبها المسيحيون بـ«معدن الطهر»^(١٣).

وكذلك جاء في القرآن العظيم عن البتول أم عيسى عبد الله ورسوله: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكُمْ وَطَهَرَكُمْ وَاصْطَفَاكُمْ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ»^(١٤). وفي حق ابنها: «إِنِّي مُتَوَقِّيْكَ رَدَافِعُكَ إِلَيْيَ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا»^(١٥).

ومن ثم فإن لقب الطاهرة ليس لقبًا عاديًّا بل إن عليه مسحة تيولوجية ويفوح منه ريح مسك ديني ولعل مما يؤكّد ذلك أن الختان في مصر يسمى «الطهارة لأن الفتى والفتاة يتطرّهان بهذا العمل»^(١٦)، ولا أدل على اقتران عملية الطهارة أو الختان بالدين «ولو في معناه الشعبي أنها (الطهارة) كانت لوقت قريب تتم في أيام المولد». ويحدّثنا أحمد أمين عن قبيلة سودانية رغبت في دخول الإسلام «فكتب رئيسها إلى بعض علماء الأزهر - يستوضّحه الإسلام وما يفعله أفراد قبيلته لدخولهم في الإسلام فكتب إليه العالم الأزهري قائمة بما يجب أن يعملوه فكان أولها الختان فرفضت القبيلة أن تسلّم وقد كانت هذه المسألة قلة ذوق»^(١٧).

بيد أن الذي يهمنا في هذه القضية هو الاعتقاد بأن الطهور أو الطهارة طقس ديني به يتطرّه من تجري عليه عملية الختان.

ويذهب باحث أن الطهور أو الطهارة أو الختان في مصر بالذات ليس شعيرة من شعائر التكريس أو من شعائر المرور «إنما الاعتقاد الشعبي السائد هو ضرورة إجراء هذه العملية لأن هناك التزاماً دينياً بضرورة إجرائها»^(١٨).

وهكذا بعد هذا التفريع الطويل بعض الشيء لعلنا أفلحنا في طرح ما يقع القاريء أن لقب الطاهرة الذي حلّت جيد خديجة قبل الإسلام^(١٩) يحمل سمات تيولوجية وسمات دينية وبسمات عقديّة بخلاف لقبها الآخرين سيدة نسوان قريش وسيدة قريش فهما بحسب التعبيرات الحديثة مدنيان. أما العلة الكامنة والسبب الخبيء والداعي المستتر والباعث المتوارى خلف هذا اللقب «الطاهرة» فسوف يرفع القاريء الواعي بنفسه الستار عنه كلما مضى في القراءة سنة سنة أو فصلاً فصلاً.

ويحق لنا أن نتساءل لماذا لم يطلق على خديجة الشريفة . الأمينة الصادقة مع أنها تحوز هذه الصفات عن جدارة؟ لعل في الرجوع إلى المعاجم ما يوضح لنا الأمر.

والطاهرة من النساء الخالية من الحيض وغيره .
وطهر طهارة وطهرًا : نقى من النجاسة والدنس .
والطهورية هي الطهارة البالغة .
والطاهر . عند النصارى . مكان تطهر فيه النفس بعد الموت بعذاب
موقوت (٢٠) .

أما الزمخشري فإنه يلقى عليه أنواراً كواشف دون أن يقصده على المجاز
«تطهر من الإثم : تنزه عنه وطهره الله وهو طاهر الثياب تنزه من مدانس
الأخلاق ، والتوبة ظهور للمذنب » .
وعلى الحقيقة « امرأة طاهرة ونساء طواهر وطهرت من الحيض وهي ذات
ظهور وهن ذوات أطهار .

تطهر من الإثم : تنزه منه وطهره الله (٢١) .

أما الكتبة المحدثون فإنهم ينقلون لنا الخبر دون أدنى محاولة للتحليل أو
التعليق .

« خديجة .. كانت تسمى الطاهرة قبل الإسلام وبعده وقد خطبها كثير من
العظماء فرفضت وقدم لها كثير من المال فامتنعت لأنها كانت غنية » (٢٢) .
« خديجة ... أبوها من أشراف قريش في الجاهلية .. وكانت تدعى في
الجاهلية بالطاهرة وتكنى بأم هند » (٢٣) .

هذا المؤلفان لم يحاولا أن يعملا فكريهما بأن يتساءلا لم هذا اللقب دون
غيره من الألقاب؟ « كلاما ذكر أنه اسم في حين أنه لقب أ.ه. ».
ولعل القارئ اللقن سوف يهتدى بفطنته إلى العلة عندما يمضى في قراءة
هذا الفصل .

• • •

انتشرت النصرانية في بني أسد عشيرة خديجة بدرجة لم تتوافر في
عشيرة أخرى وهذا ما أطبق عليه الإخباريون وكتاب السيرة المحمدية العطرة .
إن من القدامي أو المحدثين حتى غدا حقيقة مؤكدة من يقدم على إنكارها يلقي
كل الأدلة تتنصب ضده ونذكر فيما يلى غيضاً من فيض أو نقطة ماء من بحر
تلك المصادر والمراجع :

(وقد ذكر « ابن قتيبة الدينوري » أن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض
قضاعة ، وقال اليعقوبي : وأما من تنصر من أحياه العرب فقوم من قريش من
بني أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل) (٤) .
وبذلك جمع هذا الخبر بين روایتی ابن قتيبة الدينوري واليعقوبي وهما من
 أصحاب الأسماء اللوامع في هذا المجال .

ولم نكتف بما أورده جواد على رغم أنه باحث رصين ونحن نكن له تقديرًا إذ

رجعنا إلى اليعقوبي ذاته فالفيناه ينص على الآتي:

«أما من تتصر من أحياء العرب فقوم من بنى أسد بن عبدالعزيز منهم عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل»^(٢٥).

وتشير كتب السيرة إلى أن شماماً زار مكة في الجاهلية وكان يعيش في مر الظهران راهب مسيحي كما كان في مكة نساء نصرانيات تزوجهن أهل مكة^(٢٦). والسؤال الذي ينتصب في الذهن فور قراءة هذا الخبر: هل تزوج رجال من بنى أسد بعضاً من تلك النساء النصرانيات ومن هنا فشت النصرانية فيهم وبعبارة أخرى يمكن أن نعزّو انتشار النصرانية فيهم لهذا العامل أو على الأقل هو أحد العوامل؟

ومما يرسخ حقيقة فشو النصرانية في رهط بنى أسد اعتناق عدد من الأسديين لها وتبحرم فيها وتضلعهم من كتبها حتى إنهم حازوا فيها ألقاباً نصرانية عالية لا يحصل عليها إلا من بلغ فيها درجة من التعمق رفيعة المقام منهم ورقة بن نوفل ابن عم أم هند والذي كان مرشحاً لنكاحها كما سوف نورد فيما بعد والذي لعب دوراً شديداً الخطورة في متابعة «التجربة».

● ● ●

وهناك كاتب من المحدثين يذهب إلى فرسخة^(٢٧) النصرانية في أنحاء شتى من الجزيرة العربية.

«كذلك عرفت النصرانية في مدن الحجاز التجارية إذ كان سكان هذه المدن على اتصال وثيق بالشام ونعلم أن بعض القرشيين قد تتصر مثل عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل، وكان يشرب وبالبحرين نصارى أيضاً كما كانوا في كثير من الأماكن الأخرى من جزيرة العرب»^(٢٨). ثم يعود إلى تأكيد انتشار النصرانية ولكنه يضيف إليها اليهودية ثم وسع دائرة البسط والفرطحة فجعلها تشمل بلاد العرب بكاملها.

ثم «إنه لا ينبغي أن ننسى أن النصرانية واليهودية كانتا قد انتشرتا في بلاد العرب، وكانت قبائل عربية قد اعتقدت بها مما حاربها أحد ولاعارضها معارض فضلاً عن أنه كان يوجد بمكة مبشرون بال المسيحية بل لقد كان من أهل مكة ومن بنى عبد مناف ذاهم رجل حكيم عاقل فاضل تنصر، هو ورقة بن نوفل فما عارضه أحد وما اضطهدته أحد وما أجبره أحد على الارتداد عن دين الآباء والأجداد»^(٢٩).

بيد أن جللاً أخطأ في أمرين:

الأول: أنه نسب العاقل الفاضل المتصرر ورقة إلى بنى عبد مناف بينما هو من بنى أسد.

الآخر: في قوله «إنه كان يوجد بمكة من يبشرون بال المسيحية» وهذا شطط

فإنهم بشروا بالنصرانية وهناك فرق واسع بينهما ونلتفت الانتباه إلى أن القرآن العظيم ذكر النصارى ولم يذكر المسيحيين.

ولقد لاحظنا أن كثيراً من كتبوا في السيرة المحمدية التي هي أطيب ريجاً من العود الصنفي خانهم التوفيق ولم يتحروا الدقة في كتاباتهم «أما ورقة بن نوفل فدخل النصرانية وقيل إنه نقل إلى العربية ما في الأنجليل أما عثمان بن الحويرث وكان من ذوى قرابة خديجة فذهب إلى بيزنطة وتتصحر وحسن مكانته عند قيصر ملك الروم»^(٢٠).

أما هذا الخبر فقد جاء في «السيرة النبوية» لابن كثير وفي كتاب «حياة محمد» لهيكل. وأولهما يعد في مقدمة الكتب التراثية في السيرة والآخر له مكان متميز في مؤلفات المحدثين.

«أما ورقة فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب...»

وأما عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى فقدم على قيصر الروم فتتصحر وحسن مكانته عند قيصر الروم»^(٢١).

والآخر حملته إلينا سيرة ابن هشام وسبق أن أوضحتنا مكانتها السامية، أما كتاب محمد رضا فهو من ضمن المؤلفات الحديثة التي نالت القبول والتقدير. ونكتفي بهذين الخبرين لأن القس ورقة بن نوفل سنفرد له فاصلة مستقلة ونأمل أن نوفي حقه لذاته ولما قام به من دور متميز في إنجاح التجربة.

● ● ●

هناك ابن عم آخر لسيدة نساء قريش تغل في النصرانية وعب من علومها الشيء الكثير حتى منحته دوائرها المتنفذة لقب البطريق الذي هو بذاته يشي بعلو كعب حائزه، ذلكم هو عثمان بن الحويرث بن أسد^(٢٢). والخبر القادم في كتاب في النسب ولو أنه لاحق لكتاب المصعب الزبيرى إلا أن مؤلفه من النجوم اللامعة في سماء العلوم الإسلامية وله باع طويل في عدد منها.

«وكان قد تتصحر من قريش نفر يسير وهو: شيبة بن ربيعة بن عبد الشمس وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصى وابن عم له: ورقة بن نوفل بن أسد ولا عقب للحويرث ولا ورقة»^(٢٣).
ويؤكد لنا السهيلي في روضه الأنف وصول عثمان بن الحويرث إلى مرتبة «البطريق».

وكان يقال لعثمان بن الحويرث «البطريق»^(٢٤).

ومن المحدثين من ذهب إلى رجمان كفة النصرانية على اليهودية: «بعض رجال مكة تبرموا بالوثنية وخرجوا عليها وتصوروا أمثل: ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث، وقد كان أثر النصرانية في مكة أكثر من اليهودية»^(٢٥).

ثم يبدأ د. حسين مؤنس في إطلاعنا على أول الخيط المؤدي إلى النهاية المأساوية التي لقيها عثمان بن الحويرث.

«وقد تصر رجل آخر من قريش وهو عثمان بن الحويرث الذي حاول الدعوة للمسيحية في مكة وربط دعوته إلى دعوة الروم»^(٣٦).

ذلك أن البطريق لم يكتف بالرتبة الدينية التي تحصل عليها بل أراد أن يمزج الديانة بالسياسة وهذا داء قديم بأن يصبح ملكاً على قرية القدس بكه ويجعل الحجاز ولاية رومانية.

وهذا يدل على أنه من ذوى الطموح بعكس ابن عمه ورقة الذي اكتفى باللقب الدينى «القس».

ولا يفوتنا أن ننوه إلى خطأ حسين مؤنس أن عثمان بن الحويرث حاول الدعوة إلى المسيحية وأن المرء ليعجب كيف أن كاتبًا في قامة مؤنس لا يفرق بين المسيحية والنصرانية التي عرفها واعتقدها ابن الحويرث وابن نوافل وأضرباهما . وبعد هذه الملحوظة الضرورية نرجع إلى السرد.

وقد أثار هذا الأمر طائفتين: القرشيين أشراف مكة الذين أبوا على ابن

الحويرث ذلك وثاروا في وجهه وصاحوا أن مكة لقاح لا تملك ولا تملك:

«أما عثمان بن الحويرث فقد بقى مفاضلاً قومه في دينهم ثم رأى الذهاب إلى الروم وتقرب إلى قيصر وحسن منزلته عنده وتنصر ومنح لقب بطريق وأراد تصيبه ملكاً عليهم ولكن قومه أبوا عليه ذلك .. وفي رواية أخرى أنه خرج إلى قيصر فسأله أن يملكه على قريش وقال أحملهم على دينك فيدخلوا في طاعتك ففعل»^(٣٧).

أما الطائفة الأخرى التي نقمت عليه هذا المسعى وهو تحويل الحجاز إلى ولاية رومانية فهم الغساسنة الذين خسروا على أنفسهم منافسته لهم في المكانة لدى قيصر الروم فسعوا إلى قتلها . ولو أن ختام حياته الدامي اختلف عليه الإخباريون إذ ترى محمد حسين هيكل يطرح سبباً آخر لقتله حيث يقول «فطرده المكيون فاحتمنى بالغساسنة وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة فوصلت إلى الغساسنة هدايا المكيين فمات ابن الحويرث عندهم مسموماً»^(٣٨). وقد نقل هيكل هذا الخبر من مصادر تراثية دون أن يشير إليها منها «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم الأندلسى:

«ولد الحويرث بن أسد بن عبد العزى: عثمان بن الحويرث أراد التملك على قريش من قبل قيصر فامتعمت قريش من ذلك فرجع إلى الشام وسجن من وجد بها من قريش ومن جملتهم أبو أحىحة سعيد بن العاص فدست قريش إلى ابن الغساني فسم عثمان الحويرث فمات بالشام ولا عقب له . وكان قد تصر»^(٣٩). وتحقيق هذا الشأن ينذر عن صلب الموضوع إنما الذي يعنيها هو أن عثمان بن

الحويرث أحد بنى أسد تصر وحسن نصرانيه وارتقي فيها حتى حاز رتبة منيفة والأهم من ذلك أنه سعى لنشر النصرانية في أخياء بكة مما يجعلنا نرجح أنه بدأ بعشيرته بنى أسد ورهطه الأذين بنى عمومته وأنه نجح في ذلك بدرجة أو أخرى حتى إن الإخباريين وأصحاب السير عدوا بطن بنى أسد من البطون أو الأفخاذ أو حتى القبائل التي فشت فيها النصرانية مثل: غسطان وتميم وقضاء وربيعه.

● ● ●

ولم يقتصر اعتقاد بنى أسد على الرجال بل تعداهم إلى النساء وهذا ملحوظ شديد الأهمية.

فهناك ثالث أو ثالثة أبناء عم الطاهرة الذين يتتصرون وهي قتيلة أو أم قتال، وقيل فاطمة بنت نوبل أخت ورقة وهي واحدة من المرتدين اللتين تعرضتا لأبي محمد: عبدالله بن عبد المطلب وهو في طريقه مع أبيه فيما ينكح آمنة بنت وهب الزهرية بأن يفاحز كلاً منها بعد أن رأتا بين عينيه نور النبوة وله مائة من الإبل لا عن ريبة أو عهوده فيهما ولكن عن عفة بقصد أن تفوز إحداهما بنور النبوة وتغدو أم القادر المنتظر.

وهذه الأحداث لا يكاد يخلو منها كتاب من السيرة المحمدية الزكية كما المسك ونكتفى بما أورده البلاذري في أنساب الأشraf برواية نقلها عن الواقدي: «وقال الواقدي: المرأة التي قالت لعبد الله ما قالت هي قتيلة بنت نوبل من أسد بن العزى أخت ورقة بن نوبل وكانت تتضرر في الكتب»^(٤٠).

وبالإضافة إلى ما يحظى به البلاذري وكتابه الأنساب من تقدير هناك سبب آخر وراء إبرادنا لخبره هو أنه ذكر فيه أن بنت نوبل كانت تقرأ الكتب إذ إننا سوف نتخد من معرفتها للقراءة والكتابة قرينة أو دليلاً لإثبات أن سيدة نسون قريش كانت تعرفها «القراءة والكتابة».

وهناك أخبار تنص على أن قتيلة أو أم قتال بنت «أخت» ورقة ذكرت أن ما دفعها لعرض نفسها على عبدالله بن عبد المطلب ليباطنها وتعطيه مائة من الإبل أنها سمعت من أخيها القدس ورقة بقرب ظهور القادر المنتظر وأنها بما أنها تعتاد وتقرأ الكتب توسمت النور في جبينه بيد أنه لما خالط زوجه آمنة انتقل إليها ذيak النور وهنأتها بحيازتها له وبشرتها بحملها للقادر المبارك.

● ● ●

وهكذا نشأت الطاهرة في فرع تغلغلت فيه النصرانية وهو «أسد» وبين أقربائها الأقربين بنى عمومتها الذين تتصرروا بل تبحرو في ديانة ابن مريم لدرجة أنهم فازوا فيها بدرجات سامقة فأحدهما «بطريق» والآخر «قدس» (قد تقدم خطبتيها بيد أنه لم يتوفق له ذلك) والثالثة «متنهنة» أو معتادة قرأت

الكتب وحازت قدرًا من الفراسة به حدست في عبدالله أنه أبو القادم الذي طال شوق العلمين ببواطن الأمور إليه.

ونحن ندع القارئ الفطن لكي ينتبه^(٤١) دلالة ذلك وكيفما يدرك مدى تأثير الوسط على الناشئ الذي ينشأ فيه^(٤٢).

ولا ندرى على وجه التحقيق هل هو مصادفة أم تدبير وهل هو خطأ عشواء^(٤٣) أم تخطيط محكم وقد سبق أن تقدم أم هند بعد أن غدت صاحبة تجارة عريضة ومال وفير وغنى ممدود على شراء الأعبد النصارى وتشغيلهم في أعمالها عيوناً على الرجال الذين تستأجرهم ليتاجروا بمالها لقاء جعل معلوم وذلك لشدة ثقتها في أولئك العبدان النصارى أو النصارى العبيد. وقد حفظت لنا دواوين سيرة «الحيي» التي هي أنسى من ذكاء «ضم الذاه»^(٤٤) اسم اثنين من أولئك المالكين النصارى أولهما يسمى ناصح ومع التتقير والبحث والتدقيق عثرنا له على خبر مفرد فحسب.

«قالت خديجة لـ محمد: قد أخبرني به ناصح غلامي وبخيри الراهب أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»^(٤٥).

وغلامى هنا تعنى عبدى ومملوكى لأنه لم يوجد للسيدة الطاهرة ولد باسم ناصح لا من زوجيها السابقين ولا من «البھي»^(٤٦) والخبر قرن ناصحاً عبد خديجة ببخيри مما يقطع بعلو كعبه في النصرانية إذ شارك الراهب بخيри الذي نرجح أنه المسئول عن أبرشية الحجاز «وفيه مكة» في المشورة بضرورة أن تنكح «الأعز الأعظم».

● ● ●

أما الغلام أو العبد الآخر فهو ميسرة فله ذكر مفترط^(٤٧). في كتب سيرة «صاحب الدعوة المستجابة» التي هي أطيب من زعفران ثم فهو الذي خصصته سيدة قريش لخدمته «الشاهد الداعي» في رحلته إلى الشام كذلك سفر هذا الملوك بينهما في مسألة الزواج كما أسلفنا. أما المعجزات التي رأها هذا العبد في تلك السفارة فموضعها في فصل المعجزات إنما الذي يهمنا هنا هو ما يقطع بنصرانية ميسرة.

«وأنا رجل نصراني كما تعلمين يا سيدتي أحب الرهبان وأكبر الأحبان. ميسرة»^(٤٨).

فهنا يؤكّد د. طه حسين أن العبد ميسرة من النصارى بل وعلى وشيعة حميمة بالرهبان والأحبان والبطارقة الذين يقطنون أطراف الشام والذين سوف نثبت أنهم من الفرقة التي باينت بعثة شاؤول «بولس» حين خريق^(٤٩) النصرانية بتاليه ابن مريم وأمه.

وتتصدر هذا الملوك يتضح في كافة المؤلفات التي تناولت سفره «الصحيح»

في تجارة سيدة نسون الدنيا ومعه ميسرة وهذا خبر سريع لتأكيد ما ذهبنا إليه من نصرانية العبد المملوك ميسرة.

قال ميسرة لخديجة: إن هذا الغيم - الذي يظل محمداً - لم يختلف عن مراقتنا منذ أن غادرنا مكة إلى أن عدنا إليها ومنذ أن تركنا بصرى وقد عرفني رهبان حوارن العلماء من هو محمد فعرفت أن هذا الغيم ليس إلا أجنة ملكين مكلفين بوقاية سيدي من قيظ الشمس المهاك»^(٥٠). فهنا يصرح الغلام ميسرة أنه على علاقة خاصة برهبان حوران وعلمائها الذين أخبروه من هو «الصفى» عندما أحاطهم علمًا بالمعجزات التي لمسها بيديه ورأها بعينيه إبان سفره معه.

● ● ●

إذن خديجة من عشيرة قرشية فشت فيها النصرانية من دون أبطن القبيلة ومن فرع داخنته ديانة المسيح فأعتقها ثلاثة أفراد من بنى عمومتها وتعمقوا فيها حتى حازوا فيها ألقاباً باذخة، وليس هذا فحسب بل إن خاصة عبادتها وأقرب وليجتها^(٥١) وألصق بطانتها بها^(٥٢) نصارى وهذه المعارف جماعها مستقاة وموثقة من كتب السيرة المحمدية الكريمة ذات الرائحة التي هي أطيب من عنبر الشحر^(٥٣) وهي «المعارف» من دون أدى ريب تعنى الكثير الذي لا يند عن فطانة القارئ الليبي.

● ● ●

أطبقت كتب السيرة المحمدية المنيفة على بكرة أبيها دون استثناء تراثية أو حديثة على أن السيدة خديجة في زمانها من أغنى أغنياء مكة إن لم تعد أغناهم ومن الأدلة التي تطرح على ذلك أن قافلتى قريش اللتين تخرجان من مكة في رحلتي الشتاء والصيف شطراهما للطاهرة بمفردها والشطران الآخرين لسائر تجار قريش وسبق أن قدمنا الأخبار التي تؤكد ذلك ولكن يأخذ القارئ فكرة سريعة عن مدى الثراء العريض لسيدة قريش نذكر له أن القافلة التي أفلتت من المسلمين الذين خرجوا للقائهم وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب وأعقبتها غزوة بدر الكبرى بلغت عدة البعير الذي يحمل العروض ألف جمل ودلالة ذلك أن سيدة نساء الدنيا وحدها تملك خمسمائة بعير بما عليها من بضائع أو نحوها أو ربما أقل قليلاً.

«قالت خديجة: ولئن كنت كثيرة المال ضخمة الثروة»^(٥٤).

هذه مجموعة من المصادر والمراجع التي تؤكد الثراء العريض والفن الوسيع والأموال الطائلة التي احتازتها الطاهرة والتي رصدتها لإنجاح التجربة فهى فرغت «الظاهر» تماماً وأخلت ذهنها البتة من هم الرزق كيما لا يشغلها شاغل من أي نوع يعوق نجاح التجربة التي رشحته لها ليتحقق حلمها بأن يندو القادر

المنتظر، وقد قرأنا فيما سبق ما قاله «المتصور بالرعب قرابة شهر» أنه بعد زواجه منها أكل الخمير ولبس الحرير.

بيد أنه ما هي العمالة التي مارسها إبان فترة التفرغ أو حقبة التأسيس وهي مدة متوازية في الظل في كل كتب السيرة لا تجد عنها خبراً. فبعد أن نكحته خديجة وذكرت المؤلفات وقائع الزواج ف忿رت مباشرة إلى حادث الغار إذن ما هي أعماله أو ممارساته أو أنشطته إبانها؟ لقد تفرغ أو بمعنى أوضح فرغته الطاهرة للتجربة ففي النهار يمشي في الأسواق يقابل ويحادث ويحاور أصحاب مختلف العقائد والملل والنحل الذين ماجت آذنها بهم قرية القدس من يهود ونصارى وأحناف وصائبة ومجوس وغنوصية.. إلخ، ولا يفوته حضور الأسواق التي تتصب أو تقام في مواعيد معروفة مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز ويسمع خطبهم ومحاورتهم وأشعارهم فيها وقد حفظت لنا كتب السيرة سؤاله وفدياً عن مصير قس بن ساعدة الأبيادي والذي قال إنه سمع خطبه في عكاظ وغيرها وسألهم من يحفظ منها شيئاً فاستجاب له أحد أعضاء الوفد وأسمعه إحداها.

«وقال قس بن ساعدة في خطبته التي حكاهما عنه النبي ﷺ يا أيها الناس اسمعوا وعوا»^(٥٥).

والنص هو افتتاح خطبته بعكاظ التي رويت للنبي فقال فيه: «يبعد يوم القيمة أمة وحده»^(٥٦). واستماع «الفضل العظيم عليه من ربه» لقس بن ساعدة أمر ثابت في العديد من كتب التراث، والخبر الذي أوردهنا واحد منها وهو من أدلة الثبوت على أنه سيد أهل الله» كان دائم التجوال في الأسواق للاستماع لعلماء مختلف النحل والملل والعقائد ومحاورتهم والاستفسار منهم «وهذا أحد طقوس التجربة الكبرى» إذ إن محمدًا آذنها قد طلق التجارة فلا تفسير لحضوره الأسواق إلا لذلك هذا بالنهار.

أما بالمساء وفي ليل مكة الطويل شتاءً فمع الطاهرة بمفردهما أحياناً وبحضور القس أحياناً أخرى تتم في تلك القدادات مذاكرة الإصلاحات التي نقلها ورقة من اللسان العبراني إلى اللسان العربي إما بتلقينها منه مباشرة ثم إدارة الحوار بشأنها، وإما بتلقينها من الأم الرؤوم والزوجة الحنون خديجة التي لاشك أنها أجادت القراءة والكتابة «وسوف يصبح ذلك مادة للفقرة القادمة» وقرأت تلك الإصلاحات وحزنتها في ذاكرتها أو أنها طفقت تقرأها له مباشرة. وكل هذا: ما يدور بالنهار في الأسواق والحوانيت والأعياد والمواسم وما يتم سماعه من القس ورقة وخدية من الإصلاحات التي عربها القس في الليالي الطوال وما يعقبها من شروح وإيضاحات وحوارات بالجلسات التي قد تستمر حتى بزوغ الفجر، نقول كل هذا يجري تخزينه ويرمجته في ذاكرة العبرى الذي

لم تر جزيرة العرب له مثيلاً ولم تشهد له ضريباً ولم تعain له شبيهاً أو نداً. خاصة وقد آمنا أنه أمن لا يقرأ ولا يكتب والأمن أمن يمتنع بذاكرة حديدية وحافظة واعية أشد الوعى فما بالك إذا اجتمعت الأمية والعقربة الفادة في شخص وسوف نورد فيما يستجد أمثلة معجبة على القدرة على الحفظ.

● ● ●

والذى يمارى فى أن سيدة قرش رصدت ثراءها الممدود وأوقفته على إنجاح التجربة نتحفه بالخبر الآتى:

«ويروى أنه بِكَلِيلٍ دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له مالك قال: الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحيي منك وإن أنا لم أبذل أخاف الله . فدعت قريشاً و منهم الصديق، فقال الصديق: فأخبرت دنانير حتى صبتها وبلفت مبلغاً لم يقع بصرى على من كان جالساً قدامي ثم قالت أشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه»^(٥٧).

والذى أورد الخبر القمى النيسابورى من أعلام مفسرى القرآن الكريم وكتابه أو موسوعته «غرائب القرآن» من أميز كتب التفسير ويحظى بالقبول والتقدير.

والخبر فى ذاته ليس فى حاجة إلى توضيح فإذا أحضرت الطاهرة لـ«الحالحل . الشجاع» جزءاً من مالها ذكر ابن أبي قحافة أنه بلغ من الضخامة أنه حجب عنهجالس أمامه فكم تبلغ ثروتها مع ملاحظة أن تلك «الصبة» من دنانير لا من دراهم^(٥٨).

كما أن سيدة نسوان قريش فوضت زوجها الحبيب فى إنفاق المال كييفما أراد «إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه» وهنا ينتصب سؤال فى ذهن القارئ وهو: لم فعلت خديجة ذلك؟

هى فعلت ذلك وأمثاله كيما يتوجه «المتنب» بالكلية لوجبات التجربة الخطيرة ولا يصرفه عنها صارف حتى يكتب لها الفلج وهو ما حدث ونجحت التجربة نجاحاً فاق كل التوقعات.

● ● ●

ومن الأدلة التى نسوقها على اتساع ثروة أم هند أنها عند زواج ابنتها زينب من أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس أهدتها داراً وبوفاتها انتقلت ملكيتها إلى زوجها المذكور ومنه إلى ورثته ثم بيعت من أحدهم بثمانين ألف دينار فالتي تهدى داراً هذا ثمنها فكم بلغت ثروتها.

«الدار التي صارت لجعفر بن خالد بن برمك بفوهة أجياد الكبير عمرها جعفر بن يحيى بالحجر المنقوش بثمانين ألف دينار وكانت هذه الدار لأبى

العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس زوج زينب بنت النبي ﷺ وفيها ابنته زينب ابنة رسول الله ﷺ أهداها إليها أمها خديجة...»^(٥٩).
ومما هو جدير بالذكر أن آبا العاص هذا كان يلقب بالأمين.

كذلك نفتح ابنتها المذكورة قلادة وعندما أسر زوجها أبو العاص في غزوة بدر الكبرى بعثت بها «بالقلادة» فداء له من الأسر فلما رآها «صاحب الشفاعة الكبرى» رق لها فألح إلى تبعه أن يطلقوا إليها زوجها ويردوا لها القلادة فعلى الفور لا على التراخي نفذوا إشارته، وقد رق لها لأنها ذكرته ب أيامه العزيزة عليه مع الأم الرؤوف والبعلة الحنون . وفي ذلك الزمن فإن الأم التي تمنع ابنتها عند نكاحها داراً وقلادة لابد أن تبلغ درجة من الثراء وفيرة.

وهكذا تتراءكم الأدلة على أن سيدة نساء الدنيا وصلت في الفن إلى درجة غير عادية وفي الثراء إلى رتبة عالية وفي الملاء إلى مستوى غير مسبوق لا في مجتمعها فحسب بل وفي غيره من المجتمعات حتى إننا من الميسور علينا أن نطلق عليها «مليونيرة».

• • •

هذه السيدة العظيمة ذات الصفات البواهـر والخصائـص الممتازـة والمناقـب الحمـيدة والتـى أجمـعت دـوـاـيـنـ السـيـرـةـ المـحـمـدـيـةـ ذاتـ الـرـيـحـ الذـىـ هـوـ أـطـيـبـ منـ العـنـبرـ الأـصـهـبـ عـلـىـ أـنـهـ حـازـمـةـ لـبـبـةـ بـرـزـةـ^(٦٠).

والتي أنجبـهاـ «ـخـديـجـةـ»ـ والـدـ منـ غـطـارـيفـ قـريـشـ أـسـمـىـ قـبـائلـ الـحجـازـ بـلـ والـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ بـأـجـمـعـهـاـ.

خديجة التي انتـتـ إلىـ أـسـدـ أوـ بـنـيـ أـسـدـ أـحـدـ أـبـطـنـ الـعـالـيـةـ فـيـ قـريـشـ والتـىـ تـمـلـكـ تـجـارـةـ وـسـيـعـةـ والتـىـ تـسـتـأـجـرـ الرـجـالـ يـعـلـمـونـ لـدـيهـاـ.ـ منـ الـمـسـتـحـيلـ عـقـلـاـ أـنـ تـظـلـ أـمـيـةـ تـجـهـلـ القرـاءـةـ وـالـكـتـابـةـ بـلـ كـلـ الشـوـاهـدـ تـقطـعـ بـعـكـسـ ذـلـكـ وـتـبـتـ نـقـيـضـهـ،ـ وـهـذـهـ بـعـضـ الـبـرـاهـينـ التـىـ تـؤـكـدـ مـعـرـفـتـهاـ التـامـةـ لـالـقـرـاءـةـ وـالـكـتـابـةـ:ـ ١ـ.ـ كـيـفـ تـسـنـىـ لـلـطـاهـرـةـ أـنـ تـدـيرـ تـلـكـ التـجـارـةـ،ـ هـنـاكـ مـعـرـفـةـ وـتـحـاسـبـ الرـجـالـ الـذـيـنـ تـسـتـخـدـمـهـ وـكـيـفـ تـزـدـهـرـ «ـتـلـكـ التـجـارـةـ»ـ هـنـاكـ نـصـفـ قـافـلـةـ قـريـشـ وـالـقـافـلـةـ تـسـافـرـ مـرـتـيـنـ فـيـ الـعـامـ مـرـةـ فـيـ الصـيفـ وـأـخـرـىـ فـيـ الشـتـاءـ،ـ وـقـدـ سـطـرـنـاـ فـيـمـاـ سـبـقـ أـنـ القـافـلـةـ تـضـمـ أـلـفـ جـمـلـ أـىـ أـنـ أـمـ هـنـدـ لـهـاـ فـيـهـاـ «ـفـيـ القـافـلـةـ»ـ خـمـسـمـائـةـ جـمـلـ،ـ نـقـولـ كـيـفـ تـسـنـىـ لـهـاـ ذـلـكـ لـوـ أـنـهـ أـمـيـةـ لـاـ تـعـرـفـ الـكـتـابـةـ وـالـقـرـاءـةـ إـلـاـ أـمـانـىـ؟ـ

٢ـ.ـ كـيـفـ يـسـتـسـيـغـ الـعـقـلـ أـنـ قـتـلـةـ أـمـ قـتـالـ أـوـ فـاطـمـةـ بـنـ نـوـفـ وـأـخـتـ وـرـقـةـ إـحـدىـ الـمـرـتـيـنـ الـتـيـ تـعـرـضـتـ لـأـبـيـ مـحـمـدـ لـيـعـتـلـهـمـاـ أـوـ لـيـعـتـلـ كـلـ مـنـهـمـاـ عـلـىـ حـدـةـ نـقـولـ كـيـفـ يـسـتـسـيـغـ أـنـ هـذـهـ الـمـرـأـةـ،ـ وـهـىـ بـنـ عـمـ الـطـاهـرـةـ،ـ تـعـرـفـ الـقـرـاءـةـ وـالـكـتـابـةـ فـيـ حـيـنـ أـنـ خـدـيـجـةـ وـهـىـ أـعـلـىـ مـنـهـاـ مـرـتـبـةـ وـأـرـفـعـ مـقـامـاـ؟ـ

وأنسى درجة في كل ناحية تجاهل القراءة والكتابة؟

٢. كذلك المرأة الأخرى فاطمة الخثعمية التي طلبت من عبدالله بن عبدالمطلب أن يأخذها وأغرته بجمالها الفائق وحسنها الباهر ومحياها الطلاق وملاحتها الظاهرة حتى إن فتيان قريش تعودوا على التحلق حولها والاجتماع بها ليتملوا من بهائها ووضاءتها . وأغوطه كذلك بنفحة مائة من الإبل إن ركب عليها وجماعها . هذه المرأة كانت تقرأ الكتب .

فأني يدخل العقل أن هذه الخثعمية التي تتكسب من العيافة والكهاة .. إلخ تقرأ وتكتب وسيدة نساء الأرض تجاهلها .

«انطلق عبدالمطلب بابنه عبدالله ماضياً إلى بنى زهرة مَرْ بأمرأة من خضم يقال لها فاطمة، وكان فتيان قريش يتحدثون إليها وكانت عفيفة ويقال إنها كانت من بنى أسد بن خزيمة وكانت تعترف وتقرأ الكتب»^(١١).

ولقد تأكد هذا الخبر من مؤلفات أخرى في السيرة الحمديّة المعطير نقتصر على ثلاثة منها :

«مر به على امرأة كاهنة من أهل تبالة «بلدة باليمن» قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مَرْ الخثعمية»^(١٢).

«عن الكلبي عن أبي الفياض الخثعمي قال: مَرْ عبدالله بن عبدالمطلب بأمرأة من خضم يقال لها فاطمة بنت عمرو وكانت من أجمل الناس وأشبهم . أشبهم بتشديد الباء أكثرهم شباباً وقوه . وأعقة وكانت قد قرأت الكتب...»^(١٣).

والأخير في الوفا بأحوال المصطفى: «لما خرج عبدالمطلب بعبدالله ليزوجه مَرْ به على كاهنة يقال لها فاطمة بنت مَرْ من أهل تبالة قد قرأت الكتب...»^(١٤).

٤. حازت خديجة لقبين لم تحظ بهما واحدة من قريش قبلها أو بعدها، أولهما سيدة قريش، وأخرهما سيدة نسوان قريش فهل يجوز أن تتسمى نسوة قريش ورجال قريش جميعهم أمية لا تعرف القراءة والكتابة؟

٥. عند تعرض **صفوة بنى قصي** لأحداث غار حراء^(١٥)، والتي أخبر عنها وهو الصادق المصدوق أن ملاك الرب جبرائيل ظهر له في غار حراء وغدا وقعها على نفسه شديداً ورجع إلى الطاهرة ترجف بوادره وقد اعتبرتها هي ختم التصديق على نجاح التجربة وأن مساعديها كللت بالنجاح الباهر أرادت أن تتأكد وتستوثق من حدتها فتوجهت إلى ابن عمها ورقة ثم إلى عداس «وهو راهب» وقصدت عليهما تفاصيل الحادثة فبشرها بفلج التجربة التي ظلت تحمل على كاهلها موجباتها والتزاماتها من كافة النواحي البدنية والمالية ما يقرب من عشرين عاماً وسوف تأتي دقائقها في باب «التجربة» ولكن لم يواتها الحظ بوجود الضلع الثالث وهو بحيرى الراهب فى مكة حتى تخبره ثم تزداد وثوقاً منه لأنه سافر إلى الشام «بُصرى مركزه الدائم» فاضطررت سيدة نسوان قريش

إلى الكتابة إليه وقد ورد هذا الأثر بأكثر من مصدر.

ذكر ابن دحية أنه عليه لما أخبر خديجة بجبريل ولم تكن سمعت به قط كتبت إلى بحيري الراهب فسألته عن جبريل فقال لها: قدوس قدوس يا سيدة نساء قريش أني لك بهذا الاسم^(٦٦).

وفي رواية أنها ركبت لبحيري بالشام فسألته عن جبريل فقال لها: يا سيدة قريش أني لك بهذا الاسم ... إلخ^(٦٧).

ولعل ما جاء في الخبر أنها ركبت إلى بحيري وقع فيه تصحيف وال الصحيح أنها كتبت إليه، وسواء هذه أو تلك فهذا الخبر يقطع بانتساب علاقة حميمة بين سيدة نسوة الدنيا وبين الراهب بحيري.

وممن ذكرها الإمام العدل سليمان التيمي في سيره.

«ومن أمثلة ذلك أيضًا ما ورد في «السيرة الحلبية» من أن ما يسمى بالإمام العدل سليمان التيمي ذكر في سيره أن السيدة خديجة رضي الله عنها عندما قص عليها محمد خبر الغار ركبت إلى بحيري الراهب في الشام...»^(٦٨).

وهنا نجد الدكتور حسين مؤنس يسخر من الإمام التيمي ويتهكم عليه لأنَّه ذكر خبرًا وهو الركوب أو الكتابة إلى شناس مكة الذي سافر وقتها إلى الشام كيما تتأكد منه عن واقعة الغار أ.هـ لا يرضى هو عنه وهو منهج ينافق العلمية وينافي الموضوعية ويجافي الأصول المتعارف عليها في البحث التاريخي والإمام التيمي الذي هزئ به د. مؤنس هو أحد مصادر ابن هشام عند كتابته السيرة المحمدية التي هي أطيب من مسلك ثبت^(٦٩).

وسيرة ابن هشام عمدة دواعين السيرة المحمدية ومن ثم فلا يتصور أن يوجِّه صاحبها إلى مصادر مهزولة أو عجفاء أو ضامرة.

ونحن نطلب من القارئ الرجوع إلى سيرة ابن هشام بتحقيق السرجاني المجلد الأول (ص ١٩٢) ليستوثق بنفسه من مدى احترام مؤلفها للإمام التيمي ومن ثم يدرك خطأ د. مؤنس في هجومه عليه، وابن هشام ليس هو الوحيد الذي آب إلى الإمام التيمي بل فعل ذلك السهيلي أحد أكابر شراح سيرة ابن هشام وهو مؤلف موسوعي مدقق وشرحه المسمى بـ«الروض الأنف» من أقيم المؤلفات التي كتبت في نطاق السيرة المحمدية التي هي أجمل من ريح بنفسج الكوفة . ومن أكثرها عمقاً ونفاسة.

ومثله لو أنه رأى في الإمام التيمي ركرة^(٧٠). أو فهة^(٧١) أو يأتي بعضيه^(٧٢) لما أقدم على الاستشهاد بما ورد في سيره:

«خديجة تسمى الطاهرة في الجاهلية والإسلام وفي سير التيمي أنها كانت تسمى سيدة نساء قريش وأن النبي لله حين أخبرها عن جبريل ولم تكن سمعت باسمه قط ركبت إلى بحيري الراهب باسمه سرجس فيما ذكر المسعودي

فسألته عن جبريل فقال قدوس قدوس^(٧٣).
ثم نذكر القارئ بالخبر الذي نقلناه منذ سطور والذى جاء فى «فتح المبدى
شرح مختصر الزبيدى» وأورد المعلومة ذاتها، وبذا ثبت أن نقد د. حسين مؤنس
لإمام العدل وتهكمه عليه لأنه أثبت فى سيره الآخر ذاته ليس فى محله وجانبه
الصواب فيه.

إن مؤنساً مؤرخ له باع بيد أن بضاعته فى «الإسلاميات» وشلة «قليلة» وقد
سبق لنا أن لفتنا نظر الكتاب المحدثين خاصة الذى ركبو الموجة الإسلامية
«على كبر» أن يتضلعوا من العلوم الإسلامية قبل أن يقدموا على الكتابة فيها.
ثم نعود بعدها إلى سياقه فنقول: إن من المستحيل أن تكتب خديجة إلى
بحيري وهى أمية !!

أ. وجدت فى قريش نسون أجدن . لا عرفن فحسب القراءة والكتاب . منهن:
«الشفاء بنت عبد الله القرشية ... أسلمت قبل الفتح وبأيام رسول الله ﷺ عن
صالح بن كيسان .. أن رجلاً من الأنصار خرجت به نملة فدلّ على الشفاء بنت
عبد الله ترقى من النملة فجاءها فسألها أن ترقيه فقالت: والله ما رقيت منذ
أسلمت فذهب الأنصارى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك قالت الشفاء قدعا
رسول الله ﷺ الشفاء فقال: اعرضى على فعرضتها عليه فقال: أرقيه وعلميها
حقيقة كما علمتها الكتاب. هذا حديث صحيح على شرط الشيفخين^(٧٤).

هذا الخبر يضم حديثاً لأفصح العربي محمد وحمله إلينا الحاكم
النيسابورى فى كتابه «المستدرك» وهو إن لا يعد من كتب الصحاح إلا أنه يتمتع
بسمعة طيبة مثل عود الهند بين أهل السنة والجماعة . فإذا زُن لا مطعن عليه ولا
غمز فيه.

ولنقارن بين سيدة قريش على بكرة أبيها وبين الشفاء الراقية. فسوف نلقى
«نجد» ألا وجه للمقارنة إذ كيف تغدو الأخيرة قارئة كتابة بل تعلم الأميين
والأمييات القراءة والكتابة إذ فى طيات الخبر أن «مقدم عترة الله» أمرها أن تعلم
إحدى زوجاته التسع: حفصة بنت المدوى عمر بن الخطاب القراءة والكتابة
والأولى «الطاهرة أم هند» أمية؟

أين مقام خديجة من موضع الشفاء بنت عبد الله؟

فسيدة نساء الدنيا أسدية «من بنى أسد» أحد فروع قريش الرفيعة المقام
والشفاء الراقية عدوية من بنى عدى وهو فرع هزيل أزعزير بين الزعارة^(٧٥).
وكيف تتفوق «=الشفاء» على سيدة نسون قريش «وهي منهن»؟ أى منطق
يجيز وقوع مثل هذا السخف؟ بأن يعلو المسود على السيد وأن يرتفع التابع على
المتبوع وأن يتقدم المقود على قائده!
وهناك نسوة آخريات فى قريش كن يعرفن القراءة والكتابة منهن أم كلثوم

بنت عقبة بن أبي معيط وعائشة بنت سعد وكريمة بنت المقداد .
ولا توجد بين هاته النسوة من تصل قامتها إلى ركبة الطاهرة إذن كيف
يجوز، أن المفضول يتغىّب على الفاضل والراجح تشيل كفته على كفة المرجو
والملصى^(٧٦) يسبق المجلّى^(٧٧) .

٧. من جماع ما تقدم ثبت بيّن أن السيدة خديجة من ذروة الحامة^(٧٨) .
ومن أعلى سنام النخبة في قريش وقريش لا تضارعها قبيلة في المكانة ولا
تباريها عشيره في المقام ولا تدانيها جماعة في الدرجة لا في الحجاز بل في
شبه الجزيرة العربية بأسراها ومكة موطنها في ذلك الإبان تمنتت بازدهار
تجارتها بخلاف موقعها الفريد وصلات سعادتها^(٧٩) . بكل حكام الحوار . الروم
والفرس وبالتالي تابعوهم المناذرة والفساسنة وباليمين والحبوش ومصر ومن ثم
وبطريق الحتم واللازم أن تصير بيوتات قريش العالية على درجة متقدمة نسبياً
من الحضارة، هذا بالإضافة إلى الاحتياك بوفود الحجيج الذين يحجون
ويقدسون الكعبة باعتبارها إرث إبراهيم مقدم البطارقة بخلاف من استوطن
قرية القدسية «بكة» لأسباب مختلفة منها المتاجرة والتتجسس والهروب من
الاضطهاد الديني ومجاورة البيت الحرام وأقدس الكعبات «في تلك الأيام وجد
فى الجزيرة العربية بضع وعشرون كعبة أ.هـ» .

فالتماس بكل هؤلاء لاشك أنه قد أثر في القرشيين وزادهم رقياً . «كان يقال
لقريش أهل الله لما تميزوا به عن سائر العرب من المحسن والمكارم والفضائل
والخصائص التي هي أكثر من أن تحصى .. ومنها كونهم قبلة العرب وموضع
الحج يؤتون من كل أوب بعيد وفوج عميق فترت عليهم الأخلاق والعقول والأدب
والألسنة واللغات والعادات والصور والشمائل عفواً بلا كلفة ولا غرم ولا عزم
ولا حيلة فيشاهدون ما لم تشاهد قبيلة: وليس من شاهد الجميع كمن شاهد
البعض ولا مجريب كالغمز ولا الأريب كالعتل . فكثرت الخواطر واتسع السمع
وانفسحت الصدور بالغرائب التي تتحذل والأعاجيب التي تحفظ فثبتت في
صدرهم وأضمرت وتزاوجت فتتاجت وتتوالدت وصادفت قريحة جيدة وطينة
كريمة .. فلذلك صاروا أدهى العرب وأعقل البرية وأحسن الناس بياناً...»^(٨٠) .

ولا أدل على سمو قبيلة قريش على غيرها من القبائل في الحجاز مثل
ثقيف في الطائف وبني قيلة في يثرب بل وعلى سائر القبائل في أنحاء شبه
جزيرة العرب أن لغة قريش أو لهجتها إذا شئنا الدقة فاقت سائر اللهجات في
الرقعة والعذوبة والدماة والبعد عن الحوشية والبداؤة والخشونة حتى غدت بلا
جدال سيدة اللهجات في جزيرة العرب كلها .

إذن تلك القبيلة التي حازت كل تلك الخصائص الباهرة والمناقب العالية
والصفات الحميدة كيف يتّأّل لفهم السيد والإدراك السليم والفقه الصحيح

أن تقبل أن تغدو سيدتها وقمة هرمها الاجتماعي والاقتصادي أمية تجهل القراءة والكتابة.

إن هذا مما يمجه الذوق المرهف والحس الدقيق والفطرة الخالصة قبل أن يلفظه العقل ويستهجن الإدراك ويستقيح الفهم ويسترذهل الوجودان.

• • •

تلك هي البراهين التي تقطع ببعد «سيدة نساء الدنيا» عن الأمية بعد السماء عن الأرض . ونحن ندرك أننا أطلنا في هذه الفقرة الخاصة بآثاثات علم الطاهرة بالقراءة والكتابة لأن هذا أمر في نظرنا بالغ الأهمية شديد الخطرا . إذ بدونه لا يقيض لـ«التجربة» النجاح وهذا ما نرجح أن القارئ الليب قد فطن إليه مما سطRNAه حتى الآن وسوف يزداد له لقانة^(٨٠) كلما استمر في المطالعة التي نأمل أن تتم بوعي كامل وإدراك يقتضى .

إذن خديجة وقد حازت كل ما ذكرناه تعتبر من الخاصة أو النخبة أو الحامة لا في قريش وحدها بل في منطقة الحجاز بأسرها ومن ثم في شبه الجزيرة العربية، يضاف إلى ذلك اتصالها الحميم وعلاقتها المتينة بابن عمها القس ورقة ومن ثم فهي تتضمن أو تأتى في مقدمة تلك الفتاة الممتازة التي سمعت بـ«القادم المنتظر» ثم آمنت بهذه الفكرة المبهرة وأدركت بما رزقت من صفات عقلية ممتازة أن الظروف تهيأت لمحبها .

وكان عاقلة فاضلة سمعت بالنبوة والأنباء والملائكة . وكانت تزور ابن عمها ورقة وكان قد تنصرّ وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل وكانت تذكر من أهل مكة ما ينكره أهل الفطرة السليمة والأذهان المستقيمة...^(٨٢) .

«وسبق لنا أن سطRNAنا ما ذكره من القدامى: ابن إسحق وتلميذه ابن هشام كل منهما فى سيرته الأولى فى صفحة ٨٢ الأولى والآخر. الأول ص ٢٢١ . تحقيق السرجاني». .

وتقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ فى هذه الخصوصية:

«كانت السيدة خديجة وهي من صميم قريش وجيرة الحرم بحيث لا يفوتها شيء مما ماجت به بيئتها قبل المبعث من تطلعات إلى تحول خطير رنا إليه شعراء العرب وحكماً لهم وإرهاصات كهانهم وحنفائهم عن نبي جديد .. وتبؤات برسالة سماوية جديدة تناقلها الرواية والسمار عن رهبان النصارى في الشام ونجران وأخبار اليهود في شمال الحجاز، ومكة على الخصوص كانت المركز الذي تتلاقي فيه تلك الإرهاصات والت卜ؤات وتتجمع رواد هامة هنا وهناك لتصب حول البيت العتيق وتحوم حول حى بعينه من أحياء قريش وهو حى بنى هاشم وترنو إلى شخص بذاته هو محمد»^(٨٣) .

والدكتورة عائشة عبد الرحمن أو بنت الشاطئ أجادت وصف حالة مكة

الدينية قبل بدء التجربة التي نذرت أم هند نفسها وجهودها وثروتها لها إلا أن التوفيق لم يحالها فـن قولها حامت حول «شخص بذاته هو محمد» ذلك أن أم هند دون غيرها هي التي رشحت «الحبيب المصطفى» دون غيره في مكة جميعها ليغدو «القائد المنتظر».

وذكر العقاد: «وانتقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة»^(٨٤).
بيد أن الأستاذ الكبير انزلق فوقع في خطأ فادح فالظروف لا ترشح.
الظروف تهيئ وتتوطئ وتمهد إنما الذي يرشح شخص أو نفر من الناس والنفر من ثلاثة إلى عشرة وقد يفعل ذلك فرد ثم يعاونه واحد أو أكثر.

و«سيدة نساء الدنيا» قد رشحت ووافقت توسمها حدس آخر «يغدو من المفید الرجوع إلى الخبر الذي سطرناه فيما قبل عن بحيري رئيس أبرشية مكة أو الحجاز وناصح غلام خديجة وأتحفنا به ابن كثير في سيرته» وإذا لم تفعل ذلك الطاهرة التي تلمنت على القس وسمعت منه وقرأت ما عربه من العبرانية، فمن يفعله؟

• • •

وهناك كتاب قدماء أو قدامى ومحدثون فطنوا إلى ذلك..
بعد ذكر واقعة اختبار خديجة لمن كان يأتي محمداً هل هو شيطان أم ملاك أورد صاحب السيرة الحلبية ما يلى: فإلى ذلك وأشار صاحب الهمزية: وأتاه في بيتها جبرائيل، ولذى اللب فى الأمور ارتياه. فأمامت عنها الخمار لتدري، فهو الوحي أم هو الإغماء. فاختفى عند كشفها الرأس، جبريل فما عاد وأعيد الغطاء فاستبان خديجة الكنز الذى حاولته والكيمياء»^(٨٥).
إن الذى يلفت النظر هو البيت الأخير وهو أن سيدة نساء قريش وجدت فى المصطفى الكنز الذى حاولته والكيمياء وهى عبارة لا تحتاج إلى تأويل.
والذى اكتشفناه أن عدداً من الذى آلفوا فى السيرة المحمدية المعطار توصلوا إلى التجربة التي قامت بها خديجة مع محمد الذى فطنت إلى أنه الكنز ولو أنهم لم يصرحوا وقد سمى صاحب الهمزية جهودها فى هذا السبيل بـ«الكيمياء».

ومن المحدثين الذين ألفوا ولحنوا^(٨٦) عميد الأدب العربى د. طه حسين إذ يقول: «لقد أحببت خديجة هذا الفتى منذ كان صبياً وجعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع ترقبه وتتبع نموه واكتماله»^(٨٧).
وكذلك أصحاب مؤلف «قصص الأنبياء»: «ويا للزوجين الكريمين . يعني الطاهرة أم هند وحبيب رب العالمين . زوجة تكلاً وترعى وتشجع وزوج يستهدى ويلتمس النور من رحاب الله رب الأرض والسماء .. ويمضى الزوج فى التهئؤ للرسالة وتمضى الزوجة لتشجيعه ورعايته وعين القدر من فوقهما ساهرة والله

من ورائهم محيط»^(٨٨).

وهنا من الضروري أن ينتصب سؤال: ما هي الدوافع والبواعث التي حملتها على مراقبة محمد ومتابعة أطواره منذ أن كان صبياً؟

وهل فعلت ذلك مع غيره من صبيان قريش وهم بالعشرات؟

إنها لم تفعل ذلك إلا لأنها لاحظت أن «العطوف» هو المنتخب الوحيد كيما يصير «المرتقب» والمأمول بحسب ما قرأت في الكتب وما سمعت من القس؟

وماذا تعنى العبارات التي سطرها مصنفو كتاب «قصص الأنبياء» مثل: زوجة ترعى وتتكلا وتشجع.. وتمضي الزوجة لتشجيعه ورعايته، إذا لم تدل على أنها الزوجة أو سيدة نساء الأرض تنفذ التجربة وتمضي فيها مشجعة راعية مؤازرة. إن جاد المولى وصحبه تحذّوا عن التجربة التي خاضتها الطاهرة إنما عبارات ملتوية وجمل ملفوفة وكلمات حلزونية ونحن نلتمس لهم العذر لأن التبيين سوف يجر عليهم المتاعب ولعلهم أسرروا في نفوسهم لا ذنب علينا إذا لم ينفعه القارئ!!

• • •

وترشيح الطاهرة لـ«قائد الخير» ليصبح هو المرتقب أو المأمول أو الآتي أكدته دواوين السنة المعتبرة وما انفك يشاركتها في هذا الحدس ورقة وازاد افتقاءً بما فتئت تقلله إليه الطاهرة من خطوات «... كان يتوصّمها في رسول الله ﷺ بما كانت خديجة تتعّتها له وتصفه له وما هو منطو من الصفات الطاهرة الجميلة وما ظهر عليه من الدلائل والآيات»^(٨٩).

ولقد عبر عنها ابن كثير في سيرته بما ظهر عليه من الدلائل والآيات وأن «خديجة كانت تتعّتها له وتصفه له» أي دأبت على إحاطته علمًا بالأحوال التي يترقى فيها سعد الله أثناء مروره بأطوار التجربة لكي يوجه القس بما يراه لها من علم عميق بكتب اليهود والنصاري علمًا لم يصل إليه واحد من المكينين في زمانه.

هذه الكتب التي أطبق أصحاب دواوين السيرة المحمدية التي هي أذكى رائحة من العنبر الأصهب أنها بشرت به ووصفته وصفاً دقيقاً حتى السمات الجسدية له ذكرتها بدقة متاهية.

• • •

وسيطر أحد الكتاب المحدثين رأيه عن ضرورة استعانة الطاهرة بأستاذ يقوم بالإرشاد والتوجيه:

«ولكن الأمر كان أعظم من هذا، وكان يحتاج إلى رجل له خبرة بالديانات وتاريخها والنبوات وسننها ومعرفة بأهل الكتاب الذين عندهم أخبار الأنبياء فرأى أن تستعين بابن عمها العالم ورقة بن نوفل»^(٩٠).

ونجزم أنه لا توجد كلمات أقوى وأصرح من هذه الكلمات تحدد موقع ورقة كأستاذ ويعسوب ووجه للطاهرة وهى تتولى إنجاز التجربة الكبرى التى أظهرت القايد المنتظر بصورة مدهشة.

• • •

الفارق الزمني بين عمر هندوز التجربة وعمر موضوع التجربة هو ربع قرن، فـ«سيدة قريش» نكحت محمداً وهى بنت ست وأربعين سنة^(١).

فى حين أنه لم يكُن يبلغ الحادية والعشرين من عمره المبرور^(٢).

إنما بعض الباحث يستهول هذه الحقيقة فبعضهم يدعى أنها أسن منه ببعض سنوات والوهم الشائع بين غالبيتهم يرتفع بالمسافة العمرية بينهما إلى خمسة عشر عاماً، بيد أن بعض المتفقهين منهم يرفضه أيضاً بمقدمة أن الطاهرة إن بلغت الأربعين من عمرها المبارك عندما نكحت «صاحب النسب الموصول» فكيف أنجبت أربع بنات «هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة» وهناك اختلاف على ترتيب رقية وأم كلثوم وصبيين هما القاسم والطاهر «أو الطيب» وهي فى تلك السن؟

فسألت واحداً من أكبر أطباء النساء فى مصر: هل تستطيع المرأة أن تتعجب وهى فى السادسة والأربعين؟ فأجاب متسائلاً: أخبرنى عن خصوبتها؟ فرددت عليه لعلك تعنى هل أنجبت قبل ذلك ثم أردفت إنها ولدت ثلاث مرات أو أربعاً.

وجاءنى رده عبر الهاتف: نعم تستطيع دون مشاكل.

• • •

وبدورى أضيف الآتى: طلاقة الجو ونقاؤه وعدم تلوثه كلها أمور تساعد على الإنجاب كما أن أم هند... من البديهى أنها تمنتت بصحة ممتازة فلديها الثروة والجوارى اللاتى يكفيها خدمة المنزل التى تهد حيل^(٣) المرأة.

أى أنها عاشت فى بلهنية ورفعنية^(٤). ونذكر أن دواوين السيرة العطرة أطبقت على جمالها والجمال قرين الصحة والعافية كما ذكرت أن العديدين من الملأ «وجوه القوم» تنافسوا على خطبتها فما الذى يدعو هؤلاء لنكاح قبيحة منفردة أو حتى متوسطة الحُسن عادية القسامه منخفضة الوسامه.. إذن فما دامت الطاهرة بهيّة حسنة حلوة فلا مشاحة إذن أنها تمنتت بصحة جيدة تؤهلها للولادة عدة مرات رغم تلك السن.

فإذا فرضنا أن الطفل يستغرق ما بين حمل وولادة وانتظار للمولود التالى عاماً ونصف عام وهى أنجبته لـ«ذى العطايا» ستة أطفال فإن دلالته أنها قضت فى ولادتهم أقل من عشر سنوات من عمرها المبروك أى أنها استمرت حتى السادسة والخمسين ولا غرابة فيه فنحن الآن نرى فى الأriاف زوجات يخلفن

في مثل هذه السن.

أما من ناحية «المسبح» فهو في عز شبابه^(٩٥).

وتحدثنا كتب سيرته التي هي أشد شذى من الورد البلدي أنه عرف بمتانة البيان وقوة الجسد وإحكام الخلق وشدة الأسر^(٩٦) وأنه صرخ ر堪ة أقوى رجل^(٩٧) في قريش فعاد ر堪ة من مصارعته مهزوماً ذليلاً يجر أذيال الصغار والخيبة.

ومن جماع ما تقدم يثبت أن الدفع بإنجاب سيدة قريش لهذا العدد من البنات والبنين يدل على أنها عند تناحها **سيد ولد قصى** لا في السادسة والأربعين ولا حتى في الأربعين، نقول يثبت أنه دفع فسيد وحجة بأثرة ودليل أعجف وقرينة مهزولة ضامرة.

● ● ●

وهنا يرتفع سؤال على قدر من الأهمية وهو: ما هي علة الإصرار من جانبنا على أن الطاهرة عندما نكحت «المتصر» بلغت أو ناهزت السادسة والأربعين وأن الفارق بينهما قارب الربع قرن؟

الإجابة على هذا السؤال تتضمن على شقين:

الأول: سبق أن أوضحتناه في باب «الأم الرؤوم» وهو أن ذلك ساعد بالفعل على نجاح التجربة لأن **للجيرون** نظر إلى أم هند باعتبار أنها أمه مما عاضد على المطاوعة والملاينة والمسالمة والمهادنة وهي ركائز الفلاح والظفر والفلاح وززيد: لو كانت خديجة في مثل سنها أى بالكاد تخطت العشرين هل يستجيب لها تلك الاستجابة المعجبة. ونذكر بما تم في اختبار الآتي هل هو ملك أو شيطان ففيها تجاوب معها تماماً دون اعتراض . وهذه الواقعية من الواقئ النادرة التي سطرها كتاب السيرة الحمدية الفائحة بالمسك . ولو أنهم أحظفونا بمثيلاتها لوجدنا بين أيدينا مددأ طيباً ساعدنا في الإبانة عن آطوار التجربة المنقطعة النظير.

ثم نعود للسياق: لو أن الطاهرة وقت ذاك في مثل سن «أعظم الكائنات» هل استجاب لها وطأوها في طلباتها منه أن يجلس في فخذيها ثم في حجرها ثم داخل درعها «قفيصها»؟

الإجابة لابد أن تجيء بالسلب حتى لو أضفنا عشر سنوات.

إن أم هند شد انتباهاها «الأنوار- المتجرد» منذ علقت به أمه من أيده عبد الله ثم وضعته تحت الرقابة الشاملة منذ أشار عليها الراهب بغيري «المرجعية الكبرى» بلزوم نكاحه وضرورة مباعته وفرض الزواج منه إذ من غير المقبول أن تصرف نظرها عن الشخص الذي سوف تصير له بعلاً بل لابد وبطريق الحتم واللازم أن تحيط بكل صغيرة وكبيرة عنه ولا بد أنها لحظتها فيه =المراجع

فوهرتها وهزّا^(٩٨) للإشارة عليها بحتمية القران به مع الوضع في الاعتبار أنه في ذيak الوقت صبى لما يحتمل وقرיש فيها من الرجال العدد الوفير، والمرجع إياها في مثل هذه الأمور لا تثبت ولا تهزر ولا تعرف المجانة.. إذن لابد أن في الأمر سرًا وإذا إنها «=المراجع» لم تبع به لها وهي من ناحيتها ليس من حقها أن تسأليها عنه وإلا عدت طورها وتخطط درجتها وتجاوزت مكانها إذن فلا سبيل أمامها لمعرفته «السر» إلا أن تضع المرشح الزوج أو الزوج المرشح تحت المجهر فيما تلم بالصغير والكبير من شئونه حتى تتوصل إلى السر.

الأمر الذي استغرق وقتاً ممدوّداً وزمناً طويلاً وبالتالي تقدماً في العمر.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن خديجة كما ذكرنا من الذؤابة العليا من قريش ومن رهط بنى أسد ومن ثم فهى . وكما أسلفنا . تعد من النخبة التي اتصلت مثل غيرها من طبقتها بأصحاب اليهود وبربان النصارى الذين ما فتئوا يتحدثون عن القادم المنتظر والمأمول وأن ذلك كله مسطور في كتبهم المقدسة حتى أوصافه الخلقيّة مذكورة فيها وأنهم لمسوا آيات وعلامات وإشارات تقطع بأن زمانه قد أظل أو أطل وبيه أنها لم تقف عند ذلك فهي طلعة.

لهذا أخذت تدرس هذا الأمر مع جهابذة العلم الديني في منطقة الحجاز عامة وقرية التقديس «بكة» خاصة وسوف يأتي تفصيل هذا كله في باب التجربة وما نذكره هنا باختصار أن خديجة ربطتها علاقة حميمة بهؤلاء وعلى رأسهم:

بحيرى الراهن وعداس وهو راهب أيضاً ولو أن كتاب السيرة المجيدة المحدثين ينطرون^(٩٩) على هذه الحقيقة وبالتالي فهى بحث معهم باستفاضة مسألة القادم المأمول وإرهامات ظهوره والعلامات التي تومن إليه دون تحديد أو تعين، بيد أنها بما أوتيت من بصيرة ورزقت من فطانة ومنحت من زكانة تعرفت على المرشح الفرد الذي يصلح أن يغدو هو دون غيره من ناشئة قريش وذلك بعد أن تفرست فيه جيداً وتعنت في قسماته المعنوية قبل المادية ومن ثم سعت سعياً حثيثاً إلى مباعلته وخاضت معركة شرسة حتى ظفرت به ونكحته كما أوضحنا فيما سلف، وبعد ذلك باشرت مهمتها باقتدار ونجحت في ذلك نجاحاً باهراً فصارت خير هندور لتجربة من أعظم التجارب في تاريخ البشرية.

* * *

إلى هنا نصل إلى المحطة الأخيرة في الرحلة الطويلة التي قطعتها الطاهرة لكى تغدو بعلاً «الهاشمى - الهمام» ومعنى بميناء الوصول مجلس عقد الزواج (فخرج معه «مع محمد» حمزة وأبو طالب وهو الذى خطب خطبة النكاح لأنه أحسن من حمزة.. فلما أتم الخطبة تكلم ورقة بن نوفل.. وجاء فى ختام كلمته:

قد رغبنا في حبلكم وشرفكم فاشهدوا على يا معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة من محمد. ثم سكت فقال أبوطالب: قد أحببت أن يشركك عمها فقال عمها عمرو: واهدوا على يا معاشر قريش أنى قد أنكحت محمداً خديجة وشهد على ذلك صناديد قريش فأمرت خديجة عند ذلك جواريها أن يرقصن ويضررين الدفوف وقالت لمحمد ينحر بكرًا من بكرانك وأطعم الناس فقل من أهلك فأطعم الناس...).^(١٠٠)

(فرغ أبوطالب من خطبته في خطوبة «صاحب الفرج» لخديجة.. فتكلم ورقة فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عدلت فتحن سادة العرب وقادتها «رؤساؤها» وأنتم أهل ذلك كله لا ينكر أحد فضلكم وشرفكم وقد رغبنا في الاتصال بأسرتكم وشرفكم فاشهدوا على يا كبار قريش أنى قد زوجت خديجة.. من محمد.. بهر كذا.

قال أبو طالب: أحب أن يشتراك عمها معك فقال عمها عمرو: اشهدوا على يا كبار قريش أنى قد زوجت محمداً خديجة.. وشهد على ذلك كبار قريش).^(١٠١)

● ● ●

ويتبين من جماع هذه الآثار أن ورقة هو الذي تولى تزويع خديجة لـ«المستجيب»: فاشهدوا أنى قد زوجت خديجة من محمد.. ويلاحظ أنه قدم خديجة باعتبار أنها هي التي توصلت لـ«الضحوك» لتتكحه أى أن النكاح تم بناءً على طلبها. أما ورقة فهو الذي رحب به وباركه بل شجع أم هند عليه وفتح مخطها ولفت نظرها وشد انتباها لأهميته وبصرها بالنتائج الخطيرة التي تترتب عليه وأنها سوف تundo «سعيدة السعيدات» أو «أسعد الناس» في حالة إنجازه وطلب منها أن تخطره بخطواته خطوة إثر خطوة.. هذا ما حكاه لنا الدكتور طه حسين في كتابه الممتع «على هامش السيرة».

● ● ●

إن ولّ الطاهرة في إبرام عقدة الزواج سواء هو الوالد أو العم لم يدل بكلمة أهل العروس أو المخطوبة بل الذي تكلم هو ابن عمها ورقة على خلاف المعهود ومن ثم فقد ألح أبو طالب على ضرورة سماع كلمة الولى ولم يكتف بمقالة ابن نوفل. ذلك أن عم «المعروف» لا علم له بخبيئة الأمر وتقدم القس. لإلقاء كلمة بنى أسد دليل قاطع وبرهان ساطع على أهمية دور ابن نوفل سواء في إتمام الزواج أو متابعة التجربة الكبرى وتأكيد بأنه يعسوها والشرف على خطواتها، ذلك أن ورقة رجل حصيف وأريب ومبرج يعرف قبل غيره أن إلقاءه كلمة أهل العروس فيه تعد لمقام ولديها سواء هو والدها أو عمها وتخطط لقدره وتجاوز مكانته ومثله لا يقبل على هذه الخطوة إلا إذا كمن وراءها سبب دافع وهو

الحرص الشديد على إتمام عقدة الزواج لأنها خطوة بالغة الأهمية ولها ما بعدها وبدون إحكامها لا يكتب للتجربة المدهشة الفلاح ولا يقيض لها الظرف ولا يتاح لها الفلاح . أم أن صفة ورقة كـ«قس» شكلت ضرورة طقوسية ليتولى هو مراسم العقد فيما يصير شرعاً ليباركه الرب !!، ولا ننسى أن الولي في تلك اللحظة الحرجية سكر سكرًا بينما إذ إنه عب من العائق «الخمر» حتى فقد وعيه . وخشى القس وعارضته سيدة نسوان فريش أن الولي المخمور أو المخمور الولي يخرق في كلمته فينهاز مشروع الزواج الذي كلفها الكثير من الجهد ودعاك من المال والأهم أن تتحقق التجربة التي ظلت تدبر لها سنين عدداً فتصير هيأتها لدى المرجعية التي أشارت عليها بضرورة نكاحها «الهين» على غير ما تحب وبخلاف ما ترجو ونقىض ما تأمل كما أنها تندو في نظر أستاذها ومعلمها نعني القس ورقة غير جديرة بأن تحظى بشرف توجيهه لها ورعايتها إياها .

وبالنسبة لهم معاً فإن ما رسماه يصبح رماداً تذروه الرياح العواصف ونحن نرجع أن إقدام ابن نوبل على التعبير عن رأي رهط الأسديين في إمضاء العقد تم باتفاق بين التلميذة النجيبة والأستاذ القدير .

وهناك احتمال لا يجعل بنا تجاهله في هذه الواقعية وهو أن مبادرة ورقة بإلقاء كلمة أهل الخطوبة ربما ترجع إلى أن ولها والدًا أو عمًا في حالة من فقدان الوعي تحت تأثير السلسلال «الخمر» حتى إنه لا طاقة له على الكلام وهذا يوثق ما سبق لنا إثباته أنه سواء الأب أو أخوه هو الذي حضر المجلس فالأمر سيان وذكرنا هذا الاحتمال هو من باب تكميل تحليلنا لهذه الواقعية ذات الأهمية الظاهرة وتتناولنا لها من كافة أقطارها وبحثتها من سائر جوانبها والتتفير في كل نواحيها فيما لا تشوب هذه الدراسة أقل شائبة .

● ● ●

ما هي ثقافة الهندوز وما مداها هل هي عميقه أم متوسطة أم وشلة «ضحلة»؟

في البداية: ما هو كنه ثقافتها وإذ نفعل نعاني كثيراً من ندرة ولا نقول من قلة المعلومات فالمصادر «الكتب التراثية» لم تتناول هذا الموضوع بشكل مباشر ومن ثم فنحن نستقرئ منها الأخبار الشحيحة التي أملت بهذا الشأن .. أما المراجع «المؤلفات الحديثة» فقد أحجمت عن الخوض فيه لأسباب لا تغيب عن ذكاء القارئ ذى اللب والفتانة .

أول ما ينتصب قرينة على أن ثقافة أم هند في ذلك الوقت كتابية هو لقب «الطاهرة» وسبق أن أفضينا في هذه النقطة ومن ثم فلا داعي لإعادة الحديث بشأنها بيد أنها نضيف ما سطره أشان ممن كتبوا في السيرة الحمدية المعطير

وهما من المحدثين:

أولهما: الشيخ عبدالحليم محمود الذى ارتقى سلم المؤسسة الدينية الرسمية حتى ذروته: «ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة رضى الله عنها ولكن أحبته لشئ آخر هو السمو الروحى وهو العزوف عن اللذائد المادية الفاشية والاتجاه إلى الخالد من معالى الأمور»^(١٠٢).

فالسيدة التى تبذل ما يشبه المستحبيل حتى تغدو بعلا لصاحب الشملة لسموه الروحى وعزوفه عن اللذائد المادية لزهده . ونحن نعلم أن أهم صفة امتاز بها عيسى ابن مريم هى الزهد . والاتجاه إلى معالى الأمور الخوالد، ليست زوجة عادية إنما بطريق اللزوم أن تتمتع بثقافة دينية خاصة ذات منزع لا يغيب عن العين البصيرة.

أما المصنف الآخر؛ فهو محمد على الصابوني الذى سلط الضوء على جانب طلاماً آثار اللغو خاصية من بعض المستشرقين الحاقددين على «المهندب» فيقول: «كان زواج العقل للعقل .. لم يكن الغرض منه قضاء الوطر «الشهوة».. هذه المرأة النقية العاقلة الذكرة «يسرها الله تعالى له» لتعيينه على المرضى فى تبليغ دعوته.. قضى الرسول مع خديجة زهرة شبابه فلم يتزوج عليها ولا أحب أحداً مثل حبه لها»^(١٠٣).

هنا نجد الصابوني يتحدث عن تقوى ونقاء «سيدة نساء الدنيا».. والتقوى والنقاء يعادلان الطهر وينزهها عن قصد قضاء الوطر والشهوة عندما يممت شطر «الفاتح» وقدمت ما يفوق طاقة البشر لتنكحه . بل ولتعيينه على المرضى فى تبليغ دعوته».

فلولا أن سيدة نساء قريش تملكت ثقافة كتابية لما فعلت كل هذا!
ومن حقنا أن نسأل: كم سيدة على استعداد لتدوى عشر ما قامت به أم هند
مع «المتوسط» وبذلت الجهد والمالي متها؟

● ● ●

إذا انتقلنا إلى رهط خديجة وهم بنو أسد نجد أنه لم يوجد بطن آخر في قبيلة قريش بجناحيها: البطاح والظواهر، تفشت فيه النصرانية مثليهم ولقد بسطنا القول في هذه الخصوصية ومن ثم يغدو من التكرار الممل إعادة ما سطRNAه فيها ويكفيانا أن نورد رأى باحث جاد هو الدكتور جواد على في مصنفه القيم «المفصل»: «وقد ذكر ابن قتيبة الدينوري أن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاة . وقال اليعقوبي: وأما من تصر من أحياه العرب فقوم من قريش من بنى أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث بن أسد وورقة بن نوفل»^(١٠٤).

ونحن نعلم أننا سبق أن ذكرنا هذه الفقرة بيد أن التكرير القليل يغدو لازماً

فى أحيان كثيرة خاصة عندما ندرس موضوعاً من نواح عديدة.
ونذكر أن ثلاثة من بنى عم أم هند تضلعوا فى النصرانية حتى وصلوا إلى
مراكب سامية فيها:

البطريق: عثمان بن الحويرث.

القس: ورقة بن نوفل.

الكافنة: قتيلة أو أم قتال بنت نوفل.

وليس مصادفة أن خديجة التجرة استعملت عبيداً نصاري علمنا منها
اثنين هما ناصح وميسرة أما الأول فلم نعثر له إلا على خبر واحد:
قالت خديجة لمحمد قد أخبرنى به ناصح غلامي وبخيلى الراهب أن
أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة^(١٥).

وغلامى تعنى عبدي ومملوكى وأم هند أخبرت بذلك «أنفس العرب» بعد أن
فاجت فى أن تصير له بعلاً. والخبر على وجازاته يكشف الستر عن أن العبد
مت�能 من النصرانية وعلى علم بالكتاب لأن سيدة قريش قرنته بالراهب
بحيرى فكلاهما أشار عليها بصورة مباغلة «الأمة».

أما الملوك الآخر فهو ميسرة وسبق أن طرحنا البراهين على نصرانيتها
ونضيف خبرين الأول: أورده البلاذرى عن «الأنساب».
«وأخبرها ميسرة بما كان يقال فيه «=محمد» وكانت امرأة عاقلة حازمة بربة
مرغوبًا فيها لشرفها ويسارها»^(١٦).

وجملة «بما كان يقال فيه» تعنى ما قاله الرهبان فى حق «البارقليط» ولو لا أن
عبد الخير ميسرة على معرفة وطيبة بل علاقة حميمة بمن أسرروا له بأحوال
صفات ومناقب «الصراط المستقيم» لما خصوه بها، ونرجح أنهم طلبوا منه أن
ينقلها لسيديته. ونضيف أنه استمر رقيقاً لها عدة عقود من السنين وأنها أولته
ثقتها الكاملة، ودأبت على إرساله مع الذين تستأجرهم كيما يضاربوا لها بما لها
عيناً ورقيباً عليهم كذا ليحمل إليها آخر ما يستجد من أخبار وأحوال لدى
أولئك الرهبان الذين يقطنون على حدود الجزيرة ومشارف الشام وتمر عليهم
قافلة قريش التي تملك أم هند نصفها.

أما الخبر الآخر فقد نفحنا به جلال الدين السيوطي فى «الخصائص
الكبرى» «راهب رحلة الشام الثانية اسمه نسطورس كان يعرف ميسرة
ويعرفه»^(١٧). هذا الخبر صريح فى نصه واضح فى دلالته على أن ميسرة
يعرف الراهب نسطورس وأن الأخير يعرفه وهذا برهان ساطع على نصرانيتها
إلا فما الذى يربط عبداً براهب؟

كما أن السيدة خديجة عندما تسترق عبيداً نصاري وتتفحthem ثقتها فإن هذا
له علة خبيئة خاصة وأن ما حكته دواوين السيرة المحمدية التى هي أطيب

رائحة من المسك الأصهب عن ميسرة يدل على أن الصلة بينه وبين سيدته ليست علاقة عبد بمالكته بل هي أعمق ونذكر هنا أنه سفر بينها وبين «المشيخ» في مسألة نكاحها إياه.

● ● ●

العبدان النصارى في بيت أم هند هم أفراد الحلقة الكتابية الداخلية التي أحاطت بها.

وهناك أخرى مماثلة خارجية اتصلت بها: أول أفرادها ورقة بن نوفل ابن عمها وسبق أن تحدثنا عن العلاقة بينهما بما فيه الكفاية إنما لا بأس من إضافة هذين الخبرين «فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل وكان ابن عم خديجة وكان شيخاً كبيراً عمي - وكان من الحنفاء - ثم تنصر فصار من علماء الكتاب»^(١٠٨).

«وكانت خديجة تسأله - أي ورقة - عن أمر النبي ﷺ»^(١٠٩).
والحق أتنا لسنا في حاجة إلى ذكر ورقة كعضو في الحلقة بعد أن أفردنا له فصلاً مستقلاً إنما لاستكمال عدة أعضائها.

● ● ●

وثانيهما عداس مملوك عتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من أغنياء الطائف لهما بساتين وأراض زراعية وكروم عنب وسبق أن ذكرنا أن ابن حزم أكد أن شيبة نفسه اعتنق النصرانية «وكان في الطائف نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية لم يتعرض سادتهم كسائر رجال الأماكن الأخرى من الحجاز لدينهم فتركوهم على دينهم يقيمون شعائرهم الدينية على نحو ما يشاورون من هؤلاء عداس وقع في الأسر فببع في سوق الرقيق وجيء به إلى الطائف فصار مملوكاً لعقبة وشيبة ابني ربيعة»^(١١٠).

وعلى رأس هؤلاء الموالي النصارى عداس وتبخرنا الدواوين التراثية لسيرة «الأبر» أنه راهب إنما الكتب الحديثة تداريها لعلة يدركها القاريء اللماح.
«ثم رأيت أن عداساً المذكور هنا كان راهباً وكان شيخاً كبير السن قد وقع حاجبه على عينيه من الكبر وأن خديجة قالت له أنعم صباحاً يا عداس. فقال: هذا الكلام كلام خديجة سيدة نساء قريش، قال: أدنى مني فقد ثقل سمعي فدنت منه ثم قالت له: ما تقدم»^(١١١).

هذا الخبر يقطع بوجود علاقة وطيدة بينهما لأنه عرف صوتها ولنلاحظ أنه ناداها بلقب «سيدة نساء قريش».

وفي خبر آخر أن بعيرى خاطبها بذات اللقب.
وثالثهما هو الراهب سرجيوس: «يقصد تيوفانيس - طبعة كلاسن - وجورجيوس - طبعة بيكر». أنه بعد أن ارتجف محمد بعد ظهور جبريل أول مرة

توجهت خديجة، وقد استولى عليها قلق شديد إلى سرجيوس وكان راهبًا زنديقاً منفياً فطمأنها بأن أكمل لها أن الملك «يعنى جبريل كان يرسل إلى كافة الأنبياء»^(١١٢).

وواضح من الخبر أنه ممن وثقت فيهم خديجة وهي علمهم بالكتب المقدسة لهذا هرولت إليه ل تستفسر منه عما حدث لـ«الفلاح» في غار حراء إذ مما يرفضه اللب أن تهرون إليه في مثل هذا الأمر دون سابق معرفة لخطورته من جانب ومن جانب آخر لضرورة كتمانه حتى لا يتسرّب فيحدث رد فعل سيئ قد يؤدي لعدم اكتمال التجربة.

والرابع هو بحيري الراهب وهو رأس الحلقة بلا مدافعان ونرجح أنه شamas أو مقدم أبرشية الحجاز واختلفت المصادر في اسمه فبعضها سماه بحيري والآخر أطلق عليه نسطوراً بل ويؤكد أن هذا هو الاسم الصحيح وأنه الذي قابل «الصبيح» في سفرته الأولى إلى الشام.

هذا الراهب ذكرهوا أن اسمه نسطوراً وليس هو بحيري المتقدم ذكره وهو الذي قابله في سفرته الأولى وهو غلام مع عمه أبي طالب»^(١١٣).

وليس ابن هشام هو الوحيد الذي لم يستطع أن يجزم بالاسم الصحيح بل فعل ذلك صاحب السيرة الحلبية.

وبسبق أن أخبرنا القارئ أن سيرة ابن هشام هي عمدة السير «بعد سيرة ابن إسحق» أما الحلبية فلها مقام لا يستهان به بين مؤلفات سيرة محمد التي هي أحسن من صوت «هزاز دستان» وهو طير له صوت كأنه مزامير داود.

«بحيري أو نسطوراً أو نحوهما من صدق بأنه (ﷺ) نبى هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام لأنهما لم يدركا البعثة»^(١١٤).

ولايزال الخلاف مستمراً حتى يومنا هذا «إن المصادر العربية لا تذكر بحيري، إلا أنه راهب اسمه سركيس ولقبه بحيري لسعة اطلاعه في علوم عصره في نطاق اختصاصه اللاهوتي»^(١١٥). والمقال به أخطاء تاريخية ومعلوماتية ولعل بالعبارات الإنسانية بيد أننا استشهدنا به مجرد إثبات استمرار الاختلاف على «بحيري» وسواء اسم ذلك الراهب نسطوراً أو بحيري أو سركيس فالذى يعنيانا أنه رئيس أبرشية الحجاز الذى ربطته بسيدة قريش أصرة شديدة وأنها تثق فى علمه الكاتب ثقة لا حد لها فبعدما أخبرها «السلطان» أنه التقى بالملك جبريل تصادف أن سافر بحيري من الحجاز إلى الشام فركبت إليه ل تستوضّع منه حقيقة ما حدث ولتشيره بنجاح التجربة إذ هو الذى أشار عليها من زمن لتقدو بعلا له.

«انطلقت خديجة لتسأل من عنده علم من الكتاب كعداس ونسطوراً الراهب فقاً: قدوس قدوس - وفي رواية أنها ركبت لبحيري بالشام فسألته عن جبريل

عليه السلام فقال لها: يا سيدة قريش... إلخ»^(١٦).

وهذا الخبر يتعين أن يحظى بوافر الاحترام لأن الذى نقله إلينا إمامان الزبيدى والشرقاوى والمحقق هو الشيخ أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر ومن متوفى المؤسسة الدينية فى مصر، فسيدة نساء الدنيا لولا ثقتها فى الراهب بحيرى لما تجشمت عناء الركوب إليه من مكة إلى أطراف الشام مع ملاحظة أنها فى ذيak الوقت ناهزت السادسة والخمسين من عمرها المبارك على فرض أنها نكحت المليح الوجه وهى بنت أربعين عاماً خاصة وأن بحيرى هو الذى أشار إليها منذ زمن بنكاحه.

ولم ينفرد «فتح المدى» برواية هذا الخبر ذى الثقل والوزن بل سبقه الإمام العدل فى سيره.

«من يسمى بالإمام العدل سليمان التيمى ذكر فى سيره أن السيدة خديجة رضى الله عنها عندما قص عليها محمد ﷺ خبر الغار كتبت أو ركت . إلى بحيرى الراهب فى الشام»^(١٧).

ولقد شكك فى هذا الخبر الدكتور حسين مؤنس فليشكك كما يحلو له، ففيما سلف فتدنا رأيه بأدلة دوامع هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فقد تعودنا من الكتاب المحدثين أن أى خبر يقرأونه فى المؤلفات التراثية ولا يوافق هواهم «نعم هواهم» يهرونون لا إلى نقاده بل إلى تسخيفه وترذيله دون أن يقدموا أى أدلة فسيدة واهية متهافة لا تصمد إلى تجربة.

● ● ●

الخلاصة أن الحلقة الكتابية الخارجية التى ربطت خديجة حبها بها تشكلت من القدس وورقة والراهب عداس والراهب سرجيوس ومقدمها الراهب بحيرى أو نسطور أو سركيس، قد وصلت إلى درجة رفيعة من العلم بالكتاب وليس من بينها رجل عادى يقال عنه إنه يعرف قشوراً من العلم الكتابى حتى عداس الملوك لابنى ربيعة ارتقى إلى رتبة «راهب» وهذا أمر له دلالته وهو أن الطاهرة شدتها صلة وثيقة وعلاقة حميمة وأصرة متينة برؤوس أهل الكتاب فى مكة والحجاز وإذا إنها برزة فالراجح بل المؤكد أنها جالستهم ونشبت بينها وبينهم محاورات قوامها العلم الكتابى مما يزيد ثقافتها الدينية عمقاً. بيد أن ثقافتها الكتابية تلك لم ترتفع إلى درجة علمهم . ولكن قدرها لا يستهان به على الإطلاق وإلا لما نجحت فى إنجاز التجربة الفذة.

● ● ●

ومن أهم روافد تلك الثقافة قراءة ما تولى ابن عمها ترجمته من التوراة والإنجيل، فقد أجمع كتاب سيرة «الملاهى» التى هي أجمل ريجاً من نشر القطر أن ورقة أتقن العبرانية كتابة ونطقا وبعضها ذكر أنه اعتنق فى البدء اليهودية ثم

استقر على النصرانية، ولو أنه في الأوائل صُنف من بين الأحناف الذين تركوا الوثنية بحثاً عن دين إبراهيم أبي الأنبياء ومقدم البطاركة وبذلك نقل من الكتاب المقدس بقسميه «التوراة والإنجيل» «ونحن نرجح أنه إنجيل العبرانيين الذي بين يدي النصارى الذين جاءوا من الشام فراراً من اضطهاد الفرق الأخرى»، نقل منه إصلاحات أو صفحات أو أبعاضاً، والمؤكد أنها وفيرة لأن القس اعتمد في معيشه على تشغيل ما لديه من مال في التجارة ومن المؤكد أنه استفاد من خبرة خديجة التاجرة الناجحة في هذا الشأن ونحن نقول به لأن المصادر التي بين أيدينا لم تطلعنا على مهنة له يمتلكها أو تبين لنا مورد دخله ومنن تكسب أو تعيش. فإذا صح ذلك وأغلب الظن أنه صحيح لأن من المعروف عن قريش أنهم قوم تجار فإنه قد تفرغ لقراءة الكتاب المقدس ولترجمته وبذل مجاهداً مضنياً حتى أثر على نظره فعمى في آخر عمره. هذه الترجمات بطريق الحتم استعارتها منه خديجة فقرأتها واستوعبتها وشكلت قسمًا وسيعًا من ثقافتها الدينية.

وهي بدورها طفت تقرأها لـ«الخاتم» بعد أن نكحته وغدت له بعالأ وهو بدوره قد اختزناها في حافظته الوعائية وذاكرته القوية.

• • •

انعقدت جلسات مذاكرة ومدارسة ومحاورة بينها وبين اليهوسوب ثم انضم إليها «أحمد» بعد المباغلة وفي ليالي مكة الطويلة استمرت هذه الجلسات حتى ينفجر نور الصباح. فهي جزء عضوي في الإعداد والتأهيل والتهيئة.

• • •

إذن هذا هو الرافد الآخر في تكوين الثقافة الكتبية لسيدة نساء الدنيا. بيد أنه من المفيد أن نذكر باستعدادها لتقبل هذا النوع من الثقافة لأنها كما صنفها أحد كتاب السيرة من التفر القليل الذين نبذوا عبادة الأصنام واقتنعوا بأنها باطلة فضلاً عن عدم معقوليتها ولعلها أخذت تردد: ما صنم نظوف به وندبح له الذبائح ونقدم له القرابين؟ ليس ما أسلفنا فحسب.

بل وأن الثقافة النصرانية في ذيak الوقت سيطرت وهيمنت على أجواء مكة والحجاج عامه ودفعت بالثقافة اليهودية إلى الهاشم، لعدة أسباب منها: أولها: أن هناك من حاول نشر الثقافة النصرانية في قرية القدس منهم عثمان بن الحويرث أحد بنى أسد وابن عم خديجة وسبق أن سلطانا خبره فرجو الرجوع إليه ومن البديهي أن يبشر بها عشيرته الأقربين وأدناهم إليه بنو عمومته اللزيقون به.

وثانيها: أن مكة ذات موقع خطير فهي ملتقى القوافل الذاهبة إلى كل اتجاه

ومن ثم فإن أعين الروم والفرس لم تغفل عنها فوجد فيها جواسيس وتجار روم وهؤلاء حاولوا نشر ثقافتهم النصرانية.

وثالثها: أن الخصم أو العداء استحكم بين فرق النصارى وضيق الخناق على الأبيونيين واليهود المتصرين والنصارى الموحدين فلم يجدوا مناصًا من النزوح وشطر منهم رحل إلى الحجاز، ومن طبائع الأمور أن هؤلاء لا يظلون ساكتين بل طفقو ينشرون ثقافتهم النصرانية واتخذ ذلك صورًا عديدة فبعضهم انتهز فرصة الأسواق التي تقام بمناسبة الحج في أماكن قريبة من مكة مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز وأخذ يخطب فيها داعيًا لاعتناق عقيدته.

ومنهم من اتّخذ مهنة الطب وسيلة لجذب أهل مكة وما حولها لثقافته خاصة وأنّ عرب ما قبل الإسلام (يسمون هذه الفترة بالجاليلية أ.هـ) علمهم بالطب معهوم وكل ما لديهم معارف محدودة استقوها من التجارب وهذه لا يقال عنها علم.

أخبرتنا العديد من الأخبار التي حملتها المصادر ذات الرتب العلوى أن أصحاب الثقافة الكتابية النصرانية امتهنوا التطبيب والفرض منه معروف. «ويشير أهل الأخبار إلى ورود بعض الرهبان والشمامسة إلى مكة وقد كان من بينهم من يقوم بالتطبيب وقد ذكر الإخباريون أن شمامساً كان قد قصد مكة فأعجب الناس به...»^(١٨).

وبعضهم عالج «السنا» في صفره مرتين الأولى وهو في حضانة جده عبدالمطلب «قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في الوفا في سنة سبع من مولده أصابه رد شديد فعولج بمكة فلم يغُن فقيل لعبدالمطلب إن في ناحية عكاظ راهباً «هكذا» يعالج الأعين فركب إليه»^(١٩).

والآخر وهو في كفالة عمّه أبي طالب: «... فخرج به (بمحمد) عمّه أبو طالب إلى رجل من أهل الكتاب يتطلب بمكة.. وقال: يا عبد مناف هذا طيب طيب للخير فيه علامات إن ظفرت به يهود قتلته...»^(٢٠).

ولازلت الإرساليات المسيحية وخاصة الكاثوليكية تعتبر الطبيب أنجح الوسائل لجذب الوثنيين في مجاهل إفريقيا وأسيا لعقيدتهم وثقافتهم.

«كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيسى من أهل الشام وكان متحفظاً بالعاشر بن وائل وكان الله قد آتاه علمًا كثيراً وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طب ورفق وعلم»^(٢١).

أما رابع الأسباب فهو التسرى بالإماء الرومانيات واليونانيات النصرانيات «ووُجِدَّ مِنْهُنَّ عَدْدٌ وَفِيرٌ فِي مَكَّةَ وَالطَّائِفَ وَأَقْبَلُ عَلَى اقْتَانَهُنَّ أَثْرَيَاءَ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ مِنْهُمْ بْنُو مَخْزُومَ وَالْعَبَاسَ بْنَ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ»^(٢٢).

«وَعَرَفَ أَسْمَاءَ جَمْلَةَ رِجَالٍ وَنِسَاءَ مِنْ هَذَا الرِّيقِ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ

إلى موضع آخرى من جزيرة العرب من هؤلاء نسطاس ويقصد بذلك انسناس وكان من موالى صفوان بن أمية^(١٢٣).

وهؤلاء الجوارى أنجبن بنين وبنات تأثروا بثقافة أمهاتهن النصرانيات.

خامس الأسباب: هو وجود أعداد كبيرة من العُبَدَان النصارى فى بيوت أثرياء مكة استخدمهم أسيادهم فى شتى مجالات الخدمة من الإشراف على تجارتهم والعمل فى حوانيتهم إلى التكسب من وراء من آجاد منهم حرفة مثل التجارة والحدادة وصقل السيوف والبناء... إلخ، وإذ هم من معتقلي النصرانية فلاشك أنه دارت حوارات بينهم وبين سادتهم وبعضهم بلغ درجة لا بأس بها من الثقة الدينية مع إجادته القراءة والكتابة وتملك أو حاز نفر منهم إصلاحات وأبعاضا من الإنجيل.

وفيما تقدم أوضحنا أن مشركي مكة خصوم أو أعداء «صفوة البشر» اتهموا أنه يستقى معلوماته أو معارفه الدينية من أحدهم ورد عليهم القرآن العظيم بأن هؤلاء أعمام و«قطب الأقطاب» ذو لسان عربي مبين^(١٢٤).

وقد ذكر اسم العبد الذى يمد «الفارق بين الحق والباطل» بالمعارف الكتابية فمنهم من سماه «جبرا» غلام الحضرمى وكان قينا «حداداً» ومنهم من قال بل بما اشان «جبر ويسار» وكانوا يعملان السيوف ومنهم من أكد أن اسمه «بلعام» وكان يعمل قينا وهو غلام لحويطب بن عبد العزى، بيد أن الذى اتفقوا عليه أنه كان أعمى الأصل نصرانياً يقرأ الكتب كما «أنه كان بمكة نفر من الموالى على دين النصرانية يقرأون ويكتبون»^(١٢٥).

وقد رأينا من هؤلاء عدasa غلام عتبة وشيبة ابنى ربعة ولعل اعتناق الأخير للنصرانية بتأثير عبده ويمكن أن ينضم إليهم ناصح وميسرة مملوكا سيدة قريش.

هذا هو الرقيق الأبيض من العبدان والعبدات.

«وبين الرقيق الأبيض نفر كانوا على درجة من الفهم والمعرفة يعرفون القراءة والكتابة ولهم اطلاع فى شئون دينهم و المعارف ذلك العهد ولهذا أوكل إليهم القيام بالأعمال التي تحتاج إلى مهارة وخبرة، وقد كان حالهم لذلك أحسن من حال غيرهم من الأرقاء ومنهم من كان يشرح لسادتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم ويقصرون عليهم ما حفظوه ووعوه من أخبار الماضين وقصص الراحلين وأكثراهم من كانت أسنهم لم تتروض بعد على النطق بالعربية وكانوا يرطبون بها أو يتളثمون ومنهم من كان لا يعرف شيئاً منها أو لا يعرف منها إلا القليل من الكلمات»^(١٢٦).

• • •

أما الرقيق الأسمرا أو الأسود اللون فبالمثل وجد بمكة بكثافة وفيرة وهؤلاء تخصصوا في الخدمة وهم أيضا نصارى انتشروا في دور صناديد قريش ومن

الراجح أنهم قد نشروا ثقافتهم النصرانية بين أهل تلك البيوت.

وقد كانت في مكة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة كثيرة العدد من العبيد عرموا بالأحابيش وبين هؤلاء عدد كبير من النصارى استوردوا للخدمة والقيام بالأعمال الازمة لسرة مكة، وقد ترك هؤلاء الأحابيش أثراً في لغة أهل مكة يظهر في وجود عدد من الكلمات الحبشية فيها في مثل المصطلحات الدينية..

وقد أشاروا إلى ورود بعضها في القرآن الكريم وفي الحديث^(١٢٧).

وسائل الأسباب: هو ثخانة الجالية النصرانية في مكة بل في الحجاز عامة

ومنهم من ربطته صلة حميمة بالسادة الغطارييف:

«أخرج أبو نعيم عن طريق الوادى عن شيوخه قالوا بینا عبدالمطلب يوماً في الحجر وعنده أسقف نجران وكان صديقاً له وهو يجادل...»^(١٢٨).

«أخرج أبو نعيم وأبن شاكر.. كان بمر الظهران «واد بين مكة وعسفان» راهب من أهل الشام يدعى عيسى قد أتاه الله علماً كثيراً وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيلقي الناس ويقول إنه يوشك أن يولد فيكم مولود.. وقال عبد المطلب كن أباً»^(١٢٩).

ومنهم من أقام بوادي القرى وهو قريب من بكة.

«وكان في وادي القرى نفر من الرهبان كما ورد ذلك في شعر جعفر بن سراقة أحد بنى قرة: فريقان رهبان بأسفل ذى القرى.. وبالشام عرافون ممن تتصر»^(١٣٠).

ويحدثنا الباحثون المحدثون وفيهم من يحظى بالثقة عن فرسخة وفترطحة النصارى في الحجاز.

أما في الحجاز فيحدثنا جورج قتواتي معتمداً على مصادر إسلامية عن «مسيحيين» في إيلة «إيلات» ودومة الجندي وتيماء وتبوك ووادي القرى ويشرب، وإن هؤلاء كانوا عرباً بل كان بعضهم من العرب البداء كما يحدثنا عن «أساقفة المضارب» أي الأساقفة البدو الذين يتقللون بين مضارب «خيام» البدو والرحل وكان في مكة المكرمة بعض المسيحيين»^(١٣١).

ونقل إلينا الأب الدكتور جورج قتواتي أن للعرب أسفاقاً مقره بصرى وهذا ما توصلنا إليه ورشحنا لهذا المنصب بحيري الراهب ولو أنها قصرناه على أبرشية الحجاز وربما اختص بها مع وجود أسقف لعموم جزيرة العرب. أما أنه عرب فهو مما يتسوق مع طبيعة الأمور «كان للعرب أسقف عربى فى بصرى»^(١٣٢).

ومما يقوى هذا الخبر ويرفعه من درجة الاحتمال إلى مرتبة التيقن أنه في ليلة مولد «المصطفى» ترددت كلمة بصرى كثيراً مثل «أن آمنة عندما ولدته خرج منها نور أضاء قصور بصرى» وأنذاك تسأعلنا: لماذا بصرى بالذات؟
والآن جاءنا الخبر اليقين والرد المقنع والجواب المفحوم.

لم يعد من المستغرب لدينا أن ما يمثل رمزى النصرانية: مريم وولدها عيسى ظل قائماً في الكعبة حتى خلافة عبد الله بن الزبير التي قضى عليها الحجاج ابن يوسف الثقفى بأمر من سيده الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان. وأن هذا الرمز وهو تمثال عيسى وأمه مريم قد عوامل معاملة خاصة من «راكب البعير» فقد أمر بمحو صور كافة الأنبياء بمن فيهم إبراهيم أبو الأنبياء ومقدم البطاركة، ماعدا صورة عيسى ابن مريم وأمه بل إن تمثالها ظل قائماً طوال العهددين المحمدى والخليفى ثم شطرا من الخلافة الأموية حتى زمن عبدالملك بن مروان ولو لا ضرب الكعبة المقدسة بالمنجنيق بواسطة السفاح ومبير ثقيف فشب حريق في هذا المكان الأقدس لظل التمثال قائماً ربما حتى الآن.

وإن المرء يتتسائل: لماذا؟

الإجابة على هذا السؤال لا تعنينا لأنها لا تدخل في نطاق بحثنا إنما الذي بهمنا هو دلالة ذلك وهي الوجود العريض الثقيل للنصرانية في الحجاز في ذيak الزمان الذي حفل بالمعجبات من الأمور وكعادتنا في التزام التوثيق الشديد لما نكتب خاصة في النقاط التي هي على قدر من الدقة والحساسية فإننا نورد فيما يلى الأدلة الشاهدة على ذلك:

(وفي الحديث عن أبي نجيح عن أبي حويطب بن عبد العزى وغيره فلما كان يوم الفتح دخل رسول الله ﷺ إلى البيت فأمر بثوب قبل ماء وأمر بطممس تلك الصور ووضع كفيه على صورة عيسى وأمه وقال: امحو الجميع إلا ما تحت يدي رواه الأزرقي) (١٢٣).

«عن ابن جرير قال: سأله سليمان بن موسى الشامي عطاء ابن أبي رياح وأنا أسمع أدركت في البيت تمثال مريم وعيسى قال: نعم أدركت فيها تمثال مريم مزوقا في حجرها عيسى ابنها قاعدا ممزوجا» (١٢٤).

إن وضع أو جلوس عيسى في حجر أمه مريم يذكرنا بما فعلته أم هند عند اختبار ذلك الذي يأتي «خير البرية» هل هو ملاك أم شيطان فقد أمرته بأن يجلس في حجرها.

البعد الزمني بين الصورتين أكثر من ستة قرون والفارق بينهما هو أن «معدن الطهر مريم» هي أم عيسى على الحقيقة الواقع ودعنا مؤقتا من أحدوثة الولادة العذراوية التي يذهب إليها بعض فرق المسيحية أما الطاهرة فهي أم «عين العز» على المجاز. ويفصل بينهما في السن ربع قرن في حين أن مريم عند ولادتها لابنها عيسى ناهزت الرابعة عشرة تقرباً أى نصف ما فصل بين عمر «الوسيلة» وعمر أم هند.

قال وكان تمثال عيسى ابن مريم ومريم عليهما السلام في العمود الذي يلى الباب. قال ابن جرير: فقلت لعطاء: متى هلك؟ قال: في الحريق في عصر ابن

الزبير. قلت: أعلى عهد النبي ﷺ كان؟ قال: لا أدرى، وإنما لأظنه قد كان على عهد النبي ﷺ. قال له سليمان: أفرأيت تماثيل صورة كانت في البيت من طمسها؟ قال: لا أدرى غير أن أدركت من تلك الصور اثنتين.. وأراهما والطمس عليهما. قال ابن جريج: ثم عادوت عطاء بعد حين فخط لى ست سوارى ثم قال: تمثال عيسى وأمه في الوسطى»^(١٢٥).

«عن مسافع بن شيبة بن عثمان أن النبي ﷺ قال: «يا شيبة امح كل صورة فيه إلا ما تحت يدي» قال: فرفع يده عن عيسى وأمه.

حدثنا داود بن عبد الرحمن عن عمرو بن دينار قال: أدركت في بطن الكعبة قبل أن تهدم تمثال عيسى ابن مرريم وأمه وعن ابن شهاب أن النبي ﷺ دخل الكعبة يوم الفتح وفيها صور الملائكة وغيرها.. ثم رأى صورة مرريم فوضع يده عليها وقال امحوا ما فيها من الصور إلا صورة مرريم، وعن حكيم بن عباد وغيره من أهل العلم أن قريشاً كانت قد جعلت في الكعبة صوراً فيها عيسى ابن مرريم.

قال ابن شهاب: قالت أسماء بنت شقران امرأة من غسان حجت في حاج العرب فلما رأت صورة مرريم في الكعبة قالت: «إنك لعربيه فأمر رسول الله ﷺ أن يمحوا كل تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومرريم»^(١٢٦).

«قد استدل شيوخ من الخبر المروي عن الصور التي قيل إنها صور الرسل والأنبياء وبينها صورة المسيح ومرريم والتي ذكر أنها كانت مرسومة على جدران الكعبة على أنها هي الدليل على أثر النصرانية بمكة واستدل على فكرته هذه بخبر خلاصته أن الرسول حينما أمر فطممت تلك الصور استثنى منها صورة عيسى وأمه مرريم. وبخبر ثان ورد عن تمثال لمرريم مزوج بالحلى وفي حجرها عيسى باد في الحريق الذي شب في عصر ابن الزبير. وبخبر ثالث عن امرأة من غسان قيل إنها حجت في حاج العرب. فلما رأت صورة مرريم في الكعبة قالت بأبي أنت وأمي إنك لعربيه فأمر رسول الله ﷺ بمحو تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومرريم»^(١٢٧).

ومن المعلوم أن غسان التي منها تلك المرأة التي قالت ما قالت فشت فيها النصرانية وعدها الإخباريون من بين القبائل التي انتشرت فيها النصرانية. إن مصادر هذه الأخبار مؤلفات تعال الاحترام ويصعب غمزها أو التشكيك فيها. «السيرة النبوية» للذهبي و«أخبار مكة» للأزرقى. أما المرجع فهو لـ د. جواد على» وسبق أن حشرناه في زمرة الباحثين الجادين من المحدثين.

• • •

لهذه الأسباب جميعها وهي كما لابد وأن لاحظ القارئ معقدة ومتباركة، فضلاً عن نفور السيدة خديجة الفطرى من الثقافة «إن صع هذا التعبير»

الوثنية التي غرقت فيها قريش آنذاك إلى الأذقان غدا من الحتم اللازム أن تحاصر ثقافة النصارى أم هند وتدفعها إلى التفكير فيها والاطلاع عليها وتتأملها ومعرفة ثوابتها ومحركاتها وأفكارها ومبادئها وقصصها وأساطيرها ومن بينها فكرة نبى أطل أو أظل زمانه خاصة بعد أن شاركتها فيها الثقافة اليهودية وأقوال كهان الوثنية في هذه.

وقد وافق الفكرة ارتياح سيدة قريش النفسى ورضاءً تاماً لديها أن يصبح القادم المنتظر من العرب، فربما ورثت عن أبيها خويلد حبه لوطنه مكة ولقبيلته قريش ونستشهد بموقفه من تبع عندما هم بقلع الحجر الأسود، ونقله إلى اليمن وتصديه له بل وقف على رأس المقاومين له.

ونضيف وقادته على سيف بن ذى يزن ليهئته بنصره المؤزر على الأحباش. ورثت الطاهرة حب العرب ومكة وقريش من أبيها فرحت واعتقدت فكرة أن يصير القادم من العرب وللعرب فكما أن لليهود نبيهم وللنصارى نبيهم فمن اللازم أن يغدو للعرب واحد مثلكما ويحمل بيده كتابا كما قدم موسى لأتباعه كتابا وطرح عيسى على حواريه ومن بعدهم كتاباً.

وجماعه يستلزم الإطلاع على كتابي هاتين الثقافتين وخاصة ثقافة النصارى لسببين:

الأول: أنها الأقرب عهداً والمنفتحة على الآخرين وليس منغلقة على ذاتها وتابعها مثل الثقافة الأولى أو العتيقة.

الآخر: أنها فى متداول اليد خاصة بعد ترجمة مصدرها الأساسى إلى العربية، الأمر الذى يسر قراءتها لها وليس معناه الاقتصار عليها بل يجب الإطلاع على الأولى والأقدم لأنها أصل الأصول والأساس والجرثومة^(١٣٨).

ومن المستحيل اكمال قوام «القادم» وتكوينه دون الإطلاع عليها بل تمحيصها وما ورد بها بدايا من الخلق والتكونين.. إلخ خاصة وأن الثانية عولت عليها فى هذه الأساسيةيات حتى إن معتقدى الأخيرة لم يجدوا مناصا من اعتبار كتابهم ملحقا لكتاب الأولى فضمهم كتاب واحد أطلقوا عليه «الكتاب المقدس».

ومن المفارقات الصارخة . وكم فى الثقافات الدينية من مفارقات يحار العقل السليم فى فهمها . أن أصحاب الثقافة العتيقة لا يعترفون إلا بكتابهم هم وينكرون كتاب الثانية والذى طلع به على الناس فى حين أن أتباع الأخيرة يعترفون بالكتابين معا وبالبطارقة الذين وردت أسماؤهم فى كليةما وبالحكايا المعجبات والخوارق والمدهشات والمخاريق التي حفلت بهما .

نحن نعي أن الفاصلة الخاصة بثقافة الهندوز قد طالت بعض الشيء ولكنه ضرورى أشد ما تتجلى الضرورة إذ إنه بدون الثقافة الدينية ما نجحت التجربة المفردة إذ كيف يتصور أن منفذتها مليطة منها «الثقافة الدينية».

وإذ إنه لكل فرض برهان فإننا نضرب مثيلين:
عندما أخبر «الأمن» بعله الهنوز بإثبات ملاك الرب جبرائيل إليه وهو السفير الإلهي لكل من سبقوه كما علمها سرجيوس غدا من الحتم اللازム تحقيق هذه المسألة الخطيرة والتأكيد من صدق حدوثها فإن صحت فهذا دليل على نجاح التجربة وبالتالي يصبح «النجم الثاقب» هو القادر المأمول من العرب.
ففcameت أم هند بالاختبار الذى أجرته بأن أجسلسته على فخذها اليمنى ثم اليسرى ثم فى حجرها ثم أدخلته بين جسدها وقميصها. عندها انصرف جبريل لأن هذا منظر لا يتفق مع مكانته كمندوب الحضرة الإلهية إلى مختاريه من البشر وهنا صاحت فرحة مستبشرة أنه ملاك وليس شيطاناً.

حقيقة أن بعض المصادر ذكرت أن يعقوب أو القس هو الذي أشار عليها بالاختبار «فى جزئه المتقدم» بيد أن الذى حسم الأمر هو عجز الاختبار وهو إدخال «الولى» فى درعها فهذا من إبداع أم هند ولو لا ثقافتها الدينية لما استطاعت أن تتوصل إليه «إلى هذا الاختبار».

أما المثل الآخر فملخصه أن ملاك الرب حضر إلى «المضمخ» فى غار حراء ذات مرة فأتياه بقدوم خديجة إليه ومعها طعام له وطلب منه أن يسر إليها أن الله وجبريل معا يقرئانها السلام فلما حضرت سيدة نساء الدنيا بلغها فردت على الفور: على الله وعلى جبريل السلام وصار هو رد السلام التقليدى لدى تابعى «المعطى خزان الأرض».

فمن أين أنت خديجة بهذا الرد الصحيح على الفور لولا مخزونها الثقافى الذى يحفل بالسلام.

حدثنا أبو الوليد قال حدثى جدى أحمد بن محمد حدثنا عبدالجبار بن الورد المكى قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول:

جاءت خديجة إلى النبي ﷺ بحسين وهو بحراء فجاءه جبريل فقال: يا محمد هذه خديجة قد جاءت تحمل حيسا معها والله يأمرك أن تقرئها السلام وتبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب. فلما أن رقت خديجة قال لها النبي ﷺ يا خديجة إن جبريل قد جاءنى والله يقرئك السلام ويبشرك ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب فقالت خديجة: الله السلام ومن الله السلام وعلى الله السلام وعلى جبريل السلام^(١٣٩).

وربما تقدوا هاتان الواقعتان من الهماسيات إنما الذى يقطع بتمتع الهنوز بالثقافة الكتابية هو موقفها عندما أخبرها «أحمد» بما حدث له فى غار حراء وبلقائه بملك الرب جبرائيل أول مرة فى المنام وتصديقها إياه فى دون الخلفية الدينية لما فعلت ولارتفاعت وظنت به الظنوں مثل مس من الشيطان أو أنه هاتف مثل الذى يدعى الكهان مجئه لهم.

صحيح أنها أخذته «راكب الجمل» إلى ورقة وغيرها «=مقدم وأعضاء الحلقة الخارجية» لسؤالهم أو ذهابها بمفردها إليهم إنما ذلك تم للاستيقاظ والتأكد والتحقق والتثبت لأن المسألة جد فارقة لا ينفي لها أن تفرد فيها برأيها.

تلك هي جوانب ثقافة أم هند وشهادتها وجحجها وبراهيئها.

● ● ●

سيدة نساء الدنيا خديجة عاشت مع «المجتهد» عشرة أعوام بعد واقعة غار حراء لأنه مكث في مكة بعدها ثلاثة عشر عاماً وروحها الظاهرة انتقلت إلى بارئها راضية مرضية قبل نزوحه «هجرته» إلى يثرب «المدينة» بثلاثة أعوام ومع ذلك فهي لم ترو عنه حديثاً واحداً. إن الصحاح والمسانيد والجواجم والسنن والموطات «ج. موطن» والمعاجم والأمالي والطبقات والمناقب والشمائل والفوائد.. إلخ لا يوجد فيها حديث واحد لخديجة ولا يوجد مسند باسم مسند خديجة مع وجود مسانيد لعدد كبير من الصحبة حتى صغارهم سواء في السن أو المقام.

وفي المقابل نجد أن عائشة بنت أبي بكر تزوجها **«الذى سيقه على علاقه»** وهي بنت ست سنوات ودخل بها وهي بنت تسع سنوات وكان هو في الثانية والخمسين من عمره المبرور وظلت معه تسع سنوات إذ إنها بلغت الثامنة عشرة عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً . ومع ذلك روت عنه ألفين ومائتين وعشرة أحاديث وهذا أقل عدد ذكره جهابذة علم الحديث.

وهنا يثور في الذهن سؤال على قدر من الأهمية: لماذا؟ ما العلة؟ ما السبب؟ وقفـت كثـيرـاً عند هـذا السـؤـال ودارـفـي ذـهـنـي عـدـدـ منـ الرـدـود أوـ الإـجـابـاتـ ولمـ أـسـتـطـعـ أـهـتـدـيـ إـلـىـ إـجـابـةـ وـافـيـةـ بـيـدـ أـقـرـبـهاـ إـلـىـ الصـحـةـ أوـ إـلـىـ المـعـقـولـيـةـ أوـ إـلـىـ الـمـنـطـقـ ..ـ هوـ مـوـقـفـ كـلـ مـنـ الزـوـجـتـينـ بـالـنـسـبـةـ لـ«ـالـوقـنـ»ـ.

التيمية ابنة أبي بكر تلميذة وتابعة ومتلقية أما سيدة نساء الدنيا فهي الأم الرؤوم وهندوز التجربة التي خرج منها **صاحب المغن** من الفتى الهاشمي القرشى إلى القادر المنتظر، ومن الأمين الصادق إلى المأمول المرتقب الذي طال التشوف إليه والذى رد الاعتبار إلى العرب وصار لهم حامل كتاب مثل موسى بالنسبة لليهود ويعسى عند النصارى .. ولعل هذا يفسر أمراً آخر أثار انتباھي وأنا أقرأ سيرته العظيمة الفائحة بالرائحة الطيبة كما المسك، عشرات المرات في المصادر والمراجع أن ابنة أبي بكر طفت ترتديه بصفة مستمرة: يا رسول الله، أما سيدة نسوان قريش فلما توجه إليه خطاباً يقول: يا أبا القاسم أو يا محمد، وكذا عندما تتحدث إليه .. إلا فيما ندر والاستثناء لا يقتاس عليه.

وهي التي توجهه وتطلب إليه وتشير عليه .. بينما التيمية ابنة أبي بكر فعل العكس هي التي تلبى وتتطيب وتمتثل وتأتمر «بأمره» وتنفذ وتسمع .. إلخ وهو الفرق الواضح الذي لا يحتاج إلى زكانة لمعرفته أو حتى إلى لمسة باليد بين

خطاب الهنوز واستجابة التلميذة.

• • •

وهنا يتصدى لنا لجوج فيصبح قائلًا أو يقول صائحاً: ليست خديجة هي الوحيدة من بين زوجات «أول من يفيف من الصعقة» من لم ترو عنه حديثاً واحداً بل هناك من بين التسع اللائي نكجهن بعد وفاتها ثبت من كافة المصادر المعتبرة أنها فعلت ذلك أيضاً وهي زينب بنت خزيمة^(١٤٠).

وهذا دفع فسيد فعلاوة على ما به من لجاجة فإنه يتسم بالجهالة. ذلك أن الهلالية المذكورة «زينب بنت خزيمة» وشهرتها أم الساكين «لم تثبت عنده عليه السلام إلا شهرين أو ثلاثة»^(١٤١).

أما د. حمزة النشرتى فقد ارتفع بالمدة إلى ثمانية شهور «واختلف الرواة فى المدة التى بقىت زينب فى بيت النبي صلوات الله عليه وسلم فمن قائل إنها ثمانية أشهر إذ إنها تزوجت فى رمضان وتوفيت فى ربيع الآخر»^(١٤٢).

والأمانة العلمية تقضينا أن نذكر أنه أورد أن هناك من قال إنها ظلت عند «الأمجد» عامين بيد أنه لم يبين مصدره فى ذلك.

ولكن مؤرخا ثبتا ثقى موسوعته عن الصحابة خالص التقدير يؤكدا أنها لم تلبث عنده إلا يسيراً وأن ذلك لا خلاف فيه «وتزوجها رسول الله صلوات الله عليه وسلم بعد حفصة، قال أبو عمر: ولم تلبث عند رسول الله صلوات الله عليه وسلم إلا يسيراً شهرين أو ثلاثة حتى توفيت وكانت وفاتها فى حياته لا خلاف فيه»^(١٤٣).

وهكذا ثبت أن ما طرحة النشرتى فى «حياة الصحابيات» عن مكوثها لدى «المرشد» سنتين لا يثبت مع ما أكدته المصادر والمراجع، وكلها كما يرى القارئ محترمة.

ونعود إلى سياقة البحث وهو أن ذلك الدفع واه ومتهافت لأن الهلالية أو أم الساكين إذا لم يثبت لها رواية عن صاحب الحجة البيضاء «فلاها عذرها وهو بقاوها معه مدة قصيرة وترتيباً على ذلك فقياسها بـ«سيدة نساء الدنيا» فى هذه الخصوصية قياس من الفارق.

ويظل التعليل الذى قدمناه فيما سبق عن عدم رواية «الهنوز» ولا لحديث فرد لـ«الشتن» هو التعليل الأقرب إلى الصحة والأدنى إلى المعقولة والأكثر اتساقاً مع المنطق.

الهوامش

- (١) من المعجم الوسيط: لغة العربية
- (٢) المذكر والمؤثر: لأبن بكر الأنباري، ٥٢٢٨. تحقيق الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ومراجعة د. رمضان عبد النواب، الجزء الثاني، ص ٢٨٩، المزمرة ١٩ ط ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م نشرته لجنة إحياء التراث بال مجلس الأعلى للشئون الإسلامية وزارة الأوقاف، مصر.
- (٣) كتاب نسب قريش: لأبن عبد الله بن المصعب الزبيري ١٥٦/٥٢٣٦، نشره وصححه وعلق عليه ليفي بروفسيال، ص ٢، الطبعة الثانية ١٩٧٦ م، دار المعارف بمصر.
- (٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، الخامس، ص ٦٠٥.
- (٥) حياة محمد: لمحمد حسين هيكل، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧١، ص ١٣٧، دار المعارف بمصر.
- (٦) موسوعة أمهات المؤمنين: د. عبدالصبور شاهين، وإصلاح الرفاعي، ص ٧٥، ط أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١، الزهراء للإعلام.
- (٧) سيرة النبي محمد: تأليف كارين آرمسترونج ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عنانى، ص ١٢٨ من الطبعة الأولى، الكتاب الأول من سلسلة كتب سطور الطبيعة الأولى ١٩٩٨ م، دار سطور للنشر، القاهرة.
- (٨) العامة في مصر تقول في مثل هذا العمل: ما فيش حد أحسن من حد.
- (٩) جمع صنديد وهو السيد الشريف الشجاع من «القاموس المحيط» للفيروز أبادي.
- (١٠) العامة في مصر تقول: الأسعد. ١. هـ.
- (١١) الوفا بأحوال المصطفى: لأبن الجوزي، الأول، ص ١٢٥-١٢٢، ط ١٣٦ هـ.
- (١٢) السيرة النبوية: لأبن هشام تحقيق السرجاني، هامش الصفحة ١٩٢، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره.
- (١٣) القديسة مريم أم المخلص: مللاك لوقا، ص ٧٧ العدد ١١ من سلسلة سير القديسين، الطبعة الأولى ١٩٩١ م، الناشر مكتبة المحبة، شبرا مصر.
- (١٤) الآية ٤٢ من سورة آل عمران.
- (١٥) الآية ٥٥ من سورة آل عمران.
- (١٦) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية: لأحمد أمين، ص ١٨٨ فقرة «الختان» الطبعة الأولى ١٩٥٣ م، الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة وص ٣٨٥ من الطبعة الثانية التي أصدرها مجلس الأعلى للثقافة تقديم وتعليق محمد الجوهرى ١٩٩٩ م، مصر.
- (١٧) المرجع السابق ص ١٨٧ من الطبعة الأولى وص ٢٥٨ من الطبعة الثانية.
- (١٨) المولود: دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر: من سلسلة «دراسات في المجتمع» لفارق أحmed مصطفى، ص ٢٠٢ الطبعة الأولى ١٩٨٠، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية.

- (١٩) يسمون تلك الفترة بالجاهلية وهي تسمية أيديولوجية التحديد منها التفهير والتقبيل والتسويف.
- (٢٠) المعجم الوسيط: لمجمع اللغة العربية.
- (٢١) أساس البلاغة: جار الله أبي القاسم الزمخشري.
- (٢٢) حياة سيد المرسلين: الأبراشي، ص ٣٢، ط أولى ١٩٨٠، مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة.
- (٢٣) أوائل العرب عبر العصور والحقائق: لطاهر جليل حبوش، الثاني، ص ١٠٦، طبعة الأولى ١٩٩١ دون ناشر، بغداد، العراق.
- (٢٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، السادس، ص ٥٩٠.
- (٢٥) تاريخ اليعقوبي: الأول، ص ٢٥٧.
- (٢٦) هامش من ٢٢٥ من كتاب «مكة والمدينة».
- (٢٧) اتساع يقال سراويل مفرسخة متعددة «المعجم الوسيط» وهي السعة ومنها اشتقت الفرسخ «المصباح المنير».
- (٢٨) محمد رسول الله سيرته وأثره في الحضارة: جلال مظہر، ص ٣٢، الطبعة الأولى ١٩٧١، مكتبة الخانجي بمصر.
- (٢٩) محمد رسول الله: جلال مظہر، ص ٦٠.
- (٣٠) حياة محمد: هيكل، ص ١٤٢، سابق. السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ٢٥٦ وما بعده.
- (٣١) السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق السرجاني الأول ص ٢٥٥ . ومحمد رسول الله عليه السلام: لمحمد رضا ص ٥٦، د.ت.ن - دار إحياء الكتب العربية بمصر.
- (٣٢) كتاب نسب قريش: للمصعب البزبيري، ت. ليفي بروفسور، ص ٢٠٩ سابق.
- (٣٣) جمهرة أنساب العرب: لأبي محمد على.. بن حزم الأندلسى ٤٥٦/٣٨٤، تحقيق عبدالسلام هارون، ص ٤٩١، الطبعة الخامسة ١٩٨٢، دار المعارف بمصر.
- (٣٤) الروض الأنف: للسهيلي، الجزء الأول، ص ٢٥٥، ط شقرنون.
- (٣٥) مكة والمدينة: لأحمد إبراهيم الشريفي، ص ٢٥٥.
- (٣٦) دراسات في السيرة النبوية: د. حسين مؤنس، ص ٧٧ سابق.
- (٣٧) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، الجزء السادس ص ٤٧٧، الطبعة الثانية ١٩٧٨، الناشر دار العلم للملادين، بيروت، لبنان.
- (٣٨) حياة محمد: هيكل، ص ١٤٥، سابق.
- (٣٩) جمهرة أنساب العرب: لأبي محمد على بن حزم الأندلسى ٤٥٦/٣٨٤، تحقيق عبدالسلام هارون، ص ١١٨، الطبعة الخامسة ١٩٨٢، دار المعارف بمصر.
- (٤٠) أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول، ص ٧٩ سابق.
- (٤١) يفهم . فإن قوله نقحت الحديث يعني فهمته . «تصحيح الفصيح وشرحه» لابن درستويه، تحقيق د. محمد بدوى المختون، مراجعة د. رمضان عبدالتواب، ص ١١٢، الطبعة الأولى ١٤١٩/١٩٩٨ م من إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.
- (٤٢) تاج العروس من جواهر القاموس: للزيبيدي، الجزء الأول، ص ٤٦٢، تحقيق عبدالستار أحمد فراج الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥، العدد ١٦ من سلسلة التراث العربي وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
- (٤٣) خبط عشاء، يضرب مثلاً من يصيب مرة ويخطئ أخرى والعشواء الناقلة التي لا تبصر ليلاً وهي تطأ كل شيء «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» لأبي المنصور الثعالبي النيسابوري ٤٢٩/٣٥٠.
- (٤٤) ذكـت الشـمس وـمنه قـيل لها ذـكـاء وـالصـبح اـبن ذـكـاء لـأنـه من ضـوئـها» أساس البلاغة: للزمخشري، الجزء الأول ص ٢٠٠، فصل الذال والكاف، ص ٢٠٠ الجزء الأول، الطبعة الثالثة ١٩٨٥، مركز

- تحقيق التراث الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٤٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول، ص ٤٠٧ وما بعدها.
- (٤٦) ويمكن أن يقال للجارية الغلامه وجاء في الشعر يهان لها الغلامه بالباء المربوطة «المصباح المنير» للمقرئ الفيومي.
- (٤٧) في المعجم الوجيز: المفرط - المبسوط والعربيض.
- (٤٨) على هامش السيرة: طه حسين، الثاني ص ١٥٨ وما بعدها، سابق.
- (٤٩) خريقة - شقه وقطعه والشيء أفسده من «القاموس المحيط» للفيروز أبادى.
- (٥٠) الرسول في رمضان: للدكتور محمد حسني الخريوطلى، ص ٢٤/٢٤.
- (٥١) في المختار من صحاح اللغة: وليةة الرجل - خاصته.
- (٥٢) في المعجم الكبير: لمجمع اللغة العربية، الجزء الثاني حرف الياء - بطانة الرجل - صاحب سر المرأة الذي يشاوره وينبسط إليه ومن يخصه بالإلقاء على باطن أمره.
- (٥٣) جزيرة على بعد مائتي فرسخ من عمان.
- (٥٤) ١. على هامش السيرة: الجزء الثاني، ص ١٣٨ وما بعدها، الطبعة السابعة عشرة ١٩٨٠م، دار المعارف بمصر.
- ٢- مولد النبي: الإمام البرزنجي، ص ١٢ وما بعدها، د.ت. مكتبة القاهرة الصنادقية، الأزهر، مصر.
- ٣- تاريخ الطبرى:الجزء الثاني ص ٢٨١، الطبعة الرابعة ١٩٧٧م، دار المعارف بمصر.
- ٤- الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول ص ١١٢ وما بعدها.
- ٥- السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٢٦٦.
- ٦- السيرة النبوية: لابن إسحاق، الأول، ص ١٥٣، ط أخبار اليوم.
- ٧- أنساب الأشراف: للبلذري، الأول ص ٩٧.
- ٨- السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٢١٤.
- ٩- دراسات في السيرة وعلوم السنة: موسى شاهين وآخر، ص ٨٢-٨١، سبق ذكره.
- (٥٥) تصحيح الفصحى وشرحه: لابن دستوريه ص ١٢١، تحقيق د. محمد بدوى المختون، مراجعة د. رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، من إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، بمصر.
- (٥٦) هامش ص ١٢١ من المصدر السابق بقلم المحقق د. محمد بدوى المختون.
- (٥٧) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للقمي النيسابورى، تحقيق حمزة النشرى وأخرين، المجلد الحادى عشر، ص ٤٢٨، صدر من القاهرة دون تاريخ ودون ناشر.
- (٥٨) صبّ الماء أو نحوه صباًى سكبه من «المعجم الوسيط».
- (٥٩) أخبار مكة وما جاء بها من الآثار: للأزرقى، تحقيق شكرى ملحسن، الجزء الثاني، ص ٢٤٢، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار الأندرس، بيروت.
- (٦٠) في «المعجم الكبير» البرزة من النساء - البارزة المحاسن والموثق برأيها وعفافها والجليلية التي تظهر للناس ويجلسن إليها ويتحدثن عندها أو امرأة برازة المحاسن أو متظاهرة كهلة جليلة تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون وهي عفيفة «القاموس المحيط للفيروز أبادى».
- (٦١) أنساب الأشراف: البلذري، الأول، ص ٧٩ سابق.
- (٦٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ٦٣.
- (٦٣) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول ص ١٧٦، وما بعدها.
- (٦٤) الوفا بآحوال المصطفى: لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزى، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد، الجزء الأول ص من ٨٧-٨٦، ط أولى ١٢٨٦هـ/١٩٦٦م، دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفي، القاهرة.

(٦٥) الأحداث - بضم الألف - بوزن الأعجمية - ما يتحدث به من «مختار الصحاح» للرازي، ترتيب محمود خاطر، ط١٩٨٧م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سمعت منه أحداثه مليحة «فتح الألف» من «أساس البلاغة» للزمخشري، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، أما ابن السكين فقد رجح ضم الألف، وهى الأحداث بضم الألف مثل الأغلبية والآسيوية والأعجمية كلها بضم الألف، فيقال: انتشر فى الناس أحداثه حسنة - من «إصلاح المنطق» لابن السكين ١٨٦/٢٤٤، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، باب أفعولة، ص ١٧١، ذخائر العرب، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م، دار المعارف بمصر. وهل هناك أملح وأحسن من أحداثه الغار!!

(٦٦) السيرة الحلبية: الأول من ٤٩٣.

(٦٧) فتح المدى شرح مختصر الزبيدي: للشرقاوى، تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم، الجزء الثاني من ٩١، ط١٤١١هـ/١٩٩٠م كتاب الشعب بمصر وأهمية هذا المصدر أنه يجمع بين البخاري وصاحب الجامع الصحيح والعلامة المحدث الزبيدي ٨١٢-٨٩٣هـ، وشيخ الإسلام الشرقاوى ١١٥٠-١٢٢٦هـ. ثلاثة أسماء شوامخ لا يجرؤ مسلم على أن يشك فيها ثم حق المصدر وعلق عليه الشيخ أحمد عمر هاشم مدير جامعة الأزهر.

(٦٨) دراسات في السيرة النبوية: لحسين مؤنس ص ٩٨ وما بعدها، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م الناشر الذهراء للأعلام العرب بمصر.

(٦٩) وتبث من بلاد الترك اشتهرت بالمسك الطيب حتى ضرب به المثل أ.هـ. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» للشاعر النيسابوري.

(٧٠) الركركة: الضغف من «القاموس المحيط» للفيروز أبادي.

(٧١) الفهة: السقطة والجهلة من «مختار الصحاح» للرازي، ترتيب محمود خاطر ط١٩٨٧م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٧٢) العضيحة: الإفك من «مختار العين» لأبى بكر الزبيدي الإشبيلي، تحقيق د. صلاح مهدى الفرطوسى، الجزء الأول من ٩٣، الطبعة الأولى ١٩٩١م دار آفاق عربية، بغداد العراق.

(٧٣) الروض الأنف: للسيهلى، طبعة شقرنون.

(٧٤) المستدرك على الصحاحين: للحاكم النيسابوري تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، الجزء الرابع، الحديث رقم ٦٨٨٨/٢٤٨٦، ص ٦٣، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

(٧٥) مكان أزعر: قليل النبات وزعير الرجل زعارة قل خيره من «أساس البلاغة للزمخشري» الجزء الأول، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٧٦) المصلى: الفرس الذى يتلو السابق لأن رأسه عند صلاة أى مفرز ذنبه من «المختار من صحاح اللغة».

(٧٧) جل الفرس تجلية أى سبق فى الحلبية من «المعجم الوجيز» لمجمع اللغة العربية.

(٧٨) فاما الحامة فهى الخاصة. يقال دعينا فى الحامة لا العامة، ويقال كيف حامتك وعامتك من كتاب «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن مكى الصقلى ت: ٥٠١/٥٠١هـ، تحقيق د. عبد العزيز مصر، ص ١٠٦، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.

(٧٩) السمادع جمع سميدع، وهو السيد الكريم الشريف السخى الموطا الأكتاف الشجاع «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن مكى الصقلى من ١٢٧، مصدر سابق و«شرح الفصيح فى اللغة» لأبى منصور الجبان، تحقيق د. عبدالجبار جعفر القزار، ص ١٩٨، الطبعة الأولى ١٩٩١م، آفاق عربية «القاموس المحيط» للفيروز أبادي، فصل السين بباب العين، ولكنه «الفيروز أبادي» يرى أنه بالذال ولا بالذال «أى السميدع».

(٨٠) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: لأبى منصور الثعالبى النيسابورى ٤٢٩/٣٥٠، تحقيق محمد

- أبو الفضل إبراهيم، ص ص ١٠، ١١، ط ١٩٨٥، دار المعارف بمصر.
- (٨١) قال الأزهري وابن فارس لقى الشيء وتلقنه فهمه وهذا يصدق على الأخذ مشافهة وعلى الأخذ من المصحف «المصباح المنير» للمقرئ الفيومي تحقيق د. عبدالعظيم الشناوى، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، دار المعارف بمصر.
- (٨٢) السيرة النبوية: للسيد أبي الحسن على الحسنى الندوى، ص ص ٨٣/٨٥، الطبعة الأولى ربيع الثاني ١٣٩٧ - ١٩٧٧، دار الشرق، جدة.
- (٨٣) مع المصطفى في عصر المبعث: د. بنت الشاطئ، العدد ٢٢٢ من سلسلة أقرأ، نوفمبر ١٩٦٩، دار المعارف بمصر.
- (٨٤) عبقرية محمد: لعباس محمود العقاد، نرجح أنها الطبعة الأولى، ص ١٩، د. د. مطبعة دار التاليف بمصر.
- (٨٥) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٥ سابق.
- (٨٦) لحنت له لحنا: قلت له ما يفهمه عنى ويغفى على غيره وعرفت ذلك في لحن كلامه - في فحواه وفيما صرفة إليه من غير إفصاح «أساس البلاغة» للزمخشري، الثاني، سابق.
- (٨٧) على هامش السيرة: الثاني، طه حسين، ص ١٥١.
- (٨٨) قصص الأنبياء: لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين، ص ص ٢٩٩-٣٠١، الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م الناشر مكتبة دار التراث، بمصر.
- (٨٩) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٤٠٠.
- (٩٠) السيرة النبوية: للندوى، ص ص ٨٢-٨٥، مرجع سابق.
- (٩١) أنساب الأشراف: الأول، للبلاذرى، ص ٩٧، وما بعدها.
- (٩٢) السمط الثمين: للمحب الطبرى، ص ١٤، ط المكتبات الأزهرية، و«عيون الآخر» الأول، ابن سيد الناس، ص ٤٧ وما بعدها، و«إمانت الأسماء» الأول للمقريزى، ٣٧.
- (٩٣) الحول هو القوة ويقال لا حيل ولا قوة من المختار من صالح اللغة لمحمد محبي الدين عبد الحميد وأخوه، وفي «المصباح المنير» للمقرئ الفيومي ولا حيل ولا قوة إلا بالله.
- (٩٤) في القاموس المحيط: أى سعة العيش.
- (٩٥) في المجم الوسيط: عز لحمه - اشتد وصلب وبالقياس عز شبابه قوى.
- (٩٦) في المجم الوسيط: الأسر شدة الخلق.
- (٩٧) العامة تقول: فتوة كذا.
- (٩٨) في القاموس المحيط للفيروز أبادى: الوهز هو الحث والدفع.
- (٩٩) في المعجم الوجيز: غطرش - تعالى عن الحق.
- (١٠٠) الرسول في بيته: لعبد الوهاب حمودة، ص ٦ وما بعدها، العدد ٢٢٢ من سلسلة المكتبة الثقافية، مارس ١٩٩١، وزارة الثقافة والإرشاد القومى مصر.
- (١٠١) حياة سيد المرسلين محمد ﷺ: للشيخ عبد الحليم محمود الأمين العام لمجمع مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة وأورد الخبر ذاته محمد رضا فى كتابه «محمد رسول الله» ص ٣٩ وهو مرجع سبق لنا ذكره، وأضاف أن سيدة قريش أمرت جواريها أن يرقصن كما ذكره د. عبد الوهاب حمودة.
- (١٠٢) الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من هديه: للشيخ عبد الحليم محمود الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، الكتاب الأول، من سلسلة البحوث الإسلامية، التي يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ص ٧٠، ربى الأول ١٤٨٩-١٢٨٩هـ، مصر.
- (١٠٣) شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ: لمحمد على الصابوني، ص ص ٣٤-٣٨، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، طبعة الشربتلى، دون تحديد مكان النشر.
- (١٠٤) المفصل: جواد على، السادس ص ٥٩٠.

- (١٠٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٤٠٧ وما بعدها.
- (١٠٦) أنساب الأشراف: البلاذري، الأول، ص ٩٨.
- (١٠٧) الخصائص الكبرى: الثاني، السيوطي، ص ٢١٢.
- (١٠٨) صفوة السير: إعداد محمد الجيش سابق،
- (١٠٩) كتاب نسب قريش: للمصعب الزبيري، ص ٢٠٧، سابق.
- (١١٠) السيرة الحلبية: ص ٣٩٣، الأول، سابق.
- (١١٢) الموسوعة الإسلامية الميسرة: المجلد الأول ص ١٤٢-١٤١، سابق.
- (١١٣) السيرة النبوية: لابن هشام تحقيق السرجاني، هامش ص ١٩٣، الأول، سابق.
- (١١٤) السيرة الحلبية: الأول، ص ١٩٨.
- (١١٥) أمية النبي محمد ﷺ: بقلم محمد مصطفى الهلال ص ١٠ من العدد ٢٥ السنة ٢٥ ربى الآخر ١٤٢٠ يوليه ١٩٩٩م من مجلة «منار الإسلام» تصدر في دولة الإمارات العربية المتحدة.
- (١١٦) فتح المبدى شرح مختصر الرزيدي: للشرقاوى تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم، ص ٩١، الجزء الثاني، طبعة ١٤١١هـ/١٩٩٠م، كتاب الشعب للنشر بمصر.
- (١١٧) دراسات في السيرة النبوية: حسين مؤنس.
- (١١٨) المفصل: جواد على، السادس، ٦٠٦.
- (١١٩) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ١٨٢.
- (١٢٠) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٣١٢-٣١١.
- (١٢١) السيرة الحلبية - ٧٥ وابن كثير - ٢٧٢، مكة والمدينة: لأحمد إبراهيم الشريف، ص ٢٥٣.
- (١٢٢) المفصل: جواد على، السادس ص ٦٠٥.
- (١٢٣) المفصل: جواد على، السادس، ص ٦٠٥.
- (١٢٤) فضلاً أقرأ الآية ١٣ من سورة التحل.
- (١٢٥) المفصل: جواد على، السادس ، ص ٦٠٤.
- (١٢٦) المفصل: جواد على، السادس ، ص ٦٠٣.
- (١٢٧) المفصل: جواد على، السادس ، ص ٦٠٦.
- (١٢٨) الخصائص الكبرى: السيوطي، الأول، ص ١٩٢.
- (١٢٩) الخصائص الكبرى: السيوطي، الأول، ص ١٢٥.
- (١٣٠) المفصل: جواد على، السادس ، ص ٦٠١، سابق.
- (١٣١) تاريخ الشعوب العربية: حورانى ترجمة صلاح الدين، ص ١١، ط أولى، ألف كتاب الثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب نقلًا عن «المسيحية والحضارة العربية» لجورج قتوانى، ص ص ٨٢-٨٠، سابق.
- (١٣٢) المسيحية والحضارة العربية: د. جورج شحاته قتوانى، ص ٩٥٩ الطبعة الأولى ١٩٩٢، دار الثقافة مصر، نقلًا عن تاريخ الشعوب العربية لأوبرت حورانى، ترجمة نبيل صلاح الدين، ص ١١ الطبعة الأولى ١٩٩٧ - العدد ٢٦٧، ألف كتاب الثاني الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (١٣٣) السيرة النبوية: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، تحقيق حسام الدين القدسى، ص ٣٦، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م دار الكتب العربية، لبنان.
- (١٣٤) أخبار مكة: للأزرقى، الأول، ص ١٦٧.
- (١٣٥) أخبار مكة: للأزرقى، ص ١٦٧.
- (١٣٦) أخبار مكة: للأزرقى، ص ١٦٨، وما بعدها مصدر سابق، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد على، ص ١٧٢.
- (١٣٧) المفصل: جواد على، السادس ص ٦٠٧.
- (١٣٨) أساس البلاغة: للزمخشري، هو من جرثومة العرب.

- (١٣٩) أخبار مكة: للأزرقى، الثانى، ص ٢٠٤، و«دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ» على الغلاف الخارجى تحقيق الإمام عبدالحليم محمود والدكتور محمود ابن الشريف، أما على الغلاف الداخلى فلم تذكر كلمة تحقيق واقتصر على الإمام عبدالحليم محمود الذى وصل إلى منصب شيخ الأزهر، والحديث نقلًا عن أبي زرعة ورواه البخارى فى الأصحىح عن قتيبة ورواه مسلم عن أبي شيبة.
- (١٤٠) دور المرأة فى خدمة الحديث فى القرون الثلاثة الأولى: لأمال قرادش بنت الحسين، هامش ص ٤٥، كتاب الأمة، العدد ٧٠، ربى الأول ١٤٢٠هـ السنة التاسعة عشر، وزارة الأوقاف، دول قطر.
- (١٤١) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية: د. فاطمة محجوب، ص ١٣٠ من العدد ٢٦، ط أولى، د.ت، الناشر دار الفد العربي، بمصر.
- (١٤٢) حياة الصحابيات: لـأ.د. حمزة النشري وآخرين، ص ٥٢، ط أولى ١٩٩٩، والناشر هو المؤلف، القاهرة.
- (١٤٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة: لعز الدين بن الأثير الجزري، ٥٥٥/٦٢٠هـ، ص ١٢٩ من المجلد السادس، كتاب النساء، مصدر سابق.

الفصل الرابع

التقرير في اليهود

التفسير في اليهسوب

من معانى اليهسوب . الرئيس الكبير^(١).

وهو ورقة بن نوقل بن أسد بن عبدالعزيز . وهو من رهط بنى أسد الذين تكلمنا عنهم بتوسيع فى فصل «الهندوز».

وهو ابن عم الطاهرة خديجة .

«أما أن ورقة كان ابن عمها فهذه هي الحقيقة»^(٢).

«... ورقة بن نوقل وهو ابن عمها وكان قد تتصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل»^(٣).

ومما له دلالة عميقة وصلة حميمة ببحثنا أن ورقة أوشك أن يتزوج ابنة عمه الطاهرة ولكن لم يوفق فى ذلك لأسباب لم تفصح عنها كتب سيرة محمد التى هي أجمل صوتا من هزار دستان^(٤).

«عندما بلغت خديجة سن الزواج ذكرت لابن عمها ورقة فلم يقدر على زواجه...»^(٥).

علاوة على صلة القرى بين الطاهرة والقس وإذا إن سن زواج الجارية «الفتاة» آنذاك لا يتعدى الخامسة عشرة وإذا إنها نكحت «الكافى» وهى فى السادسة والأربعين من عمرها المبروك فإن ذلك يعني أنها استمرت على علاقة حميمة بابن العم ورقة لمدة أذافت على ثلاثين عاماً فلا مشاحنة والحال كذلك أن يغدو «ورقة» هو أستاذها وهى تخوض التجربة المعجبة التى طرحت أروع ثمرة شهدتها جزيرة العرب .

والمرجع الذى ذكر الخطبة غير الموقفة، حديث بيد أننا لا نكتفى بالمراجع الحديثة مع تقديرنا لها رغم وجود أخطاء أو هنات أو تجاوزات فيها نرجو أن نتمكن من الكشف عنها فى حينه ومن ثم فنحن لا نعوّل عليها بل حتم لازم أن نقصد المصادر أى الكتب التراثية خاصة تلك التى تحظى بالتقدير .

«قال ابن إسحاق وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوقل وكان ابن عمها وكان نصراوئيا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس»^(٦).

هذا الخبر نفحنا به ابن سيد الناس فى مؤلفه «عيون الأثر» وهو من دواوين السيرة الرفيعة الدرجة وسنده فيه ابن إسحق صاحب السيرة التي قام ابن هشام باختصارها أو تهذيبها ومن حسن الحظ أنها «سيرة ابن إسحق» حفظت لنا بخلاف سيرة الزهرى التى اندثرت.

كذلك أورده ابن الجوزى فى «الوفا»: «وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل فلم يقض بينهما نكاح»^(٧).

وأورده ابن هشام فى سيرته: «قال ابن إسحق: وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل وكان ابن عمها وكان نصرانيا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس»^(٨).

• • •

إنما الذى يهمنا فى خط سير اليهسوب هو تنصره وتبصره فى علوم النصرانية.

ذلك أنه اجتمع نفر من قريش رفضوا عبادة الأوثان منهم: زيد بن عمرو بن نفيل العدوى «عم عمر بن الخطاب» وعثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل وقد اختار الأخيران ديانة عيسى ابن مريم فاعتنتها، وألهمية هذه الخطوة التى خططاها ورقة فإننا سوف نقف عندها ملياً ومن حق القارئ علينا أن نقدم له أدلة الثبوت عليها كيما لا ندع ذرة من شك فى تصرير اليهسوب وتضليله فى النصرانية وحيازته لرتبة دينية عالية وقيامه بتعریب قدر مفرط من التوراة والإنجيل ونقله من اللسان العبرانى إلى لغة العرب ذلك أن هذا العمل من الخطورة بمكان وله أثر غائر ونافذ فى إنجاز التجربة المعجبة كما ذكرنا، وسوف نذكر ونحن نستيمح القارئ عذرنا إن حدث تكرار بيد أن ما توحيناه والذى فى اعتقادنا أنه مهم للغاية هو المصادر العالية المقام التي تصادرت وتعاضدت على تأكيد نصرانية ورقة وأنه شرب من علومها نهلاً بعد علل وأنه نقل من النصرانية إلى العربية العدد الوفير من الإصحاحات والصفحات من الكتاب المقدس بقسميه «ورقة.. ابن عم خديجة وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب»^(٩).

هذا الخبر حمله إلينا صحيح البخارى مقدم الصراح الستة وأصح كتاب بعد القرآن العظيم.

«تصرأى صار نصرانياً.. فأما ورقة فأعجبه دين عيسى ولم يبدل ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبشرة به إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل»^(١٠).
ويشرح ابن حجر العسقلانى الأثر الذى أخرجه البخارى فى صحيحه
ويزيده إيضاحاً فيقول:

«وفي رواية يونس ومعمر: ويكتب «يعنى ورقة» من الإنجيل بالعربية ولمسلم فكان يكتب الكتاب العربي والجميع صحيح لأن ورقة تعلم اللسان العبراني والكتاب العبراني فكان يكتب الكتاب العبراني كما كان يكتب الكتاب العربي لتمكنه من الكتابين واللسانين لأن حفظ التوراة والإنجيل لم يكن ميسراً كتيسير حفظ القرآن الذي خصت به هذه الأمة فلهذا جاء في صفتها: أناجيلها في صدورها..»^(١١).

وقد ركز الخبر على تمكن القدس من اللغة العربية مثل تمكنه من اللغة العربية وأن التعريب شمل التوراة والإنجيل وهو خبر بالغ النقاوة.

وفتح الباري للإمام العسقلاني أحسن مؤلف في شرح صحيح البخاري وتأمل أن يختار القارئ ما ذكره من لقاء القدس للرهبان الذين ظلوا على دين عيسى قبل تبديله إذ سنتناوله بعد قليل بتفصيل وتوضيح بصماته التي سوف ندركها من خلال التجربة الفدنة.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل وكان امراً قد تصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب^(١٢). في «اللؤلؤ والمرجان» جمع صاحبه الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم «الشيخان» وكلاهما يقفن على رأس الصحاح الستة ومقدمها «البخاري» هو الأول أو السابق وأخرها «مسلم» هو التالى له أو المصلى وقد اتفقا على نصرانية ورقة ونقل إصلاحات العبرانية إلى العربية.

ثم ذكر الكلاعي في الاقتداء:

«ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد تصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل»^(١٣).

وامتاز هذا الأثر بأنه ذكر أن القدس سمع من أهل التوراة أيضاً لا من أهل الإنجيل فقط وهو عين ما نص عليه العسقلاني، ثم نأتى إلى الإمام أحمد بن حنبل شيخ المذهب المعروف ومسنه أحد دواوين السنة المحترمة وقد ذكر روایتين للحديث.

الرواية الأولى:

«حتى أتت ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة.. وكان امراً تتصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي فكتب من العربية ما شاء الله أن يكتب. رواه الزهرى عن عروة عن عائشة»^(١٤).

هذه الرواية رفعها إلينا الزهرى عن عروة عن عائشة وبذلك تصير مؤكدة وموثقة.

الرواية الأخرى:

«وبرواية محمد بن مسلم حدثنا عروة بن الزبير.. فانطلقت بي خديجة إلى

ورقة.. وكان رجلاً قد تتصدى شيخاً أعمى يقرأ الإنجيل بالعربية»^(١٥).

وذكر د. حمزة النشرتى أن الشيختين أجمعوا على ما يأتي:

- ورقة هو ابن عم خديجة.

- تتصدى أى دخل دين ابن مريم.

- يكتب من الإنجيل المكتوب بالعبرانية أى ينقل منه إلى اللسان العربى «حتى أنت ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة رضى الله عنها وكان امراً قد تتصدى في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. أخرجه الشيخان»^(١٦).

وأوردتها المحب في «السمط» فقال: «... ورقة وكان ابن عمها «الطاهرة» وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس...»^(١٧).

ثم نختتم بما جاء في تاج مؤلفات السيرة المحمدية التي هي أطيب رائحة من ورد جور^(١٨).

«ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تتصدى وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل..»^(١٩).

لعلنا بعد كل هذه الأدلة لسنا في حاجة إلى القول بصحة هذا الخبر ووثاقته بعد أن قدمته إلينا مصادر هي في الدرجة الأولى.

من التراث الإسلامي:

- صحيح البخاري.

- صحيح مسلم.

- فتح الباري

- مسنن ابن حنبل

- سيرة ابن هشام

- عيون الأثر

- الوفا بأحوال المصطفى

- السمعط الثمين للطبرى

- الاكتفاء للكلاعى

إنما لماذا حرصنا على هذا التوثيق المبالغ فيه؟

الإجابة لا تحتاج إلى ذكاء؛ ذلك أن نصرانية القدس وتضليله في علومها ونسخه إصلاحات من التوراة والإنجيل إلى العربية بالإضافة إلى علم الطاهرة بالقراءة والكتابة مع عوامل أخرى كلها تشكل مفاتيح اللغز الذي حير الناس طوال مدة أربعة عشر قرناً.

ولكن هناك باحثاً حدثاً عرف بالرصانة واشتهر بالرزانة وحاز كتابه عن «حياة محمد» التي أطيب من ريح الخزامي بتقدير وغير حتى إنه طبع مرا

عديدة خريق^(٢٠) في هذه الخصوصية خربقة دلت على عدم فطانته لفرقـة النصرانية التي انتهـى إليها ورقة وإلى الإنجيل الذى كان يعرب منه والذى ترك بصماته على «منتج التجربـة» بصورة واضحة لا تخفى على الليـب ولا تستـهم على الذكـى ولا تلتبـس على اللـوزـعـى^(٢١).

أما ورقة بن نوـفـل فدخلـتـهـاـ النـصـرـانـيـةـ وـقـيـلـ إـنـ نـقـلـ إـلـىـ الـعـرـبـيـةـ ماـ فـيـ الـأـنـجـيـلـ...^(٢٢).

ونحن نرى أن هـيـكـلاـ أـخـطـأـ فـىـ قـوـلـهـ «ـمـاـ فـىـ الـأـنـجـيـلـ»ـ لأنـ ابنـ نـوـفـلـ لمـ يـعـرـفـ سـوـىـ إـنـجـيـلـ الـعـبـرـانـيـنـ أوـ إـنـجـيـلـ مـتـىـ قـبـلـ إـضـافـةـ الـإـصـحـاحـيـنـ الـأـوـلـيـنـ إـلـيـهـ،ـ وـيـؤـيـدـهـ مـاـ جـاءـ فـىـ «ـالـفـتـحـ»ـ لـالـعـسـقـلـانـىـ أـنـ الـقـسـ كـانـ يـؤـوبـ إـلـىـ مـاـ بـقـىـ مـنـ الـرـهـبـانـ عـلـىـ دـيـنـ عـيـسـىـ الـذـىـ لـمـ يـبـدـلـ وـهـمـ الشـيـعـةـ أـوـ الـفـرـقـةـ الـنـصـرـانـيـةـ الـتـيـ لـمـ تـزـعـمـ أـنـ اـبـنـ مـرـيـمـ إـلـهـ يـعـبـدـ مـعـ الـلـهـ وـهـمـ الـنـصـارـىـ الـمـوـحـدـوـنـ أـوـ الـنـصـارـىـ الـمـتـهـودـوـنـ أـوـ الـأـبـيـوـنـيـوـنـ «ـوـقـدـ كـانـتـ جـمـاعـةـ الـيـهـوـدـ الـمـتـصـرـيـنـ فـىـ فـلـسـطـيـنـ هـىـ الـأـقـرـبـ إـلـىـ تـعـالـيمـ الـمـسـيـحـ مـنـ حـيـثـ كـانـ مـنـهـاـ تـلـامـيـدـهـ الـحـقـيقـيـوـنـ وـعـلـىـ رـأـسـهـمـ بـطـرسـ مـقـدـمـ تـلـامـيـدـهـ هـؤـلـاءـ^(٢٣).ـ وـفـىـ مـقـابـلـهاـ تـقـفـ الـفـرـقـةـ الـأـخـرـىـ عـلـىـ رـأـسـهـاـ شـأـوـلـ الـذـىـ تـحـولـ مـنـ مـضـطـهـدـ لـلـنـصـارـىـ إـلـىـ زـعـيمـ مـنـ بـدـلـ دـيـنـ الـمـسـيـحـ وـاعـتـقـدـ الـأـلوـهـيـتـهـ.

«ـوـأـظـهـرـ مـاـ تـتـمـيـزـ بـهـ عـقـيـدـةـ هـؤـلـاءـ الـأـبـيـوـنـيـوـنـ تـمـسـكـهـمـ بـالـتـوـحـيدـ الـمـجـرـدـ وـإـنـكـارـهـمـ دـعـوـىـ تـالـيـهـ الـمـسـيـحـ وـاعـتـبـارـهـ مـجـرـدـ إـنـسـانـ نـبـىـ وـالتـزـامـهـ بـكـتـبـ مـوـسـىـ وـالـأـنـبـيـاءـ وـمـاـ تـقـضـىـ بـهـ مـنـ شـعـائـرـ وـفـرـوـضـ^(٢٤).ـ

وـقـدـ تـعـرـضـواـ مـنـ فـرـقـةـ بـولـسـ الـمـغـيـرـينـ لـدـيـنـ الـمـسـيـحـ لـلـاضـطـهـادـ وـمـنـ ثـمـ فـرـواـ بـدـيـنـهـمـ خـارـجـ فـلـسـطـيـنـ بـعـدـ آـنـ وـسـمـهـمـ شـأـوـلـ أـوـ بـولـسـ وـزـمـرـتـهـ بـالـهـرـطـقـةـ وـمـنـهـمـ الـجـمـاعـةـ الـتـىـ وـصـلـتـ إـلـىـ جـزـيـرـةـ الـعـرـبـ وـتـلـكـ التـىـ اـسـتوـطـنـتـ حـدـودـ الشـامـ الـتـىـ عـلـىـ مـشـارـفـهـاـ وـهـذـاـ مـاـ تـوـصـلـ إـلـيـهـ الشـيـخـ مـحـمـدـ الـغـزـالـىـ.

«ـوـكـانـ نـصـارـىـ الشـامـ الـذـيـنـ سـأـلـهـ زـيـدـ بـنـ عـمـرـوـ بـنـ نـفـيـلـ بـعـاقـبـةـ يـخـالـفـونـ الـمـذـهـبـ الرـسـمـىـ لـكـنـيـسـةـ الـرـوـمـانـ^(٢٥).ـ

«ـوـقـدـ اـسـتـكـمـلـواـ فـقـطـ مـاـ يـدـعـىـ «ـإـنـجـيـلـ الـعـبـرـانـيـنـ»ـ وـلـمـ يـبـالـواـ كـثـيرـاـ بـالـأـسـفـارـ الـأـخـرـىـ^(٢٦).ـ

وـقـيـلـ إـنـهـمـ طـفـقـواـ يـقـرـأـوـنـ إـنـجـيـلـ مـتـىـ قـبـلـ إـضـافـةـ الـإـصـحـاحـيـنـ الـأـوـلـيـنـ لـهـ الـذـيـنـ كـتـبـاـ لـإـرـضـاءـ جـمـاعـةـ بـولـسـ مـنـ حـيـثـ تـأـلـيـهـ الـمـسـيـحـ وـهـوـ أـىـ إـنـجـيـلـ مـتـىـ فـىـ الـأـصـلـ مـكـتـوبـ بـالـعـبـرـانـيـةـ وـمـنـ ثـمـ يـقـالـ إـنـهـ إـنـجـيـلـ الـعـبـرـانـيـنـ ذـاتـهـ «ـمـنـ الـمـحـتمـلـ أـنـ يـكـونـ إـنـجـيـلـ الـنـصـارـيـنـ هـذـاـ هـوـ الـأـصـلـ الـعـبـرـانـيـ لـإـنـجـيـلـ مـتـىـ ثـمـ طـرـأـتـ عـلـيـهـ توـسـعـةـ وـتـعـديـلـ...^(٢٧).ـ

وـهـذـاـ مـاـ تـؤـيـدـ الـمـصـادـرـ الـمـسـيـحـيـةـ ذـاتـهـ:

«ومن بين اليهود الذين قبلوا المسيح وكان هناك من دخلوا في شركة كاملة مع إخوانهم الأميين ولم يدعوا أى امتياز لأنفسهم عنهم استناداً إلى الناموس.. وذلك بإصرارهم على ضرورة حفظ الناموس.. وعلى هذا فقد انتقلوا من كونهم حزباً في إطار الكنيسة إلى وضع شيعة خارجة عنها ونجدتهم في نحو منتصف القرن الثاني وقد أصبحوا زمرة من الهرطقة.. وبعد ذلك بوقت قصير صنفهم الكتابون تحت اسم «الأبيونيين».. ولقد أنكروا أن يكون بولس رسولاً ولم يستخدموا سوى إنجيل متى بل وفي صورة مشوهة وكان... رأيهم أن المسيح رجل عادى حبل به بالشكل العادى ولم يتميز سوى ببره وعطية الروح القدس السامية.. ومن ناحية أخرى يتحدث العلامة أوريجانوس عن طائفتين من الأبيونيين ويوضح أن إحدى الطائفتين تذكر الحمل العذراوى بال المسيح بينما تؤيد ذلك الرأى الطائفة الأخرى.. واتخذوا لهم لقب الناصريين «يعنى نسبة التى الناصرة التى ولد بها عيسى ابن مريم أ.ه»... وهم يتحدثون بالأرامية وكان لهم إنجيلهم الخاص ويدرك شاف أنهم استخدمو إنجيل متى في العربية..»^(٢٨).

أما دائرة المعارف الكتبية فترى:

«أن التاريخ القديم المتفق عليه لهذا الإنجيل أى إنجيل العبرانيين وأغلب الاقتباسات القليلة منه والاحترام الذى يذكره به الكتاب الأوائل والتقدير الذى يلقاء من العلماء عموماً فى العصر الحاضر كل هذا يجعل له اعتباراً خاصاً.. وكان جيرروم ٤٠٠ م يعلم بوجود هذا الإنجيل ويقول إنه ترجمه إلى اليونانية واللاتينية وتوجد اقتباسات منه فى مؤلفات أكلميوندس السكندرى وعلاقته بإنجيل متى الذى يقاد الإجماع ينعقد على أنه كتب أصلاً بالعبرية «الaramie» أثارت جدلاً كبيراً.

ثم تتحدث عن الأبيونيين فتقول إنه:

يمكنا وصف الأبيونيين عموماً بأنهmischristians من اليهود الذين عملوا على الاحتفاظ بقدر الإمكان بتعاليم العهد القديم.. ويقول جيرروم من القرن الرابع: إنه وجد في فلسطين مسيحيين «هكذا وصحتها مسيحيون أ.ه» يعرفون باسم ناصريين وأبيونيين ولا نستطيع الجزم هل كانوا مذهبين أو أنهما كانوا جناحين «هكذا وصحتها جناحان أ.ه» لمذهب واحد.. وإنجيل الأبيونيين أو الإنجيل الائتى عشر رسولاً كما كان يسمى أيضاً يمثل مع إنجيل العبرانيين المذكور سابقاً الروح المسيحية اليهودية.. ويقول أبيفانيوس ٣٧٦ م: إن الناصريين لديهم إنجيل متى فى صورة أكمل فى العبرية الaramie»^(٢٩).

يبد أن أحد الباحثين ينبهنا إلى أن إنجيل متى الحالى ليس هو إنجيل متى الأصلى الذى اعتمد النصارى الموحدون أو اليهود المتصرفون أو الناصريون أو الأبيونيون «وأما عن نسبة إنجيل متى إلى الحوارى متى فقد جاء في كتاب

«حياة المسيح» للأب ديدون أن بعض الثقات قال إن الإنجيل الحالى المنسوب إلى متى ليس من كتابته بل هو مقتطف من أصل مفقود كان ينسب إلى الحوارى متى.

وفي الهاامش أضاف ما يلى:

ويزيد هذه الشبهة أن الكتابة فى هذا الإنجيل ليست بضمير المتكلم كما فى لوقا مثلاً، وفى دائرة المعارف البريطانية استبعد موريس فرن أن يكون الإنجيل المعزو إلى متى ليس من كتابته بل هو مقتطف من أصل مفقود كان ينسب إلى متى الحوارى بل لقد نادى «فاستis» فى القرن الرابع من علماء «مانى كيز» أن الإنجيل المنسوب إلى متى ليس من تصنيفه وأضاف بالهاامش ما يلى:

اجتمع لكتابية دائرة المعارف البريطانية ما يزيد على خمسمائة عالم من أكبر علماء فرنسا والبلاد الأخرى فى القرن التاسع عشر^(٢٠).

ويقول الباحث الشيخ رحمت الله بن خليل الهندى (١٢٣٨/١٢٣): «إن الفرقة البيونية تقول إن بولس مرتد وكانت تسلم بإنجيل متى لكن كان هذا الإنجيل عندها مخالفًا لهذا الإنجيل المنسوب إلى متى الموجود عند معتقدى بولس الآن فى كثير من المواقع محرفة عند هذه الفرقة ومعتقدو بولس يرمونها بالتحريف»^(٢١).

وكان كيرنشوس الذى عاصر الحواريين يؤكد أن الإصلاحين الأولين فى إنجيل متى «الحالى» والمشتملين على قصة ميلاد عيسى لم يكونا أصلاً فى النسخة العبرانية بل هما من إضافة شيعة شاؤول «بولس» دعاة تأليه ابن مريم^(٢٢).

● ● ●

بعد هذه الاستطرادة التى نرى أنها قد استطالت: نقول لعلنا بذلك طرحنا الحاج الدامغات على خطأ هيكل عندما ذكر أن القس نقل إلى العربية ما فى الأنجليل إنما هو إنجيل واحد هو إنجيل العبرانيين الذى حملته معها طائفة اليهود المتصررين أو النصارى الموحدين أو الأبيونيين أو الناصريين التى فرت من اضطهاد بولس وشيعته واستوطنت جنوب الشام على تخوم الجزيرة العربية ومنطقة الحجاز وربما هى خليط من كل أولئك وعنهما أخذ القس ورقة نصرياناته ويدخل فى هذه الزمرة كل الأسماء التى وردت فى سيرة محمد التى هى أطيب من رائحة الورد. أمثال: بحيرى وسيرجيوس ونسطوروس وانسطاس وعذاس وميسرة وناصخ والأخيران هما غلاماً «يدة نسون الدنيا أم هندا». والفرقـة بـأسرها تـعتبر فى نظر بـولـس وـتبـعـه: هـراـطـقـة وـمارـقـون وـعـلـى باـطـل لأنـهم يـتـمـسـكون بـالـتوـحـيد الـمـجـد وـيـنـكـرون دـعـوى تـأـلـيهـ المـسـيـح وـاعـتـبارـهـ مجـدـ إـنـسـانـى نـبـى وـيـلـتـزـمـون بـكـتـبـ مـوـسىـ وـالـأـنـبـيـاءـ وـماـ قـضـىـ بهـ مـنـ شـعـائـرـ وـفـرـوضـ^(٢٣).

ومن أميز عقائدهم الإيمان بالولادة العذراوية لعيسى أي أنه ولد من عذراء وروح القدس^(٣٤).

وهذه العقائد ذاتها بنصها هي التي وردت في القرآن العظيم بخصوص المسيح وأمه مريم العذراء البتوء:

﴿إِنَّمَا الْمُسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرِيمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَيْ مَرِيمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾^(٣٥).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسِيحُ ابْنُ مَرِيمَ﴾^(٣٦).

﴿مَا الْمُسِيحُ ابْنُ مَرِيمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَقْتُ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾^(٣٧).

أما عن الولادة العذراوية فقد خصص لها القرآن الكريم عدة آيات في سورة مريم تبدأ من الآية الرابعة عشرة.

وعن عبودية المسيح لله ونفي الألوهية عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَأْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(٣٨).

وعن نفي أبوة الله لعيسى أو بنوة الأخيرة لله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرِيمَ قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾^(٣٩) ما كان لله أن يتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ^(٤٠).

• • •

هذه الفرقـة الهرطـيقـة في نظر بولـس هي التي أخذـ القـس ورقةـ منها عـلمـه بالنصرـانية سـواء في الشـام أو في الحـجاز، فـلم تـلتـفت أو تـعـرـف إلا بـاجـيلـ متـى قبل تـحرـيفـه بـإضـافـةـ الـبـابـينـ أوـ الـإـصـاحـاحـينـ الـأـوـلـيـنـ وـتـجـاهـلتـ الـأـنـاجـيلـ الـثـلـاثـةـ القـانـونـيـةـ الـأـخـرىـ دـعـكـ منـ باـقـيـ الـأـنـاجـيلـ^(٤١).

وـنـأـمـلـ أـلـاـ يـظـنـ الـقـارـئـ أـنـ هـذـهـ مـبـالـغـةـ قـذـفـ بـهـ بـاـحـثـ مـسـلـمـ دـفـعـهـ إـلـيـهـ التـعـصـبـ الـدـينـيـ وـلـكـنـ هـذـاـ مـاـ يـؤـكـدـهـ عـلـمـاءـ الـفـرنـجـةـ المـدـقـقـونـ فـيـ تـوـارـيـخـ الـأـديـانـ وـخـاصـةـ الـمـسـيـحـيـةـ وـكـذـاـ فـيـ عـلـمـ الـأـديـانـ الـمـقـارـنـ وـقـدـ تـمـ اـعـتـمـادـ الـأـنـاجـيلـ الـأـرـبـاعـةـ مـنـ بـيـنـ الـعـدـدـ الـهـائلـ مـنـ الـأـنـاجـيلـ^(٤٢).

كـماـ أـنـ عـلـمـاءـ تـلـكـ الـفـرقـةـ رـأـواـ أـنـ «ـمـنـ الضـرـورـىـ رـفـضـ كـلـ رسـائـلـ بـولـسـ الـذـىـ قـالـواـ عـنـهـ إـنـهـ مـرـتـدـ عـنـ النـامـوسـ»^(٤٣).

وكـذـلـكـ سـائـرـ رسـائـلـ الرـسـلـ الـبـاقـينـ.

وـالـقـرـآنـ الـمـجـيدـ لـمـ يـذـكـرـ إـلـاـ إـنـجـيـلـاـ وـاحـدـاـ بـالـمـفـرـدـ وـلـيـسـ بـهـ كـلـمـةـ وـاحـدـةـ عـنـ بـولـسـ وـلـاـ رسـائـلـ الـآـخـرـينـ رـغـمـ أـنـ شـاؤـولـ أـوـ بـولـسـ هـذـاـ قـامـ بـدورـ رـهـيبـ إـذـ هـوـ الـذـىـ دـهـولـ^(٤٤) الـمـسـيـحـيـةـ وـقـلـبـ حـالـهـ رـأـسـاـ عـلـىـ عـقـبـ بـأـنـ اللـهـ الـمـسـيـحـ عـيـسـىـ فـيـ حـينـ أـنـهـ هـوـ نـفـسـهـ صـرـحـ أـنـهـ مـجـرـدـ رـسـولـ خـلـتـ مـنـ قـبـلـهـ الرـسـلـ وـأـنـهـ عـبـدـ اللـهـ أـتـاهـ الـكـتـابـ وـجـعـلـهـ نـبـيـاـ وـقـدـ مـضـتـ سـتـمـائـةـ عـامـ عـلـىـ مـخـارـيقـ بـولـسـ وـشـعـبـدـاتـهـ قـبـلـ الـقـرـآنـ.

ثـمـ نـؤـوبـ إـلـىـ سـلـسلـ «ـبـسـكـونـ الـلـامـ الـأـوـلـىـ»ـ الـحـدـيـثـ نـقـوـلـ: إـنـ هـيـكـلـاـ بـعـدـ سـتـ

صفحات عاد إلى صوابه فأقلع عن خطئه وبرئ من غلته ورجع عن تخلطيه
فقال:

«لذلك انطلقت «خدية» إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكما قدمنا قد
تتصدر وعرف الإنجيل ونقل بعضه إلى العربية فلما أخبرته بما رأى محمد
وسمع قصتها عليه كل ما حدثها به فذكرت له إشفافها وأملها، أطرق مليا، ثم
قال: قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتي يا خديجة لقد
جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له
فليثبت.. وسارعت «خدية» فقصتها عليه (=على محمد) نبأ ورقة وما
حدثها»^(٤٤)

ففي هذه الفقرة يذكر أن ورقة عرف إنجيلاً واحداً لا أناجيل بالجملة أي
عدة أناجيل والفرق لا يتمثل في الألف ولكنه أعمق من ذلك فمن قال إن ورقة
قرأ إنجيلاً واحداً أدرك كنه ما وقع بالفعل وعرف الحقيقة التاريخية ونفع السر
الخبيء وراء افتخار نتج «ناتج» التجربة على ذكر إنجيل فذ وعلى أفكار فرق
معينة أو فرق مخصوصة من فرق أتباع عيسى. هي التي استوطنت تخوم الشام
أو رحلت إلى الحجاز فماسها ورقة وأقرانه. أما الذي يسطر في كتابه أو بحثه
أن القس اطلع على أناجيل «بالجمع» وعريها أي نسخ ما فيها إلى العربية
فعلاوة على بعده عن الصواب فإنه يقطع بأنه لم يفطن إلى مجريات الأحداث
في ذيالك الزمان المدهش ولا أحاط معرفة بالعلم الديني الذي حصله ابن نوفل
 وأنداده ولا بمن لقنه إياه ودرسه له.

وغاية الأمر في هذه الخصوصية البالغة الدقة رغم صغر حجمها أن هكياً
صحح خرفه..^(٤٥)، واستدرك غلته واستقال من عذرها إنما لكل سيف نبوة ولكن
عالم هفوة ولو أنها ليست كذلك بل هي سقطة وجيعة كنا نأمل ألا يتربى هيكل
فيها.

● ● ●

بعد هذا التفريع الذي ألجأنا إليه هيكل نعود إلى سرد الحديث وهو أيضاً
أو إثبات علم اليусوب المكين وصلاحيته ليغدو المستشار وكفايته فيما يصبح
الموجه ومكتنته لكي يتولى رتبة المتابع «للتجربة» التي خاضتها الطاهرة بجسارة
شديدة ونفذتها باقتدار يعز أن نجد له نديداً فتورد آراء الكتاب المحدثين فيما
يتعلق بعلم القس بالنصوص المقدسة ومكانته العلمية الدينية بين من أعتقد
النصرانية وذلك بعد أن طرحنا ما صنفه المؤلفون التراشيون في هذه
الخصوصية والحق أنهم جهابذة الكتاب القدامي وسادتهم ومن حظيت
مؤلفاتهم بوافر الاحترام بل بعضها وصل إلى درجة التقديس مثل صحيحى
البخارى ومسلم.

● ● ●

إن الكتاب الذى عربه الشيخ عبدالحليم محمود الذى تربع على كرسى رئاسة مؤسسة شئون التقديس فى مصر نعنى مشيخة الأزهر يؤكيد مصنفاه أن ورقة هو أعلم أهل مكة بالنصوص المقدسة:

«كان ورقة من هؤلاء الذين اعتقو النصرانية وكان يعد من أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة ولقد عاش مثل ما عاش رهبان الشام فى انتظار الرسول العربي»^(٤١).

والعميد الدكتور طه حسين يخبرنا عن تبحر ورقة فى النصرانية وإمعانه فيها وحفظه منها ما حفظ ويؤكد ما سطره ناصر الدين آتىين دينيه وزميله أنه أعلم من بيكة بالكتاب المقدس:

«كان ورقة بن نوفل حازما عازما رجل صدق وشارك فى مفاخر مكة وما ثرها ولكن ورقة وإن أحب النصرانية وأمعن فيها فقد كان لقومه محباً ولوطنه مؤثراً... ولم يذهب إلى قسطنطينية وإنما حفظ من النصرانية ما حفظ ووعي من علم الأخبار والرهبان ما شاء الله أن يعى ثم عاد بهذا كله إلى مكة فأقام فيها.. فلا غرابة أن تفكروا عنه خديجة أن تسأله عمما رأت وسمعت من هذه الأحداث العظام والآيات الكبار وهو الذي انتهى إليه علم الكتاب فى مكة». العميد هنا يتحدث عن هروبة الطاهرة إلى القدس بعدها سمعت من غلامها ميسرة ما رأه فى رحلته مع «المشحق» إلى الشام»^(٤٢).

• • •

ولا نعد مغالين إذا انتهينا إلى حقيقة ثابتة أطبق عليها الكتاب المحدثون للسيرة الحمدية الزكية وهى أن القدس هو أعلم من فى منطقة الحجاز من أهلها بالنصوص المقدسة فقد ذكرنا منهم ناصر الدين آتىين دينيه والعميد طه حسين.

وهذا هو رأى ثالثهم وهو الخريوطلى الذى يذهب إليه أيضاً.
«فغادرت خديجة دارها قاصدة إلى ابن عمها ورقة وكان قد اعتنق المسيحية وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل وأصبح أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة...»^(٤٣).

ولكننا نأخذ عليه أنه ارتكب غلطة لا يصح مثله أن يتردى فيها وهى قوله إن القدس اعتنق المسيحية فى حين أنه لا شأن له بها إنما هو اعتنق النصرانية وقد سبق أن أوضحتنا تفصيلاً فيما تقدم الفارق بين الشتتين، ومما يؤسف له أن عدداً ملحوظاً من المحدثين الذين يتتناولون السيرة الحمدية العطرة يخوضون فيها بقدر من الخفة وعدم التعمق وسنرى فيما يلى: أن الخريوطلى قد أخطأ خطأً بينما فيما يتعلق بغار حراء وخلط بينه وبين أحد أجبل مكة ولو أنه دق قليلاً لتحاشى الغلط الفادح.

وهذا رابعهم يقول:

«كان ورقة عريبياً أصيلاً من ذروة بيوتات قريش وهو كما يروى صاحب الأغانى أحد من اعتزل الأوئل فى الجاهلية وطلب الدين وقرأ الكتب وامتنع عن أكل ذبائح الأوئل. طلب ورقة الدين ولم يكتفى فى طلبه باللغة العربية بل لعل اللغة العربية إذ ذاك لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة فتعلم العبرانية ويقول الإمام البخارى عنه: وكان امراً تتصر فى الجاهلية وكان يكتب العبرانية فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب».

وقد كان ورقة معروفاً بالعقل الناصح والمعرفة الواسعة والإخلاص المخلص وقد كان فى فترة البدء هذه شيخاً كبيراً قد عمى أى أنه مر بالتجارب الكثيرة فى الدين من أجل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول ﷺ إليه وقالت له: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك».^(٤٩)

المدون بعاليه هو رأى الشيخ عبدالحليم كمؤلف لا كمعرّب أو مترجم وقد أخرج هذا الكتاب وهو أمين عام مجمع البحوث الإسلامية ثم غدا فيما بعد شيخاً للأزهر وهو يتناول جانباً آخر لم يتطرق إليه من سبقه وهو اتسام القس بصفات عالية مثل الزهد والعقل الناضج والمعرفة الواسعة والإخلاص والتجارب العميقه فى الدين.

• • •

إذن علم القس المتيين وتضلعه من النصوص المقدسة وعلو كعبه بين العارفين بها محل إجماع، وترتيباً عليه فهو أجدر الناس بأن يظفر بمركز المستشار والموجه والمراجع والمتابع.

بقيت نقطة مهمة تكمل علم القس وهي وثاقة صلته بهندوز التجربة والعلاقة الحميمة التي ربطتهما ودفتها لذلك التعاون الناجح.

• • •

ورقة بن نوقل

قرشى جليل القدر، نافذ البصيرة، كان قريباً للسيدة خديجة زوج النبي ﷺ ترك الوثنية إلى النصرانية، وكان يقول للنبي ﷺ: ستكون نبياً وإن أدركنى يومك نصرتك نصراً عظيماً ولكنه توفى قبل أن يظهر للناس إسلامه^(٥٠).

إن مشيخة الأزهر أكبر مؤسسة لشئون التقديس فى مصر بل فى العالم الإسلامى على بكرة أبيه ومن على صفحات مجلتها الرسمية تؤكد صلة القس بالطاهرة «كان قريباً» وهو الذى عضد «الفائق» وبشره بأنه المأمول والمنتظر والقادم.. إلخ ووعله بالمؤازرة القوية والنصر المبين ولا توجد عبارات تقطع بما ذهبنا إليه أوضح منها وإذا إن هذا الرأى صدر من مشيخة الأزهر فينطبق عليه المثل: «وعند جهينة الخبر اليقين».

«وكانت تزور ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل...»^(٥١).

هنا نجد الندوى وهو من الباحث المحدثين الأعاجم يؤكّد زيارة أم هند لابن عمها ورقة ومثله لا يزار لمجرد المؤانسة بل للمدارسة والاستشارة في ما يهم من الأمور وما يعظم من الشّئون. فضلاً عن أن الزيارة تشي بوجود عروة وثقة وصلة وطيدة بين الهندوز والييسوب هي التي رشحت الأخير للموضع الذي ذكرناه.

● ● ●

وبالبحث والتنقيب والتنقير وجدنا أن القس لم يترك المسألة للحدس والتخيّل ولقراءة المعنى الخبيء وراء الأخبار والدلالة المستترة خلف الآثار «جمع أثر» بل ثمة كلام صريح للييسوب وقد صاغه شعراً «إذ إنه كما ذكرنا من شعراء قريش أ.ه.» يحكي لنا فيه عن الصلة الوشیجۃ التي ربّطته بأم هند وأنها دأبت على إطلاعه أولاً بأول على أحوال «راكب الناقة» وما فتئت تلتّمس منه أن يكشف لها عن دالة هذه الأحوال:

«أخرج الحكم من طريق ابن إسحق: حدثني عبد الله بن أبي سفيان الثقفي وكان واعية قال: قال ورقة بن نوفل في ما كانت خديجة رضي الله عنها ذكرت له من أمر رسول الله ﷺ:»

حتى خديجة تدعوني لأخبرها وما لها بخفي الغيب من خبر جاءت لتسألني عنه لأخبرها أمراً أراه سيأتي الناس من آخر.

وخبرتني بأمر قد سمعت به في ما مضى من قديم الدهر والعصر^(٥٢). أليس هذا الخبر صريح النص والدلالة معاً على حقيقة ما جمع بين الطرفين وتعاونهما سوياً على إنجاز التجربة.

● ● ●

وللقس ورقة شعر كثیر حملته إلى دواوين سيرة «الهادى» التي هي أجمل من رائحة الألوة مع الكافور والزعفران وقد أورد ابن إسحق في سيرته قصيدين. منهما واحدة تضم الأبيات السابقة^(٥٣).

تكلم فيهما بوضوح عن صلته الوثيقة بسيدة قريش وكيف أنها ما انفك توافيه بقدر ملحوظ من الموالاة بموافقتها على عاتقه» وما يمر به من مقامات وتستفسر منه عن تأويلها الأمر الذي لا يدع مجالاً لذرة من شك أنهما تعاضداً على إنجاز التجربة التي موضوعها «التجيد - التجيب».

● ● ●

هناك عبارة كثيرة ما تقرؤها في سيرة «صاحب زمزم» التي هي ألد طعماً من تفاح الشام وهي أنه ما إن سمعت سيدة نسون قريش من «البائع» خبر لقائه

بملالك الرب فى غار حراء، وعودته إليها مذعوراً ترجم بوادره ويزحف على يديه ورجليه من شدة الفزع والخوف فما إن هدنته^(٥٤) ونومته حتى هرعت إلى اليهوسوب تقص عليه الخبر وفي رواية أخرى أنها اصطحبت «الفيلم» معها عندما هرولت إلى القدس، وسواء ذهبت منفردة أو بمعيته فإن الذي يهمنا هو أن أم هند فور سماعها الحكاية العجيبة أسرعت إلى ابن عمها أعلم المكين بالكتابين التوراة والإنجيل، وهذا ثابت بكل مصادر ومراجع السيرة المعطارة تقريباً بيد أنها نكتفى بالبعض منها^(٥٥).

نجترئ بهذا القدر من المصادر والمراجع وهي من ذوات الرتب العوالي في سيرة «الأبطحى» التي هي أطيب من ريح الخزامي وذلك منعاً من الإطالة ونقدمها ك مجرد مثال ولا نبغى الاستقصاء وهي جميعها سواء ما ذكرناه أو تركناه تقطع أن الطاهرة ما إن أحاطتها «أبوابراهيم» بلقائه بملالك في غار حرى حتى أرقلت^(٥٦) بأقصى ما تملك من طاقة لابن عمها وأخبرته بفلج التجربة فما حدث في الغار هو إعلام بنجاح «التجربة الكبرى» التي ظلت ترعاها لمدة سنوات طويلة.

وهذا اللجوء إلى القدس يشى بم坦ة الوشيعة وقوة الآصرة ووثافة العلاقة بين أم هند وورقة.

● ● ●

وبذلك اكتمل في حق القدس أمراً:
أ. علمه الغزير بالنصوص المقدسة.

ب . صلته الحميمة بهندوز التجربة التي غيرت وجه التاريخ في منطقة الحجاز وما حولها ونرجح أن تأثيرها سوف يستمر زمناً ما لم يحدث تثوير في ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ومن ثم يترقى الوعي في مجتمعاتها فينعتقون من أغلال الإسطار الذي خيم على عقول أفرادها منذ قرون طويلة.

● ● ●

وإذا أنا نعالج في هذا الفصل اليهوسوب نتملى في صورته وندقق في قسماته ونتعمق في ملامحه فلابد لنا أن نلم ولو إماماً سريعة بجانب على قدر من الأهمية وهو معرفته باللغة «اللسان» العبرية.

ولقد قلنا إماماً لأن هذا الجانب سوف يعرض بتوسيع مناسب في باب التجربة لما له من أهمية فيها.

ذكرنا في مفتتح هذا الفصل أنه ورد بصحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند أحمد بن حنبل أن القدس ورقة يكتب الكتاب العبراني وأنه ينقل من الإنجيل بالعبرانية إلى اللسان العربي، ولقد شرح ابن حجر العسقلاني ذلك الأمر وفصله بأن ورقة تعلم العبرانية كتابة ونطقاً «تعلم اللسان العبراني والكتاب العبراني وأنه تمكن من الكتابين واللسانين».

ذلك أنه حفظ التوراة والإنجيل غير ميسراً كما هو الحال مع القرآن. إذن نسخ أو نقل أو ترجمة ورقة لإصلاحات أو أبعاض التوراة والإنجيلحقيقة تواترت على حدوثها ثلاثة من العوالى من كتب التراث اثنان من الصحاحالست بالإضافة إلى مسند أحمد بن حنبل وغيرها من المصادر والمراجع الأخرى.

● ● ●

ويتكامل هذا مع ما أثبتناه أن سيدة نسون أهل الدنيا أتقنت القراءة والكتابة فإن القس لإنجاح التجربة دأب على مدحها بما قام بتعريبه وهي تقرأ على «المطبع» ويتولى هو بدوره تخزنه في ذاكرته ونذكر بأميته ومن ثم فهو يعتمد اعتماداً كلياً عليها.

● ● ●

واليعسوب لأصرته القوية بابنة عمه أخذ يعقد جلسات طوالاً يحضرها «الخاضع» وفيها ينجز ما يأتي:
أ. قراءة الإصلاحات والأبعاض التي نسخها ورقة من لغتها الأصلية «العبرية» إلى اللسان العربي ثم تفسيرها وتاؤيلها وإيضاح ما غمض منها.
بـ. أما ما لم يقم بتعريبه فإنه يترجمه مباشرة دون كتابته ويتولى شرحه وإيضاحه.

جـ. مدارسة المسائل التيولوجية التي تعتبر من القواعد الأساسية في كافة العقائد كالتي تتعلق بالألوهية والخلق وصلة المتعال بالآراضي والكائنات غير المنظورة مثل الملائكة والجن.. والخلق والتكون والكائنات... إلخ.
دـ. التحدث في شأن النبوة والأنبياء والوحى ووسائله.
هـ. العقاب والشواب والجنة والنار والموت والبعث والنشور والصراط والميزان.. إلخ.

وـ. المقارنة بين كافة الملل والنحل والديانات التي ماجت آن ذاك بها قرية القدس منها: اليهودية والنصرانية والمجوسية والصائبية، واستعراض عقائدها وشعائرها.

هذه بعض المواضيع التي لاشك أنها أثيرت في تلك القعدات^(٥٧). والتي من جانبها شكلت جزءاً من منهج الإعداد والتهيئة الذي هو كينونة التجربة.

● ● ●

ولقد فطن عدد من الباحث إلى التجربة وأنها استلزمت تمهيداً طويلاً ومعناه ثقيلة وإعداداً ممدوداً^(٥٨).

ولو أنهم لمحوا ولم يفصحوا وججمجو ولم يصرحوا وألغزوا ولم يبينوا: «إن هذا الحادث «حادث حراء» لم يكن حادثاً عارضاً من خوارق القدر بل

كان نتيجة لتمهيد طويل خلال سنوات.. على هذا الجبل حراء كان خاتمة التمهيد والتهذيب والإعداد...»^(٥٩).

والنكتة^(٦٠) هنا أن هيكلًا نقله إلى التجربة التي هي العمود الفقري لها الكتاب فقال إنها ليست حادثًا عارضاً من خوارق القدر أى أنها ليست من الماورائيات، فحادثة حراء استغرقت من التهذيب والتمهيد والإعداد سنوات وسنوات أى منذ أن نكحت سيدة نساء الدنيا «الختب» إلى لحظة ما حكاها عن لقائه ملائكة في غار حراء وهو ذات الملك الذي بشر الصديقة مريم بولادتها ليعيسى.

ويستطرد هيكل أن ما وقع في الغار كان خاتمة لكل ذلك من التمهيد والتهذيب والإعداد.

أما من الذي قام بها فهم بشر من البشر وناس من الناس إنما من هم؟ فقد ترك الباحث معرفتهم لذكاء القارئ وفطانته.

• • •

ثم جاء بعده ما يقرب من عشرين عاماً باحث ركب الموجة الإسلامية أو بلفظ أدق كثف من النكهة الإسلامية في كتاباته وهو حسين مؤنس وذكر كلمة «التجربة» تصريحاً ووصفها بأنها طويلة فقال:

«إن التجربة التي مر بها محمد بن عبد الله وتحول من بشر إلى نبي تجربة طويلة»^(١١).

وأكد أن «الشكار» كيما ينتقل من فتى هاشمى قرشي إلى المنتظر والمأمول والمرتقب استدعاى الأمر دخوله تجربة طويلة.

وإذ إن الشيء بالشيء يذكر فإن «محموداً» قبل أن يحظى بأن تتحجه خديجة لم يعرف عنه أى اهتمامات تيولوجي ولا توجهات دينية ولا قصود^(١٢) عقائدية، أما ما نسب إليه من ميل إلى العزلة فذاك يؤوب إلى شعوره الدفين بالبيت إذ مات أبوه وهو جنين، وفي رواية ابن أسحاق ثلاثة ثم أمه وهو في السادسة ثم جده حين بلغ الثامنة، وهكذا ذاق مرارة فقد الحانى والكافل ثلاث مرات في وقت قصير فكيف لا يشمله الإحساس بالعزلة ويميل إلى البعد عن الناس والاغتراب عن الجماعة.

إذن الدافع أو الباعث عائلى أو اجتماعى لا علاقة له بالدين ولا دخل له بالعقيدة ولا شأن له بالتىولوجى. فإن كل هذا عديم الصلة به ولم يبدأ انعطافه نحو الغيبيات والماورائيات إلا بعد أن نكحته الطاهرة وطجننته «أنضجته» في التجربة بحنكة انقطع ضربوها.

بيد أن كتب سيرة «الأشتبه» الأخلى من سكر الأهواز نفتحنا بمعطى ذى رتبة عالية يتquin علينا ألا نمر عليه مروراً عابرًا لأنه ذو دالة عميقه ومعنى بعيد فهو

«العطى» أشبه بالشفرة أو الرمز والأمارة أو الإشارة للدور الخطير الذي سيقوم به اليусوب ثم الهنوز تجاه «الحيي» في المستقبل.

وكان ورقة هو الذي وجد الطفل الرضيع محمدًا عندما تاه من مرضعته^(١٢).

والموسوعة الإسلامية الميسرة أجملت أو أوجزت هذه الأحداثة أما دواوين سيرة صاحب الخلق العظيم التي ريحها أجمل من ريح المطر «المجمرة» فقد أوردتها بقدر من التفصيل.

فقام عبد المطلب يدعو الله أن يرد «حفيده» عليه وأنشد:

يا رب رد ولدى محمدًا أرد ده ربى واصطعن عندي يدًا

فسمع هاتفًا من السماء يقول: أيها الناس لا تضجعوا إن محمد ربنا لن يخذله ولن يضيعه، فقال عبد المطلب من لنا به فقال: إنه بوادي تهامة عند الشجرة اليمنى، فركب عبد المطلب نحوه وتبعده ورقة بن نوفل فوجده عليه السلام تحت شجرة يجذب غصنا من أغصانها.. إلخ^(١٤).

أما محمد حسين هيكل فيروي الخبر بصيغة أخرى: (وعاد «محمد» بعد هذه السنوات الخمس.. ويقال إن حليمة التمسته وهي مقبلة به على أهله فلم تجده فأتت عبد المطلب فأخبرته أنه ضل منها بأعلى مكة فبعث من يبحث عنه حتى رده عليه ورقة بن نوفل فيما يروون^(١٥).

ورواية هيكل هذه أعمق تكثيفا لرمزية الدور الذي سوف يضطلع به اليوسوب في التجربة المبرورة، ولعل بعض الكلمات التي وردت في ثايا الخبر مثل: «ضل منها» بـ«أعلى مكة» إشارة إلى غار حراء. «من يبحث عنه» دلاله على التقدير عنه من بين فتيان مكة وشبابها حتى رده عليه ورقة كنایة عن الدور الخطير الذي قام به اليوسوب، ونكتفى بهذا العدد من المصادر والمراجع التي روت لنا تلك الواقعه.

ونحن لسنا بصدد تفنيد ما يقوله علم النفس الاجتماعي من أن الشعوب أو الجماعات تتسب إلى أبطالها الدينيين حكايا معجبة وقصصا خارقة في طفولتهم المبكرة مثل ما يقوله اليهود عن موسى من أن أمه وضعته في التابوت ثم ألقته به في اليم حتى رسا على ميناء قصر فرعون فاللتقطوه دون أن يغرسوا في مكان آخر ولم يجدوا له ظئرا سوى أمه وهكذا عاد إليها واطمأن فؤاده الفزع الفارغ.

والشعوب والجماعات عندما تضيف هذه الخوارق لأبطالها الدينيين تعنى من شأنهم وترفع مقامهم وتسمى بقدرهم.

ونحن لا ننفي هذا الرأي لسببين:

أولاً: لا يدخل في صلب بحثنا وجوه دراستنا.

وآخرًا: فإن «الأطيب» ليس في حاجة إلى مثل هذه المخارق إذ إنه أسمى مكانة وأعظم درجة وأجل موضعًا.

• • •

وهناك ملمح هام في ذات الخبر هو أن عبدالمطلب وجد حفيده تحت شجرة يجذب غصناً والشجرة لعبت دوراً متميّزاً في الديانات السامية سواء القديمة أو الكتابية وسوف نوضح ذلك تفصيلاً في موضعه إنما المثل السريع الذي يرد على الذهن أن مريم ولدت عيسى ابنها في ظل نخلة أمدتها بالرطب الجنى الغذاء الأمثل للنساء.

في هذا الخبر نجد أن القس ورقة عشر على أو ساهم في العثور على «الباء» بعد أن تاه من ظهره «مرضعته» حليمة السعدية فهل هذه الواقعة تحتوى على إشارة ضمنية إلى ما سينجزه «أى ورقة» في السنوات المقبلة مع «المؤمن» خاصة وأن بعض المفسرين وهم يفسرون ما جاء بسورة الضحى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهُدِيَّ﴾ ألمعوا إلى هذه الواقعة^(١٦).

• • •

وسواء صحت هذا التفسير أم اعتوره قدر من الشطط، فإنه مما لا مشاحة فيه أن هذه الأقصوصة وخاصة في شطرها الخاص بعثور اليهوسوب على «الظهور» انضمت على إحياء مكثف بالعمل الذي سوف يقوم به في الوقت المناسب.

• • •

ولعل مما لا يخفى على العين الفاحصة ما ورد في الخبر الأول من اشتراك آخر مع ورقة في هداية «العلة» إلى الطريق إلى قرية القدس أو أم القرى ونعني به الجد عبدالمطلب فهو هنا يمثل دور الهنوز أو سيدة نسون قريش لأنه بدون جدال سيد قريش على بكرة أبيها وقد جاء في باقي الخبر الأول أن الجد وضع الحفيد أمامه على الدابة وأخذ يهدده بكلمات تقipض حنواً وعطضاً مما يذكرنا بالأم الرؤوم فهو «الجد الحنون» أو هو «المعادل الموضوعي لها».

فما هو تفسير أن يعبر شخصان على «الأنفع» مع أن عبدالمطلب بمفرده كان كفيلاً أن يسرع إلى حفيده ويعيده إلى مستقره وبصيغة أخرى يهديه الطريق خاصة بعد أن أرشدهم الهاتف السماوي إلى مكانه.

ونورد عجز الخبر عساه أن يعاوض على إلقاء شعاع من الضوء يساعد على إبراز الجوانب الموحية فيه:

«فقال له جده: من أنت يا غلام فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب: قال: وأنا جدك فدتك نفسى واحتمله وعانته وهو يبكي ثم رجع به إلى مكة وهو قد أمه على قربوس فرسه ونحر الشياه والبقر وأطعم أهل مكة»^(١٧).

هنا نجد المعادل الموضوعي للطاهرة ونعني به الجد عبدالمطلب ينادي «الحبيب» يا غلام.. فدتك نفسى.. وعانته وهذا يذكرنا بالأم الرؤوم التي

أغرقت ابنها الزوج أو زوجها الابن بفيوض من الحب وطوفانات من الحنان.. ثم عاد به إلى مكة وهذا ما أشار إليه المفسرون بأنه ما جاء في الآية السابعة من سورة الضحى، ونمضي مع الآخر فنراه يقول: احتمله وعائقه واحتمال عبدالمطلب لـ«صفوة البشر» ومعانقته تأكيد للحب والحنان الذي ما فتئ يغدقه عليه وهو ذات ما دأبت سيدة قريش على عمله مع «الملئ»، ثم وضع الجد عبدالمطلب حفيده الأثير إلى قلبه على قربوس^(١٨) فرسه أى أمامه أو قدامه كما في الخبر، دلالة على تقديميه إياه على نفسه وهو سيد قريش تماماً مثل ما أن الطاهرة قدمت على غمر «المنوح» في التجربة فيما يتطور من الفتى الهاشمي القرشي إلى القاوم المنتظر، هو بدون أدنى جدال رفع لها ماته لا على هامتها هي فقط وهي سيدة قريش بل على هامات الناس جميعهم عربياً وأعاجم.

• • •

وفي ختام الخبر أو الأثر أن عبدالمطلب نحر الشياه والبقر وأطعم أهل مكة وهذا يذكرنا بصنعى أم هند عندنا تكرم عليها «حرز الأميّن» بإشارة الوفاق لها أن تباعله فاجتازت للوليمة^(٦١) بقرة من فورة فرحتها وشدة غبطتها وغاية بشرها كما أن عبدالمطلب عمه السرور عند لقيائه به فذبح الشاء والبقر. وقد أطلعوا صاحب السيرة الشامية على ما نحره عبدالمطلب «نحر عبدالمطلب عشرين جزوراً وذبح الشياه والبقر»^(٦٠).

• • •

وهذا القدر الوافر من الذبائح يشى بأن الجد شمله انبساط بالغ لعثوره على الحفيد محمد.

• • •

فهو «=الجد» قد وجده وجوداً مادياً . وهي «=خدیجة» قد اهتدت إليه اهتداءً معنوياً بنكاحها إياه وكلاهما انتابه شعور عارم ففرق عن طوره وبعد عن إلفه وفارق عادته.

فالالتقاء بطفل ضائع لا يقابل بمثل ما فعله عبدالمطلب والوليمة^(٧١) يكتفى فيها بجذر سخلة أو معزة إذ درجوا على أن يقولوا «أولم بشاة» كما سلف على للحنى وفي الحالين شاركهم الناس سرورهم وطعموا ما وزّهم إحساسهم الطاغي على نحره وتقديمه لهم.

• • •

يبد أنه ما دور اليусوب في هذه الأحداثة الموحية؟ ورقة قام بدور الصاحب والمعين والمعاضد للجد عبدالمطلب في ذهابه وإيابه ونلاحظ أنه لم يقدر على ذلك أحد من القرشيين لا من طرائفهم^(٧٢) ولا من إمهارهم^(٧٣).

أما في التجربة فهو قد أعاذه وساد أم هند بالإضافة إلى التوجيه والإرشاد

والاستاذية. وتبادر الدوران اللذان قام بهما اليهسوب وهذا أمر بديهي لاختلاف طبيعة الأمرتين ومرور زمن بينهما . فبالنظر إلى ورقة فهو قد تطور من قرشى يمتلك بقدر من الامتياز إلى قس هو أعلم أهل مكة بالتوراة والإنجيل . «ورقة كان على دين موسى وصار إلى دين عيسى أى كان يهودياً ثم صار نصرانياً»^(٧٤).

ورقة بن نوفل أسد بن عبد العزي .. أحد المتخنفين في الجاهلية الذين هجروا عبادة الأوثان ونظر ورقة في كتب النصارى وعلم ما فيها واستحكم في النصرانية وظل عليها وتوفي قبل مبعث النبي ﷺ بقليل^(٧٥). أما بالنسبة إلى «الصابرين» فقد تخطى مرحلة الطفولة إلى الصبا في الشباب وغدا محل تجربة من أخطر التجاريب التي شهدتها القرون الوسيطة . وخلاصة القول إن عمالة «وظيفة» ابن نوفل ظلت في جوهرها كما هي إنما الذي لا مشاحة فيه أن الخبر الذي حملناه مليء من إخلاص قدميه حتى شعر رأسه بالدلائل .

• • •

ومن المثير أن نلقى ولو حزمة من الضوء على المنزع الديني للإيسوب فهو في البدى انضم إلى الأحناف الذين هجروا عبادة الأصنام وما تبعها من طقوس مثل الذبح للأصنام واتجهوا بفطرتهم إلى التوحيد وإلى البحث عن ديانة إبراهيم الجد الأعلى للعرب الملقب بأكبر البطارقة» ومنهم من ظل عليها مثل زيد بن عمرو بن نفیل «عم عمر بن الخطاب» ومنهم من اعتنق النصرانية مثل أمية الذي ضمن شعره كثيراً من الألفاظ والمعانى التي جاءت في الكتاب المقدس ولو أن عدداً من البحاث ينكر حنيفيته استناداً على أن المصادر القديمة التي بها وردت أسماء الأحناف مثل ورقة وزيد العدوى وقس بن ساعدة لم تذكر أمية بينهم ومن هؤلاء الأحناف من اعتقد أنه سوف يغدونبياً وأبرزهم القس ورقة وأمية وكلاهما شاعر^(٧٦).

ونضيف أن ابن أبي الصلت هذا أمه قرشية من بيت عبد شمس من المؤابة العليا في قريش وأول أولاده اسمه القاسم ومن ثم كنى بأبي القاسم . وأخته الفارعة بنت أبي الصلت هي التي روت لـ«المذكي» بعد أن صدح بالديانة الإسلامية حياة وأخبار أمية وشعره، ويقال إنها في إحدى المرات أنسدته مائتى بيت وطفق يستزیدها ثم في الختام قال «آمن شعر أمية وكفر قلبك لأنه «أمية» رفض أن يسير تبعاً لـ«الأكرم» حسداً منه وحقداً عليه وسمى بكره «أول أولاده الذكور» القاسم وبه كنى تماماً مثل ما فعل «التفقي». «الفارعة بنت أبي الصلت وصفها ابن الأثير بأنها ذات لب وعقل وجمال، لما وضدت على النبي ﷺ استشدها أشعار أخيها وسألها عن أخباره وقال لها تحفظين من أشعار أخيك شيئاً فأنسدته فقال لها رسول الله ﷺ ما أطيب شعره سألك بالله أعيديه، فأعادته»^(٧٧).

وأميمة كالقس والطاهره يمثل الأنجلجنسيا الحجازية بيد أنه ليس له دور في حياة «الكامل» لنفوره من الدخول في دياته ويفدو من أتباعه لأنه في نظر نفسه أعلم منه بالكتاب المقدس وأنه متصل في علوم الأولين. وأمية من ثقيف وعاش في الطائف ومن ثم قلم يلزق به «أحمد» رغم صلة القربي الحميمة التي ربطهما من ناحية الأم، فأمية أمه قرشية من بنى عبد شمس أولاد عمومه بنى هاشم ومنافسيهم، بيد أن الذي لا مشاحة فيه أن كلاً من القس ورقة وأمية لم يتمتع بالشخصية الكارزمية «الأسرة» التي تهيمن من النظرة الأولى على المحيطين بها وتحولهم إلى تابعين أمناء لصاحب تلك الشخصية مثل «سعید» الذي تحدثنا سيرته التي هي أطيب ريشا من العود الصنفى كيف أن الرجل من أولئك وهو صديق وسيد مطاع في عشيرته ما إن يقابله حتى يستحيل إلى تابع مطيع ومسود سلس القياد.

● ● ●

طالعنا في دواوين السيرة المحمدية التي هي أطيب من ريح الخزامي عن شخصية «الصبور» القوية الأسرة وكيف أن أشخاصاً ملأ قلوبهم الحقد عليه والعداوة له ما إن قابلوه حتى غدوا من أخلص تابعيه ولمعرفة قيس من قوة شخصيته لنرجع إلى وصف أم معبد صاحبة الخيمة التي دخلها في رحلة النزوح «المهرة» إلى يثرب ومعه صاحبه التيمي ابن أبي قحافة وجاء فيه:

إذ صمت فعليه الوقار وإذا تكلم علاه البهاء.. له رفقاء يحفون به إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادروا إلى أمره.. أحستهم قدرًا لا عابس ولا مفند»^(٧٨).

ويبدو أن كلاً من ورقة وأمية بن أبي الصيل لم يتمتع بتلك الشخصيات الأسرة وتلك المناقب الجاذبة وبتلك الموهاب الآمرة . فأمية قد ركب رأسه وملاه الغرور وسيطر عليه الحقد وشجن وجدانه الحسد فأبي واستكبر وربما يزاد على ذلك فارق السن بينه وبين «النسيب».

والخلاصة أنه عاند وأبي أن يدخل تحت رايته.

أما القس فقد رضى بالأمر الواقع وازداد اقتتالاً به خاصة بعد أن نكحته خديجة فلم يفلت مميزات وصفات وخصائص كلها سام وشامخ مثل قوة فطرته وذكاء خاطره وثبات جنانه وفصاحة لسانه وحلمه وكرمه وصدقه ومروءاته فانبهر بشخصيته وشارك في خطوات صقله وإعداده وتهيئته وتصنيعه وتسويته حتى غداً ذاك الذي طال انتظاره.

كما أن «المحرَّض» امتاز بالفصاحة وطلاقه اللسان ون الصاعة البيان وقد قيل في هذا الجانب الكثير وفيما بعد حدث تبعه عن نفسه:

«أنا أفحص العرب بيد أنى من قريش ونشأت في بنى سعد بن بكر فأنى

يأتيني اللحن^٦.

وأممية وورقة رغم أنهما شاعران فلم يعرف عنهما شيء من ذلك إذ هما أمران مختلفان والشعر موهبة ذاتية أما الخطابة فهى موهبة برانية أى موجهة للمخاطبين.

وأدوات كل منهما مغايرة للأخرى. إذن كل من ورقة وأمية افتقر لصفتين مهمتين ولازمتين للقادم المنتظر: الشخصية الآسرة وموهبة الخطابة والتأثير في المخاطبين ومن هنا لم يقتضي لأى منهما النجاح في مسعاه لكي يجدوا الآتي المأمول والقادم المنتظر.

• • •

تأثير شعر القس ورقة بثقافته الكتابية ظهرت في قصائده أو مقطوعاته أو أبياته التي رويت عنه بصورة لا تخفي حتى على القارئ العادي فما إن يطالعها حتى يفطن للوهلة الأولى إلى ذلك ونكتفى بضرب مثل سريع: ببضعة أبيات أوردتها المصعب الزيبرى في «نسب قريش»:

أنا النمير فلا يغركم أحد فإن أبيتم فـة ولوا بيننا أحد رب البرية فـرب واحد صمد لا يبغى أن يسلوى ملـكـه أحد والـخـلـدـ قد حاولـتـ عـادـ فـما خـلـلـوا الـجـنـ والـإـنـسـ تـجـرىـ بـيـنـهـماـ الـبـرـ يبـقـىـ إـلـهـ وـيـرـدـيـ المـالـ وـالـوـلـدـ ^(٧)	لـقـدـ نـصـحـتـ لـأـقـوـامـ وـقـلـتـ لـهـمـ لـاتـعـبـلـونـ إـلـاهـاـ غـيرـخـالـقـهـ سـبـحـانـ ذـيـ العـرـشـ لـأـشـءـ يـعـادـهـ سـبـحـانـهـ ثـمـ سـبـحـانـاـ يـعـوـدـهـ لـمـ تـفـنـ عـنـ هـرـمـزـيـوـمـاـ خـازـئـهـ وـلـاسـلـيـمـانـ إـذـ أـدـنـىـ الشـعـوبـ لـهـ لـأـشـءـ مـمـاـ تـرـىـ تـبـقـىـ بـشـاشـتـهـ
---	--

فألفاظ مثل «النمير» و«إله» و«خلق» و«سبحانه» و«رب البرية» و«ذي العرش» و«واحد صمد» و«الخلد» و«عاد» و«سبحان» و«الجن» و«الإنس» و«لا شيء» تبقى بشاشته «يبقى إله»... ذات نكهة دينية لا يخطئها البصر أو البصيرة وقطع بمجرد إلقاء نظرة عليها أن قائلها صاحب ثقافة دينية عالية وهو ما أكدته المصادر التراثية جميعها:

شيخ كتاب السيرة المحمدية التي هي أحلى من عسل الموصل . والذى يعتبر عمدة مؤلفات هذه السيرة ونعني به ابن إسحق - يصف علم اليسوس بأنه كثير لأنه استحكم في النصرانية:

«فاما ورقة فتنصركم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا كثيراً من أهل الكتاب»^(٨).

• • •

«وقال المرزباني: كان ورقة من علماء قريش وشعرائهم وكان يدعى بالقس»^(٨١).

وسبق لنا أن أوردنا ما قاله في حق اليусوب كل من البخاري في «ال الصحيح» والبخاري ومسلم في «اللؤلؤ والمرجان» وابن حجر العسقلاني في «الفتح» والكلاغي في «الاكتفاء» وأحمد ابن حنبل في «المسنن» وابن هشام في «السيرة».

• • •

ولامية بن أبي الصلت شعر ينضح بالمذاق الديني، بل إن العبق الكتافي فيه يفوق ما في شعر الي Yusob إنما أمر أمية لا يدخل في سياق بحثنا إلا فيما يتعلق بمسألة توقع ظهور القادر المنتظر وأن زمانه أطل أو أظل.
قال أبو جعفر: «وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبر علماء كل أمة قومها بذلك...»^(٨٢).

العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبياً يبعث من العرب^(٨٣). إن هناك من توسم في نفسه أن يغدو هو القادر المنتظر مثل أمية والقس ورقة وأن الأخير عندما تيقن أنه لا يصلح لافتقاره إلى الصفات الجوهرية اللازمة اقترب بحسن اختيار الطاهرة وساهم معها في التجربة الفاذة وهي صناعة القادر المبارك وأشرف على الخطوات أو المراحل التي تقل فيهما «الطيب» حتى صار هو «القادم المنتظر» بكفاية يعز نظيرها إنما لتقديمه في السن خشى أن يموت قبل أن يرى المعجزة تتحقق فطفق يستعجل أم هند ولكنها لحكمتها وسعة أفقها ورجاحة عقلها لم تتوافق على التسرع وتمسك بحباب الصبر لأنها أدركت أن التجربة تحتاج زمناً حتى يقيض لها النجاح وهذا ما حدث بالفعل بصورة مذهلة.

وظل القس ورقة يؤدى دوره في التجربة حتى توفي وهنا حزن عليه «الأسوة الحسنة محمد» حزنًا بليغاً وأسى عميقاً وأسفًا شديداً حتى إنه هم مراراً بائن يتردى من رؤوس شواهد أجبل مكة وهو أمر بالغ الدلاله شف المعنى^(٨٤). غنى بالإيحاءات خاصة وأن دواوين السيرة الحمدية التي هي أطيب ريمات الزعفران قد وضعت بين أيدينا معطى في منتهى الخطورة هو أن وفاة القس تزامنت مع انقطاع الوحي أو فتوره، ونظرًا لارتفاع أهمية هذا الأمر وعلو قيمته وثقل ثمامنته فإننا كالعادة سوف نحاول على قدر مكنتنا توثيقه:

«ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزنًا غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال»^(٨٥).

«ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزنًا غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال»^(٨٦).

«... قال ورقة: لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك

أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي «سكن وانقطع» حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا فندا من أهله مراراً لكي يتربى من شواهد عوالي «جبل الحرم»^(٨٧).

«فلم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي حتى حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً حتى كان يذهب إلى رؤوس شواهد الجبال يريد أن يلقى بنفسه منها»^(٨٨). ومحمد بن عبد الوهاب هذا هو شيخ الوهابيين والذى تعاون هو والأمير محمد بن سعود على توحيد الجزيرة العربية تحت قيادة الأخير والتى تحولت فيما بعد إلى «المملكة العربية السعودية» وكاتب هذه السطور يكن للشيخ محمد بن عبد الوهاب قدرًا كبيراً من التقدير لمحاربته الأساطير والبدع والخرافات وكتابه هذا «مختصر سيرة الرسول ﷺ» فيهأمانة علمية وموضوعية تفتقر إليها غالبية إن لم نقل جميع مؤلفات الكتاب المحدثين الذين كتبوا في سيرة «المتبطل» التي هي أطيب رائحة من ورد جور^(٨٩)، ودليلنا أن الشيخ محمد عبد الوهاب أورد في كتابه هذا خبر الغرانيق العلى أو «الآيات الشيطانية»^(٩٠). ولم ينكروا أو يضيّبوا عليها كدأب الجهابذة المحدثين وإن الشيء بالشيء يذكر فإن ابن تيمية يقول بحدوث قصة الغرانيق ولا ينفيها وله بحث رائع في أخطاء الأنبياء أو البطاركة وتوبتهم وعصمتهم وابن تيمية شيخ محمد بن عبد الوهاب فكريًا وسار الأخير على خطاه وكلاهما ظلم وألصق به ما هو براء منه، ولو أن نصيب الشيخ محمد عبد الوهاب أوفى وأوفر لأن حربه ضد البدع والخرافات والتصوف الزائف أقسى وأوّعراً، وننوه أن أكثر من يكتب في الإسلاميات يعتمد للأسف على الشائعات ولا يقرأ ولا يدرس ولا يمحض بل إن أهم مصادره السمع ومن ثم فإن ما يسطره عن ابن تيمية ومحمد عبد الوهاب مصدره الأذن أى بالسماع، دون أن يكلف الواحد منهم نفسه قراءة سطر واحد مما كتبه هذان الشيخان وهو لعمق الحق أثر عميق. بعد هذه التفرعية ننوب إلى سياقه البحث.

● ● ●

حتى لا يمل القارئ تكرار الخبر في المصادر والمراجع نسرد فيما يلى ثباتاً ببعضها^(٩١):

إذ اقتران فتور الوحي بموت القدس أمر مؤكّد ولا يستطيع أن يماري أو يجادل فيه أحد بعد أن حملته إلينا هذه المؤلفات التي تلقتها أمّة لا إله إلا الله بالتجلة والاحترام، وكالعادة يحاول المؤلفون المحدثون أن يفصلوا بينهما أو أن يقدموا تعلّات واهية لقرن القدامى بينهما، ولعلها ليست مصادفة أن المصادر جميعها تورد «ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي» أى أن فتور الوحي لاحق لموت اليусوب.

في كلام صاحب الخميس في الصحيحين أن الوحي تتابع في حياة

ورقة^(١٢).

والسؤال الذى يرد على الذهن مباشرة: لماذا حزن «المكافى» هذا الحزن حتى إنه «غدا منه مراراً كى يتربى من رؤوس شواهد الجبال» وهو حزن لم يحزنه على أحد بعده ولا حتى على خديجة؟ صحيح أنه سمى عام وفاتها بعام الحزن خاصة وأنه اقترب بوفاة عمه وحامييه أبي طالب بيد أن دواوين سيرته التى هي أطيب من المسك لم تخبرنا أنه عقب وفاتها شرع فى إلقاء نفسه من رؤوس شواهد الأجل ولو مرة واحدة.

لعل الإجابة على هذا سؤال تلخص فى أن ذلك يدلنا على المكانة الرفيعة التى احتلها يعسوب فى عقل وقلب «صاحب الغطين» إذ إن من صفاتاته العظيمة شدة الوفاء لمن عرفهم كيف لا وقد جاء ليتمم مكارم الأخلاق ومن نعمته «صاحب الخلق العظيم».

والدور الذى لعبه القس فى حياته لو قام به فى حياة شخص آخر لكن له كل عرفةan فكيف بالمثل الأعلى فى الوفاء.

«وهو ورقة بن نوفل بن أسد القرشى وابن عم خديجة الذى شجع محمدًا ولعله أثر فيه فى السنوات الأولى من مبعثه»^(١٣).

هذه المعلومة التى أوردتها الموسوعة ملمح يشف عن فطانة بالغة الخطير من أن ورقة شجع «النصرى بالراسب شهرًا أو قريباً من شهر» وأثر فيه خلال السنوات الأولى، ما هى إلا ما أكدناه أنه يعسوب التجربة التى قادتها أم هند.

● ● ●

إنما بأى صورة عبر «سيد ولد عبد مناف» عن وفاته وامتانه للقس ورقة؟ تم ذلك فى أروع هيئة يتمناها أى تابع من تبعه لنفسه: الجنـة «عن الزهرى عن عروة عن عائشة. سئل رسول الله عن ورقة فقالت خديجة: إنه كان صدقاً أنه مات قبل أن تظهر، فقال رسول الله ﷺ: أربته فى المنام وعليه ثياب بيض ولو كان من أهل النار لكان عليه لبس غير ذلك»^(١٤).

«عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ساب أخ لورقة رجلاً فتناول الرجل ورقة فسبه فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لأخيه: هل علمت أنى رأيت لورقة جنة أو جنتين فتهى رسول الله ﷺ عن سبه»^(١٥).

وفى رواية أبصرته فى بطان الجنـة وعليه السنديس. وفى رواية أخرى قد رأيته عليه ثياب بيض وأحسبه أى أظنه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض.

«وفى رواية: لا تسربوا ورقـة فإنى رأيت له جنة أو جنتين لأنـه آمن بـى وصدقـى وقد جزم ابن منير بإسلام ورقة»^(١٦).

وليس ثمة تعبير بالوفاء والعرفان والامتنان أروع من الذى صدر من «صاحب لواء الحمد». .

الهوامش

- (١) القاموس المحيط: للفيروز أبيادى.
- (٢) الموسوعة الإسلامية الميسرة: أشرف على تحريرها نيابة عن الأكاديمية الهولندية هـ.أرب، وج هـ.كا. ترجمة د. راشد البراوي، الجزء الأول، ص ٣١٣-٣١٤، طبعة ١٩٨٥ مـ الأنجلو المصرية.
- (٣) عيون الآخر: ابن سيد الناس، الأول، ص ٨٥ سابق.
- (٤) طائر له صوت جميل ويفني الحاناً بديعة.
- (٥) موسوعة أمهات المؤمنين: عبد الصبور شاهين وأخرى ص ٧٥.
- (٦) عيون الآخر: ابن سيد الناس، الأول، ص ٤٩ وما بعدها.
- (٧) الوفا بأحوال المصطفى: ابن الجوزي، الأول ص ١٤٤.
- (٨) السيرة النبوية: لأن هشام تحقيق السرجاني، ص ١٩٣، الأول.
- (٩) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي.
- (١٠) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، الجزء الأول، الحديث الثالث، كتاب بدء الوحي، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ، الناشر المطبعة السلفية بمصر.
- (١١) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، الأول، ص ٣٤ سابق.
- (١٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيوخان: الحديثان، ٩٩، ١٠٠، ص ٢٢-٣٤، الطبعة الصينية.
- (١٣) الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء: للكلاعي، الجزء الأول، ص ٢٦٦ سابق.
- (١٤) مسند أحمد بن حنبل، الحديث ٤٤٣، ص ١٢١ - ١٢٢.
- (١٥) مسند أحمد بن حنبل: الحديث ص ١٢٢ - ١٣٣.
- (١٦) تاريخ الصحابة والتابعين: حمزة التشرتى وأخر، ص ٢٠ - ٢١، المجلد الأول، د.ت.دن، مصر.
- (١٧) السمسط الشين: للمحب الطبرى، تحقيق حمزة التشرتى.
- (١٨) كورة من كور فارس مخصوصة بالورد الذى لا أطيب منه.
- (١٩) سيرة ابن هشام: تحقيق السرجاني، الأول ص ٢٤٦ - ٢٤٧.
- (٢٠) في القاموس المحيط: خريق العمل أفسده.
- (٢١) اللوذعى: الذكي كأنه يلذع بلسانه من كتاب «مختصر العين» لأبى بكر الزبيدى الأشبيلى، تحقيق وتقديم صلاح مهدى الفرطوسى، الجزء الأول، ص ٢٢٧، الطبعة الأولى ١٩٩١ مـ، سلسلة خزانة التراث آفاق عربية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
- (٢٢) حياة محمد: هيكل، ص ١٤٥.
- (٢٣) عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية: لحسنى يوسف الأطير، ص ٤٧، الطبعة الأولى ١٩٨٥ مـ، الناشر دار الأنصار بمصر.
- (٢٤) المصدر السابق، ص ٤٨.
- (٢٥) فقه السيرة: لمحمد الغزالى، ص ٨٨، الطبعة الثامنة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ مـ، دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عفيفي عامر، القاهرة.

- (٢٦) الأطير، ص ٤٨.
- (٢٧) السابق ص ١٤٢.
- (٢٨) موسوعة آباء الكنيسة، المجلد الأول، ص ص ٢٢٧ - ٢٢٨.
- (٢٩) الهرطقات النابعة من اليهودية أولاً، الأبيونيون والناصريون، المحرر المسؤول عادل فرج عبد المسيح، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، عن دار الثقافة بالقاهرة.
- (٣٠) دائرة المعارف الكتابية، الجزء الأول، ص ٥٥، المحرر، وليم وهبة، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، دار الثقافة بالقاهرة.
- (٣١) المسيح - س. بين الحقائق والأوهام: تأليف د. محمد وصفى، مراجعة وتقديم على الجوهرى، ص ٤١، د.ت.ن، صدر عن دار الفضيلة بمصر.
- (٣٢) إظهار الحق: للشيخ رحمت الله بن خليل الهندي، ص ١٨٢، ١٢٠٩هـ المطبعة الخبرية، نقلًا عن «عوائد النصارى الموحدين» الأطير ص ٢ السابق.
- (٣٣) عوائد النصارى الموحدين: الأطير، ص ٢٩.
- (٣٤) المصادر السابقة ص ٥١.
- (٣٥) سورة النساء الآية: ١٧١.
- (٣٦) سورة المائدة: الآية ١٧ والآية ٧٢.
- (٣٧) سورة المائدة: ٧٥.
- (٣٨) سورة مريم الآية: ٣٠.
- (٣٩) سورة مريم من الآية: ٣٤، ٢٥.
- (٤٠) في رأي الدكتور محمد وصفى صاحب كتاب «المسيح - س. بين الحقائق والأوهام» السابق ذكره أن عدة الأنجليل ٢٧ إنجليلًا تتساوى عند المذاهب المسيحية في التقدير، ص ٤٢، ١٤٢هـ.
- (٤١) المسيحية: أحمد شلبى، ص ١٥٣ من الطبعة الثانية، نقلًا عن «تاريخ القرآن» لعبد الصبور شاهين، ص ٢٤٢، من الطبعة الثانية، مصدر سابق.
- (٤٢) عوائد النصارى الموحدين: الأطير، ص ٥١.
- (٤٣) في القاموس المحيط: لفيروز أبادى، الداھل: المترجم وكذا في «المعجم الوجيز».
- (٤٤) حياة محمد: لمحمد حسين هيكل، ص ص ١٥١ - ١٥٢، سابق.
- (٤٥) خرف الرجل «بالخاء لا بالقاف»: فسد عقله لكبره «المصباح المنير» للفيومى و«مختر الصلاح» للرازى و«المعجم الوجيز» لمجمع اللغة العربية و«المختار من صالح اللغة» أما العامة فى مصر فتطلق «التخريف» على الكلام الفسيد ولا تربطه بالكبير وهذا ما نقصده أ.هـ.
- (٤٦) محمد رسول الله: لناصر الدين آتبين وينيه وسلیمان بن ابراهیم ترجمة الشیخ عبدالحليم محمود وابنه الشیخ محمد، ص ١١٠، ط اولى ١٩٧٩م، دار المعارف بمصر.
- (٤٧) على هامش السيرة: لطه حسين، الثاني، ص ١٧٢ وما بعدها.
- (٤٨) الرسول في رمضان: لمحمد حسن الخربوطلى، ص ٢٠.
- (٤٩) الرسول ﷺ: ملحوظات من حياته ونفحات من حياته: للشیخ عبدالحليم محمود، ص ص ٧١ - ٧٨، الكتاب الأول من سلسلة البحوث الإسلامية الطبعة الأولى ربیع أول ١٤٨٩هـ، ١٩٦٩م، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، مصر.
- (٥٠) مجلة الأزهر: الجزء الثاني، السنة الحادية والسبعين، صفر ١٤١٩هـ، يونيو ١٩٩٨م، ص ٢٦٩.
- (٥١) السيرة النبوية: للندوى ص ٨٣ سابق.
- (٥٢) حجۃ اللہ علی العالیین من معجزات سید المرسلین: للتبهانی، ت ١٢٥٠، المجلد الأول، ص ٣٨، تحقيق حمزة النشرتی وآخرين، د.ت.ن. د.ن. القاهرة، وبالمثل «السيرة النبوية» لابن إسحق الأول ص ١٩٣، طبعة أخبار اليوم.
- (٥٣) المصدر السابق ذات الصفحة.
- (٥٤) هدى الصبغى: أسلكته وأرضاه من «القاموس المحيط» للفيروز أبادى و«أساس البلاغة» الثاني،

للزمخشرى، سابق.
(٥٥) أولاً المصادر:

١. صحيح البخارى: كتاب بدء الوحى.
 ٢. السيرة النبوية: لابن إسحاق الأول، ص ١٩٢ طبعة أخبار اليوم.
 ٣. فتح البارى: لابن حجر السقلاوى، الجزء الأول، ص ٣٤ سابق.
 ٤. السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٣٩٥ سابق.
 ٥. الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١٧٩، سابق.
 ٦. تاريخ الإسلامى: للذهبي الأول، ص ٥٩ سابق.
 ٧. الاكتفاء: للكلاغى، الأول، ص ١٥٢ سابق.
 ٨. الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول ص ٢١٤.
 ٩. السمعط الشين: المحب الطبرى، ط النشرتى، ص ٤١.
- ثانياً: المراجع:**
١. الرحيق المختوم: للمبارك فورى، ص ٥٩ سابق.
 ٢. حياة محمد: لهيكل، ص ١٥٢ سابق.
 ٣. موسوعة أمهات المسلمين: عبد الصبور شاهين وإصلاح عبد السلام الرفاعى، ص ٨١، سابق.
- (٥٦) الإرقال: ضرب من العدو السهل. من الباب الرابع والستين فى أسماء السير، ص ١٩١ من كتاب «نظام الغريب فى اللغة» تأليف عيسى الرباعى الوھاطى الحميرى، تحقيق محمد الأکوع الحالى، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م، دار الأمون للتراث، دمشق، بيروت.
- (٥٧) فى المصباح المنير: القعدة بالفتح، المرأة وبالكسر، الهيئة، وفى المعجم الوسيط: القعدة، الجلة، والعديد المجالس.
- (٥٨) أساس البلاغة: للزمخشري ظل ممدود وممتد.
- (٥٩) فى منزل الوحى: لمحمد حسين هيكل، ص ٢٤٢، الطبعة الرابعة ١٩٦٧ م، مكتبة التهضة المصرية، القاهرة.
- (٦٠) فى المعجم الوجيز: النكتة - المسألة العلمية الدقيقة يتوصل إليها بدقة وإنعام فكر.
- (٦١) دراسات فى السيرة النبوية: د. حسين مؤنس، ط ثانية، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، الزهراء للإعلام العربى، مصر.
- (٦٢) قصور جمع قصد وفى «المعجم الوسيط» قصد له وإليه - توجه إليه عامدًا، وفى «أساس البلاغة» وإليك قصدى ومقصدى.
- (٦٣) الموسوعة الإسلامية الميسرة: ترجمة وتحرير راشد البراوى، ص ١٢٢٧، مرجع سابق.
- (٦٤) سيرة ابن هشام: الأول، ص ١٩٣ مصدر سابق.
- (٦٥) السيرة الخلبية: الأول، ص ١٥٤، مصدر سابق.
- (٦٦) السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧٥، مصدر سابق.
- (٦٧) حجة الله على العالمين من معجزات سيد المرسلين: للتبانى، الجزء الأول، ص ٤٧٩، سابق.
- (٦٨) حياة محمد: لمحمد حسين هيكل، ص ١٢٩، الطبعة الحادى عشرة ١٩٧١ م، دار المعارف بمصر.
- (٦٩) حجة الله على العالمين: للتبانى ذات المصدر وذات الصفحة.
- (٧٠) المصادر السابق ذات الصفحة.
- (٧١) الوليمة طعام المرس.
- (٧٢) تقول العرب هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم للرجال الأشراف من «المذكر والمؤنث» لأبى بكر الأنبارى، سابق.
- (٧٣) الإمرأ هو الرجل الضعيف الذى لا عقل له والأحمق «تهذيب اللغة» لأبى منصور الأزهري ٢٨٢

- ٢٧٠ هـ، الجزء الخامس عشر تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى ١٩٦٧/١٢٨٧ م، الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، وزارة الثقافة مصر.
- (٧٤) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٢٨.
- (٧٥) سيرة ابن هشام: ص ٢٢٤، ط الأنوار المحمدية هامش ٣٢، من «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» مصدر سابق.
- (٧٦) يتصرف من كتاب «أميمة بن أبي الصلت حياته وشعره» دراسة وتحقيق بهجة عبدالغفور الحديثي، من ص ٥٦ - ٦٢، الطبعة الثانية ١٩٩١ م، سلسلة خزانة التراث، دار الشئون الثقافية العامة ووزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
- (٧٧) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: ص ٣٥٧، نقلًا عن كتاب «حياة الصحابيات» حمزة النشري وأخرين ص ٢٧٢، طبعة ١٩٩٩ م، الناشر: حمزة النشري، القاهرة.
- (٧٨) انظر الخبر مطولاً في جميع دواوين السيرة المشرفة.
- (٧٩) كتاب نسب قريش: للمصعب الزبيري، ص ٢٠٨، مصدر سابق.
- (٨٠) السيرة النبوية: لابن إسحاق، الأول، ص ١٨٧.
- (٨١) فتح المبدى شرح مختصر الزبيدي: الثاني، ص ٢٩٥، «إِمْتَاعُ الْأَسْمَاعِ»: للمقربيزي، الأول، ص ٨٥ سابق.
- (٨٢) تاريخ الطبرى: الثاني، ص ٤٤٢، «إِمْتَاعُ الْأَسْمَاعِ»: للمقربيزي، الأول، ص ٣٨.
- (٨٣) الطبقات الكبرى: لابن سعد، ويقال ثوب شف - من المعجم الوجيز.
- (٨٤) الشف: ستر رقيق يستشف ما وراءه ويقال ثوب شف - من المعجم الوجيز.
- (٨٥) مستند أحمد: الحديث ٤٤٢، ص ١٢١، الجزء الأول، دون تاريخ، إدارة المصنفين طبعة مطبعة النصر، سربوة باكستان.
- (٨٦) الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزى، ص ١٦٣.
- (٨٧) أخرجه أى البخارى ومسلم من ١٧ «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» محب الدين أحمد الطبرى، طبعة ١٩٨١ هـ/١٤٠٢ م، مكتبة الكليات الأزهرية.
- (٨٨) مختصر سيرة الرسول ﷺ: لمحمد بن عبد الوهاب بمقديمة بقلم محمد حامد الفقى ١٢٧٥ هـ/١٩٥٦ م، ص ٥٧ طبع على نفقته عبد الرحمن بن الشيخ محمد بن عبد اللطيف د.ت، الطبيعة اليوسفية بمصر.
- (٨٩) جور كورة من كور فارس مخصوصة بالورد الذى لا أطيب منه.
- (٩٠) المصدر السابق، ص ٦٣.
- (٩١) الخصائص الكبرى: الأول، ص ٢١٤.
- الجامع لأحكام القرآن: ص ٧٢٠٨ من ٧٧ - ٨٦.
 - الدر النظيم: الأول، ص ٢١٥، النشرى وآخرون.
 - فتح المبدى شرح مختصر الزبيدي: الثاني، ص ٧٧ - ٨٦.
 - محمد رسول الله ﷺ: لمحمد رضا، ص ٦١.
 - فقه السيرة: لمحمد الغزالى، ص ٩٢ وما بعدها.
 - السيرة الشامية: الثاني، ص ٣١٦ - ٣٢٠.
 - دراسات فى السيرة النبوية: لحسين مؤنس، ص ٧٦.
- (٩٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٦ - ٤٠٧.
- (٩٣) الموسوعة الإسلامية الميسرة: بإشراف هـ.أـ.رـ.جـ.بـ.هـ. كالموز ترجمة دـ. رـاشـدـ الـبـراـوىـ، المـجلـدـ الثانيـ، صـ ١٢٣٧ـ، طـبـعـةـ ١٩٨٥ـ، مـكتـبةـ الأنـجـلـوـ المـصـرـيـةـ، القـاهـرـةـ.
- (٩٤) ص ٤٤٧.
- (٩٥) أسد الغابة فى معرفة الصحابة: لابن الأثير الجزري، تحقيق دـ. محمد إبراهيم البنا وآخر، المـجلـدـ الخامسـ، صـ ٤٤٧ـ - ٤٤٨ـ، طـبـعـةـ الشـعـبـ دـ.تـ.
- (٩٦) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٢.

الفصل الخامس

موجبات الاختيار

موجبات الاختيار

أثبتنا أن الطاهرة خديجة من الصفوة في قريش وأنها حازت ثقافة دينية لم تتح لغيرها من النساء في القبيلة بل من الرجال، وتمكنست صلتها بنفر من الذين وصلوا إلى درجة رفيعة ورتبة عالية ومكانة مرموقة في سلم تلك الثقافة وأملاً سمعها «قالة» قرب ظهور القادر المأمول في العرب ومن ثم تعين أن يغدو من أهل الحرم وجيرة البيت العتيق الذي بناه إبراهيم أبو البطارقة - تلك القالة التي أجمع عليها رؤساء شئون التقديس فيسائر الملل والنحل والعقائد والأديان.

• • •

وبما لها من فطانة وزكارة وسعة أفق وسلامة فطرة وقوه بصيره وبعد نظر فقهت أن هذا الآتي لابد أن يتميز عن أقرانه وبختلف عن لداته ويفاير أنداده. وهذا الاختلاف أو التباين أو التمايز لا يأتي فجأة ولا يظهر بغتة ولا يرتفع على غرة بل يتدرج ويتأتي ويتر محل والعين بصيره والعقل المفتح والذكاء اللماح هو الذى يلحظه ويلقطه ويهتم به.

سيدة نسوان قريش ندية لامنة بنت وهب «أم محمد» وأخبرتنا بنت الشاطئ أنها على صلة حميمة بها ولا غرابة فكتاهما تؤوب إلى بطن سامق وإذا صح ذلك وهو صحيح فإن عمر الطاهرة على أبعد الفروض بلغ الخامسة عشرة عاماً لأن الجارية في ذيak الزمان المعجب تتزوج في ما بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة وحملت آمنة به فور التقائهما بزوجها عبد الله بن عبد المطلب . كما أن كتاب السيرة الحمدية التي هي أعلى من تفاح الشام يجمعون على أن الفارق في العمر بين الطاهرة و«سيد البلقاء» خمسة عشر عاماً ولو أنها ارتفعنا به إلى خمسة وعشرين.

ومع التسليم الجلى أن الفرق هو خمسة عشر عاماً فمن يبلغه يدرك ويع جميع ما يدور حوله فضلاً عن أن مكة قرية محدودة المساحة ضامر الكثافة السكانية والمستوطنون فيها شبكتهم قرابة متينة وهم أميون ليس لديهم ما

يشغلهم سوى لوك الكلام بين النسوين أما بين الفحول ففي دار الندوة أو في المجالس بالمنازل - وليس أكثر مداعاة للكلام من حوادث الميلاد والوفاة.

أما بالنسبة لـ «صاحب التاج» فقد بدأت دوافع الحديث عنه قبل مولده بأعوام طوال. ومشهورة واقعة نذر عبدالمطلب ذبح أحد أبنائه لو بلغوا عشرة بعد أن تعرض هو وأبنته الوحيد آنذاك الحارث لرذالة سفهاء قريش وهو يقوم بحفر المضئونة أو برة أو زمزم كما أمره الهاتف في الرؤيا وهو ينام في حجر إسماعيل في حصن الكعبة وعلم الاجتماع الدينى يخبرنا أن النوم بجوار أماكن القداسة يفرز أحلاماً ورؤى تتسم بمسحة قد سانية وتتضمن بعقب دينى ثم وقع الذبح على سهم عبدالله «أبي محمد» فتم فداءه بمائة من الإبل، هذه الأحداثة ولو أن بعض المستشرقين ذهب إلى أنها ابتدعت بآخرة ليضاهوا بها شروع إبراهيم في ذبح ابنه إسحاق ثم افتداوه بكبش أملح أقرن أتى به ملاك الرب جبرائيل من الجنة.

● ● ●

وهناك أقصوصة أخرى أو أقصوصتان آخرتان وهما تعرض مرتين هما قتيلة بنت نوقل وفاطمة بنت مر الخثعمية لعبدالله «أبي محمد» ليركبهما كيما ينتقل النور الذي في جبينه «نور النبوة» إليهما وتعطيانه مائة من الإبل «مثل النذر» ولكنه امتنع.

إن هم عبدالمطلب بنحر عبدالله وفاءً لنذرها وافتداه بالإبل لاشك أنها قصة صكت مسامع خديجة لأن بنى مخزوم أخوال أبي «المدثر» عارضوا جده عبدالمطلب وثارت لهذا الشأن مشاحنات حتى رضى عبدالمطلب بتحكيم كاهنة يثرب. وكذا إغراء هاتين المرأةتين لوالد «الصابرين» لا مماراة في أن الطاهرة علمت به خاصة فاطمة الخثعمية لأنها حستاء حلوة ملاحة يتعلق حولها شباب قريش يتحدثن معها ليتملوها جمالها وليس متمنوا ببهائها فعندما يعودون لدورهم يحكون أمورها ومن بينها محاولتها الخائبة مع عبدالله وتنقل الحكايات من بيت لآخر حتى تصل دار خوبيل بن أسد فتسمعها ابنته الذكية الفطنة خديجة. ولشهرة هذه الأقايس تصافلا لزوم للخوض فيها خاصة وأننا فيما سبق تناولنا ما بدر من قتيلة الأسدية وفاطمة الخثعمية من زوايا أخرى.

● ● ●

يبقى سرد الواقع السابقة على الميلاد الشريف والتي بالضرورة لفتت الأنظار وشدت الانتباه وليس معنى ذلك أن سيدة نساء الدنيا عندما أحاطت بها خبراً أدركت أن صاحبها هو القادر المأمول ولا حتى في حينه علمت بمسألة «المنتظر» وضاحت بينه وبين بطل تلك الأمور المعجزات.

هذا شطط في التفكير وهرولة في الاستنتاج بل يمكن أن يدعى أنه تركيب

للأمور القوادم على الشئون السوابق للوصول إلى الهدف المبتغي والقصد المرسوم والغاية المرجوة، ونحن أبعد من ذلك كله إنما الذي نقرره أن هذه المعجبات التي سوف نسردها قد مرت على أم هند ووعتها وخزنتها في ذاكرتها ودستها في ملكتها الحافظة وتغلغلت في أعماق لا شعورها وحين طفت تتبه إلى فكرة القadam أو المأمول أو المنتظر طفت إلى السطح ومرقت من الأعماق وخرجت من الأغوار، فساعدتها على التثبت وعارضتها على التأكيد وعاونتها على الاستيقاظ أن سيد المعجزات اللواحق هو نفسه بطل الخوارق إذ إن اجتماع النوعين في شخص واحد قرينة مؤكدة وللليل دامغ وحجة ماضية على دقة الحدس وصدق الفراسة وجودة التخمين.

● ● ●

وعسى الوقت قد حان لنطرح أمام باصرة القارئ بعضًا من شواهد.

خوارق قبل الولد المبروك:

«أخرج أبو نعيم من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي الجهم عن أبيه عن جده قال: سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال: بينما أنا نائم في الحجر رأيت رؤيا هالتى ففزعني فزعًا شديداً فأتيت كاهنة قريش فقلت لها إنِّي رأيت الليلة كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء وضرب بأغصانها المشرق والمغارب وما رأيت نورًا ظهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفًا ورأيت العرب والعجم ساجدين فهى تزداد كل ساعة عظيماً ونورًا وارتفاعاً ساعة تخفى وساعة تظهر ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم أر أحسن منه وجهًا ولا أطيب منه ريحًا فيكسر أظهرهم ويقطع أعينهم فرفعت يدى لأتناول منها نصيباً فلم أتل فقلت لمن النصيب؟ فقالوا: النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها فانتبهت مذعوراً فزعاً، فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ثم قالت: إن صدقت رؤياك ليخرج من صلبك رجل يملك المشرق والمغارب ويدين له الناس ثم قال لأبي طالب: لملك أن تكون هذا المولود.

فكان أبو طالب يحدث والنبي ﷺ قد خرج يقول: كانت الشجرة والله أبا القاسم الأمين، فيقال له: ألا تؤمن به؟ فيقول: «السبة والعار»^(١).

١- عبد المطلب رأى هذه الرؤيا وهو نائم في الحجر بجوار الكعبة وعلماء الأنثروبولوجيا الدينية يذهبون إلى أن الأماكن المقدسة تبعث في نفوس من ينامون بحرموا رؤى مهولة تقول دائمًا على أنها تنبؤات أو أمور مستقبلية تتعلق بمعتقدات النائم أو الحالم فالذى لا شك فيه أن عبد المطلب ممن كانوا يؤمنون بقرب ظهور نبى أو مبعوث أو نذير... إلخ.

نذكر هنا أن الرؤيا الخاصة بحفر بئر زرمزم أوهى الرؤى لأنها تكررت عدة

مرات رأها عبدالمطلب وهو نائم في الحجر بجوار الكعبة وكلاهما «الحجر أو حجر إسماعيل» والكعبة، مكانان مقدسان بل أشد الأماكن قداسة قبل الإسلام وفي الإسلام.

٢. ذكر عبدالمطلب في رؤياه أن النور الذي انبثق من الشجرة أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً مما يقطع بقداسة الرقم سبعة قبل الإسلام، وهذا ميراث من الديانات السامية القديمة السابقة على الديانات السامية الكتابية.

٣. كان عبدالمطلب أحد الحنفاء وكان يتحصن في غار حراء في شهر رمضان ويطعم المساكين وكان على صلة بأهل الكتاب «اليهود والنصارى» ومن ثم كان يأمل أن يأتي النبي أو المبعوث أو النذير المنتظر من صلبه.. ولاشك أن الكاهنة قد عرفت عنه ذلك ومن ثم فإنها بشرته به.

٤. الذي لا مشاحة فيه أن هذه الرؤيا المهمة قد فشا أمرها بين أبناء قبيلة قريش بسائر أفخاذها وعلمها جميعهم.

● ● ●

قيل: والذى دعا عبدالمطلب لاختيار آمنة من بنى زهرة لولده عبد الله أن سودة بنت زهرة الكاهنة وهى عممة وهب والد آمنة أمه عليها السلام «وقد كانت كاهنة قريش قالت يوماً لبني زهرة: فيكم نذيرة أو تلد نذيرًا فاعرضوا على بناتكم فعرضن عليها فقالت في كل واحدة منهن قولًا ظهر بعد حين وحين عرضت عليها آمنة بنت وهب فقالت: هذه النذيرة أو تلد نذيرًا له شأن وبرهان منير»^(٢). كاهنة أو إحدى كاهنات قريش طلبت عرض جواري «الجارية الفتاة الصغيرة التي على وشك النكاح أ.هـ» بطن زهرة عليها فعلوا فلما استعرضت آمنة «أم محمد» أكدت أنها النذيرة أو تلد نذيرًا له شأن وبرهان، وصلة رهط بنى أسد بفرع بنى زهرة وثيقة لأنهما من الذوابة العليا من قريش، كما أوردنا رأى د. عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» أن هناك تالفاً بين «أم صاحب النعلين» وبين سيدة قريش، فالأخيرة الحال هكذا نمى إلى علمها هذا الخبر إما عن طريق صلة الرهطين المتينة أو أن أم محمد أسرت به إلى صديقتها خديجة باعتبار أنه أطروفة^(٣).

وعلى كلا الفرضين فإنها علمت به.

● ● ●

«روى البيهقي وأبو نعيم عن ابن شهاب - رحمـ . قال: كان عبد الله «أبو محمد» أحسن رجل رئي قط، خرج يوماً على نساء قريش فقالت امرأة منهن أينكن تتزوج بهذا الفتى فتصطب تسكب وتتدخل» النور الذي بين عينيه فإنى أرى نوراً بين عينيه . فتزوجته آمنة بنت وهب»^(٤).

اشتهر عبد الله بن عبدالمطلب بجماليه الفائق وحسناته البارع وبهائه الباهر

وأحرق قلوب عذارى وأيامى قريش وكل واحدة منهن تمنت أن تتكحه ولما خطب
آمنة بنت وهب من بنى زهرة حزن حزناً فاجعاً.

ورث عنه «ذو الميس» طلاقة وجهه وحلاؤته ووسامته وقسamtah وألمح عدد من
كتاب سيرته التي هي أطيب ريحًا من الورد البلدى إلى أن هذا هو السبب فى
استماتة الطاهرة لتكحه وتغدو له بعلاً وهذه طفاسة فى الرأى^(٥) وعوج فى
التفكير وركس فى الاستبطان^(٦).

وما صرحت به تلك المرة من أنها رأت بين باصرتى «عبدالله أبى محمد»
نوراً سمعه جمع من نسون قريش وبدهى أن من شهدته منهن حكته لم
تحضره لأن النساء فى كل زمان ومكان خاصة فى البيئات شبه المتبدية لا شغل
لهن إلا الحكى... وكذا حثها أو وهزها^(٧). للذرراوات أو الأيامى لمباولة عبدالله
«أبى البهى» أمر غير معهود مما يزيد الخبر انتشاراً فيستحيل أن يخنس عن
اذنى أم هند^(٨).

● ● ●

«فى طبقات ابن سعد . رحم . عن ابن عباس: أن نساء من أهل مكة اختلفوا
فى عيد كان لهم فى رجب لم يتركوا شيئاً فى إكباد ذلك العيد إلا أتىئه . وبينما
هن عكوف عند وثن لهن مثل كرجل أو فى هيئة رجل حتى صار منهن قريباً ثم
نادى بأعلى صوته: يا نساء تيماء إن س يكن فى بلدك نبى يقال له أحمد يبعث
برسالة الله تعالى فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فتفعل . فحسبن
النساء وقبحنle وأغلظن له وأغضبت خديجة - رضى الله عنها - على قوله ولم
تعترض له فيما عرض فيه النساء»^(٩).

لم نستطع أن نتأكد من سياق الخبر: هل ما وقع فى ذلك العيد قبل المولد
المحمى المبارك أم بعده إذ ربما حدث «فاتح الكنوز» قد ولد بيد أتنا الحقناه
بالواقع السابقة على ميلاده الشريف لمساكلته لما تقدمه من حيث حضه نسوة
مكة على مناكحته . وأهمية الخبر الشديدة تكمن فى نصه على شهود خديجة
وسماعها بنفسها ما قاله الوثن المتمثل بهيئة الرجال .

ولاشك أن مشاركتها فى ذاك العيد الذى تعظم فيه الأوثان سبب الخضوع
للモجibat الاجتماعية لا عن اعتقاد أو إيمان وسيأتى أن «الؤمل» حضر «عيد
بوانة» وهو عيد وثنى أو أوثانى تحت ضغط وإلحاح من عممه وكافله وعماته لا
بدافع عبادة أو تعظيم لأوثان «بوانة» فحشاها . عليه السلام . أن يفعل إذ ليس
في سيرته التي هي أطيب ريحًا من زعفران قم سطر واحد يشير ولو من
مسافة ألف ميل إلى أنه أقدم على ذلك ولو مرة واحدة . وبالمثل فإنه من الحال
على سيدة نساء الدنيا أن تكبر أو تتحنى لو ثنى بل العكس هو صحيح تماماً فقد
ورد في سيرتها الشريفة أنها نفرت من عبادة أهل مكة للأصنام والذى يؤكـد

ثقافتها الدينية . إذ كيف تتبعد للأحجار وقد قرأت واستواعبت الإصلاحات والأبعاض التي عربها ابن عمها القس ورقة الذي هو بإجماع كل من كتبوا في السيرة المنيفة أعلم أهل مكة بالكتاب المقدس.

وكيف تفعل وهي على وشيعة حميمة بجهابذة ديانة ابن مريم في قرية القدس بل في الحجاز وبصرى: بحيرى وسرجيوش وعداس وورقة بن نوفل وناصخ؟

جاءت البشارة بـ«لباس الصوف» في الخبر المقدم من الوثن الرجل وهو كائن غامض ولكن هناك بشارات أنت من أشخاص حقيقيين أغبلهم من أهل الكتاب أو من المتدينين مثل ابن ذي يزن أو حتى من العرافين والمتكهنين.

وإذ المبشر في الأثر السابق في هيئة رجل هو في حقيقته وثن فابن إسحق جعله يهودياً.

«ذكر ابن إسحق أنه كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فاجتمعن يوماً فيه جاءهن يهودي وقال لهن: إنه يوشك في يكن نبى فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتتعل». .

فحصبنه بالحجارة وقبعنه وأغلظن له وأغضبت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء وقر ذلك في نفسها فلما أخبرها ميسرة بما رأت من الآيات مع ما رأته هي قالت إن كان ما قاله اليهودي حقاً ما ذاك إلا هذا»^(١٠).

هذا الخبر يقدم لنا لفتة مهمة وهى أن الطاهرة شهدت الواقعه ولكنها لم تفعل ما فعلته القرشيات الأخريات من تقبیح اليهودي وتغليظ القول له ولكن لم؟

لأن لديها مخزوناً من العجائب والمدهشات تمحورت حول «سابق العرب»، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى . وهذه صرخ بها الخبر - أنها ربطت مقوله اليهودي وما أسره لها عبدالها النصراني ميسرة وما عاينته هي وشاهدته عند عودة «اليتيم» مع تجارتها من الشام وهى المعجزة التي قطعت كل شك فى أنه هو «القادم المنتظر» ولا أحد عاده ومن ثم استماتت لتغدو له بعلاً.

• • •

حكایة التاجر اليهودي بمكة الذي تعود على مجالسة المرازبة الجحاجع من قريش وفي احدى الليالي أنبأهم بمولود يصير هو «المأمول» هذه الحکایة مبثوثة في دواوين السيرة المحمدية العظيمة وتکاد تصل إلى درجة التواتر: عن ابن سعد والحاکم وأبو نعيم بسند حسن وابن حجر في الفتح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يهودي قد سكن مكة يتجر فيها فلما كانت تلك الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال في مجلس قريش:

يا معاشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم: والله ما نعلم. قال: احفظوا ما أقول لكم: ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخير بين كتفيه علامه فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس ولا يرضع ليلتين. فتصدع القوم من مجلسهم وهم يعجبون من قوله، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا: ولد الليلة لعبدالله بن عبدالمطلب غلام سموه محمدًا. فالتقى القوم حتى جاءوا اليهودي فأخبروه الخبر، قال: اذهبوا معن حتى أنظر إليه فخرجوا حتى أدخلوه على آمنة فقالوا: أخرج إلىنا ابنك فأخرجه وكشفوا له عن ظهره ررأي تلك الشامة فوقع مغشياً عليه، فلما أفاق قالوا: ويلك مالك؟ قال: والله ذهبت النبوة من بنى إسرائيل، أو فرحتم يا معاشر قريش والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من الشرق إلى الغرب»^(١١).

والخبر روتة عائشة بنت أبي بكر وهي معدودة من العلماء الصحابة ونقله ابن سعد والحاكم وأبو نعيم بسند حسن وابن حجر في الفتح هذا ما أورده صاحب السيرة الشامية ثم ألفيناه في أربعة كتب من دواوين السيرة العالية والتي تحظى بكامل الثقة وهكذا أصبح خبراً مؤكداً.

• • •

عندما انتصر سيف بن يزن على أعدائه سافر إليه وفد من قريش على رأسه عبدالمطلب وضم بين أفراده خويلاً بن أسد، وسيف خالطته مسحة دينية وانفرد بالجد عبدالمطلب سيد قريش ورأس وفدها وسارره وبشره بالقادم المأمول وأدلى له بنعته وتأكد عبدالمطلب من صدق السيف وأدرك أن هذه الصفات متواضرة في حفيده محمد بن عبد الله وأنه بالتالي هو ذات من عناه ابن ذي يزن فخر ساجداً:

«وكان عبدالمطلب قد وفد على سيف بن ذي يزن مع جلة قومه لما غلب على اليمن فقدمه سيف عليهم جميعاً وآثره ثم خلا به فبشره برسول الله ووصف له صفتـه فكبر عبدالمطلب وعرف صدق ما قال سيف ثم خر ساجداً فقال له سيف: هل أحسست لما قلت نبأ؟ فقال: نعم ولد لابنى غلام على مثال ما وصفت أيها الملك. قال: احذر عليه اليهود وقومك أشد من اليهود والله متمم أمره ومعلم دعوته..

فقد قال: أما والله لقد نفستـي قريش الماء يعني ما سقاـه الله من زمرـم وذى الهدـم لتفسـنى غدا الشرف العظـيم والبناء الـكريـم والعزـ الباقي والسنـاء العـالـى إلى آخر الدـهـر ويـوم الحـشر»^(١٢).

وإذ إن ثلاثة من كتب التراث «المصادر» المحترمة وكتاب حديث «مرجع» صنفـه شـيخ الجـامـع الأـزـهـر الأـسـبـق وـمعـه آخر أكدـتـ لنا هـذاـ الخبرـ فإـنهـ بذلكـ غـداـ مـكـيـناـ ثـابـتاـ رـاسـخـ القـوـاعـدـ.

وهذا أسقف نجران عندما رأى «الأواه» لما أقبل قاصداً جده بشره أنه هو
«القادم المنتظر»:

«أخرج أبو نعيم عن طريق الواقدى عن شيوخه قالوا: بينما عبدالمطلب يوماً
في الحجر وعنته أسقف نجران وكان صديقاً له وهو يحادثه ويقول: إننا نجد
صفة نبى بقى من ولد إسماعيل هذا البلد مولده من صفتة كذا. وأتى رسول
الله ﷺ فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى قدميه فقال: هو هذا. ما هذا
منك؟ قال: أبى. قال الأسقف: لا ما نجد أباً هيا. قال: هو ابن أبى وقد مات
أبواه وأمه حبلى به. قال: صدق، قال عبدالمطلب لبنيه: تحفظوا بابن أخيكم لا
تسمعون ما يقال فيه»^(١٢).

وتستمر البشارات من أهل الكتاب للجد عبدالمطلب بخروج القادم المأمول
من صلبه:

«أخرج الواقدى وأبو نعيم عن عبدالله بن كعب بن مالك قال: حدثنى شيخ
من قومى أنهم خرجوا عمaraً وعبدالمطلب يومئذ حى بمكة ومعهم رجل من يهود
تيماء صحبهم للتجارة يريد مكة أو اليمن فنظر إلى عبدالمطلب فقال: إننا نجد
فى كتابنا الذى لم يبدل أنه يخرج من ضئضنى هذا نبى يقتلنا وقومه قتل
عاد»^(١٤).

راهب طبيب فى ناحية عكاظ يبطئ فى الاستجابة لنداء عبدالمطلب ومعه
«المسد» فيتزلزل ديره ويوشك على الانهيار عليه فأرقل إليه^(١٥). وما إن وقعت
عيناه على «الجoward» حتى بشره أنه هو الذى ينتظره العرب ويأملون قدومه:

«قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى فى الوفاء فى سنة سبع من مولده ﷺ
أصابه رد شديد فعولج بمكة فلم يغن فقيل لعبدالمطلب إن فى ناحية عكاظ
راهباً يعالج الأعين فركب إليه فناداه وديره مغلق فلم يجبه فتزلزل ديره حتى
كاد أن يسقط عليه فخرج مبادراً فقال: يا عبدالمطلب إن هذا الغلام نبى هذه
الأمة ولو لم أخرج لخراً على ديرى فارجع به واحفظه لكي لا يقتله بعض أهل
الكتاب. ثم عالجه وأعطاه ما يعالج به وألقى له المحبة فى قلوب قومه وكل من
يراه»^(١٦).

• • •

وأخيراً نصل إلى مسك الختام وهو خبر الراهب عيسى الذى أدلى ببشارة
دقيقة حدد فيها يوم ميلاد «قثم» ويوم إبلاغه الناس دعوته ويوم وفاته وسنن
عمره:

«أخرج أبو نعيم وابن عساكر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان
بمر الظهران «واد بين مكة وعسفان» راهب من أهل الشام يدعى عيسى وكان
قد آتاه الله علماً كثيراً وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول

إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته وتالله ما تركت أرض الخمر والخمير والأمن وحللت أرض البؤس والجوع والخوف إلا في طلبه، وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول: ما جاء بعد. فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله خرج عبدالمطلب حتى أتى عيسى فوقف في أصل صومعته فناداه فقال من هذا؟ قال: أنا عبدالمطلب فأشرف عليه. فقال: كن أباً فقد ولد المولود الذي أحديثكم عنه يوم الاثنين وهو يبعث يوم الاثنين ويموت يوم الاثنين وإن نجمة طالع البارحة.

واية ذلك أنه الآن وجع فيشتكي ثلاثة ثم يعافى فاحفظ لسانك فإنه لم يحسد حسده أحد ولم يبغ على أحد كما يبغى عليه.

قال: فما عمره؟ قال: إن طال عمره أو قصر لم يبلغ السبعين يوماً في وتر دونها في الستين. في إحدى وستين أو ثلاثة وستين عاماً أمته»^(١٧).

وبعده يجيء دور نوع مختلف من حاملي البشرارة لا صلة لهم بأهل الكتاب إنما هم من الكهان سدنة الأوثان والأصنام والأنصاب:

«عن أبي عباس: أتني في نفر من قريش عند امرأة كاهنة فقالوا أخبرينا أيها شبهأً بصاحب هذا المقام «إبراهيم» قالت: إن جررم على السهلة عباءة مشيتهم عليها آنبأتكم بأقربيكم منه شبهأً فجرروا عليها عباءة فرأى أثر قدم محمد صلوات الله عليه فقالت: هذا والله أقربكم شبهأً. قال ابن عباس رضي الله عنه: فمكثوا بعد ذلك عشرين سنة ثم بعث محمد»^(١٨).

• • •

تلك باقة من الأخبار بالتبؤ أو التبشير بأن «أبا القاسم» هو «القادم المنتظر» وإذ إن وحدة موضوعية نحزمها «نشدها لبعضها البعض» فقد أثرنا أن نؤخر التعليق عليها لما بعد الفراغ من سردتها:

خبر اليهودي الذي حصبه القرشيات وقبنه وأغلظن له يدل على أن قرية القدسية بكرة ضمت نفرًا من اليهود بيد أن كثافتهم قليلة ولا تقاس بوفرة النصارى فيها.

والآخر: أن سيدة نسون قريش شهدت الواقعه وأنها ربطت قوله اليهودي بما اختزنته ذاكرتها من معجزات سوابق لـ«راكب الأنان» وبما رأته بعدها عند عودته من سفر الشام وما قصه عليها عبدها الأمين النصراوي «ميسرة» وانتهت إلى نتيجة مفادها أنه هو الذي رشحته للقيام معه بالتجربة ومن ثم عملت المستحيل حتى نكحته.

وهذه هي علة عدم مشاركتها سائر نسوة قريش في اتخاذ الموقف العدائى من اليهود المبشر أو المبشر اليهودى.

. أما خبر اليهودي التاجر فينطبق عليه ما قلناه في الخبر السابق عن الجالية اليهودية في مكة بيد أنه وصل إلى مكانة عالية إذ تمكّن من مجالسة سادة قريش، كما أن مخالطة هؤلاء اليهود والنصارى يؤكد دراية ولا نقول علمهم بمقابلات أهل الكتاب، ومن بينها أن هناك قادماً أطل زمانه، ومن جانب آخر أن ما بدر من اليهودي من أقوال وأفعال عندما رأى محمداً بعد أن قدمته لهم أمّه آمنة بنت وهب وخاصة وقوعه مفجشاً عليه من البديهي أن يصل إلى أذني الظاهرة لأن أباها خوبليدا يحضر تلك المجالس والواقعة فادة تستحق أن يتلقاها المكيون ويقصونها في بيوتهم على أزواجهم وبنائهم ... إلخ.

- قبائل جزيرة العرب اعتبرت انتصار سيف بن ذي يزن نصراً مؤزراً لسائر العرب فأرسلت وفودها للتهنئة ووفد قريش ترأسه عبدالمطلب بن هاشم وضم خوبليد بن أسد وبعد خروج الأول من الجلسة الانفرادية طرق يفتخر بالنبوءة أو البشري التي أبلغه إياها سيف.

ورجال الوفد أول من علم بها وعند إياهم موطنهن نقلوها للأهل فلا ريب أن سيدة نسون الأرض سمعتها من أبيها وأضافتها لرصيدها من الأخبار المعجبة.

- وجود أسقف لنجران قرينة على وجود أسقف مكة أو الحجاز ولو أنها قرينة قابلة لإثبات العكس وحتى يظهر هذا العكس فهي صحيحة وهو صديق عبدالمطلب، وربما حضر مكة للقيام بعمل يتعلق بهمما منصبه مثل التشاور مع أسقف مكة أو الحجاز سواء هو بحيرى أم غيره ودليل على حضور قوى للنصارى في القرية المقدسة.

وتحقق من الصفات العينية أو الجسدية في «الفرد. الفخم» عندما نظر إليه وقد جاء لجده.

وعبدالمطلب إثر سماعه قوله الأسقف نصح بنيه بالمحافظة عليه وهذا الخبر قابل للإذاعة والإشاعة لأن عبدالمطلب له عشرة من البنين بخلاف العديد من البنات وكل واحد من هؤلاء من المتعذر أن يعقل لسانه في فمه ولا يتحدث به لأهله وأصدقائه ولداته ولصحابه فلا يخلو الحال كذلك بيت من بيوت مكة من لوكله.

- يهودي تيماء شأنه كالأخرين جزم بقرب القادر الذي أطل زمانه وأنه من سلالة عبدالمطلب وربما يغدو هذا خبراً عادياً إنما الذي نفعه نكهة ذات حرافة «لاذعة» عزم «القتل. القتل» قتل اليهود وقريش معاً ومن ثم ضمنت له الفرسخة والفسخ.

ـ خبر الراهب صاحب الدير الذي أوشك أن ينهدم على أم رأسه أثر «غنى» بالدلائل فهو يؤكد انسياح النصارى لا في مكة وحدها بل حولها فهو يقيم في عكاظ «الذى يقام فيها سوق سنوى شهير» ويدعم ما ذهبنا إليه عن احترافهم

الطب لجذب أهل مكة لنصرانيتهم. أما الزلزلة التي ضربت الدير حتى أوشك أن يسقط فهي الفقرة اللافتة للانتباه والتي تضمن للخبر الانتشار.

عيسي الراهب العالم الطبيب الشامي الذي ترك بلاده الخصبة الغنية المليئة بالخير إلى وادٍ غير ذي زرع خصيصاً ليغدو من ضمن الذين كتب لهم السعد والمستقبلين للقادم الذي تشوّفت كافة الطوائف للقائه وهو «عيسي» - بالإضافة إلى علمه الغزير طبيب والطب هو الأحبول الذي يصطاد به الرهبان النصارى سكان مكة ونواحيها إلى ديانة ابن مريم.

ومقر عيسى في مر الظهران شاهد على انتشار النصارى في كل مكان في الحجاز غير مبالغين بأنه قفر جديب مليط من الخير.

هذا الراهب ذو الصومعة دأب على إعلام أهل مكة بقرب ولادة مولود تدين له العرب ويملك العجم ويؤكّد لهم أنه ما جاء إلى أرضهم البائسة الفقيرة إلا في طلبه، وعندما وضعت آمنة مولودها ذهب إليه الجد عبدالمطلب وأحاطه علماً به فبشره بأنه هو الذي يؤمه «يقصده» هذا الراهب الذي طفق يجوب دروب مكة وشعابها وفجاجها مبشراً بقرب ولادة القادر المأمول وعندما ولد أخبر عبدالمطلب أنه هو يستحق درجة الامتياز في مادة الإعلام.

كيف يخفى على أم هند ولا تصلها أخباره ونبأاته ونشاطه الإعلامي.

• • •

وهكذا ساهم أهل الكتاب وخاصة رهبان النصارى الذين استوطنوا الحجاز في ذاك الزمان العجيب في شد بصر وجلاء بصيرة خديجة إلى تحديد معالم «المنتظر» وملامحه وقسماته ولعبوا دوراً خطيراً في وقوع اختيارها على «لاس الشملة» لتعابره وتجعله موضوعاً للتجربة الفذة الذي لم تكرر منذ إنجازها حتى الآن.

• • •

الأهل أو الأقارب اللصقاء لبعض البطاركة الأكابر مثل موسى ويعيني «يوحنا» المعidan ومريم بنت عمران وعيسي ابنها أحاطوا ولاداتهم بمخاريق^(١٩). وأمور معجبات غير مألوفة بيد أن «الحكم.الحكيم» في غنية عنها لأن عظمته وعقربيته وفدازته لا تحتاج إليها.

رغم ذلك فإن دواوين سيرته العطرة ذات الرتبة العالمية والدرجة الرفيعة والمقام المحمود وضعت في حجرنا العشرات من الأعاجيب رواها أصحاب وتابعون يتقدّمون بالشك ويختس الريب ويحرّزال^(٢٠) التوهين أن يحوم حولهم أو يطرق بابهم أو يقترب منهم.. ومع ذلك فإن غالبية من كتبوا حديثاً في سيرة «الراضي» امتنعت عن ذكرها وتجاوزتها وتحطّتها أي أعرضت ونأت بجانبها عنها.

والحق أنتى وقفت طويلاً إزاء هذا الموقف فهم:
إما أنهم لا يؤمنون بتلك الخوارق في ذاتها في الوقت الذي رأيناهם سجدوا
للتى وردت في القرآن المجيد مع أنها لا تقل عنها خرقاً للنوميس الطبيعية مثل
شق القمر فلقتين إحداهما على جبل «أبي قبيس» والأخرى استقرت على
«قيعكان» وكالإسراء والمعراج والحيوان المدهش «البراق» الذي يضع حوافر
قدميه عند منتهي بصره وما أدرك ما منتهي بصره.

● ● ●

أو أنهم لا يصدقون وقوعها لـ«الحامد» وهذا طعن صريح في رواة المدهشات
الخوارق أو الخوارق المدهشات وفيهم صحابة أكابر وتبعون أثبات، وتجريخ
لكتب الأحاديث التي وضعتها وما زالت تضعها على رأسها أمة لا إله إلا الله
منها: صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند أحمد ومستدرك الحاكم
النيسابوري، وتکذیب لدوایین السیرة المحمدیة العظیمة التي تقدّرها الأمة
الإسلامیة تقديرًا یوشك أن يصل إلى حد القداسة على رأسها سیرة ابن إسحاق
وسیرة بن هشام والروض الأنف والسیرة الحلبیة والسیرة الشامیة والدرر
وسیرة ابن کثیر... إلخ وسوف نتناول هذا الأمر بقدر من التوسيع عندما یحين
الوقت.

ولينکر الكتاب المحدثون ما یحلو لهم الإنكار فهم وشأنهم، وتغاضيهم عن
المعجزات التي سنورد غیضاً من فيض منها لا ينال منها ولا یغض من قدرها ولا
یحط من شأنها.

ونبدأ بما حدث عندما حملت آمنة الزهرية «أم محمد» به وما رأته هي ليلة
مولده المباركة وما وقع فيها وما رواه غيرها من حضورها وشهادتها، والذى
يضاعف من حروجة موقف أولئك المتخاذلين أن محمدًا ذاته شارك في الإخبار
عن بعض تلك الأعاجيب بعدة أحاديث ومعلوم أن من ينکر أحاديثه الشريفة
يتحول من تابع مطيع له إلى خصم مبين نعوذ بالله تعالى ونسأله الثبات
واليقين.

«عن ابن إسحاق قال: حدثني ثور عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول
الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال: دعوة أبي إبراهيم
وبشري عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له بصرى من
أرض الشام.

قال الحاکم: خالد بن معدان من خيار التابعين صحب معاذ بن جبل فمن
بعده من الصحابة فإذا أسنـد حديثاً إلى الصحابة فإنه صحيح ولو لم
يخرجاه»^(۲۱).

الحديث أخرجه الحاکم النيسابوري في «المستدرک» وجزم بصحته ورواه عن

واحد من خيار التابعين هو خالد بن معدان وأحد تلاميذ معاذ بن جبل من جلة الصحابة . وفيه أخبر «كندية وهو اسم محمد في الزيور» أن آمنة حين حملت به خرج منها نور أضاءت له بصرى وهى التي التقى فيها بالراهب بحيرى أسفف الحجاز ومكة وقدم الحلقة الخارجية التى أحاطت بالطاهرة وهو أيضا الذى ركبت إليه من مكة ل تستشيره فى الرؤيا التى رأها «برقليطس وهو اسم محمد بالروميه» وهو نائم فى غار حرى وهو «بحيرى» الذى أمر سيدة قريش بضرورة نكاح محمد قبل صدورتها له بعلا بعشرين حولاً، ولعل هذا يجيب على السؤال الذى ينتصب فى الذهن لماذا توقف النور الذى خرج من آمنة عند بصرى ولم يتعداها إلى دمشق العاصمة التى من البديهى أن حظها من القصور أوفر، وأحدوثره وصول النور إلى بصرى تحديداً سوف نطالعها فى عدة أخبار مما يقطع بأن المسألة ليست صدفة ولا خطط عشوائية بل لها دالة لا تستبعهم على الفطن الذكى !!

● ● ●

روى ابن سعد عن يزيد عن عبدالله والبيهقي عن ابن إسحق (رحم): قال كنا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به آمنة كانت تقول: ما شعرت أنى حملت ولا وجدت ثقله كما تجد النساء إلا أنتى أنكرت رفع حيضتى وربما ترتفعنى وتعود وأتاني آتى بين النائم واليقظان، فقال لي: هل شعرت أنك حملت؟ فأقول: ما أدرى. فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها وذلك يوم الاثنين وأية ذلك أنه يخرج معه نور يملاً قصور بصرى من أرض الشام فإذا وضع فسميه محمداً.

قالت: فكان ذلك مما يقнنى عندي الحمل.
ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتىأتانى ذلك فقال قولى: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد.

قالت: فكنت أقول ذلك فذكرته لنسائي فقلن: تعلقى عليك حديدًا فى عضديك وفى عنقك ففعلت فلم يكن يترك على إلا أياماً فكنت لا أتعلقه^(٢٢).
هذا الخبر اشتراك فى روایته ابن سعد فى «الطبقات الكبرى» والبيهقي إما فى «السنن» أو فى «دلائل النبوة» وابن إسحق فى «السيرة» وجاء فى «السيرة الشامية» و«الوفا بأحوال المصطفى» و«السيرة» لابن كثير. فأنى يتحققه الوضع والضعف وبذا فلا يدعهما إلا المعاند الشكس. وقد أطلعنا الخبر على شعيرة من شعائر الميلاد وهو أن تعلق الحامل فى عنقها وعضديها حديدًا طبعاً لحمايتها وجنينها من الأرواح الشريرة وهذا حجة على تدنى الدرجة الحضارية لذياك المجتمع.

● ● ●

«لما حملت آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ حدث أنها أتيت فقيل لها إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع على الأرض فقولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميته محمداً ورأت حين حملت به أنه أن خرج منها نور رأت منه قصور بصري من أرض الشام»^(٢٣).

أربعة مصادر من أمها تكتب السيرة تضافرت على تأكيد الخبر وأن آمنة فور حملها بـ«الصفوح» أتتها آت بشرها بحملها بسيد هذه الأمة وخروج النور منها وأن محطة وصوله قصور بصري.

● ● ●

«روى بعضهم عن آمنة أنها قالت: سطع مني النور حتى رأيت قصور الشام ولا وقع إلى الأرض قبض من تراب ثم رفع رأسه إلى السماء»^(٢٤). انضم اليعقوبي إلى طابور المصنفين الذين وثقوا معجزة خروج النور من آمنة فور حملها بـ«الأبر».

● ● ●

«كانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ فقيل لها إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد. قال آية ذلك أن يخرج معه النور يملأ قصور بصري من أرض الشام فإذا وقع فسميه محمداً . وعن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصري من أرض الشام .»

الحديث في سيرة ابن هشام ومستدرک الحاکم»^(٢٥).

إن الذي نفحنا هذا الخبر مصدر ذو وزن ثقيل هو الدلائل للبيهقي، ومعه مرجع عربه من الفرنسيّة إلى اللسان العربي الشيخ عبدالحليم محمود الذي تربع على كرسى رئاسة شئون التقديس ومعه ابنه وهو أيضاًشيخ أزهري فهل يعقل أن الضمير الديني والأمانة العلمية لدى كلّيهما سمحان لهم بتسطير حديث معلوم.

وأثبت صاحب «الدلائل» أن الحديث في سيرة ابن هشام ومستدرک الحاکم النيسابوري بما الذي يريده أى باحث أكثر من هذا كيما يتثبت من صحة أى حديث؟

● ● ●

نقل إلينا إنجيل لوقا أن العذراء البتول مريم بنت عمران عندما علقت بعيسى أتاهما ملاك الرب وبشرها بالحمل والولادة وأمرها أن تسميه يسوع وأنه سيغدو عظيماً وسيرث كرسي داود ويلمك بيت يعقوب.

«فقال لها الملائكة لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله وهذا أنت تحبلين وتلدرين ابناً وتسمينه يسوع هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويعطيه رب الإله كرسي داود أبيه ويملك بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون ملوكه نهاية»^(٢٦).

تماماً حذوك القذة بالقذة فبعد ما يزيد قليلاً على ستة قرون: أتى آت لآمنة بنت وهب من بنى زهرة: وبشرها بحملها بسيده هذه الأمة وأمها أن تسميه محمدًا وأعطتها آية أو علامات وهي خروج نور معه يسرى حتى يملأ قصور بصرى - ونصحها أن تعوده بالواحد من شر كل حاسد.

«نفس السيناريyo» الذى حدث فى بلدة الناصرة بفلسطين تكرر فى مكة من أرض الحجاز - فهل هي مصادفة؟

الا يتصدق علينا هذا التمايل بدلالة عميقه يفقهها اللوذعى ويدركها الفطن وينقهها الفارس^(٢٧).

• • •

«عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: حدثتني أمي أنها شهدت ولادة رسول الله ﷺ ليلة ولادته قالت: فما شئ انظر إليه من البيت إلا نوراً أضاء له البيت والدار حتى جعلت إلا نوراً»^(٢٨).

هذه شهادة أم عثمان بن أبي العاص بالأمور المعجبة التي رأتها بعينيها ليلة مولد «الخاص».

• • •

«قالت أم عثمان بن العاص شهدت ولادة آمنة برسول الله ﷺ وكان ليلاً فما شئ انظر إليه من البيت إلا نور وإننى أنظر إلى النجوم تدنو وإنى أقول لتقعن على، ولما وضعت تركت عليه فى ليلة ولادته جفنة فانقلبت عنه فكان من آياته أن لم تحوه»^(٢٩).

هذه شهادة أخرى لأم عثمان بن العاص مشابهة للشهادة السابقة بيد أن بها إضافتين الأولى أن نجوم السماء دنت من البيت الذى ولدت فيه آمنة «الأدمع» حتى إن أم عثمان خشيت أن تقع عليها.

الأخرى أنه بعد ولادته وضعوه تحت برماء أو جفنة فانقلبت عنه، وفي رواية انفلقت شطرين. «روى نعيم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان في عهد الجahلية إذا ولد مولود طرحوه تحت برماء فلما سقطت برماء طرحوه تحت برماء فلما أصبحوا أتوا البرمة فإذا هي قد انفلقت اشتين وعيناه ﷺ إلى السماء فعجبوا من ذلك. رواه بلفاظ متقاربة ابن سعد وسندي رجاله ثقات أثبات، والبيهقي عن أبي الحسن التنوخي - رحمه . وابن الجوزي عن أبي الحسين بن البراء مرسلا»^(٣٠).

لقد جئنا بهذا الخبر نظراً لتوثيقه الشديد فقد روى عن ابن عباس وتعارضت على تحمله: أبو نعيم وعكرمة وابن سعد والسيوطى وصاحب السيرة الشامية.
ولعلة أخرى هو أنه أكد وضع المولود المبارك تحت البرمة ثم وجدها مكسورة والذي نود أن نلفت الانتباه إليه أن هذه شعيرة من شعائر الميلاد أيضاً الهدف منها حماية الوليد من مس الشيطان ويمكن ربطها بالمستوى الحضاري وإن شئت الدقة اللاحضارى لمجتمع القرية المقدسة مكة آنذاك.

* * *

ونختم معجزات الحمل وليلة الميلاد الشريف بهذا الخبر:

«قال الإمام أبو شامة - رحمـ . وقد كان النور الذى ظهر وقت ولادته قد اشتهر فى قريش وكثير ذكره فيه عمه العباس شرعاً»^(٣١).

وهو أثر بالغ الثمانة على القيمة إذ يخبرنا أن المعجزات المذكورة علمها الدانى والقادى فى قريش والبادى والحاضر من أهل مكة إذ إن أمراها اشتهرت فىهم وبديهى أن خديجة من بينهم وبلفت ساعتها الخامسة عشرة على الأقل «وفى رأينا أنها تجاوزت الخامسة والعشرين» أى أنها أدركتها ووعتها وفهمت مغزاها وأضافت إلى الأخبار التي تقدمت المولود المبرور وسنة سنة تراكم فى ذاكرتها البواعث الدوافع لترشيحه ليصبح «القادر المنتظر».

* * *

ولكن المعجزات التالية للولادة المعاجمة لم تنته بعد بل إنها ما زالت تتدفقـ . فعلى غير العادة التى جرت مع الصبيان أو الذكور خرج من بطن أمه مختوناً مسحوراً «أى مقطوع السرة» والختان نوع من شعائر «طقوس» المرور الضرورية لدى البعض^(٣٢).

ويؤكد أحمد أمين أن قدماء المصريين كانوا يختتون^(٣٣).
ونضيف من جانبنا أن شعيرة أو طقس أو عادة الختان انتقلت من قدماء المصريين إلى الشعوب السامية بحكم الجوار والاختلاط وفي مقدمة هؤلاء الشعب اليهودى حتى إن الختان تحول لديهم إلى شعيرة مقدسة ومنهم انتقل إلى جزيرة العرب:

«عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من كرامتى على ربى أنى ولدت مختوناً ولم ير أحد سواتي»^(٣٤).

«وقد جزم بأنه ﷺ ولد مختوناً جماعة من العلماء منهم هشام بن السائب فى كتاب الجامع وابن حبيب فى المجد وابن دريد فى الوشاح وابن الجوزى فى العلل والتلقى، وقال الحاكم فى المستدرك: تواترت الأخبار بأنه ﷺ ولد مختوناً»^(٣٥).

يقدم لنا هذا الخبر كوكبة من العلماء المقدمين منهم الطبرانى وأبو نعيم

وابن عساكر والضياء المقدسى وابن الجوزى وارتفاع الحاكم النيسابورى صاحب المستدرک بالحديث إلى درجة التواتر.

وقد عده «النور» مكرمة تكرم بها عليه ربه حتى لا يرى أحد سوأته في عملية الختان، وهناك خبر أكيد مفاده أن أيًا من زوجاته وجواريه لم ترها أشلاء جماعه لها ولو حاولت لأصيبت بالعمى فوراً.

• • •

ونظراً لأهمية هذه الواقعه المعجبة فقد تتبعها السيوطى فى المصادر التى أوردتها حتى تيقن من صحتها فقد أثبت أن الحديث سالف الإمام «رواه عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس بن المطلب الذى شهد أن والده عبدالمطلب شمله الإعجاب والفرح لما رأى حفيده ولد مختوناً أى أنه حديث عائلى، وهناك طريق آخر للرواية عن عطاء عن ابن عباس وخرج هذه الرواية كل من ابن عدى وابن عساكر.

وطريق ثالث عن أبي هريرة ورابع عن عبدالله بن عمر بن الخطاب وقد أخرجهما ابن عساكر، وطريق خامس عن أنس بن مالك «خادم محمد».

وقد أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحليلة والخطيب وابن عساكر فى تاريخيهما وضياء الدين المقدسى فى مختاراته^(٣٦).

إن عبدالله بن العباس وعبدالله بن عمر بن الخطاب وأبا هريرة وأنس بن مالك من أعيان الأصحاب ومات صاحب الشملة^(٣٧) وهو عنهم راض ولا يخلو واحد من كتب الأحاديث من مسند خاص لكل منهم وبعضهم من المكثرين في الحديث مثل أبي هريرة وعبدالله بن عباس وأنس بن مالك.

أما الطبرانى والحاكم وأبو نعيم والضياء المقدسى وابن الجوزى والخطيب فهم أصحاب مصنفات فى السيرة الحمدية الزكية أو فى أحاديثه التي هي أشرف الأحاديث طرأ بلغت هذه «المصنفات» الغاية القصوى فى القبول والتقدير والاحترام لدى أهل السنة والجماعة.

فهل يتجرأ مسلم على أن يشكك فى أن «الكرم» قد كرمه ربه بتكرمه حضوره إلى الدنيا وهو مختون مسرور.

• • •

ولكن هل هذه المكرمة تقاس بالإسراء والمراجع وركوب الدابة المدهشة «البراق» والمشول بين يدي الحضرة الريانية القدسانية عند سدرة المنتهى عندها جنة المؤوى. بأى منطق يقبل الكتبة المحدثون هذه الخوارق المدهشة الفادحة فذوذاً لم يتكرر لا من قبل ولا من بعد وينكرون ختانه وهى عملية يقوم بها «حلاق» ريفى وقطع حبله السرى وهو ما تتجزءه أى داية^(٣٨).

كيف يصدقون أن القمر انشق إلى فلقتين حظى بهما جبلان من أجبل بكة

وهي المعجزة التي شهدتها العشرات من المكيين ثم يرفضون أن «الميس» جاء إلى الدنيا وقد تم ختانه كيما لا ينظر أحد إلى سواه .
وأيهما أقرب إلى المعقولة شق القمر إلى شطرين أم إجراء الختان وقطع الحبل السري ..

لقد ترثنا قليلاً عند هذه النقطة لنسلط الضوء على تناقض الرافضين للمعجزات «ما عدا شق القمر والإسراء والمعراج» وقولهم بأن المعجزة القيمة لـ«الأبيض» هي القرآن العظيم، ولو أنهم طالعوا سيرة محمد التي هي أحلى من سكر الأهاوز وتفاح الشام لأيقنوا أنه أغزر معجزات وخوارق ومدهشات ومعجبات من صاحب اليهود: موسى وصاحب النصارى المسيح عيسى ابن مرريم، بل إن قياسه بهما فيه إجحاف شديد له . إنهم يفعلون ذلك تحت لافتة العقلانية مع أن منهجهم هذا مقطوع الوشيعة بالعقلانية الحقة التي تتحتم أنه عند إصدار حكم يتبعين الإحاطة بالموضوع من سائر أقطاره وكل نواحيه وجميع جوانبه، وفي موضوعنا هذا يجب وبطريق الحتم واللزم عدم فصم المعجزة عن المجتمع الذي انبثق فيه وولدت في أحشائه وتخلقت في بطنه وعلى رأسها: المستوى الحضاري والمعرفي والثقافي والتعليمي ووعي أفراده ومدى إدراكهم ودرجة فهمهم وسعة أو ضيق أففهم وزن موروثاتهم وقياس ذكائهم .. إلخ .
عند سبر المجتمع بدقة يجوز لنا أن نصدر حكمنا على ظهور المعجزة فيه وتصديق أفراده لها .

وإذ نفعل يساير منهجنا العقلانية وساعتها يغدو الحكم صحيحاً أما عند مجانية ذلك والحكم على مجتمع عتيق، وفي منطقة خاصمتها الحضارة بذات المقاييس والآليات السائدة في مجتمعنا المعاصر فتحن نخاصم العقلانية وبعد منهجنا بعيداً تماماً عن العلمية والموضوعية .

بعد هذه التقريرية نعود إلى سياقة الحديث:

إن ولادة «السينا» مختونةً مسروراً أمر غير عادي وهي المرة الأولى التي يرى فيها المكيون مولوداً بهذه الهيئة إذن من اللازم أن يشيع خبرها ويسري من بيت لبيت وتنتشر من دار لدار فتسمع بها الطاهرة أم هند وتدھش لها ثم تدسها في طيات ذاكرتها ل تستحضرها عند اللزوم .

• • •

لازمت المعجزات «الناهى» طوال أطوار حياته المبرورة حتى نكحته الطاهرة ولا يعني ذلك أنها توقفت بعد المبايعة إنما المقصود استمرارها حتى تقطنت أم هند أنه هو «المأمول المنتظر» فاللتقطته وشكلت رافقاً مهما في عملية اختياره زوجاً وبالتالي الدخول معه التجربة المذهلة . فبعد ولادته مختونةً مسروراً بدررت منه خوارق أخرى وهي الكلام في المهد وهو رضيع :

«قال الحافظ أبو الفضل بن حجر في كتابه «فتح الباري» في شرح صحيح البخاري»: في سير الواقدي أن النبي ﷺ تكلم أوائل ما ولد وذكر ابن سبع في الخصائص أن مهده كان يتحرك بتحريك الملائكة له وأن أول كلام له أن قال: اللهم أكبر والحمد لله كثيراً»^(٢٨).

● ● ●

هذا الآخر المدهش ساهم في إهدائه لنا ابن حجر العسقلاني والواقدي وابن سبع والسيوطى وأخبرونا أن أول جملة نطق بها «المعزز» هي: الله أكبير والله الحمد.. وقد غدت بعد ثلاثة عشر قرون ونصف شعراً لجماعة إسلامية نشأت في مصر ومن كم معطفها خرجت جماعات العنف التي فعلت الأفاعيل في المحروسة وغيرها.

وكما نقل لنا السيوطى في «الخصائص» الخبر السابق أقره صاحب السيرة الشامية وهو الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى سنة ٩٤٢هـ:

«قال الحافظ في الفتح وفي سير الواقدي: النبي ﷺ تكلم في المهد أوائل ما ولد وذكر ابن سبع - رحم - في الخصائص أن مهده ﷺ كان يتحرك بتحريك الملائكة له وأن أول كلام تكلم به أن قال: اللهم أكبر كثيراً والحمد لله كثيراً»^(٢٩). وفي الخبرين كليهما أو هو إن شئنا الدقة خبر واحد لأن سنته واحد في الروايتين أن الملائكة طفت تحرك مهد «الأنجى».

وبحكت دواوين السيرة المحمدية التي هي أطيب ريعاً مع الزعفران والكافور أن عممه العباس أخبره أنه وهو طفل رضيع في المهد دأب على مناغاة القمر الذي أخذ يستجيب لها «=المناغة المحمدية» فيتحرك في الاتجاه الذي يحدده له «أكل الشعير» ويقف عندما يشير له بذلك وهكذا... وأضاف العباس أن ذلك شكل سبباً من أسباب إسلامه وأتباعه فيما دعاه إليه.

● ● ●

هذه الخوارق لا مشاحة في أن كل ما تردد على البيت الذي ولد فيه «الصنديد» لابد أن شاهدتها وعجب لها وعندما يغادر المنزل يقصها على أهله وجيرانه وأصدقائه فتنتقل من دار إلى أخرى حتى تسمعها سيدة نساء الأرض.

● ● ●

على عادتهم في ذاك الزمان الرائع فإن العائلات الكريمة لا تقوم فيها الأمهات بيارضاع أطفالهن بل تتولى ذلك الأعرابيات يأخذن أطفال وجوده قريش إلى مصاريبهن في البدائية لعدة أسباب منها أن جوها المنفتح المنطلق أفيد لهم كما يتعلم فيها فصاحة البدو الخالية من اللكتة والحبسة والعجمة فينشأ الطفل

فصيحاً ذا لسان ذرب ومن ناحية ثالثة تحافظ أم الوليد على جمال جسمها وسلامة قوامها ونضارة قدتها ... إلخ، وجريأً على هذا العرف جاءت إلى مكة نسوة من بادية بنى سعد التماساً للوضع ومن حسن حظ حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية وجمال بختها^(٤) أن ظفرت بـ«الناسك» كيما تتولى إرضاعه وتنشئه ونظراً لأن هذا المقطع من أمعن مقاطع السيرة المحمدية التي هي أحلى من تفاص الشام وفيه لمحات إنسانية تأخذ بمجامع القلوب فإننا نستمتع القارئ ونستأنسه في سرد الخبر كما حكاه السيوطي في خصائصه وإن انضوى على قدر من التطويل:

«أخرج ابن إسحاق وابن راهويه وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وأبو نعيم وابن عساكر عن طريق عبدالله بن جعفر بن أبي طالب قال: حديث حليمة بنت الحارث أم رسول الله ﷺ التي أرضعته قالت: قدمت مكة في نسوة من بنى سعد بن بكر نتمس الرضعاء في سنة شهباء فقدمت على أتان ومعي صبي وشارف لنا والله ما تبض بقطرة وما ن GAM ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذلك لا يجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمتنا مكة فوالله ما علمت من امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتاباه إذا قيل إنه يتيم فوالله ما بقى من صواحبى إلا أخذت رضيعاً غيري فلما لم أجد غيره قلت لزوجي والله إنى لأكره أنى أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع لأنطقن إلى ذلك اليتيم فلأخذته، فذهبت فأخذته فما هو إلا أن أخذته فجئت به على رحل فما قبل عليه ثدياً بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب آخره حتى روى وقام صاحبى إلى شارفنا تلك فإذا بها لحاف فحلب وشرب ما شرب وشربت حتى روينا وبتنا بخير ليلة، فقال لى صاحبى: يا حليمة والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه فلم يزل الله يزيدنا خيراً. ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتانى بالركب حتى ما يتعلق بها حمار حتى إن صواحبى يقلن ويلك أهندى أتانك التى خرجت عليها معنا فأقول نعم، والله إنها لهم فيقلن والله إن لها لشأننا حتى قدمنا أرض بنى سعد وما أعلم أرضاً أجدب منها، فإن كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فتحن وماشيتنا «في خصب وغنى»، وما حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن وإن أغناهم لتروح جياعاً ما فيها قطرة لبن حتى إنهم ليقولون لرعاتهم ويعكم انظروا حيث تسرح غنم حليمة فاسرحوها معها فيسرحون مع غنمى حيث تسرح فيروحون أغناهم جياعاً ما فيها قطرة لبن وتروح غنمى شباعاً ليناً فلم يزل الله يربينا البركة ونتعرفها حتى بلغ سنين فكان يشب شباباً لا يشبه الغلماء، فوالله ما بلغ السنين حتى كان غلاماً جفراً فقدمنا به إلى أمه ونحن أحسن شيء به مما رأينا فيه من البركة فلما رأته أمه قلنا لها: دعينا نرجع بابنا هذه

السنة الأخرى فإننا نخشى عليه وباء مكة فوالله ما زلت بها حتى قالت: نعم فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة فبينما هو خلف بيوتنا مع أخي له من الرضاعة في بهم جاءنا أخوه يشتبد فقال: ذلك أخي القرشى قد جاه رجالن عليهم ثياب بياض فأضجعاه فشققا بطنه فخرجا أنا وأبوه نشد نحوه فتجده قائماً منتقباً لونه فاعتقه أبوه وقال: أى بنى ما شأنك؟ قال: جاءنى رجالن عليهم ثياب بياض فأضجعاني فشققا بطني ثم استخرجوا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان.

فرجعنا به معنا فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابنى قد أصيب فانطلقى بنا نرده إلى أهلة قبل أن يظهر ما نتخوف.. قالت حليمة: فاحتملناه حتى قدمنا به إلى أمه، فقالت: ما ردكما به فقد كنتما عليه حريصين، قلنا: نخشى الإتلاف والأحداث. فقالت: ماذا يكما فاصدقاني شأنكم، فلما تدعا حتى أخبرناها خبره قالت: أخشيتما عليه من الشيطان؟ كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإنه لكاين لابنى هذا شأن إلا أخبر كما خبره؟ قلنا: بلـى. قالت: حملت به فما حملت قط أخف منه فأأربت فى النوم حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام ثم وقع حين ولد وقع ما يقعه مولود على يديه رافعاً رأسه إلى السماء فدعاه عنكمـا^(٤١).

● ● ●

ولسنا في حاجة أن نقرر أن هذه القصة الرائعة لا يخلو منها كتاب من كتب السيرة الزكية سواء من المصادر «التراثية» أو المراجع «الحديثة» بيد أن جوانب طريقة لهذا المقطع حملته دواعين أخرى:

«قالت حليمة ولما دخلت به منزلى لم يبق منزل من منازل بنى سعد إلا شمنا منه ريح المسك وألقيت محبته عليه السلام في قلوب الناس حتى إن أحدهم كان إذا نزل به أذى في جسده أخذ كفه عليه السلام فيضعها على موضع الأذى فيبراً بإذن الله تعالى سريعاً وكذلك إذا اعتل لهم بغير أو شأة فعلوا ذلك.

«وفي حديث ابن عباس رضى الله عنه كان أول كلام تكلم به عليه السلام حين فطمته: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً»^(٤٢).

● ● ●

ونخت بخبر آخره ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر عن طريق عطاء ابن أبي رباح وهو من كبار التابعين عن ابن عباس:

«أخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر وابن الطراح عن طريق عطاء ابن أبي رباح عن ابن عباس قال: كانت حليمة لا تدعه «أى محمداً» يذهب مكاناً بعيداً ففقلت عنه فخرج مع أخيه الشيماء في الظهيرة فخرجت حليمة تطلبـه حتى تجده مع أخيه فقالت: فـى هذا الحر؟ فقالـتـ أختـهـ: يا أمـهـ ما وجـدـ أخيـهـ

حرأً رأيت غمامه تظلل عليه إذا وقف وقفت وإذا سار سارت حتى انتهى إلى
هذا الموضع، قالت: أحقاً يا بنية؟ قالت: إى والله»^(٤٢).
إذن حمله إلينا أربعة من دواوين السيرة المعتبرة ولا يوجد توثيق أكثر من
ذلك.

● ● ●

إن مقطع التحاق «أبى القاسم» ببادية بنى سعد ليعرض من ثدى حليمة
والذى منحنا إيه هذا الجمع من المصادر عالية الرتبة انضوى على رتل من
المعجزات^(٤٣) ومن أبرزها واقعة شق الصدر . القلب الذى سوف نفرد لها فقرة
مستقلة بخلاف عدد آخر من الحكايا المعجبات ولكننا نكتفى بما أسلفنا .
قرأنا فى الخبر الأول أن مرضعات أخرىات كن مع حليمة وأخذن أطفالاً من
بيوت صناديد بكة رافقنها فى الذهاب والإياب حتى وصلن مقارهن ورأين
وعاين وسمعن هاتيك الأمور الخارقة للسفن الطبيعية وللأمور المألوفة ولا ريب
أنهن عند إعادة الأطفال اللائى أرضعنهن إلى أهليهم حكين لأمهاتهن طرفاً
منها كما أن واقعة إرجاع «ال مشاور» إلى أمهه قبل الموعد المحدد لابد أنها ذاعت
وشاعت هى وعلتها .

ومكة قرية ضئيلة وضاحلة «قليلة الماء» وقاطنوها أقارب وأصحاب تربطهم
وشائج متينة ومن ثم فمثيل هذه الأخبار المعجبة يتراقصها الذكور والإنانث من
مختلف الأعمار وتترتبًا على ذلك يحق لنا أن ندعى أن وصولها إلى مسامع
خديجة أمر محظوظ لا قريب الاحتمال فحسب .

● ● ●

وعلى هذه الوتيرة تتواصل وتتدارك أخبار «الحاشر» التى لا شببه لها، خبر
وراء خبر وحدث إثر حدث وأطروفة بعد أطروفة والظاهرة تسمعها كلها
وتحتفظ بها فى حافظتها الوعائية وأيضاً فى وعيها الباطن لتقب فى الوقت
ال المناسب^(٤٤).

واقعة شق صدر «أكمـل البشـر» اختلف بشأنها قدمـى كتاب سـيرته إن فـي
زمانـها أو فـي مـكانـها، فـفريق وـيبدو أنه الأـغلـب اـتفـق عـلـى وـقـوعـها فـي بـادـية بـنـى
سعـد إـبان رـضـاعـه هـنـاك وـمـجمـوعـة أـخـرى جـزـمت بـحدـوثـها فـي مـكـة أـما الفـرقـة
الـثـالـثـة فـقـد وـافـقـت عـلـى المـكـان وـلـكـنـها بـايـنـت فـي الزـمـان بـعـضـها قـالـ فى وـقـت
الـصـبا وـالـآـخـر اـنـتـهى إـلـى أـنـ الشـق تـم لـيـلـة الإـسـراء وـالـمـعـراج وـحـصـرا وـتـحـديـداً فـي
بـيـت عـمـه أـبـى طـالـبـ، وـقـد قـضـى تـلـك اللـيـلـة هـنـاكـ.

وـأـولـ منـ أـخـبرـه بـالـقـصـة عـنـ عـودـتـه هـى بـنـتـ عـمـه أـمـ هـانـئـ «عـنـ أـبـى صـالـحـ

مولـىـ أـمـ هـانـئـ عـنـ أـمـ هـانـئـ قـالـتـ: دـخـلـ عـلـى رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ بـغـلـسـ وـأـنـا عـلـىـ

فـرـاشـىـ فـقـالـ شـعـرـتـ أـنـ نـمـتـ اللـيـلـةـ فـيـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ... إـلـخـ»^(٤٥).

في حين «أن البخاري روى بسنده عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن النبي حدثهم قال: بينما أنا نائم في الحطيم وربما قال في الحجر بينما أنا نائم إذ أتاني آتٌ وسمعته يقول فشق ما بين هذه... إلخ»^(٤٧).

وب Hickman ذكرنا أن علماء الأنثربولوجى يذهبون إلى أن النوم قرب الأماكن المقدسة ينفع النائم رؤى تحفل بالأمور القدسية وأنها تعبّر عن أشواق وأمانى النائم التي لم يتمكن من تحقيقها على أرض الواقع مع تماهيتها بمعانٍ علوية.

«ورد في الخبر أن «الفخر» أخبر أن ذلك حديث وهو نائم ومضطجع في الحطيم أو حجر إسماعيل وهو ملحقان بجوار الكعبة قدس الأقداس في الإسلام أهـ».

وعلّوم أن الإسراء والمعراج من الحوادث التي وقعت بعد وفاة الطاهرة وقد درج عدد من قدامى الباحثين أو الكاتبين للسيرة وغيرهم من المفسرين والمؤرخين والفقهاء على حل مثل هذا التضارب بالجمع بين الروايات المتناقضة بأن يذهب إلى أن شق الصدر تكرر مع أن المشهور أن السبب الخبيء الكامن خلفه هو إخراج العلقة السوداء من القلب بحسبان أنها حظ الشيطان إذن فيما هو الداعي لتكرارها؟

يبد أن الذى يعنينا هنا هو توثيق شق صدره وهو صغير فى بادية السعديين لأننا مازلنا معه وهو فى هذه المرحلة لم تتجاوزها بعد.

خبر واقعة شق الصدر أو القلب فى بادية بنى سعد عند مرضعه «رواه الإمام مسلم وله رواية أخرى عن أبي هريرة عند الإمام أحمد والحاكم وابن عساكر عن أبي ابن كعب»^(٤٨).

فهنا نجد الشيخ عبدالحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق والذى يحلو للبعض أن ينفعه لقب الإمام يخبرنا أن حديث الشق فى بادية بنى سعد أخرجه مسلم فى صحيحه وهو التالى ل الصحيح البخارى، وله رواية أخرى عن أبي هريرة.

أما أحمد بن حنبل فى مسنده والحاكم فى مستدركه وابن عساكر فى تاريخه فقد نقلوه عن أبي بن كعب أحد علماء الصحابة ومن القلة الذين جمعوا «القرآن» أى حفظه فى حياة محمد . مما يقطع بصحة الحديث.

● ● ●

ولا نكتفى بذلك مع أنه كافٍ وزيادة بل نورد الخبر الآتى:
«وحصل له وهو بنى سعد بن بكر رهط مرضعه حليمة حادثة مهمة وهى شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فرده إلى أمه وحدتها قائلة: بينما هو وإخوته فى بهم لنا خلف بيوتنا إذأتى أخيه يعدو وقال لي ولأبيه ذلك أخي القرشى أخذه رجالن عليهما ثياب بپض فاضجعاه

وشقا بطنه فهما يسوطانه «يحركانه» فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتلقاً
لونه «شبهاً بالنقع وهو التراب» فالترمته والتزمه أبوه فقلنا له: مالك يا بنى؟
قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال:
نعم فأقبلا بيترانى فأضجعانى وشقا بطنى فالتمسا شيئاً فأخذاه وطراحه لا
أدري ما هو؟^(٤٩).

هذا الخبر جاءت به تسعه من كتب التراث صاحبة المقام الرفيع على رأسها
سيرة ابن هشام عمدة كتب السيرة بإجماع واشن من المراجع الهامة أولهما
كتاب نور اليقين لمحمد الخضرى . أستاذ الشريعة فى كلية الحقوق جامعة فؤاد
الأول . والذى استقبله القراء بترحاب مبالغ فيه حتى إنه طبع أربعين وعشرين
مرة وهو رقم قياسى .

والآخر من تأليف دينيه وتعريب عبدالحليم محمود الذى تحدثنا عنه أكثر
من مرة وهكذا تكاملت براهين صحة هذا الخبر .

* * *

ونظراً لغراحته فمن البديهى أن يشيع ويذيع وينتشر من الbadia إلى قرية
القداسة خاصة بعد أن أرجعت «الظئر» أى المرضعة «البائع» إلى أمه قبل انتهاء
المدة المتفق عليها بعد أن ألحت عليها قبل ذلك بقليل بضرورة إبقائه طرفها لما
لمسته من برkatه الأمر الذى دفع آمنة لتضييق الخناق على حليمة لمعرفة السبب
فاضطررت لإعلامها به، وهنا نتوقع أن أم محمد أخبرت به نساءها وصديقاتها
وصواحبها ولداتها وخديجة إحداهن وحتى لو لم تخبرها مباشرة فإن الطاهرة
من المؤكد التقطت الخبر الخارج للعادة بصورة مذهلة من قريبة أو جارة أو
معاصرة «بكسر الشين أى مخالطة لها أهـ» ثم قامت بإضافته إلى رصيد
المعجزات التي أحاطت بالـ«الحفى» منذ ليلة ميلاده بل قبلها بسنوات عديدة.

وهنا ملحوظ شديد الأهمية وهو أن توالى الخوارق يضاعف من لفت النظر
وشد الانتباه وهذا يصح سواء لدى الطاهرة أو سواها لأن المولود الذى تحدث
له خارقة واحدة سرعان ما تتسى إذ يقال عنها إنها فلتة بعكس الذى تتعدد
لديه وتتنوع فلا واحد له أن يدعى أنها محض مصادفة أو ضربة حظ ويتأكد
أن صاحبها أو بطلها شخص له شأن وخطر. فإن كان صغيراً جزموا بأن له
مستقبلاً معجباً مثل مدحتاته.

* * *

رأينا فيما سبق أن عددًا من أهل الكتاب أكثرهم نصارى وأقلهم يهود
وأغلبهم من الراهبان بشرروا بـ«الشارع» وأن ظهوره قاب قوسين أو أدنى في حين
أن الكهان «سدنة الأصنام» والعرافين اتخذوا منه موقفاً عدائياً إذ ملاً الحقد
قلوبهم عليه وما إن يعاينه أحدهم حتى يفقد صوابه ويصبح اقتلوا هذا الغلام

فإن هلاكم سوف يتم على يديه.

«روى ابن سعد عن موسى عن عبيد رضى الله عنه عن أبيه رحهما الله لما ولد رسول الله ﷺ فوقع على الأرض وقع على يديه رافعاً رأسه إلى السماء وبقية من تراب فبلغ ذلك رجلاً من لهب فقال لصاحبه: اتجه لئن صدق الفأليغلبن هذا المولود أهل الأرض»^(٥٠).

وبطن بنى لهب اشتهر نسونه ورجاله باحتراف الكهانة والعيافة والعرفة والفراسة ولئن لم يوضح الخبر تصريح اللهم بضرورة قتل «المحلل - المحرم» ولو أنه يفهم من سياق الخبر إذ اتضاع من معاينة المولود أنه سوف يغلبني أهل الأرض فما هو الداعي للإبقاء عليه . ومع كل فإن الدعوة إلى قتله صراحة سترد في الأخبار التالية.

«قال زيد بن أسلم لما قامت سوق عكاظ انطلقت به حليمة إلى عراف من هذيل يربه الناس صبيانهم فلما نظر إليه صاح: يا معاشر هذيل يا معاشر العرب واجتمع إليه الناس من أهل الموسم فقال: اقتلوا هذا الصبي وانسلت به حليمة... إلخ»^(٥١).

الداعي لقتله هو عراف من هذيل وهي إحدى القبائل المعروفة وعند اعتناق أبنائها ديانة الإسلام قاموا بدور ملحوظ منهم عبدالله بن مسعود وهو من السابقين الأولين، ورأس مدرسة الفقه العراقي التي انسلا منها المذهب الحنفي.

● ● ●

«وأخرج البيهقي عن الزهرى أن النبي ﷺ كان فى حجر جده عبدالمطلب فاسترضعته امرأة من بنى سعد فنزلت به سوق عكاظ فرأه كاهن من الكهان فقال: يا أهل عكاظ اقتلوا هذا الغلام فزاغت به أمه التي ترضعه فأنجاه الله ثم شب عندها حتى إذا سعى وأخته من الرضاعة تحضنه جاءت أخته فقالت: يا أماه إنى رأيت رهطاً اجتروا أخي القرشى آنفًا فشقوا بطنها . فقامات أمه فزععة حتى أنته فإذا هو جالس منتفع لونه لا ترى عنده أحداً فارتحلت به حتى أقدمت على أمه فقالت لها: أقبضى عنى ابنك قد خحيث . فقالت أمه: والله ما ببني مما تخافي عليه لقد رأيته وهو فى بطنى أنه خرج معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء»^(٥٢).

جمع هذا الخبر بين حادثتين:

الأول: مناشدة كاهن سوق عكاظ لأهلها أن يقتلوا «الماحى» وحليمة تحمله إثر مرأة مباشرة.

الآخر: شق بطنه أى صدره وهو فى بادية بنى سعد وإعادته لأمه آمنة تخوفاً عليه من حدوث مكروه.

● ● ●

«فمكث عَنِ الْحَلِيَّةِ سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين فقدموا به على أمه زائرين لها وهم أحقر من شئ على رد مكانه لما رأوا من عظم بركته فلما كانوا بوادي السرر لقيت نفراً من الحبشه فراقتهم فسألوها فنظروا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظراً شديداً ثم نظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه والى حمرة في عينيه فقالوا: هل يشتكى عينيه؟ قالت: لا ولكن هذه الحمرة لا تفارقهما، قالوا: هذا والله نبي فأتت به أمه ثم رجعت به معها فمررت يوماً بذى المجاز وبه عراف يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم فلما نظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى الحمرة في عينيه وإلى خاتم النبوة صاح: يا معاشر العرب اقتلوا هذا الصبي فليقتلن أهل دينكم» أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن طريق الواحدى.

عرفاف في ذى المجاز وهو سوق مثل عكاظ ومجنة عرضته حليمة عليه فلما رأه ملأ الذعر حنايا صدره فصاح مطالباً بقتله ولعل هذا الخبر يبرز لنا الفرق بين أهل الكتاب والعرافين، فالنفر الأحباش نصارى فلما نظروا إليه وعاينوا العلامات الجسدية أو الحسية أو العينية تيقنوا أنه «المأمول» الذى طال انتظاره وأخبروا ظئره بذلك فى حين أن العراف حرض على قتله وفيما بعد سجل القرآن المجيد للنصارى أنهم أقرب موعدة للذين آمنوا.

«فى حديث الزهرى أن حليمة نزلت به عَنِ الْحَلِيَّةِ سوق عكاظ فرأه كاهن من الكهان فقال: يا أهل السوق اقتلوا هذا الغلام فإن له ملكاً فزاغت به حليمة فأنماه الله منهم»^(٥٣).

تشابه هذا الخبر مع الخبر الثانى الذى أورده السيوطى فى «الخصائص الكبرى» فكلاهما عن الزهرى وهو من سادة التابعين وأن الحديث وقع فى عكاظ ولم ينسب الكاهن مما يرجع أنهما خبر واحد ولكن خبر السيرة الشامية لم يضف إلى واقعة التحرير على القتل شيئاً.

• • •

«عن أبي نعيم أن حليمة مرت بذى المجاز وهى راجعة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبه عراف يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم فلما نظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحرمة بين عينيه وإلى خاتم النبوة صاح: يا معاشر العرب اقتلوا هذا الصبي فليقتلن أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمره عليكم فانسلت به حليمة»^(٥٤).

نحن نرجح أن هذا الخبر هو ذات الخبر الأول الذى أخرجه أبو نعيم فى الحلية عن طريق الواحدى، وقد أوردناه هنا بعد أن حمله مصدران من المصادر المعتبرة ومن ثم فقد أصبح موثقاً.

• • •

ونختم هذه المجموعة بالخبر الآتى:

«أخرج ابن سعد عن أبي حازم قال: قدم كاهن بمكة ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن

خمس سنين فنظر الكاهن إليه وهو مع عبدالمطلب فقال: يا عشر قريش اقتلوا هذا الصبي فإنه يقتلكم ويفرقكم فلم تزل قريش تخشى من أمره ما كان الكاهن حذرهم^(٥٥).

يمتاز هذا الخبر الخاتم بأمررين على قدر لا بأس به من الشانة:
الأول: أن «رحمه العالئين» عاينه الكاهن وهو في معيه جده عبدالمطلب بخلاف الأخبار السوابق عليه فحليمة هي المرافقة له.
الآخر: أن التحرير على القتل من قبل الكاهن تم في قلب قرية القدس ذاتها.

• • •

سؤال لابد أن يثور في ذهن القارئ اللوذعى: ما هي الصلة بين هذه التحريرات التي أصدرها الكهان والعرفون وبين التجربة العظمى التي نفذتها الهندوز بقدرة وحنكهة؟

الذين دعوا الناس لإزهاق روح **سيد الأولين والآخرين** هم كهان وعرفون أي يحترفون عمالة دينية حتى ولو أنها ارتبطت بالأوثان فعبادتها ديانة ولو أنها باطلة وفسيدة وهم يزعمون أن لهم صلة ما بالسماء ومن ثم فإن أقوالهم وأفعالهم ليست عادية وتلفت النظر وتشد الانتباه.

ثم إن ما طالبوه به أمر غير عادي وهو القتل: قتل طفل مرة وهو رضيع وأخر وهو صغير لم يرتكب أي جريمة تستوجبه ولم يتعود الناس منهم أن يدعوهם إلى إزهاق روح أحد وأن يتم الطلب بصورة عصبية كلها تشنج وتوتر. وتكررت التوازن مع شخص واحد لا مع عدة أشخاص . وإذا لم تسمع الطاهرة بوحدة أو اثنين منها فمن غير المعقول أنها لم تسمع عن باقيها خاصة وأن الأخيرة حدثت في قلب مكة وفي مواجهة عبدالمطلب كبيرها وزعيم قريش. فكيف تنقطع صلة هذه الأخبار بالتجربة وبطليها وهو ذات الشخص الذي طفت تركز عليه ومن ثم بدأت الحدوس «جمع حدس» تترسب في وجданها قبل عقلها مؤكدة أنه هو المأمول والمنتظر؟

• • •

وفي نهاية هذه الفاصلة: إن تردد حليمة بـ«الصادق والمصدق» على العرافين والمتكهفين وعرضه عليهم من قبلها لمعرفة طالعه وكثرتهم يتركزون في الأسواق والمواسيم والتجمعات دليل قوى على أن ذياك المجتمع يؤمن بالخرافات وغير المعقولات واللاماورائيات والعالم غير المنظورة والكائنات غير المرئية، وهذه سمات المجتمعات البدائية والمتخلفة مما يحسب لـ«صاحب الخاتم» أنه في دعوته التي بشر بها أنه حاول القضاء على تلك العادات الذميمة.

• • •

جامعات الخوارق والمدهشات والأعاجيب «الأسوة الحسنة» بعد أن تخطى مرحلة الطفولة إلى الصبا:

«كان قوم من يهود يختلفون ينظرون إليه «عندما أخذته أمه آمنة لزيارة أخواله في يثرب» قالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول هونبي هذه الأمة وهذه دار هجرته . فوعيت ذلك كله من كلامهم ثم رجعت به إلى مكة فلما كانت بالأبواء توفيت أمه آمنة...»^(٥٦).

توفيت آمنة «أم محمد» وهو في مدارج الصبا المبكر . والواقعة التي يحملها الخبر حدثت في قرية يثرب قبلها مباشرة حيث حملته لزيارة بنى النجار أخواله ولزيارة مثوى أبيه عبدالله وهناك رأه نفر من يهود حيث يقطنونها وحضورهم فيها غليظ بخلاف مكة فعرفوا أنه القادم الذي طال صبر العرب في التشوف إليه وصرحوا بذلك وسمعتمهم أم أيمن التي طالما قال عنها إنها أمه بعد أمه وطفق بيبرها ويكرمها وفاءً منه إذ إنه أعظم الأوفياء وأوسع العظماء ومن بعد فعله خليفاته التي أبوا بكر والعدوى عمر وأضاف النفر اليهود أن يثرب هي مهجره^(٥٧).

وقد وعنه «الخبر» أم أيمن ومن البديهي أنها عندما وصلت به مكة حكت هذا الخبر لكل من قابلها وخصوصاً الإمامين من أمثالها وأبلغته إلى سيداتها في بيوت عظاماء مكة ولاشك أن أم هند سمعت به وقد تجاوز عمرها العشرين أما في رأينا فإنها تخطت الخامسة والعشرين.

واقعة أخرى ترويها أم أيمن عن خارقة حدثت لـ«الذى سيقه على عاتقه» وهو في دور الصبا ولو أنه وصل إلى عمر متقدم عن عمره وهو في يثرب عندما بشر به اليهود: «عن أم أيمن رضي الله عنها أنها قالت: كان بوانة عيداً تحضره قريش وتعظمها وتتسكع أى تذبح له وتطلق عنده وتعكف عليه «على الصنم بوانة» يوماً إلى الليل في كل سنة فكان أبو طالب يحضره فكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد فيأتيه ذلك حتى قالت: رأيت أبو طالب غضب عليه ورأيت عماته غضباً عليه يوم إذن أشد الغضب وجعلن يقلن: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا: ما ت يريد يا محمد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً . فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرجعوا فزعاً فقلن ما دهاك؟ قال إني أخشى أن يكون بي لم «مس من الشيطان» فقلن ما كان الله ليبيتك بالشيطان وفيك من خصال الخير فما الذي رأيت؟

قال: إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل «وذلك من الملائكة» يصبح بي وراءك يا محمد لا تمسه . قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تتبأ بِكَلَّهُ^(٥٨).

• • •

إن الخبر متصل بالمعطيات النفيضة ففى فاتحته أن بوابة عبد تعظمه قريش وتسك «تحر الأضاحى» وتحلق عنده وتعكف وكل هذه الشعائر انتقلت إلى الديانة الإسلامية فالتعظيم والذبح والحلق من الطقوس الجوهرية التي تعد ضفائر مهمة فى نسيج الحج الركن الخامس فيها أما الاعتكاف فهو من السنن والتي يقوم بها تبع محمد وترتفع رتبته فى شهر الصيام الركن الرابع وجمعيتها تؤكد ما سطرناه فى كتابنا «الجدور» أن الإسلام انتقش كثيراً من الطقوس والشعائر التي هيمنت قبل ظهوره فى مكة خاصة والحجاز عامة ونسبها إلى نفسه^(٥٩).

وفي الخبر أن عمات **صاحب النسب الموصول** غضبن عليه أشد الغضب وهاتيك العمات وكن كثيرات هن اللاتى عملت لهن سيدة نساء الأرض ألف حساب وهن تسعى لتكلحة وتقدو بعله إذ فى حسبانها أن يقلن له ما الذى يدعوك للزواج من أيم فى عمر أمك وتأثيرهن عليه واضح فى أنهن ضغطن عليه حتى رضى بحضور عيد بوابة «فلم يزالوا به حتى ذهب» كما أن منظر عودته لهن مرعوباً فزعاً عندما طفق «رجل أبيض» يصبح به: وراءك يا محمد لا تمسه.. هذا المنظر يذكرنا بمنظره عندما رأى فى المنام ملاك الرب فى غار حرى وهو يأمره بالقراءة: اقرأ.. فاستيقظ وهو رول إلى خديجة ترجم بوادره، وفي رواية سبق لنا سطيرها يزحف على يديه ورجليه.

● ● ●

وهذا المنظر: منظره فى بوابة عائدًا لعماته ومنظره بعد يقطنه من رؤيا غار حراء العجيبة يوثق ما سبق لنا أن قررناه أن **«قمة نؤاية قريش»** لم يعرف عنه أى اتجاه دينى قبل أن تدخله الطاهرة التجربة الفادحة لأنه ببساطة شديدة لو امتلك رصيداً فى هذا المجال لما أفزعه «الرجل الأبيض» بطل واقعة «عيد بوابة» ولما أحافره ملاك الرب الذى أتاه وهو مستفرق فى النوم فى قمة جبل حراء ولادرك على الفور لا على التراخي أن لهما صلة بعوالم خبيئة مستترة ولعل ما نرقصمه يزدادوضوحاً إذا قارناه بموقف سيدة نسوة قريش إذ فور ما أخبرها عن منام حرى حتى طفت تهدئه وتطمئنته لأن لديها خلفية راسخة وهى ثقافتها الدينية العميقية التي تلقتها من ابن عمها النصرانى ورقه ومن الحلقة الخارجية «بحيرى نسطور، عadas».

ورد العمات على **«أول من يقيق من الصعقة»** عندما صاح: إن أخشى أن يكون بي لم فقبن.. ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير، يعيىد إلى ذاكرتنا رد الطاهرة.. والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصدق الحديث وتكتسب المعلوم وتعين الكل... إلخ «وهي خصال الخير» مما يتصدق علينا بدالة عميقة وهي اعتقادهم بالربط بين سلوك الشخص وما يناله من جزاء.

ورد في الخبر أن الذى صاح في «الزمل» وراءك لا تمس الصنم أو الوثن هو رجل أبيض وهو ما استقر في الوعي الجماعي أن الكائنات الطيبة والخيرة بيضاء أو تلبس ملابس بيضاء^(١٠).

وأخيراً فإن حضور «الأمين المأمون» لم يأت عن رضى و اختيار وطوعية بل بضغط عمه وكافله أبى طالب وعماته الأمر الذى يؤكّد أنه عاش بعيداً عن الدنس الذى تمرغ فيه أصحاب فترة ما قبل الإسلام^(١١) حتى تلقيته سيدة قريش بأسرها وخاضت معه أروع التجارب التى عرفها العرب.

● ● ●

وعيد بوانة وقد أفصح عن أهميته سياق الخبر يشى بأن القرشيين على بكرة أبيهم اعتادوا حضوره وشهود مراسمه وعندما تقع تلك الحادثة الغريبة لـ«محمود» فمن المرجح أن تغدو موضوع حديث الذين شهدوا العيد الوثنى المهم وعند عودتهم لمنازلهم بعد انتصاراته يتداولون ما رأوه وسمعوا من طرائف وقعت وعلى رأسها ظهور «الرجل الأبيض» الذى حذر سيد ولد قصىٰ من لبس الوثن. وهل ثمة أغرب من هذه الأحداث؟ وبذل يحق لنا أن نسطر أن سماع خديجة إياها مسألة كبيرة الاحتمال.

● ● ●

«قال ابن سعد عن عمرو بن سعيد إن أبا طالب قال: كنت بذى المجاز مع ابن أخي يعني النبي ﷺ فأدركتنى العطش فشكوت إليه فقلت يا ابن أخي قد عطشت وما قلت له ذلك، وأنا أرى شيئاً إلا الجزء قال: ركبته ثم قال: يا عم عطشت؟ قلت: نعم فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا أتاب الماء فقال: أشرب فشربت»^(١٢).

هذا الخبر أورده صاحب السيرة الشامية وابن سعد في طبقاته الكبرى والكتابان يحظيان بتقدير وفير في دنيا الثقافة الإسلامية بعامية وفي نطاق السيرة المحمدية المجيدة بخاصة وهو = الخبر يحكى لنا عن معجزة وقعت لـ«سيد خير البرية» إذ فجر الأرض بعيه فانجست عين أو بئر شرب منه عمه وكافله أبو طالب حتى روى بعد أن كاد يهلك عطشاً وبعد أن ركب الجزء.

● ● ●

«قال ابن الجوزي في الوفا: لما آتت لرسول الله ﷺ بضم عشرة سنة في سفر مع عمه الزبير فمروا بواط فيه فحل من الإبل يمنع من يجتاز فلاما رآه البعير بررك وحک الأرض بكلكله فنزل عن بعيه وركبه فساروا حتى جاؤوا الوادى ثم خلى عنه فلما رجعوا من سفرهم مروا بواط مملوء ماء يتدفق فوقوا. قال رسول الله ﷺ: اتبعوني ثم افتحتمه فاتبعوه فأبيس الله الماء فلما وصلوا إلى مكة تحدثوا بذلك فقال الناس إن لهذا الغلام شأنًا»^(١٣).

هذه واقعة معجبة أو هما واقعتان مدهشتان جرتا على يد «صاحب الخلق العظيم» وعنه بضع عشرة سنة وهو في سفرة مع عمه الزيير وجمع من قريش ذلك أن فحلاً هائجاً يقطع الطريق ويمنع من المرور فما إن رأه البعير حتى استيقق بل برك وحك الأرض بكلله فنزل من دابته وامتطاه وبذا استطاع الركب المصاحبون له أن يواصلوا سيرهم.

● ● ●

وهم في طريقهم مرروا بواي يفيض ماءً فتعدن عليهم المسير فتوقفوا خشية الغرق فتقدّمهم «بيان العرب» بكل جسارة واقتصر الماء فحدثت معجزة إذ جف الماء وتحول الوادي الغزير الماء إلى أرض يابسة فواصلوا سيرهم في أمان. الذين شهدوا وعاينوا بأبصارهم ولبسوا بأنفسهم عندما عادوا إلى قرية التقديس مكة تحدثوا به إلى كل من قابلهم وهذا ما ورد بالخبر وليس تخميناً أو حداً، والذين سمعوا هذه الأخبار الخارقة لكل ما ألفوه صاحوا معجبين «إن لهذا الغلام شأنًا».

● ● ●

وما دامت بكة كلها تناقلت هذه المعجزات فلا مشاحة أن أم هند علمت بها شأنها شأن أي فرد في القرية المباركة وفي ذيak الوقت جاوزت الثلاثين في مذهب من يرى أن الفارق العمري هو خمسة عشر عاماً ونحن نرى أنها ناهزت الأربعين وعلى كلا الفرضين فهي في قمة نضجها العقلى والوجدانى والنفسانى.

فقدرت هذه الأخبار حق قدرها ووضعتها بجوار مثيلاتها وسائرها عاضدها على اختيارها لـ«المعطى مفاتيح خزائن الأرض» كما تخوض معه التجربة.

● ● ●

في مسيرة حياة «المزمل» وقائع صغيرة بيد أنها تشي بأن الخوارق لازمته ولم تفارقه ليؤكد أنه هو «القادم المأمول» الذي تقطعت الأعناق في انتظار ظهوره والذين فعلوا هم فئة المتفقين أو الأنجلوسياسيا العرب بعد أن اتصلوا بأهل الكتاب وعلموا منهم بأنه قد أطل زمانه وعلماء أهل الكتاب رهبان وأحبّار وقساؤسه بل والكهان سدنة الأصنام حسب ما ذكره الإخباريون.

ومن هذه الخوارق الصغيرة ما حدث له وهو صبي يافع يلعب مع لداته لعبة نقل الأحجار التي تستلزم أن يخلع الواحد منهم إزاره ويضعه على عاتقه ليقوى به قسوة مس الحجارة وما تسببه من خدوش وتسخّات وجروح... إلخ.

وهنا تكتشف عورته ويراها أقرانه وغيرهم من المارة وعابري سبيل والقارئ الذي لا معرفة له بأحوال المجتمع المبتدى يدهش ويسأل كيف: ألا يرتدى الواحد منهم لباساً يستر عورته؟

وتأتى الإجابة هنا بالنفي ففى المجتمع المبتدى لا يعرف رجاله ونسوانه السروالات لا فى داخل الخيام والأخبية والمنازل والدور ولا فى خارجها إلا استثناء، والاستثناء لا يقاس عليه ولو لاما مخافة الإطالة والخروج البين على السياق لأوردننا وقائع مشهورة مؤيدة ولعل تعود أبناء مجتمعهم إناثاً وذكوراً على البقاء بدون سراويل وهو أحد الأسباب المهمة «ولا نقول السبب الوحيد» فى التهاب الغريرة الجنسية لديهم وتماس النوعين بمنتهى السهولة^(٦٤).

● ● ●

ونعود إلى السياق:

وإذ لا يليق بـ«القادم المنتظر» أن يرى الناس عورته . فما إن فعل «أول من يفيف من الصعقة» حتى لكمه لاكم غير منظور بقسوة وأمره بأن يشد إزاره عليه فامثل وطفق من دون زملائه يحمل الأحجار على عنقه رغم ما فيه من عنت ومشقة عليه.

قال ابن إسحق: وكان رسول الله يحدث عما كان يحفظه في صغره من أمر الجاهلية أنه قال: لقد رأيتني في غلامان من قريش نقل الحجارة لبعض ما يلعب به الصبيان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة فإني لأقبل معهم وأدبر إذ لكمي لاكم لكم شديدة ثم قال شد عليك إزارك، قال فأخذته على ثم جعلت أنقل الحجارة على رقبتي وإزارى على من بين أصحابي...»^(٦٥).

إن لعبة الأطفال الصغار بنقل الحجارة لعبة قاسية ولكنها تتفق مع مستوى البيئة الصحراوية المتوجهة الخشنة ومع الدرجة الحضارية العجفاء للمجتمع المختلف.

كما أن اعتياد الصبيان على كشف عوراتهم بحضور لداتهم والسابلة يؤكّد مألفويته عندهم وعدم عدّه عيباً أو إخلالاً بالحياء أو خروجاً على الأدب ويقدم لنا مقطعاً من أخلاقيات تلك النوعية من البشر.

ويؤكّد لكل من له عينان مدى النقلة الحضارية التي نقلهم إليها «سيد الخلق» بإعلانه الديانة الإسلامية التي دعا إليها.

● ● ●

ثم تكررت ذات الحادثة وهو مع عمّه وكافله وحاميه أبي طالب إبان مساعدته في معالجة البير المقدسة زمزم ونحن نعرف أن الذي حفرها عبد المطلب والد عبد مناف «أبي طالب» وجده «الحبيب المصطفى» ومن ثم فإن رعايتها والعناية بها فرض واجب عليهما وعلى كل هاشمي:

«أورد الحلبى في سيرته أن هذه الواقعة حدثت لـ«صاحب القبلتين» وهو غلام في كفالة عمّه أبي طالب الذي طفق يعالج زمزم وأخذ هو يساعدته بنقل

الحجارة فأخذ إزاره ليتلقى به الحجارة فوقع له ما فصله الخبر السابق»^(٦٦).
ولم يشفع لـ«أحمد» أنه اشتغل لصالح أكثر البيار قداسة سواء قبل الإسلام
أو بعده فإنه في نظر الكائنات العلوية التي تكلاه بحفظها ليس مبرراً لإظهار
عورته لأن ذاته مصونة على أي حال وأنشاء أي عمل حتى لو اتصل برمز مقدس.

• • •

وفي مرة ثالثة رفع «أول من تنشق عنه الأرض» إزاره فانكشف فوقعت عليه
القوى اللامرئية جزاءً من نوع آخر بخلاف المرتين السابقتين أشد وأنكى
«السقوط مغشياً عليه» وهذا راجع طبقاً لما نرجحه أن الجزءين الأول والثانى لم
يكفاه عن تكرار العمل الذى نبهه الهاتف المخبوء إلى خطئه.
ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة فى حياة الرسول ﷺ مبينة لهذه القاعدة
فيقول: «وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة
فجعلها فى إزاره فانكشف فسقط مغشياً عليه حتى استتر بizarه»^(٦٧).
خلف العباس والده عبدالمطلب فى رعاية أمور الكعبة ويدو أنها فى ذيak
الوقت احتاجت لبعض الترميم لا بنائهما بناءً كلياً لأن بناء الكعبة حدث مرات
معروفة ليس من بينها واحد تم على يد العباس ولا بمعرفة عبدالمطلب أبيه.
واستدعي الأمر أن يساهم أى يقدم «المحمود فى الأرض والسماء» يداً بل ربما
هو الذى تطوع لما عرف عنه من أخلاق رفيعة.
فما إن رفع إزاره ووضعه على عاتقه ليتلقى به مس الأحجار حتى انكشف
سقط مغشياً عليه حتى أرخى عليه إزاره واستتر به.

• • •

إن الكعبة قدس الأقداس إن فى الإسلام أو قبله وترميمها عمل طيب يثاب
عليه من ينجزه لا أن يعاقب إنما «المتصور بالرعب قرابة شهر» أشد حرمة منها
ومن ثم لا يجوز له كشف عورته ولو فى سبيل إصلاحها ولذا فإن سقوطه
مغشياً عليه هو الجزاء الواقف كيما لا يعود إلى مثلاها أبداً وهو ما تم بالفعل.
وختاماً لهذه الفقرة فهذه الحوادث وهى غريبة من اللازم شيواعها بين أهل
بكة وترتيبها عليه لابد أن الطاهره قد أحاطت بها خبراً.
هذه محطة مهمة فى صبا «الحاشر» وعمره آنذاك جاوز الثانية عشرة بقليل
ولو أن البعض ذهب إلى أنه لم يتح الخط العاشرة بيد أنه قول ضعيف.
وهي تتمثل فى رحلته أو سفرته مع عمه أبي طالب وعدد وفيه من أشياع
قرיש مع القافلة المتجهة إلى الشام وهى «رحلة الصيف» حسبما أسمتها
القرآن الكريم فى سورة قريش.
وترجع أهميتها لما وقع فيها من أحداث وأقوال وأهمها مقابلة بحيرى
الراهب ولو أنه من الصعب أن نجزم هل هو مقدم الحلقة الخارجية التى

أحاطت بسيدة نساء الأرض والذى أمرها بمباغلة «البشير» والذى كتب إلية أو ركبت إلية حتى الشام لتأخذ رأيه فى الرؤيا المنامية التى قصها عليها بأن الملاك جبريل ظهر له وهو نائم فى غار حراء وحفظه الشطر الأول من سورة «اقرأ» أول سور القرآن العظيم التى تلها أولاً على خديجة ثم صحابته من بعده. وهل هو أسقف عموم الحجاز أم أن الأسقفية اقتصرت على مكة أم هو راهب غيره.

والسبب فى عدم الجزم هو أن مصنفات سيرة محمد التى هى أطيب ريجا من المسک الأذفر عجزت عن أن تضبط أسماء كثير من ظهروا فيها حتى أبناءه.

● ● ●

وعلى أى حال فإن هذا الراهب هو الذى سعى بذاته لـ«القادم المنتظر» وأعلن أنه كذلك على رؤوس الأشهاد وعلى مسمع ومرأى من أشياخ قريش وعشرات غيرهم من أفراد القافلة الأمر الذى أدهشهم وحيرهم فى آن واحد.

● ● ●

وفي إحدى فوائح الكتاب رفينا الستار عن خطل رأى بعض المستشرقين الفطير الذى ذهب إلى أن الراهب فى هذا اللقاء انفرد بـ«صاحب الشملة» ولقنه الموضوعات والمبادئ والقواعد والأصول والأسس... إلخ التي اعتمد عليها القرآن المجيد، ولقد فندناه وكشفنا عواره وبينا فسولته وأوضحتنا ركته.

● ● ●

والآن حان الوقت لرقم خبر هذه الرحلة^(٦٨)، وذلك كى يطالع القارئ بنفسه ويدرك ثراء الخبر بمعطيات بعيدة الغور هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليقتنع بأن ذلك النفر من المستشرقين جانبه الصواب وزايده التوفيق وفارقه الصدق عندما فاه بالرأى الطفس، وخبر هذه الرحلة لا يخلو منه مصنف تراشى أو حديث ولكننا آثرنا الرواية التى حملتها سيرة ابن هشام طليعة السير وأحظاهم بالتقدير: فضلاً عن اختصاره وتركيزه بالقياس إلى نده الذى انضوت عليه السيرة الحلبية:

«قال ابن إسحق: ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجر إلى الشام فلما تهيا للرحيل وأجمع المسير صب به رسول الله ﷺ فيما يزعمون فرق له وقال والله لآخرج به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبداً أو كما قال. فخرج به... فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له وكان أعلم أهل النصرانية ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب إليه يصير عليهم عن كتاب فيها، فيما يزعمون يتوارثونه كابرًا عن كابر، فلما

نزلوا ذلك العام ببحيري وكانوا كثيراً ما يمرون به من قبل ذلك فلا يكلهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شيء رأه وهو في الصومعة، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في الركب حين أقبلوا وغمامه تطله من بين القوم، قال: ثم أقبلوا فنزلوا في شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامه حتى أظلمت الشجرة وهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها فلما رأى ذلك بحيري نزل من الصومعة وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معاشر قريش فأنا أحب أن تحضروا صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم: والله يا بحيري إن لك لشأننا اليوم ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟ قال له بحيري: صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحبت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم، فاجتمعوا وخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة. فلما نظر بحيري في القوم الصفة التي يعرف ويجد عنده فقال: يا معاشر قريش ألا يتختلفن أحد منكم عن الطعام، قالوا له: يا بحيري ما تختلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحده القوم سناً فتختلف في رحالهم، فقال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال: فقال رجل من قريش يا قوم واللات والعزي إن كان لؤم بنا أن يتختلف ابن عبدالله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم»^(٦٩).

إن كتاب «الروض الأنف» للسهيلى هو أمير الكتب المعلقة أو الشارحة لسيرة ابن هشام ومن ثم فإننا نرتدف ما جاء به بخصوص هذه الرحلة المعجبة كتمة له:

«روى الترمذى فى مصنفه قال: حدثنا الفضل بن سهل أبو العباس الأعرج البغدادى.. عن أبي إسحاق عن أبي بكر أبى موسى عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحطوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، فجعل يتخللهم الراهب وهم يحلون رحالهم حتى جاء فأخذ بيده رسول الله ﷺ وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له: أشياخ من قريش، ما علمك؟ فقال إنكم حين أشرفتكم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خرّ ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل غضروف كتفه غضروف مثل التفاحة. ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به وكان هو في رعية الإبل قال: أرسلوا إليه فأقبل عليه غمامه تطله فلما دنا من القوم وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس

ومال فى الشجرة عليه، فقال انتظروا إلى فى الشجرة مال عليه. قال فبينما هو قائم عليهم وهو ينادهم ألا يذهبوا به إلى الروم إن رأوه عرفوه بالصقة فيقتلونه.. قال: أشدهم أيكم وليه؟ قالوا أبو طالب فلم يزل يناده حتى رده أبو طالب.. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب^(٧٠).

وهكذا يبين أن الخبرين يكمل أحدهما الآخر ومعاً يوضحان قسمات ما أطلق عليه مصنفو السيرة العطرة «رحلة الشام الأولى» تمييزاً لها عن «رحلة الشام الأخرى». الثانية التي صحب «المغضوم عن الناس» فيها ميسرة غلام «عبد» خديجة النصراني.

● ● ●

وأول ما نبدأ به في تحليل الخبرين الخاصين بهذه السفرة أو الرحلة هو التساؤل: هل بحيرى هذا هو رأس الحلقة الخارجية التي تحوطت خديجة وشكلت مرجعيتها في الشئون الثقافية وهل هو الذي أصدر إليها أمره صريحاً بأن تتكح «راكب الحمام» وتقدو هي له بعلاً وشاركه في هذه النصيحة غلامها النصراني ناصح عضو الحلقة الداخلية. والذى يؤكّد الإجابة بنعم هو أن أم هند صرحت لبعولها «التنين» بعد أن نكحته أن الأمر أو المشورة مضت عليها عشرون حولاً. فإذا لم يتجاوز وقتها الثالثة عشرة فمعنى أنه عندما أخبرته بالمشورة بلغ الثالثة والثلاثين أي مضى على نكاحها إياه ما يقرب من عشر سنوات، أي سلخ في التجربة ما يزيد على سبعة أعوام إذ من العسير مصارحته قبلها.

ونستمر في السياق فتسأل هل بحيرى هذا هو ذاته أسقف الحجاز أو مكة؟ الإجابة على هذه الأسئلة بردود قواطع أمر وعر غالية ما تجيء الوعورة ومرجعه كما قلنا: افتقار أصحاب السير للدقة ولأنهم عرب وعهدتهم بالعلوم وتدوينها قريب.

● ● ●

ورد في القصة أن «السلجد» أنه ما إن قرب من الشجرة الكائنة في حرم صومعة الراهب وجلس تحتها حتى أظلته وتهصرت أغصانها ومال فيئها عليه وليس هذا فحسب بل إن الراهب اتخذ دليلاً على أن «سبيل الله» هو الذي طال انتظار الناس لقادمه وفي روایات أخرى بأنه ما جلس تحت الشجرة إلا نبي أي أنها مقدسة.

والشجرة المقدسة حالياً ترتبط بأضرحة أولياء الله الصالحين فهناك العديد منها يضم حرمها شجرة من هذا النوع يتبرك بها الناس وقد ينسبون إليها بعض الكرامات، وهذا لا شك ميراث من العقائد السوابق «الأشجار المقدسة» التي ترتبط بضريح أحد الأولياء ارتباطاً وثيقاً به حيث إن الولي وروحه لا تكون لها أي فاعلية أو تأثير إلا من خلال الشجرة وفي هذه الحالة تظل

الرابطة بين الولي والشجرة شديدة القوة بحيث تصبحان شيئاً واحداً تقريباً ولا يكون للولي وجود إلا بسبب من الشجرة والعكس بالعكس»^(٧١).

والدور الذي لعبته الشجرة هنا هو أنها شكلت دليلاً ثابتاً على أن «المانع» هو «المأمول» وتقديس الأشجار إرث من الديانات السامية القديمة، وقد درج عرب ما قبل الإسلام على تقديس الأشجار بل تعبد هم إياها وأبرز مثل نقدمه «ذات أنواط» فهي شجرة كانت بالقرب من مكة وكانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيمًا لها فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها»^(٧٢).

● ● ●

والشجر الذي حول الكعبة فيه قدر من القدسية فلا يقطع ولا يعنصر وقد انتقل تقديره إلى الإسلام من الحقبة التي تقدمته «ولهذا كانت أشجار حمى الكعبة أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها...»^(٧٣).

وفي حي المطرية بالقاهرة توجد شجرة ينظر إليها أهلها بعين القدسية بمقدورة أن العائلة المقدسة «مرريم ويوسف النجار وابنها عيسى» قد استطاعت بأغصانها في الرحلة المباركة من الناصرة من أعمال فلسطين إلى صعيد مصر هريراً من بطش الطاغية الروماني حاكم فلسطين.

وهكذا فإن جلوس «الموقن» تحت شجرة حمى صومعة الراهب بحيرى أصبح مؤشرًا على أنه القadam الذى طال انتظاره، وثبت اليقين لديه بالإضافة إلى علامات آخر مثل: إظلال الغمام عليه فأخذه وأعلن صائحاً أو صاح معلناً وبأعلى صوته أن هذا سيد العالمين ورحمة الله لهم وأنه الذى انتظره هو وسلفه الذين سبقوه فى سكنى الصومعة وكذا عاين بين كتفيه خاتم النبوة فلم يعد لديه شك.

● ● ●

وإذ أطبق مصنفو السيرة المحمدية التى هى أطيب رائحة من زعفران قم على أن تظليل الغمامات عليه ثم الخاتم الكائن أسفل غضروف كتفه الشريف هما الآيتان اللتان دفعتا الراهب النصرانى على التصرير بأنه هو الذى تشوّف الناس إليه من آماد بعيدة، ولكننا نخالفهم فيه لأن الغمامات قد يقال إنها قطعة غيرها من مئات قطع السحاب التى تملاً السماء، أما الخاتم فما هو إلا قطعة لحم وكثير غيره لديهم قطع لحم زائد فى العديد من المواقع فى أجسادهم، إنما الذى لا مرية فيه هو جلوسه تحت ظل الشجرة «المقدسة» التى لم يستظل بها أحد بعد المسيح ابن مرريم سواه وتهصر أغصانها وميل فىئها عليه. فالكائن «المقدس» ما فعله إلا بأمر من السماء وإشارة من كائن علوى وبالتالي فهو ذاته شخص غير عادى له كينونة خاصة، ونحن نستند فى هذا إلى ما تقوله الأنثروبولوجيا عن مقام الشجرة لدى غالبية الشعوب فى عقائدها

و خاصة لدى الساميين و دياناتهم القديمة السابقة على الديانات السامية الإبراهيمية.

● ● ●

إنما الذي يعنينا في هذا الخبر و تكملته في المقام الأول هو أن ما صرخ به الراهب علانية ثم على مرأى و مسمع من جميع أفراد القافلة وعلى رأسهم «أشياخ قريش» بل إن بعضهم حاج بحيري و طلب منه البرهان على ما قاله إن «حبيب الله» هو سيد العالمين و المنتظر والرحمة المهداة من رب العالمين، «فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فرد عليه.

إن هؤلاء جميعهم عندما قفلوا راجعين إلى وطنهم مكة لابد أنهم أخبروا أهلهم و خلانهم وأصدقاءهم بما فعله الراهب معهم وما قاله في حق «أبي القاسم» لأن كلام غريب على أسمائهم، فهم قد مروا عليه عشرات المرات فلم يعبأ بأي واحد ولم يقدم لهم في أي مرة شريعة ماء قراح فما الذي دفعه هذه المرة على قراهم وعلى التفوه بما تقوه به؟ والذى أدلى بهذا الكلام ليس شخصاً عادياً بل هو راهب له باع طويل و قد راسخ في ديانة ابن مريم، وهؤلاء الأعاريб يكون احتراماً يفوق الوصف لهؤلاء «النصارى» خاصة لرهبانهم الذين «عندهم علم الكتاب» فحازوا رتبة منيفة، وهناك احتمال أن أشياخ قريش أولئك رأوا بحيري في مكة و غيرها من قرى الحجاز و علموا أنه أسقفها المجل. فيما الذي دفعه إلى قول ما قال في حق «راكب الأثان» إلا إذا قرأه في كتبهم المقدسة أى أنه حقيقة وهذا لا شك أثار دهشتهم.

وهذا الإكبار وهذه الدهشة هما اللذان دفعاهم إلى رواية هذا الحديث لكل من قابلهم وفي خيامهم وأخيتهم وبيوتهم ودورهم ومنتدياتهم ومجالس سمرهم التي لعبت دوراً بارزاً في نشاطهم الاجتماعي.

فسيدة نسوة قريش بطريق الحتم واللزوم سمعته من أبيها خوبيل أو عمها عمرو أو أخيها واسمه عمرو أيضاً أو غيرهم من رجال بنى أسد. وأمر متوقع أن أحدهم ضمته القافلة وسمع إعلان بحيري بأذنيه وعاين صنيعه بعينيه لاسيما وأن له في نفسها مكانة لا يساميها فيها أحد وما يصرخ به لديها يعتبر حجة مسلمة وكله غدا حافزاً لسعيها الحديث لنكاح محمد تفيضاً لقراره الذي أصدره من سنوات.

● ● ●

في روایات أخرى: انتهى بحيري بـ«المثبت» جانباً وسائله عن بعض أحواله واستحلله باللالات والعزلة فرفض أن يقسم بهما وأكد أنه يبغضهما بغضلاً لا مزيد عليه والأمور التي سأله عنها قصد منها مزيداً من التثبت والتتأكد أنه هو دون غيره الذي نصت عليه الكتب المقدسة وليرشحه لسيدة نساء قريش كيما

تتكحه وتصير بعله دون غلط لأنه شأن ذو خطر جسيم يتعين التثبت منه إنما بعض المستشرين الحاقدين على «المستعن» والذين وقعوا في حاص باص بشأن القرآن المجيد^(٧٤) وخابوا واختلفوا في معرفة كنهه وكيفية ظهوره وكيف أعلنه للناس «الراضع» فادعوا أن الراهب بحيري «أسقف الحجاز ومكة» هو الذي غذاه بموضوعاته وأنه هو الذي عبر عنها بلغته العربية الفصحى..

وهو زعم فسيد يبعث على الضحك حتى الاستقاء على القفا ..
إذ كيف في هذا اللقاء القصير يتمكن الراهب الأسقف أو الأسقف الراهب من تزويفه بكل هذه الموضوعات المختلفة والمتباعدة والمتعلقة التي احتواها القرآن الحكيم؟ وأنى لمحمد أن يستوعبها وهو في سنه الصغيرة «نسبياً» والمشار إليه آنفأ وأن يحتفظ بها في ذاكرته لمدة تزيد على ربع قرن، لأن الإجماع انعقد على أنه تلا أول سورة «أقرأ» وهو في الأربعين من عمره^(٧٥) ..
إن هذا الادعاء يثير الإشراق المقرن بالسخرية ويقطع بافلاس أولئك المستشرقين فكريأ، ونحن نتصح من بقى منهم على قيد الحياة وتلاميذهن ومشاعيهم ومقتفي آثارهم والسائرين على دربهم أن يقرأوا كتابنا هذا بدقة وإمعان وتأن لتتفتح بصائرهم ويعرفوا كم بلغت بهم العباءة عندما طرحوا رأيهم الفطير^(٧٥).

● ● ●

أسلفنا بعض الخوارق التي رافقت «الراضي» في صغره ويفاعته وصباه وكلها تؤكد مذهبنا أن الأعاجيب والمدهشات ظلت تحدّثه منذ قبل التقاء أبيه بأمه ثم بعده وفي مراحل المتعاقبة مرحلة إثر مرحلة وجميّعاً تقطع أنه «المُنتظر» والأهم أن خديجة طفت ترقبها وتلاحظها.

بيد أن التي رفعت كل شك هى المعجزة التي سوف نبحثها بقدر واضح من الإسهاب تستحقه لأنها غدت الباب الملكي الذي دخلت منه التجربة التي فاقت كل تجارب القرون الوسيطة في سموها وعظمتها.

● ● ●

من جماع ما تقدم من خوارق ومدهشات ومعجبات لفتت نظر خديجة وقد أوردنا أنها وضعت «المنقل» تحت رقبتها وقدمنا سندنا ودليلنا أخذ اليقين يتسرّب إلى داخلها أنه هو المأمول والمنتظر فأخذت تقترب منه كيما تختبره عن قرب لأن المعجزات وقد انتهت إليها ممن شق فيه واستفاضت وانتشرت فغدت أخباراً متواترة إلا أنه كما يقول المثل ليس الخبر كالعيان وليس راء كمن سمع، وحتى تنتقل من اليقين إلى عين اليقين كما يحكي السادة الصوفية بدأت باستئجاره ليخرج بشطر من تجاراتها إلى سوق حباشة وعند قفوته تتّنظره وقد خبأت له تحفة أو طرفة من طعام وقد أثني عليها خيراً لهذا الصنيع ووصفها

بأنها أحسن صاحب عمل وسبق طرح الأسانيد المؤيدة.

وفي أثناء تناول التحفة الأطروفة وتبادل الحديث تتفرس فيه وتلاحظه عن قرب، وهنا توثق لديها اليقين وبقى الارتفاع إلى موقف عين اليقين، فأرسلته أجيراً لها ليضارب في أموالها في القافلة المسافرة إلى الشام وقد بلغ نصيبها فيها شطر «نصف» عروضها وهو مال جسيم، وبعثت معه غلامها وموضع سرها ميسرة عبدها النصراني الذي يعمل لديها لستين عديدة لا يغدو عيناً عليه، حاشا وكلا فهو «الصادق الأمين» الذي اشتهر بالصدق في القول والأمانة في العمل، إنما ليربق أحواله الأخرى التي تهمها في المقام الأول وما يحكى عنه رهبان الشام النصارى والعبد المذكور ربطة بهم علاقة متينة لاتحادهم في العقيدة.

• • •

ولقد تحدثنا عن هذه الرحلة في الفصل الحامل العنوان «هذا الشاب لأبد أن أباًعله» من الزاوية الخاصة بموضوعه =«الفصل» بيد أن هناك زوايا أخرى يتطلب جوهر هذا الفصل «الحال» تمحيصها والتقصير فيها ولا نريد أن نكرر أن هذه السفرة هي الفرقان الذي فرز بين التردد والجسم والحقيقة والاطمئنان والتبخبط والاستقرار.

• • •

وخير ما نبدأ به هو رواية مقدم المصنفين في السيرة الحمديّة التي هي أطيب ريحًا من بخور الهند نعني سيرة ابن إسحاق: البحر الذي اصططف على ساحله من جاء بعده ليغترفوا منه.

حدثنا أحمد: حدثنا يونس عن ابن إسحاق قال: وكانت خديجة ابنة خويلد امرأة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم وكانت قريش قوماً تجاريًّا. فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة فقبله منها رسول الله ﷺ، وخرج في مالها ذلك ومعه غلامها حتى قدم الشام فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة من الرهبان فاطلع الراهب على ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

ثم باع رسول الله ﷺ سلطنه التي خرج بها واحتوى ما أراد أن يشتري ثم رجع قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة فكان ميسرة فيما يزعمون يقول إذا كانت الهاجرة في الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيده، فلما

قدم على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريراً وحدثها ميسرة عن الراهب وعما كان يرى من إضلال المكين إياه، وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة مع أراد الله عز وجل به من كرامته، فلما أخبرها ميسرة عما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم إنني قد رغبت فيك لقرابتك مني، وشرفك في قومك وسطتك فيهم، وأمانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسياً وأعظمهن شرفاً وأكثراً مالاً كل قومها قد كان حريصاً على ذلك.^(٧٦)

إن هذا الخبر كنز نفيس مليء بالمعطيات التي من الصعب استقصاؤها لذا سنكتفي ببعضها:

- الطاهرة هي التي سعت لاستئجار «صاحب الشملة» لصدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه فهذه هي صفات «القادمين والمأمول فيهم... إلخ» كما قرأتها في الصحائف المقدسة التي عرّبها ابن عمها ابن نوبل والتي درسها إياها أعضاء الحلقة البرانية، بيد أنه لابد من تكميلها بعلامات إيجابية هي التي سوف يخبرها بها عنه علماء نصارى الشام والتي سوف يحكيها لها عبدها المخلص ميسرة، أنه نزل في ظل الشجرة قريراً من صومعة الراهب ومنذ قليل رفعنا الستار عن أهمية الشجرة التي تقع في حرم الصوامع والأديرة والكنائس وحالياً في حرم أضحة الأولياء.

- إن الراهب أصبح بما يشبه الصدمة لأنه «ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي» وهذه أول الدلائل للوصول إلى درجة عين اليقين إذ صرخ «الراهب» ولم يجمجم أن «راكب الحمار» وقد فعلها فهو لابد أنه الذي طال انتظاره ونفذ الصبر في ظهور هلاكه.

- في الهاجرة منذ بدء الرحلة ما انفك ميسرة يرى ملوك إذا اشتد الحر وتفاقمت حمارة «شدة القيظ» يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره.

- ورد في الخبر أن سيدة نساء الأرض ما إن أخبرها الرقيق النصراني بالذى رأى وسمع حتى هرولت تخطب «صاحب النعلين» وتتقل إليه رغبتها في نكاحه وأن تصير له بعلاً.

• • •

عدد من المصنفات أكد أن عقدة النكاح انعقدت بعد حوالي شهرين فحسب وهنا يرتفع سؤال على مستوى رفيع من الواجهة: لم هذه العجلة؟ لأنها سعدت من درجة اليقين إلى التالية لها وهي عين اليقين فلم التريث والتأنى والتباطؤ.

هذا بالإضافة إلى الأسباب التي وضعنها في حجر القاري في فصل «هذا

الفتى» التي دعت الطاهرة إلى سرعة نكاحه ومباعلته.
يطلق على تفسير الطبرى «عمدة التفاسير» ونحن قلنا عن سيرة ابن إسحق
«عمدة السير» ورائتها بيد أتنا لا نكتفى بها بل نأتى ببعض ما جاء في عدد
من المصنفات عن هذه الرحلة الفارقة.

لماذا؟ لأنها ألقت الضوء على جوانب تجاوزها ابن إسحاق ونجد فيها أقباساً
منه تثير الطريق ونحن نمضى في التحليل.

- «في سفرته الثانية للشام لحساب خديجة قالت لغلامها ميسرة لا تعص
له أمراً ولا تخالف له رأياً... فخرج هو وميسرة وعليه غماممة تظلله وجعل
عمومته يوصون به أهل العير فخرج حتى قدم الشام فنزل في سوق بصرى في
ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له نسطورا فاطلع الراهب إلى ميسرة
فسأله عنه فقال: رجل من قريش، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط
إلا نبى أفى عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم لا تفارقه، قال الراهب: هو هو وهو
آخر الأنبياء ويا ليت أنى أدركه حيث يؤمر بالخروج»^(٧٧).

• • •

حمل إلينا هذا الخبر عدد من المصادر ذات قدر رفيع يجعل على رأسها
سيرة ابن هشام والسيرة الشامية وتاريخ الطبرى وعيون الآخر، ومرجعان يتعدى
علينا أن ندعى أنهما من المراجع العالية المكانة بيد أنهما نقلان من مصادر
محترمة.

وقد أهدوا لنا وقائع تخبيء مدلولات عميقة:

- ألم هند أصدرت أوامر مشددة لرقيقها النصراني ميسرة أن يطيع «الحبيب المصطفى» ولا يعصى له أمراً ولا يخالف له رأياً وهذا يدل على أنها لم ترسل عيناً عليه بل ليتعرف على أحواله الأخرى.
- اسم الراهب نسطور وسبق رصد الاختلاف البين في اسم الراهب الذي التقاه في سفرته الأولى.
- جاء ذكر الحمرة التي لم تفارق عينيه والتي عدها نفر من علماء أهل الكتاب علامة مادية أو جسدية لابد من وجودها في «الم المنتظر» ويبدو أنه منصوص عليها في كتبهم.
- نزوله تحت الشجرة التي يضمها حمى صومعة الراهب وأن ذلك دليل لا يقبل المماراة على أنه القادم المنتظر وأنه آخر المنتظرين «بفتح الظاء».
- تأكيد نسطورا أنه «هو» وأن يطول عمره حتى يدركه عندما يُؤمر بالخروج، وأن من نافلة القول أن نسطور أدق الرقيق النصراني أخبر سيدة نساء قريش بها جموعاً إذ إنها ما أرسلته معه إلا من أجلها «= الأخبار».
- ربط نسطور بين شجرة صومعته والنازل تحتها وصيروته الآتى الذي أمضهم

انتظاره.

- لم يذكر أن ميسرة رأى ملكين أظلاه من حر الشمس بل هي غمامات ولا معجزة فيها لأن وجودها أمر شبه مألوف ويمكن أن يُدعى أن القول بأنها خصت «المدن» بظلالها فيه قدر من التوهّم أو التخيّل.

أما أن ملكين هما اللذان أظلاه فمن الصعب تلقيه خاصة وأن سيدة قريش رأتهما وأرتهما نفيسة بنت منية «سفيرة الزواج» وسائر نسوانها وهن جلوس في علية الدار وهو أحد أسباب وصولها إلى حالة عين اليقين أنه «هو».

- فلما كانوا بمِرْ الظهران قال ميسرة للنبي ﷺ: هل لك أن تسبقني إلى خديجة فتخبرها بالذى جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكريتك، فركب النبي ﷺ قعوداً أحمر فتقدم حتى دخل مكة فى ساعة الظهر وهي فى علية «غرفة» لها معها نساء فيهن نفيسة بنت منية، فرأى رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه، فأرته نساءها فعجبن «تعجبن» لذلك .. فركب رسول الله وصعدت خديجة تنظر فرأته على الحالة الأولى فاستيقنت أنه ... هو».^(٧٨).

ونعود إلى سياقة الخبر الثاني:

إذا صع ما جاء به أن غمامات هي التي قامت بدور الإظلال فكيف نوفق بين الخبرين؟

كل المقصود أن قوة عليا سعت لحمايته فسخرت ما يمنع عنه حر الشمس الحارق فسيان تمثل في صورة ملكين يحملان مظلة أم فلا أهمية له.

بيد أن وجود الملكين المظللين هو الغالب لدى أمهات كتب السيرة التي هي أفيح من المسك الخالص.

● ● ●

«ثم انصرف أهل العير جميعاً وكان ميسرة يرى رسول الله إذا كانت الهاجرة واشتد الحريري ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره وكان الله تعالى قد ألقى على رسول الله ﷺ المحبة من ميسرة كأنه عبد لرسول الله ﷺ»^(٧٩).
فهنا ثلاثة كتب من أهم دواوين السيرة:

«سيرة ابن هشام» و«السيرة الشامية» و«طبقات ابن سعد الكبri» أوردت أن الملوك النصراني أحّب «صاحب الهراؤة» حتى تحول إلى رقيق له أو كاد.

إنما لم يؤثر على المهمة التي كلفته بها سيدته؛ فقد لازمه كظله لا يفارقه ومن ثم يعرف كل صغيرة وكبيرة عنه وهو ذاته ما هدفت إليه آلة الظاهرة وندبته إلية.

● ● ●

وهو ما حدث بالفعل ورأينا العبد النصراني يقص على مالكته وقائعاً بعضها لليس كبير الأهمية:

«ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها واشترى وكان بينه وبين رجل اختلاف فى سلعته فقال الرجل: احلف باللات والعزى. فقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهما قط، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة وخلاه: يا ميسرة هذا نبى هذه الأمة والذى نفسى بيده إنه هو تجده أحبارنا منعوتاً فى كتبهم فوعى ميسرة ذلك»^(٨٠).

الرجل هنا يستحلف «المزم» باللات والعزى فيرفض ولا غرابة فيه فقد عاش حتى الثامنة من عمره وهى سن الإدراك لا البلوغ مع جده عبد المطلب أحد الأحناف الذين نبذوا عبادة اللات والعزى وغيرهما، وبالتالي فإن الحلف بهما فى نظره كبيرة من الكبائر وركس من الشيطان.

• • •

أما عجز الخبر فهو الذى يستحق وقفة عنده:
كيف عرف الرجل أن «حمة الله للعلمين» هو الذى طال انتظاره، إنه ليس راهباً ولا حبراً بدليل قوله: «إنه هو تجده أحبارنا ... إلخ» فلو أنه منهم لقال: «الذى نجده منعوتاً فى كتبنا».

وما الذى دعاه للخلوة بميسرة لكي يخبره؟
هل هو سر؟ أم يتquin لا يسمعه «هو»؟ ولماذا؟
لا توجد إجابة مقنعة لهذه الأسئلة إنما الأمر المؤكد أن الرجل له معرفة سابقة بالرقيق إذ ناداه باسمه ثم خلا أو انفرد به شأن من يعرفون بعضهم بعضاً.

• • •

وآخر قليل الأهمية:

«و قبل أن يصلوا إلى بصرى أعبا بعيران لخديجة وتخلف معهما ميسرة وكان رسول الله فى أول الركب فخاف ميسرة على نفسه و خاف على البعيرين فانطلق يسعى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأقبل رسول الله ﷺ إلى البعيرين و وضع يده على أخفافهم و عوذماً فانطلقا في أول الركب ولهما رغاء»^(٨١).

وترجع ضالة هذا الخبر إلى أنه لا يرتبط ب مجريات السفرة ارتباطاً عضوياً إذ يمكن أن يحدث فى أى زمان وأى مكان ولكن ذكره للطاهرة قد يزيدها افتئاماً بأن «المطهر» هو المأمول وأن الحادث المعجب يضاف إلى رصيد الخوارق التي دأبت سيدة نساء قريش على اختزانها فى ذاكرتها الحافظة.

بيد أن عبارة وردت فيه شدت الانتباه وهى «وعوذماً» ولم يضف «بالله» وهذا يؤكّد ما ذهبنا إليه بعد استقراء سيرته التي هي أحلى من سكر الأهواز أنه قبل أن تتكحه خديجة لم يعرف له اهتمام عقائدى.

قال ابن إسحاق: «فَلِمَا رَأَتْ خَدِيجَةَ أَنْ تَجَارِهَا قَدْ رَبِعَتْ أَضْعَفَتْ مَا سَمِّتْ لَهُ وَكَانَتْ قَدْ ذَكَرْتُ لَوْرَقَةَ وَكَانَ ابْنَ عَمِّهَا وَكَانَ نَصَارَىًّا قَدْ تَبَعَ الْكِتَابَ وَعَلِمَ مِنْ عِلْمِ النَّاسِ مَا ذَكَرَ لَهَا غَلَامَهَا مِيسَرَةً مِنْ قَوْلِ الرَّاهِبِ وَمَا كَانَ يَرَى مِنْهُ إِذْ كَانَ الْمَلَكَانِ يَظْلَانِهِ». فَقَالَ وَرَقَةُ: يَا خَدِيجَةُ إِنَّ مُحَمَّداً نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَإِنَّهُ كَائِنٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ نَبِيٌّ مُنْتَظَرٌ هَذَا زَمَانُهُ وَقَالَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا»^(٨٢).

هذا الخبر الذي نختم به أقصوصة السفرة الثانية «الأخيرة» للشام يشكل بداية تعاون الهندوز واليعسوب في معالجة التجربة المدهشة.
إذ سبقت الزواج الميمون.

قبل قراءتي لهذا الخبر اعتقدت أن بدعها الفعلى وقع عند إتمام عقدة النكاح فى دار خديجة وقد رقمنا «كتبنا» التفصيلات فى حينه إنما بعد أن وقع بصرى عليه أدركت أن التعاون العملى انطلق من لحظة ذهاب أم هند إلى القس لتحيطه علما بدقة السفرة ففيها صرخ لها بأنه «هو» وأنه المنتظر وأنه خص بهذه الأمة.

وقد جاء فيه أن ما كان يطله هما المكان لا غمامه: مما يقطع بأن الخبر الذى ضم بين طياته مسألة الغمامه جانبته الصحة أو ربما هو سبق قلم وكما ذكرنا لا يغير من معنى الخبر.

إذ هذه هي رحلة الشام الثانية أو الأخيرة وكما استبيان تستأهل الوقفة المستأنية والتفصيل المطول والتحليل المستقصى لأنها شكلت مفترق الطرق إذ بما حدث فيها أرسست لدى الطاهرة عين اليقين أنه «هو»، الأمر الذى وزّها وعلى عجل أن تكحه وتصبح بعله ولتبدأ معه تجربة رائعة من أروع تجارب التاريخ الوسيط.

• • •

سؤال هام:

لماذا تجاهل كتاب السيرة المحدثون العجذات والخوارق . التي سبقت وواكبت وأعقبت ولادة محمد واستمرت معه في طفولته وصباه بل وشبابه والتي أثبتتها كتب التراث بكم هائل .

ولم أعرضوا عن التبيؤات التي أطلقها الكهان الوثنيون ورجال الديانتين اليهودية المسيحية عن قرب ظهور قادم جديد والعلماء التي يتميز بها؟
دعك من أخبار الجن وأشعارهم... إلخ مع أنها كلها جاءت في كتب تراثية على قدر وفير من الاعتبار والاحترام مثل مؤلفات ابن إسحاق وابن هشام والواقدى وأحمد بن حنبل وابن سعد وأبى نعيم والبىهقى والطبرانى والحاكم والدارمى وابن عساeker والسيوطى والقاضى عياض ومن بين رواتها رجال يحظون بدرجة عالية من التوفير مثل على وابن عباس وابن عمر وعائشة وعمار ثم الزهرى ومجاحد ونافع بن جبیر وعطاء، بل إن بعضًا إذا شئنا الدقة لا يأس

به من هذه المعجزات والخوارق والتبيّنات حملها عدد من الصحاح الستة على رأسها البخاري ومسلم؟

بماذا نعلل هذا المسلك من قبل هؤلاء الكتاب؟
هناك عدّة افتراضات:

أولها: العقلانية وهي أن هذه المعجزات والخوارق والتبيّنات لا تتفق مع العقل وتند عن المنطق وتبعد عن التفكير السليم.. إلخ وهذا في رأينا منهج فطير لأنّه يقيس عقلانية القرن السابع الميلادي بعقلانية القرن الحادى والعشرين هو قياس مع الفارق بل الصادع العميق لاختلاف الأحوال الثقافية والإدراكية والمعرفية والدرجة الحضارية بين كل منها..

فالمنهج العلمي السديد يتطلب وضع هذه الفروق في الحسبان.. وكما أنّ إنسان القرن السابع الميلادي - خاصة في منطقة الحجاز - له تقاليد وأعرافه وعاداته وأنساقه الاجتماعية والاقتصادية إلخ، وله طرائقه في المأكل والملبس والمركب.. إلخ إذن بطريق الحتم واللزوم لابد أن يكون له نظامه الخاص في التفكير والإدراك والفهم والاستبطاط.. إلخ وبإيجاز له عقلانية خاصة به.. وعلى هذا فقياس طرائق الإدراك والمنطق والمعقولية الخاصة بالقرن العشرين على مثيلاتها منذ أربعة عشر قرناً هو عقلانية متوجهة.

ثانيها: في رأيهم أن هذه المعجزات والخوارق والتبيّنات تغض من قدر محمد وقتل من مكانته وهذا افتراض ينافي المسلك الذي سار عليه محمد ذاته ذلك. إننا عندما نقرأ سيرته ولو حتى قراءة عجل نجد أنها انطوت على شطر وسريع من المعجزات والخوارق بدأت بمعجزة شق القمر في مكة والتي أشار إليها القرآن في إحدى سوره.. ثم استؤنفت تارة أخرى في منتصف المدة التي مكثها في يثرب واستمرت إلى ما يقرب حتى ساعة انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً^(٨٣).

ثالثها: إن جل الكتاب المحدثين ينظرون إلى هذا الجانب من المؤلفات التراثية نظرة تعال تصل إلى حد الامتنان والإذراء وهذا تصرف يتسم باللاموضوعية ربما ينبع دافعه من قبل الظاهر بالحداثة أو غيرها، وأياماً كان البعض الحديث عليها فإن اللاموضوعية تدمغها..

ليس معنى ذلك أننا ندعوا إلى الأخذ بكل ما في تلك المؤلفات وتبنيه والدعوة إليه.. فهذا ما لا يقول به من لديه أدنى مسكة من إدراك أو ذرة من عقل... ولكن ما نتطلبه من المحدثين أنهم عندما يتناولون بالدرس والتقدير والتمحيص مسألة تاريخية خاصة التي تتميز بالتوهج والطزاجة والبكارة والدهش.. إلخ إلا يغضوا النظر عن النوازل والأخبار والواقع التي سبقتها وحداثتها وأعقبتها والتي نفتحها فرادتها وخصوصيتها وتوحدها ذلك أنها تجربة معجبة ليس لها نديم أو نظير أو مثيل في التاريخ الإسلامي كله على طوله وعرضه.

إن فصم هذه العجذات والتبيؤات والخوارق من سياقها التاريخي فضلاً عن أنه مسلك يتسم بمجافاة الموضوعية ومنافاة المنهج العلمي فإنه سوف يفقد التجربة حرارتها ونبضها ويحوّلها إلى جسد هامد فقد الحياة، ونحن لا نطلب منهم التسليم ولا التصديق بها بموازينهم هم، إننا إذا فعلنا ذلك نطلب منهم شططاً ونكلفهم فوق ما يطيقون.

بيد أن الذى ندعوه إليه هو أن يتمسوا في تلك الخوارق والمعجزات والتبيؤات في وقت حدوثها وفي مجتمعها وبيئتها .. إلخ ثم يعلّونها .. لأن يرفضوها وينبذوها ..

إن نأيهم والالتفات والإشاحة جانبها لا يقضى عليها ولا يرفعها من كتب التراث التي وثقتها ولا من الصبحان التي روتها ولا المؤلفات التي ظلت تتناقلها قرونًا عديدة .. لأنه من اليسير على أي شخص أن يسألهم: لماذا اعتمدتم على كتب التراث في نقل عشرات من الأخبار الواقع والتوازى ثم تركتم روایات هذه الكتب ذاتها التي تحدثت عن الخوارق والمعجزات والتبيؤات؟
ما هو المقياس الذى سمح لكم بتبني الأولى وشنح الأخرى؟

● ● ●

وسواء صح هذا الافتراض أو ذاك من هذه الافتراضات أو صحت جميعها فإن تجاهل الكتاب المحدثين لتلك التبيؤات والخوارق والمعجزات يعيّب مؤلفاتهم ويسمّها بنسبة كبيرة من اللاموضوعية والبعد عن المنهج العلمي الرصين.
ولعل هذا يجرنا إلى تناول مسألة نرى أنها على جانب من الخطأ والأهمية وهي إقدام الكثريين على تناول موضوعات هي في حد ذاتها توء بحمل كم وفير من جينات الخروج عن المألوف والدهش والعجب بل والإعجاز .. إلخ دون الالتفات لذلك فهي خارقة للعادات المتعارف عليها وخارجة عن النوميس التي استقرت لدى الناس ونادة عن الأمور المألوفة في المجتمع .. هي فاذة ونادرة ولا تتكرر ولا يشهدها الأفراد إلا كل بعض مئات من السنين .. إلخ فكيف يصح في منطق العقل نفسه التفاصي عن ذلك كله؟ لذا فإن هؤلاء «الذين يخوضون في هذه الأمور المدهشة»، يتبعون عليهم أن يضعوا هذه الحقيقة في بؤؤ عين اهتمامهم وفي بؤرة مركز عنایتهم، فهم لا يدرسون حدثاً عادياً مثل انقلاب عسكري أو احتلال دولة لأراضي أخرى أو ثورة .. إلخ، فمن الطبيعي والحال كذلك أن تحايل النازلة الفادة خوارق ومعجزات، فإذا نأوا بجانبهم عنها ودرسواها كما يدرسون الواقع العادي «الانقلاب الاحتلالي للثورة .. إلخ» فإنهم بذلك يكونون قد طابقوا بين شأنين غير متساوين، وهذا محض الخطأ وأس الخطأ وجثثومة الانحراف ومعدن البطلان وركيزة الفساد في محررات المحدثين الذين أفرغواها من الخوارق والمعجزات والنبوءات وهم يتناولون تلك اللحظة المبهرة التي تمركزت في واقعة غار حرى.

هذا السؤال ثار في ذهني وأنا أقرأ المراجع الحديثة التي تناولت السيرة الحمديّة التي أرکي رائحة من الألوة، وهي مرقومة بالثبت المسطور في عجز هذا الكتاب، فقد لفت نظرى أن غالبيتها تجاهل المعجزات مع أن أصحابها من طوائف شتى ومشارب متعددة واتجاهات مختلفة، في حين أنهم اعترفوا بالمعجزتين اللتين وردتا بالقرآن المجيد وهما شق القمر فلتان والإسراء والمعراج ويندرج ضمنها ركوب الدابة المدهشة «البراق» مع أنهما أشد خرقاً للنوميس الطبيعية وأوغر شأنًا من الأعاجيب الأخرى التي سطّرناها فيما سبق.

• • •

إذن ما علة هذا الموقف المتناقض؟ كيف يصدقون ويؤمنون بما يصعب وقوعه وإذا شئنا الدقة فلنا يعز تكرار حدوثه ويكتفون بالذى يحتمل تشيوّعاً على أرض الواقع؟

وبسبق أن خضنا في هذه الخصوصية ومن ثم فلا مزيد.

إن الإجابة بسيرة المثال وهي:

إن المعجزتين اللتين اعترفوا بحدوثهما جاءتا في القرآن الكريم والذي ينكر حرفًا واحدًا منه فقد مرق من الملة وخرج من الإسلام وغادر حظيرة الإيمان - نعوذ بالله من ذلك ونبأ منه . فيغدو حلال الدم بخلاف العقوبات التبعية التي ترتدفه . إذن الشأن في جانبهم لا شأن له بالمعقولية أو المنطقية أو احتمال الواقع أو القابلية للتصديق ولكنه الرعب من القتل والخوف من الإعدام والهلاع من التصفية الجسدية والجزاءات المصالية^(٨٤).

ونزيد الأمر إيضاحاً :

لنفرض فرضًا جدلياً . لو أن من أنكر حديثاً ورد في الصدح الستة أو على الأقل في أحد الصحيحين «البخاري ومسلم» أو فيهما معاً، اعتبر مرتدًا وتحول من الإيمان إلى الكفر الصراح . نسأل الله أن يتبتّنا على الإيمان ويزقنا حسن الخاتمة . وعوْلَم معاملة المرتد لأرقلوا^(٨٥) إلى الإقرار والتصديق والإيمان بها ولبادروا إلى تسويتها وتبريرها حتى ولو من باب التحمل والمماحة والتحايل والالتفاف .. إلخ وهذا هو النفاق الفكري والانتهازية الثقافية والالتواء البحثي . إن المفكر أو المثقف أو الباحث المستقييم للخلق لا يكيل بكيلين ولا يزن بميزانين ولا يقيس بمقاييسين فعندما يقف أمام معجزة فاما أن يرفضها ويصرح بلا معقوليتها أو يسلم بها .

أما أن يقبل معجزة واضحة الإعجاز ثم يأتي لأخرى أقرب منها قبولاً وأدنى تصديقاً ثم يرفضها أو يتجاهلها ويطوّلها^(٨٦) . فهذا هو التذبذب المقيت الذي تمجه الأخلاق وتأنبه قواعد البحث وألف باء الموضوعية، ونحمد الله أن عصمنا منه كله . فقد رضينا بكل النوعين: ما حمله القرآن العظيم وما ورد بكتب السنة

المشرفة والسيرة الحمديّة، وولجنا بوابة التصديق لا من بوابة المعقولة ومدخل المنطقية. ولكن من طريق اتفاق العجزات مع المستوى الحضاري والثقافي والمعرفي والعلمي والإدراكي ومطابقتها لخصائص مجتمعهم وبيئتهم ووسطهم وتفكيرهم.

من هذه المناظير تصبح صحيحة بل ونصدقهم ونفهم علة تصديقهم إياها أو قبولها من يتفوه بها.

لماذا؟

لأننا قسناها بمقاييسهم وزناهم بموازينهم وكلناهم بمكاييلهم ونظرنا إليها بعيونهم وعايرناها بمعاييرهم.

وكما أتنا نصدق - دون دهشة واستغراب واستكتار أو سخرية.. إلى أن ذكرائهم وإناثهم يخرجون من خيامهم وأخيتهم وفساطيطهم بغير سراويل وأنهم يتداوون بالسنا والسنوت وشرطه محجم وشربة عسل والحبة السوداء^(٨٧). وأن الكسوف والخسوف عندهم من علامات غضب السماء ويتquin الدعاء لرفعهما وأنهم يعتقدون أن الأمطار من الممكن أن تهطل بمجرد ترديد بعض الأدعية وتحويل الرداء من جانب آخر والدعاء للسماء وهو بهذه الهيئة وأن الرقي تشفى من عدد من الأمراض وأن النوازل التي صبت على فرد أو عشيرة هي نتيجة لعين حسودة شريرة وأنه يمكن إبطال فعلها وأن المرة والدار والفرس قد تجئ منحوسة أو محظوظة.

نقول كما نصدقها جميعها عنهم فينفس القدر نتقبل منهم إيمانهم بالعجزات وتأكدهم هم بوقوعها فعلاً، وأن الذي رأى منها شيئاً فقد عاينهحقيقة وعلى الطبيعة وهو عندنا غير متهم بكذب أو تلفيق أو اختراع^(٨٨). فهم أبعد الناس عنها ومن ثم فإن حکومهم عنها مليء بالدفء والحماس.. الناشئين عن التلقائية والعفوية والبساطة.

وترتيباً على ذلك فيتحقق لنا أن نضيف أنهم لو لم يقصوا علينا لبدا الأمر شديد الغرابة ظاهر الدهش بادي العجب، إذ كيف لا يفرز ذيak المجتمع صاحب كل هذه الملامة والقصمات ذاك الجمع من الخوارق والمعجبات والأعاجيب، لأنها من ألزم لوازمه وأبسط موجباته ولو لم يطرحها لناقض طبائع الأمور؟

إذ نحن نؤمن بمخاريق ذيak المجتمع ومعجبات البيئة وبأمانة أفرادها الذين نقلوها إلينا وهذا هو الفارق الصادع بيننا وبين الكتبة المحدثين إياهم الذين تجاوزوها وقفزوا عليها بحججة الاستارة والعقلانية في حين أنه ليس لهم فيها خلاق^(٨٩).

• • •

هناك زمانان للمعجزة يتعين التفرقة بينهما :

الأول: هو زمن حدوثها وتلقيتها من قبل من عاينها أو شهدتها أو حضرها ونسميه الزمن «المعاصر» لها.

الآخر: هو زمن من سمع بها أوقرأ عنها ونسميه الزمن «اللاحق» لها. وكل منهما أحکامه على الحدث . وهما بالضرورة مختلفان . وكلما تباعدت المسافة بينهما تباين النظر إليه «الحدث» وبالتالي تقديره.

فإذا جاء الزمن اللاحق بعد الزمن المعاصر «لحدث المعجزة» بمائة سنة فإنه مقارب له إذ لازالت أصواته تتعدد وربما يودج من الأشخاص من قابل فرداً أو أكثر من الذين شاهدوه أو عاينوه ومن ثم يتلقاه منهم وهو لازال فيه نبض وأثراء من حياة وبقايا من الانفعال به . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فالظروف الاجتماعية والثقافية والمعرفية والفكرية .. إلخ تحمل بعض قسمات وملامح الزمن المعاصر «لحدث المعجزة».

أما إذا تباعدت المسافة بين الزمنين . ألف سنة مثلاً - فالامر يختلف تماماً.. الحدث أصبح ذكرى بعيدة فإن تسييدت في الزمن اللاحق الثقافة الشفاهية ولم يعرف التدوين وجانب الكتابة، فإن صورة الحدث تندو شاحبة وباهتة، لا نقول إنها منبطة الصلة بينها وبين الصورة الأصلية للحدث إنما تشبهها من بعيد، وعندما تتغلب في الزمن اللاحق للثقافة الكتابية وسيقه تدوين الحدث، فإن تم عقبه بفترة معقولة فإن هيئة الحدث تحفظ إلى حد كبير بملامحها وقسماتها مما يتتيح الفرصة لتقييمها تقريباً قد لا يجيء دقيقاً تماماً بل قريب من الدقة.

ونوع الثقافة هنا هو الذي حدد الفارق بين الصورتين.

كذلك تباعد المسافة بين الزمنين - بغض النظر عن الثقافة المهيمنة . يخلق هوة من الصعب وربما من المستحيل تجاوزها أو تخطيها بين أحوال مجتمع كل زمن من كافة الأقطار والنواحي والجوانب، وهذا يساعد كثيراً على تسرب دواعي التوهين وبواعث التهذيل ودوافع الإضعاف للحدث بالنسبة للمعجزات التي لها خصوصية اعتقادية وهو ما يفسر لنا قول بعض الباحثين: هذا أمر تجز عقولنا عن إدراكه إذ كيف تستطيع أفهمانا القاصرة استيعابه فتكل أمره إلى الله ..

وهذا ما قرأناه لبعضهم وهو يفسر آية انشقاق القمر.

أما إذا تعلق بحدث ليس له مسحة اعتقادية بحت مثل اقتحام الجيوش العربية في غزوها الاستيطاني لأنهار البلاد المفتوحة أو تناول أبي سليمان خالد بن الوليد^(١٠) السم دون أن يصاب بأى أذى. فهنا لا بأس أن ينتقل، أولئك الباحثون إلى مرحلة الشك والريبة فالإنكار.

إن التفرقة بين الزمدين في غاية الأهمية.

لماذا؟

لأن الخلط بينهما هو الذي يفرز الببلة والتخليط اللذين وقعت فيهما الغالبية العظمى من الباحثين بتجاهلها تماماً والإعراض عنها أو رفضها دون سند واضح إلا العقلانية الزائفة، ونعيد لفت النظر إلى أن ذلك تم بخصوص العجزات التي حملتها الأحاديث الشريفة والسيرة المطهرة التي هي غذاء الروح والوجودان.

أما العجزات التي جاءت بها الآيات البيئات من الذكر الحكيم فهي معصومة من أدنى ذرة تشكيك أو ارتياح بجزاء عقوبة الردة وظلت هذه الحماية سارية المفعول منذ قراؤها «الميسر» على أتباعه حتى الآن أي ما يقرب من أربعة عشر قرناً وربع القرن.

• • •

ثم نصل إلى المحطة الأخيرة في هذا البحث الذي ربما طال قليلاً في الفاصلة الخاصة بالعجزات وموقف الكتبة المحدثين منها فكما فرقنا بين حدوث العجزة في ذاته وبين حدوثها في مقالة أصحابها ومتلقيها. فإن تشيؤ الواقعية على الأرض أمر يختلف تماماً عما يقصه عنها أصحاب أو معاصروها عنها.

وهذا ما يقول به أو قريباً منه جهابذة الحديث وصياراته بخصوص الأحاديث الشريفة فهم يفرقون بين أمرين: صحة الحديث لذاته، وصحته في نظر راويه أو رواته.

بحسب ما ظهر للمحدث من تحقق شروط الصحة أو الحسن أو عدم تتحققها أي ليس المراد أنه صحيح في الواقع^(١).

ونضيف تأييداً لوجهة النظر السابقة أن الحكم النيسابوري في كتابه المميز «المستدرك» يصف بعض الأحاديث أنه «صحيح على شرط الشيفين وهو البخاري ومسلم ولم يخرجاه» ولا يقول إنه صحيح صحة مطلقة.

بيد أن الكتبة المعاصرین عجزوا عجزاً كلياً عن التفرقة بين زمني الحديث أو العجزة «المعاصر» و«اللاحق» وأخضعوا العجزة لموجبات زمنهم «اللاحق» ومن ثم جاءت أحکامهم مجاافية للموضوعية، منافية للطريقة العلمية في البحث ومخالفة للمنهج الصحيح، وبنطبيق هذه القاعدة باللغة الخطورة نجد أن سيدة نساء قريش خديجة نظرت إلى العجزات التي لازمت «الظفرون» من قبل التقاء والديه ببعضهما حتى نكتبه بباصرة «عين» الزمن المعاصر لحدودتها وهذا أمر بديهي لا طبيعى فحسب إذ هي عاشت فيه ومن ثم هيمنت عليها أدواته وآلاته التي يزن بها الأحداث أي أنها اعتبرتها عجزات ومخاريق^(٢). ورسخت لديها اليقين بعينه على أن «الفاضل. الفائق» هو «القادم المأمول والآتى المتظر».

الهوامش

- (١) دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ: تحقيق عبد الحليم محمود ومحمد بن الشري夫 عن «الخصائص الكبرى» للسيوطى ، الأول، ص ١٠٢ ، وعيون الأثر: لابن سيد الناس، المجلد الأول، ص ٣٦ - ٣١ مصدر سابق.
- (٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ٧٤ .
- (٣) في المعجم الوجيز: الأطروفة : الملة والتحفة.
- (٤) السيرة الشامية: الأول، ص ٣٨٩ .
- (٥) في القاموس المحيط: الفيروز أبادي، الطفاسة الفذر والتتجاسة.
- (٦) وفي المصباح المنير: للقيومى: الركس هو الرجس وزناً ومعنى.
- (٧) في أساس البلاغة: للزمخشري: وهزة ، دفعه.
- (٨) في المعجم الوسيط: خنس ، تأخر.
- (٩) السمعط الشين في مناقب أمهات المؤمنين: للمحب الطبرى، ص ٢٠ ، تحقيق حمزة النشرتى وأخرين، هـ/د. مصدر سابق، و«الخصائص الكبرى» للسيوطى، المجلد الأول، ص ١١٢ ، ط النشرتى مصدر سابق.
- (١٠) حجة الله على العالمين: للتهانى الأول، مصدر سابق.
- (١١) السيرة الشامية: الأول، ص ص ١١٢ - ١١٣ .
- (١٢) تاريخ اليعقوبي: المجلد الثاني، ص ص ٧ - ١٢ ، د.ت.ن، دار صادر، بيروت - أخبار مكة: للأزرقى، الأول، ص ص ١٥١ - ١٥٤ ، سابق - الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٩٣ - دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ، تحقيق الإمام عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف وبالداخل الإمام عبد الحليم محمود منفرداً ص ٢٦٢ ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م ، كتاب الشعب، بمصر.
- (١٣) الخصائص الكبرى، للسيوطى، الأول، ص ١٩٢ .
- (١٤) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٩٤ .
- (١٥) في المصباح المنير: للمقرن القيومى، الإرقال: ضرب سريع من المشى.
- (١٦) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ١٨٢ - إمتناع الأسماع: للمقرن القيومى، الأول ص ٢٥ ، سابق.
- (١٧) الخصائص الكبرى للسيوطى: الأول، ص ١٢٥ ، طبعة حمزة النشرتى.
- (١٨) الدرر في اختصار المغارى والسير: لابن عبد البر، ص ٧٩ .
- (١٩) في حديث على رضى الله عنه ، البرق مخارق الملائكة، من «مخختار الصحاح» للرازى، وفي أساس البلاغة: للزمخشري أصابه برق وخرق أى دهش.
- (٢٠) في القاموس المحيط: الفيروز أبادي: إحزايل: اجتمع قواده خوفاً.

- (٢١) المستدر على الصحيفين: للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد - الحاكم النيسابوري: تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الجزء الثاني، الحديث ٤١٧٤ / ١٥٦١٨٤، الطبعة الأولى ١٩٦١هـ / ١٩٩٠م دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
- (٢٢) السيرة الشامية: الأول، ص ٢٩٣، سابق، «الوفا بأحوال المصطفى» ابن كثير، الأول، ص ص ٢١٠-٢٠٧، مصدر سابق.
- (٢٣) أعلام النبي: أبو الحسن على الماوردي (ت ٤٤٥هـ) ص ص ١٩٥ - ١٩٦، ط أولى ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، «السيرة الحلبية»: الأول، ص ٧٦، سابق «أنساب الأشراف» للبلذري، الجزء الأول، ص ص ٨٠ - ٨١، مصدر سابق، «الخصائص الكبرى» للسيوطى، الأول ص ١١٦، طبعة النشرتى، سابق.
- (٢٤) السيرة النبوية: ابن كثير الأول، ص ٢٠٨ سابق - تاريخ اليعقوبي: المجلد الثاني، ص ص ٧-١٢، دار صادر بيروت - السيرة الحلبية: الجزء الأول، ص ١٥٥ .
- (٢٥) الحديث في سيرة ابن هشام ومستدرك الحاكم - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: لأبي بكر أحمد بن الحسين البهجهى ٣٨٤ - ٤٥٨هـ بتحقيق السيد أحمد صقر، الجزء الأول، ص ١٩-٢٠، ط أولى ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م، نشرته لجنة إحياء أمهات كتب السنة بال مجلس الأعلى للشئون الإسلامية - وزارة الأوقاف بمصر - محمد رسول الله: آتيين دينيه وأخر، ص ص ٧٧-٧٤، مرجع سابق.
- (٢٦) إنجيل لوقا: الإصلاحان ٢١ - ٢٢ .
- (٢٧) في أساس البلاغة: للزمخشري، نقه الشيء: فهمه والفارس هو صائب القراسة، وفي «مختر الصلاح» للرازى: يتثبت وينظر ومنه رجل فارس النظر وفي الحديث «اتقوا فراسة المؤمن».
- (٢٨) السيرة الشامية: الأول، ص ٤١١ - الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزى، ٩٤ الأول، سابق ولكنه نسب قولاً مشابهاً للشفاء أم عبد الرحمن بن عوف.
- (٢٩) أعلام النبي: أبو الحسن على الماوردي، ت ٤٤٥هـ، ص ص ١٠٩٥-١٠٩٦، ط أولى ١٢٩٣ / ١٩٧٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - والخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١١٦، طبعة النشرتى - وعيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ٢٦ - ٣٠، المجلد الأول، سابق.
- (٣٠) السيرة الشامية: الأول، ص ٤٤٨ - والخصائص الكبرى: للسيوطى، المجلد الأول، ص ص ١٢٥-١٢٦ طبعة النشرتى، الأولى عن ابن عباس «أوردها أبو نعيم في الحلية» والأخر عن عكرمة أوردها ابن سعد في طبقاته الكبرى - الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ص ٨٣ - ٨٥ مصدر سابق.
- (٣١) السيرة الشامية: الأول، ص ٤١٣ .
- (٣٢) الموالد - دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر: د. فاروق أحمد مصطفى، ص ٢٠١، الطبعة الأولى ١٩٨٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية.
- (٣٣) قاموس العادات والتقاليد المصرية: لأحمد أمين ، ص ١٨٨ ، الطبعة الأولى ١٩٥٢ ، مطبعة التأليف.
- (٣٤) رواه الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر من طرق وقال في الزهر سنده جيد أـهـ، وصححه الحافظ ضياء الدين المقدسى.
- (٣٥) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٢١ ، ط النشرتى.
- (٣٦) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ١٢١ ، ط النشرتى ، سابق.
- (٣٧) في المعجم الوجيز: الدایة هي القابلة.

- (٢٨) **الخصائص الكبرى**: للسيوطى، الأول، ص ١٢١.
- (٢٩) **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خبر العباد** - المعروف بـ **السيرة الشامية**: لـ محمد بن يوسف الصالحي الشامي، الأول ، ص ٤٢٣ مصدر سابق.
- (٣٠) **فى المصباح المنير**: للمقرى الفيومى: البخت هو الحظ وزناً ومعنى.
- (٣١) **الخصائص الكبرى**: للسيوطى، الأول، صفحات ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.
- (٣٢) **السيرة الشامية**: الأول، ص ٤٧١ - **والسيرة الحلبية**: الأول، ص ١٩٨ سابق.
- (٣٣) **الخصائص الكبرى**: للسيوطى، الأول، ص ١٤٣ - **والوفا بأحوال المصطفى**: لـ ابن الجوزى، الأول، ص ١١٤ سابق - **والطبقات الكبرى**: ابن سعد، الأول، ص ص ١٣٣ - ١٣٤ سابق - **والسيرة النبوية**: لـ ابن كثير، الأول، ص ٢٢٥ سابق.
- (٣٤) **الرتل**: الكثرة مع التسبيق.
- (٣٥) **في المجمع الوسيط**: المقبب : ما كان كالقبة.
- (٣٦) **السيرة النبوية**: للذهنى ت ٧٤٨هـ، تحقيق حسام الدين القدسى ص ١٥٦ ط، أولى ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، دار الكتب، بيروت، لبنان.
- (٣٧) **خاتم النبيين**: لـ محمد أبو زهرة، الأول، ص ٤٧٤ سابق.
- (٣٨) **دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ**: عبد الحليم محمود، ص ٤٣ سابق.
- (٣٩) **نور اليقين** فى سيرة سيد المرسلين: للشيخ محمد الخضرى بك، ص ٧، الطبعة الرابعة والعشرين ١٩٧٨، المكتبة التجارية الكبرى بمصر - **السيرة النبوية**: لـ محمد بن أحمد عثمان الذهنى: تحقيق حسام القدسى، ص ص ٢٠ - ٢١، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م، دار الكتب العربية، بيروت، لبنان - **السيرة الحلبية**, الجزء الأول، ص ١٥٧ - **السيرة النبوية**: ابن هشام، الأول . ١٨٧ .
- (٤٠) **السيرة الشامية**: الأول، ص ٤١٤ .
- (٤١) **الوفا بأحوال المصطفى**: ابن الجوزى، الأول، ص ١١٤، مصدر سابق - **والطبقات الكبرى**: لـ ابن سعد، الأول، ص ص ١٢٤-١٢٣ .
- (٤٢) **الخصائص الكبرى**: للسيوطى، الأول، ص ١٢٨ .
- (٤٣) **السيرة الشامية**: الأول، ص ٤٧١ .
- (٤٤) **الخصائص الكبرى**: لـ ابن سعد، الأول، ص ١١٧ مصدر سابق.
- (٤٥) **الوهم الشائع لدى خاصة البحاث وعامتهم أن يثرب هى المدينة فى حين أن المدينة جزء من يثرب فحسب.**
- (٤٦) **السيرة الحلبية**: الأول، ص ٢٠١ - **الوفا بأحوال المصطفى**: ابن الجوزى، الأول، ص ١٣٨، سابق - **وعيون الأثر**: لـ ابن سيد الناس، ص ص ٤٥-٤٤، المجلد الأول، مصدر سابق.
- (٤٧) **انظر تفصيلات ذلك فى كتابنا «الجذور الإسلامية للشريعة الإسلامية» سبقت الإشارة إليه، وفي «مختار الصحاح» للرازى: انتقد: استخرج - والعامنة فى مصر تقول نتشها أـهـ.**
- (٤٨) **كثيراً ما نسمع فى الحكم الشعوبى عبارة «لابس أبيض فى أبيض» أـهـ.**
- (٤٩) **يسمونها جاهلية هى تسمية يشيع فى حنایاها العبق الذرائى يقصد تشويه صورتها والتغیر منها واستهجانها أـهـ.**

- (٦٢) السيرة الشامية: الثاني، ص ص ١٨٥ - ١٨٦ - الطبقات الكبرى: لابن سعد، المجلد الأول، ص ص ١٤٣ - ١٤٤ سابق.
- (٦٣) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ١٧٨ - والوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي، الأول، ص ١٠٠، مصدر سابق - والسيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٢ سابق.
- (٦٤) لمزيد من التفصيلات انظر كتابنا «مجتمع يترتب - العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين الحمدي والخليفي» من إصدارات دار سينا بمصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، علما بأنه طبع مررتين.
- (٦٥) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ص ١٩٩ - ٢٠١ - السيرة النبوية: للذهبي، ص ٣٠ - عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ص ٤٤، ٤٥، الأول، مصدر سابق - محمد رسول الله: لناصر الدين آتيين دينه وأخر، هامش صفحة ٩٢ وهو من تصنيف الشيخ عبد الحليم محمود وابنه اللذين عربا الكتاب، مرجع سابق ذكره.
- (٦٦) السيرة الحلبية: الأول - والسيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٢٥٠، سابق.
- (٦٧) دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ: عبد الحليم محمود وأخراها ص ٤٦، سابق.
- (٦٨) في المصباح المنير: للفيومي، رقمت الكتاب أى كتبه.
- (٦٩) السيرة النبوية: لابن هشام، الجزء الأول، ص ٣٠٥، ط شقرورون.
- (٧٠) الروض الأنف: للسهيلي، الأول ص ص ٢٠٧ - ٣٠٨، ط شقرورون.
- (٧١) علم الفوكلور: الجزء الثاني، دراسة المعتقدات الشعبية، ص ٧٣، تأليف د. محمد الجوهرى، الطبعة الأولى ١٩٨٠، دار المعارف بمصر.
- (٧٢) معجم البلدان: لياقوت الحموي مادة أنواط نقلًا عن بحث بعنوان «يا طالع الشجرة» لـ د. صابر العادلى «مجلة الفنون الشعبية» عدد ٥٧-٥٦ يوليه، ديسمبر ١٩٩٧، ص ٤١، من إصدارات الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٧٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد على، السادس، ٤٤، مرجع.
- (٧٤) القاموس المحيط: للفيروز أبادي: وقع في حاصب باص في ضيق وحرج وشدة حتى لا يدرى كيف يتصرف.
- (٧٥) في المعجم الوسيط: العباطة: البله وعدم النضج - وفي مختار الصحاح: للرازي: الفطير - ضد الخمير وهو كل شيء أجعلته عن إدراكه.
- (٧٦) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ص ١٥٣ - ١٥٤، طبعة أخبار اليوم، مصدر سابق.
- (٧٧) السيرة الشامية: الثاني، ص ٢١٤ - الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ٢١١، طبعة النشرى - السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق السرجانى، الأول، ص ١٩٣، طبعة ١٩٧٨، المكتبة التوفيقية، مصر - تاريخ الطبرى: الثاني، ص ٢٨٢-٢٨١، مصدر سابق - عيون الأثر: لابن سيد الناس ، الأول، ص ص ٥٠-٤٩، مصدر سابق - حياة سيد المرسلين: للأبراши، ص ٢٠ ساٽق - أوائل العرب عبر العصور واحتلتب - الخلافة الراشدة: حبوش، الثاني ص ١٠٩، سابق.
- (٧٨) السيرة الشامية: الثاني، ص ٢١٦ - والخصائص الكبرى: الثاني، السيوطى، ص ٢٠٢ / ٢٠٠.
- (٧٩) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٢١٦ - السيرة النبوية: لابن هشام تحقيق السرجانى، ص ١٩٣ - الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ص ١١٢-١١١، سابق.
- (٨٠) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٢١٥.
- (٨١) حجة الله على العالمين من معجزات سيد المرسلين: للنهانى، تحقيق حمزة النشرى وأخرين، الأول، ص ٤٩٧، ط أولى ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م، الناشر حمزة النشرى بمصر.

- (٨٢) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٢١٧.
- (٨٣) انظر في هذه الخصوصية كتابنا «بصائر في عام الوفود وفي أخباره» الطبعة الأولى ١٩٩٩م، دار سيناء للنشر بمصر، ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان.
- (٨٤) في مختار الصحاح: للرازي: المصلح هو التالى للسابق.
- (٨٥) سبق شرح الفعل: أرقى.
- (٨٦) في القاموس المحيط: طوشْ غريمـه - مطله والعامة في مصر تقول: «طنشه» آ.هـ.
- (٨٧) العامة في مصر تسميتها حبة البركة آ.هـ.
- (٨٨) العامة في مصر تقول: فبركة.
- (٨٩) في المصباح المنير: للفيومي: الخلاق: النصيب والعامة في مصر تقول «مالهوش حظ» آ.هـ.
- (٩٠) ذلك الذي فعل الأفاعيل في حروب الردة وغيرها من الحروب الاستعمارية الإستيطانية.
- (٩١) هذا الموضوع مطروح في كتب علوم الحديث وانظر على سبيل المثال «دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرین» لـ د. محمد محمد أبو شهبة، ص ٥٤، السنة الثلاثون، الكتاب الثاني ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، من سلسلة البحوث الإسلامية التي يصدرها مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الثانية وهو رد على كتاب «أضواء على السنة المحمدية» لأبن رية ومن الطريف أننى اشتريت الطبعة الأولى التي ظهرت في أول الستينيات بخمسة قروش أما الطبعة الثانية فيبيعها الأزهر بستة جنيهات. آ.هـ.
- (٩٢) سبق ذكر المعنى الصحيح لهذه الكلمة ولستا ملزمين بالأخذ بالمعنى الشائع المغلوب. آ.هـ.

الفصل السادس

أطوار التجربة البدري

أطوار التجربة الكبرى

كيف تحول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب من فتى هاشمي قرشى / ماجد إلى (المنتظر) أو (المأمول) أو (القادم) الذى تشوفت جزيرة العرب عامة ومنطقة الحجاز خاصة وتحديداً وحصرها النخبة أو الإيليت أو الأنجلوسي إلى ظهور هلاله؟

لا يكفى أن نقول إنها أروع تجربة ظهرت فى القرون الوسيطة أو أن آثارها وتوابعها وأصداءها ما زالت وبعد مضى أكثر من أربعة عشر قرناً تشغل التاريخ وتملاً الدنيا أو أنها أنتجت ديانة نافست الديانات الإبراهيمياتين اللتين سبقتها بجدارة واستحقاق أو أن تبعها بلغ البلايين فى كل بقاع المعمورة أو أن ذلك كله وغيره لم يخطر على بال الثلاثي المعموم أطراها.

فهذه عبارات إنشائية قد تصلح مادة طيبة لخطبة منبرية ولكنها أبداً لا يجوز أن يضمها بحث علمي موضوعي يتحرى الدقة ويحرص أشد الحرص على التوثيق، وقد وصف البعض كتاباتنا بالإفراط فى المبالغة فى التوثيق^(١). رغم مرور هذا الزمن الطويل عليها وتصور مئات الآلوف بل ربما آلاتها من المصنفات أو البحوث والدراسات الحديثة وبكل اللغات الحية فإنها لم تؤت السيرة العاطرة حقها من التمحیص والتدقیق والتفسیر والاحفظ فھي في نظرنا عذراء بکر وطازجة من الممكن أن تمنح الكثیر.

بيد أن العقبة الكبود بالنسبة للتجربة ندرة الأخبار والوقائع ثم تناشرها فى مختلف الكتب التراثية: حديث - سيرة - تاريخ - تفسير - أسباب نزول - طبقات - فقه .. إلخ.

وبسبق أن ذكرنا منذ عدة سنوات أن الفترة من نكاح سيدة النساء زمانها خديجة (المعصوم من الناس) وتبعها إياه حتى حدوث واقعة غار حراء هي أشد فترات السيرة المحمدية . التي هي أطيب ريحان المسک الأذفر . تعتمما . وأشحها معطيات .

ففي حين نجد الفترة السابقة التي تبدأ من مولده المجيد بل قبله حتى

اتصاله بالطاهرة تعج بالأخبار والتوازل والواقع.

ثم الحقبة المصلية (التالية لها) وهى من زمن حدوث واقعة الرؤيا فى مفارقة حرى إلى وقت انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا . تتفح بانوراما عريضة فيها تطالع الأخبار من كل لون وزن.

إنما هذا التوصيف لا ينطبق على المقطع المكى من أحدوثة الغار المعجبة لغاية نزوحه إلى يثرب إذ هى أيضا تميز بالقلة والتزورة إنما أبدا لا تصل إلى حد إبان التجربة ولا نصيفه.

نقول إنه فى الوقت الذى نرى فيه هاتين الحقبتين على الشكول التى طرحنها، نلقى سنوات التجربة الرائعة على النقيض ناضبة من الأخبار وشلة من التوازل، مليطة من الواقع، معراة من الحوادث.

والسؤال الذى يدب بقوة فى الذهن:

لماذا غدا وقت التجربة بهذه الصورة المفردة من دون مراحل السيرة الحميدة المعظمة من جهة الندرة فى الكشف والهزال فى المعطيات والشحوب فى الإبابة والضمور فى التوضيح؟

وسؤال آخر يرتفد سابقه:

ولم هو دون غيره من فصول السيرة الحميدة تلقيناه بهذه الآية (الهيبة وزنا ومعنى) المعتمدة؟

• • •

فى رأينا أن التجربة حرص أطرافها الثلاثة الأمثل على تكتهما وسريتها وإخفائها عن الأعين وإبعادها عن الآذان والقيام بها وراء الحجب وخلف الاستائر.

حتى الذين قدموا أيادى لفلجها أثبتوا أنهم لا يقلون حنكة ودرية وخبرة ودرائية عن أبطالها الثلاثة المفخمين فى حفظ السر ودفعه فى أعماق حنابا الصدور.

ذلك أنهم جمعوا سواء الأطراف أو المساعدون يعلمون علم اليقين أن هناك أعداء بلغوا الذروة فى الشراسة والنهاية فى الغشم والقمة فى الجبروت إن من داخل قرية القدس أو خارجها، خاصة أصحاب الديانتين الساميتين السابقتين وعلى وجه التحديد الأولى والأقدم والأعرق منها الذين عقدوا الخناصر وأبرموا العزم على أن يصبح كل (القادمين) منهم أى من بنى إسرائيل ولو خرجت إلى غيرهم فلن تعود إليهم ما بلّ بحر صوفة.

ومن ثم فلو أقدم نفر وحتى واحد على تغيير هذا المسار فالجزاء الوفاق الذى من الحتم أن يلاقيه هو الموت الزؤام.

قرأنا فيما سبق أن الراهب بحيري عندما عاين (الشثن) مع عمه عبد مناف

أو أبي طالب في سفرته الأولى للشام نصحه بأن يعود به فورا إلى مكة لأن يهودا لو تحققوا مما فيه من علامات (القادم المنتظر) لقتلوه على الفور.. أ.هـ.

• • •

من أجل هذا كله تمت التجربة الفادحة وهي مغلفة بالضباب ومكسوة بالعتمة ومدثرة بالظلال ونتيجة لذلك فلم يعلم بها إلا أفراد لا يعدون على أصحاب اليد الواحدة أو اليددين.

بخلاف المعجزات والخوارق التي بدأت قبل ولادة (الرؤوف) وحياته وواكبته حتى التقطعاته أم هند ثم نكحته فتلك (المعجزات) شاهدها العشرات بل المئات من الجنسين منهم الأحرار والعُبدان والإماء والموالى ومن ملل شتى وعقائد متباعدة.

وكذا نزوجه إلى يثرب فقد شاهده المئات من بنى قيلة^(٢) وغيرهم وأيضا غزارة بدر ومعركة أحد وصلح الحديبية.. إلخ شهدتها المنون بل إن حجة الوداع شهدتها عشرات الآلاف.

تلك النوازل وقد انضوى حضورها على كثافة عددية من الطبيعي بل البديهي أو البدهى أن تصير مبخوتة من ناحية القص، محظوظة من زاوية الحكى ومجدودة من جانب النقل حتى رست على ميناء عصر التدوين فجاء نصيبيها منه وفيرا وحصلوها غزيرا وناتجها كثيفا ومن ثم تضلت منها كتب السيرة المحمدية التي هي أطعم من تقاح الشام ودواوين السنة المشرفة ومؤلفات التاريخ.

• • •

إن اثنين من أطراف التجربة المجيدة هما الهندوز واليعسوب انتقالا إلى رحمة الله قبل أن تناح لهما الفرصة للحديث عنها بعد نجاحها وإعلانها للملأ والقبيل.

أما الثالث وهو (الرحيم) فقد التزم الصمت وكل ما ذكره عنها أحاديث شريفة عن واقعة الغار وبعدد قليل للغاية.

ربما يؤوب ذلك إلى انشغاله في مسئوليات جسام بعد أن غدا سيد الجزيرة كلها دون مدافع وديان العرب جميعهم بلا مازح.

أو لأنه لم ير أدنى فائدة من الكلام عنها لأنها في رأيه لن تتكرر إذ هو آخر (القادمين) وخاتم (المنتظرين) وعليه أيضا نص القرآن المجيد والذكر الحكيم والنبا العظيم.

• • •

وهناك سبب آخر لا يقل عن سابقه إقناعا ولا يتخاذل عنه منطقا ولا يقصره عنه عقلا وهو اختلاف طبيعة التجربة عن غيرها من الوقائع (الميلاد . النزوح .

القتال . الصلح . الهدنة . الوفود . وأحداث الأحوال الشخصية مثل الزواج خاصة إذا تعدد^(٢) .

وهذا أيضاً ما رددته باحثان آخران:

(ولما بني بأولى زوجاته خديجة لم تكن لذات الحسن هي التي سيطرت على هذا الزواج لأنه بنى بها وهي في نحو الأربعين وهو فتى في ريعان صباه وعنوان شبابه لم يتجاوز الخامسة والعشرين وهو رجل جميل الخلقة طليق المحبها تتطلع إليه الأباء وتنتمنه العذاري لكنه كان ملهمًا بأمر ربه فنظر إلى مكانتها من قومها و موقفها من عشيرتها و ظهرها و عفتها وكانت هي التي عرضت نفسها عليه فقضى معها الشباب والفتوة وزمن الرجولة والقوة قضى زهرة عمره معها خمسة وعشرين عاماً زمن الحيوية والشهوة الجنسية ليس له من زوجة غيرها ولم يفكر قط أن يشرك معها غيرها في فراشه^(٤) .

وهذا ما ذكره أيضاً شيخ الجامع الأزهر وفي ثيابه كلامه تلميغ ولو من بعيد إلى دور الهندوز في إنجاز أروع التجارب التي حظى بحدوثها في تضاعيفه القرن السابع الميلادي:

(وعاش معها زهاء خمس وعشرين سنة دون أن يجمع معها زوجة أخرى وكانت أحب الناس إليه وأقربهم إلى نفسه . ص . لإيمانها العميق ووفائها النادر وحرصها التام على ما يرضى الله تعالى ويرضى رسوله ﷺ^(٥) .

● ● ●

من الأسباب القوية التي حالت دون زواج محمد بزوجة أخرى على الطاهرة هو أن «الثقافة الدينية» التي هيمنت على بنى أسد، رهط أم هند تحريم الجمع بين بعلتين، كما أنها تحرم الطلاق لأن ما ربطه الرب لا يفكه العبد (المريوب/ المخلوق).

هذا الملحوظ البالغ الأهمية والثر بالدلائل غاب عن فطانه كل من زبر (نسخ) سطوراً في السيرة المحمدية المعطار سواء من القدامي والمحدثين من العرب والأعاجم والفرنجة!!!

فالتجربة لها كنه مستقل وقوام فذ وكينونة مفردة فهي والكتمان صنوان والسر توأمان والخفاء شقيقان، يصلح لها الظلام وتتفعها العتمة ويقويها التوارى . عن الأعين . ويعينها الصمم وإن شئت الدقة وتحريت الصح وابتغيت الصواب قلت: التسامم.

في حين أن الواقع الآخرى التي أوضحتها آنفاً من طبيعتها أن تعيش في النور وتظهر إلى الملا، وتوكى الأ بصار^(٦) . وتصك الآذان، وتحشو الأفواه ثم تنتقل من فم إلى أذن وهكذا، فالعلنانية قوامها والظهور رداؤها والوضوح دثارها والانتشار لحمتها والذبوع سداها، يعرفها الدانى ويسمع بها القاصى ويحيط

بها القار ويلتقطها البادى ويظل ينشرها فى كل مكان يصل إليه، ومن هنا دونت وقرأتهاها بصيغ متباينة وبطرائق شتى وبكيفيات مختلفة، وهذه هي العلة فيما نلمسه بأيدينا قبل أن نراه بأعيننا من تناقض رواياتها وتضارب أقوالها وتناقض صورها.

● ● ●

وبالمقابل تحققت ندرة أخبار التجربة لأن هذا ما يتسم مع طبيعتها ولذا أصيّاناً الجهد والإعياء ونحن نلهث وراءها (أخبار التجربة المجيدة) في ما استطعنا قراءته من مصادر كلها من الدرجة الأولى ومع ذلك فقد اضطررنا اضطراراً للجوء لبعض الفروض التي تتناقض مع السياق كيما تكتمل الصورة وتسد الثغرات وتملاً الفجوات مع ملاحظة أن ذلك جاء في حالات قليلة لا تخل بالسرد والتحليل المعتمدين على أوثيق المصادر وأعلاها رتبة.

● ● ●

عاش طفولة قاسية إذ فقد آباء وهو حمل مستكن في بطن أمه وقيل وهو في السنة الثالثة ثم آمه وهو في السادسة فانتقل إلى جده عبد المطلب سيد البطحاء وبعد عامين توفي، وهكذا ذاق مرارة اليتم ثلاث مرات إن صح هذا التعبير^(٧).

ثم كفله عمه عبد مناف أبوطالب وهو تاجر مستور الحال، ولكن تغير الظروف بمكة وغلبة النزعة المادية هبّطت به إلى طبقة الفقراء والمعوزين، بيد أن ذلك لم ينل من مكانته الأدبية فقد ظل من سادة قرية التقديس وغطريفيها وقد قيل عنه إنه من القليلين الذين تبوأوا مقام الصدارة رغم خلو يده من المال. ولعبد مناف أبو أبي طالب ولد كثير عانى الأمررين في إعاشتهم فلما انضم إليهم (اليتم) ازداد عبؤه، ومن ثم عاش طفولته وصباه وشبابه الباكر وهو يعاني شفط العيش وضيق ذات اليد ...

ومن هنا دفعته أوقاته الحشنة الجافية إلى امتحان عمّالات لا تليق به شخصياً ولا بالفرع السامي الذي ينتمي إليه فقد صرّح فيما بعد أنه اشتغل برعى الغنم في أجياد وهو حى في مكة ثم عاملات تجارياً بيد أنه في جميع الأحوال ظل كريم النفس معتمداً بذاته يضرب به المثل بعيداً عن نزوات الشباب وانحرافات الفتى مع أن المجال مفتوح على مصراعيه لذلك خاصة أنه امتحن بالقسامة والوسامة والبهاء .. الخ.

● ● ●

إن أحداث الطفولة الحزينة (اليتم المتكرر وفقد العائل الأول وحوجة الكافل الآخر) تركت ظلالها الكئيبة على نفسيته فأحب العزلة وأثر قلة الكلام ونكر ما قلناه: إنها عزلة اجتماعية لا خلوة عقائدية تعبدية.

(اعتداد بعض الحنفاء والمؤمنين بالله تعالى أن يتحمّلوا ويخلوا لأنفسهم وكانت عبادة هؤلاء تشمل إطعام المساكين ممن يلحوذون إلى الغار لأنّه كان في نسخ قريش في الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين في هذا المكان. وكان لـ محمد . ص . شفاعة بالوحدة منذ الصغر ولكن وحدته طفلة وفتى ويافعاً وصبياً كانت وحدة الحزن والألم إذ ولد ونشأ يتيمًا، ولكن وحدته في غار حراء بجبل أبي قبيس كانت من نوع آخر، فقد كان ينشد المعرفة بطريق الاستشراف ويستفهم ما في الكون من أسبابها ثم أورد المصنف ما سطّره الطبرى في تاريخه عن ذلك^(٨).

أخطأ المصنف د. الخربوطلى إذ ذكر أن غار حراء بجبل أبي قبيس في حين أن هذا الأخير هو الذي (يشرف على الصفا إلى السويدة إلى الخندقة وكان يسمى في الجاهلية الأمين لأن الركن «الأسود» كان مستودعا فيه زمان الطوفان أما غار حراء فهو أعلى جبل حراء وبينه وبين مكة ميل ونصف الميل وهو جبل منفرد على طريق حنين / مكة وهو منيف صعب المرتفق لا يصعد إلى أعلى إلا في موضع واحد في صفاء مساء والموضع الذي نزل فيه جبريل عليه السلام في أعلىه من مؤخره^(٩).

فـ (صفوة الباقي والقار) لم تعرف عنه اهتمامات تيولوجية قبل تماس خديجة به ونکاحها إياه ولا يفهم من ذلك بأى صورة من الصور انتشار صدره أو حتى إقباله بصورة عادية على عقائد وعبادة وطقوس قومه بل على العكس نفوره منها ومرد ذلك رجاجة عقله وفطانته وسعة أفقه ونقاء فطرته إذ أدرك فسادها وعطنه ولا معقوليتها.

لقد طالعنا في سيرته التي هي أطيب من ريح الخزامي أنه في سفرته الأولى للشام عندما استحلّفه الراهب بحيري - مختبراً إياه - باللات والعزي - جاء رده الفوري = ما كرهت شيئاً قدر كرهي لهما . علاوة على معيشته في صباح الباكر مع جده شيبة الحمد عبدالمطلب مقدم المحنفين وأول من سن الاعتكاف في غار حراء وسننا أخرى نقشها^(١٠) حفيده وأدخلها في الديانة التي نشرها بين أهل مكة .

• • •

إن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الذي ترعرع فيه بما عمها من فساد وتهلل واحتلال وإنحلال واستئثار الملايين بجماع الثروات والجاه واللذائذ والشهوات والمنع في حين أن «القبيل» الذي يضم الأحرار (المليطين من النشب) والعبدان والموالي والصعاليك واللصقاء والزعانف .. يكابدون الأهوال للحصول على الفتات الذي يلقيه لهم الطواغيت المستكبارون: يأكلون الطعام الجشب ويلبسون الخلق والأسمال ويسكنون الجحور والشعاب ويكترون طوال النهار

وطرفا من الليل تلہب ظهورهم السیاط وتعمل نساؤهم في الخدمة والعيارة
لحساب سادتهن .. إلخ.

تلك الأحوال ألقى بذور الثورة في نفس (**الأسوة الحسنة**) وهذا ظهر جلياً
وبدا واضحاً في السور المكية الأوائل من القرآن العظيم. حصيلة التجربة
المذهلة . فهى تدعوا بالويل والثبور وتصب النقمـة وتدلـق اللعنة على أولئك
الصناديد المترفين الذين تمتعوا بكل شيء وحرموا القاعدة الشعبية العريضة
من كل حق .

في صورة اقرأ وهي أول سورة قرأها (سيد الخلق) على من تابعه في دينه
﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ (١١).
﴿الهاكـم التـكاثـر﴾ (١٢).

﴿أرـأـيـتـ الـذـى يـكـذـبـ بـالـدـيـنـ فـذـلـكـ الـذـى يـدـعـ الـيـتـيمـ وـلـاـ يـحـضـ عـلـىـ طـعـامـ
الـمـسـكـينـ﴾ (١٣).

﴿وـلـيـلـ هـمـزـةـ لـمـرـةـ الـذـى جـمـعـ مـاـلـ وـعـدـهـ يـحـسـبـ أـنـ مـالـهـ أـخـلـدـهـ﴾ (١٤).
﴿تـبـتـ يـدـاـ أـبـىـ لـهـبـ وـتـبـ ماـ أـغـنـىـ عـنـهـ مـالـهـ وـمـاـ كـسـبـ﴾ (١٥).

وهكذا تتضح مشاعر النقمـة وأحساسـ الغضـبـ على جـبـابـرـةـ مـكـةـ . ثم يـصـكـ
مـقـدـمـ جـحـاجـحـ قـرـيـشـ وـاعـتـاهـمـ مـاـلـ وـأـغـلـظـهـمـ رـقـبـةـ وـأـشـمـخـهـمـ أـنـفـاـ وـأـمـعـنـهـمـ فـىـ
الـتـكـبـرـ وـالـتـعـاظـمـ وـأـشـدـهـمـ عـدـاـوـةـ وـلـدـدـاـ فـىـ الـخـصـومـةـ وـاسـتـرـسـالـاـ فـىـ الـمـارـضـةـ =
الـولـيـدـ بـنـ الـمـغـيـرـةـ فـيـقـوـلـ الـقـرـآنـ الـمـجـيدـ فـىـ حـقـهـ (ذـرـنـىـ وـمـنـ خـلـقـتـ وـحـيـداـ وـجـعـلـتـ
لـهـ مـاـلـ مـمـدـودـاـ وـبـنـيـنـ شـهـوـدـاـ) (١٦).

وـمـنـ بـيـنـ أـوـلـئـكـ الـبـنـينـ الشـهـوـدـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيـدـ أـبـوـسـلـيـمـانـ ذـلـكـ الـذـىـ فعلـ
الـأـفـاعـيـلـ فـىـ حـرـوبـ الرـدـةـ وـفـىـ الغـزوـ الـاستـيـطـانـىـ لـبـلـادـ الجـوارـ .
ولـقـدـ أـدـرـكـ بـعـضـ الـكـتـبـةـ الـمـحـدـثـيـنـ كـمـونـ الـثـوـرـةـ لـدـىـ مـحـمـدـ إـنـمـاـ حـاـوـلـ (ذـلـكـ)
الـبـعـضـ) التـموـيـهـ وـالـمـراـوـغـةـ .

(من أـخـلـاقـ النـبـىـ عـطـفـهـ الشـدـيدـ عـلـىـ الـفـقـرـاءـ وـحـنـوـهـ عـلـىـ الـمـحـرـومـيـنـ
وـالـأـرـامـلـ وـالـيـتـامـىـ وـأـبـنـاءـ السـبـيلـ شـهـدـ بـذـلـكـ الـأـصـدـقـاءـ وـالـأـعـدـاءـ عـلـىـ حدـ
سـوـاءـ) (١٧).

ولا يـغـيرـ منـ الـأـمـرـ شـيـئـاـ أـنـ يـطـلـقـ عـلـىـ ذـلـكـ مـوـلـاـهـ مـحـمـدـ عـلـىـ (الـمـؤـلـفـ)
أـخـلـاقـاـ أوـ شـمـائـلـ أوـ فـضـائـلـ فـهـىـ عـلـامـاتـ الـغـضـبـ وـشـارـاتـ الـحـنـقـ وـآيـاتـ
الـاحـتجـاجـ عـلـىـ مجـتمـعـ مـكـةـ وـخـاصـةـ أـنـ الـمـؤـلـفـ بـعـدـ سـطـورـ أـورـدـ آيـاتـ منـ صـورـةـ
الـمـاـعـونـ .

● ● ●

ونكتـفىـ بـهـذـهـ الـأـمـثلـةـ الـتـىـ تـقـطـعـ بـفـسـادـ مجـتمـعـ مـكـةـ وـضـرـورـةـ إـصـلـاحـهـ
لـاستـحـالـةـ دـوـامـ تـلـكـ الـأـحـوالـ مـنـ نـاحـيـةـ، وـلـكـشـفـ الـغـطـاءـ عـنـ جـانـبـ شـدـيدـ

الأهمية في تكوين البنية النفسية للأبي إبراهيم) وإنغراس بذرة الثورة من ناحية أخرى في وجدانه.

وفي تقديرنا أن سائر البطارقة الأعظم الذين سبقوه: إبراهام - موسى - يوحنا - عيسى هم ثوار على مجتمعاتهم الفسيدة المفسخة إن من ناحية العقيدة أو غيرها من الناحي.

هذا يتضامن مع هيمنة النظرة الحزينة على ذاته لنشوئه يتيمًا فقيراً محروماً من نوال الوضع الاجتماعي الذي يتواافق مع نسبة الرفيع ورهطه الشامخ وأرومته العريقة وشخصيته الفريدة التي لم تكرر.

● ● ●

هذا العاملان اللذان لم يلتقيت إليهما أغلب الباحث هما اللذان شكلاً أمررين لهما قدر من الخطير:

أ - ترجيح ترشيحه من طرف سيدة نسون قريش كيما يغدو (القادم المنتظر).
ب - صلاحيته وجدارته ليصبح موضوع التجربة المعجبة عن كفاية واستحقاق.

بداهة بالإضافة إلى العنصر الجوهرى الذى بسطنا القول فيه وهو حداثة السن - مجاوزته العشرين بأشهر قليلة.

كلها تجامت وتماھت بعد أن تشابكت فتداخلت لکى تطرح الثمرة الناضجة لتجربة من أكمل التجارب فى العصور الوسطى الأولى.

● ● ●

من المؤكد أن خديجة الطاهرة سمعت عن فصاحة (أبي القاسم) وأبلغنا الإخباريون أنها دأبت على استقباله عند عودته من سفريته من سوق حباشه إما منفرداً أو بصحبة زميل له في العمل وأنها تخبيء لهما تحفة من طعام، الأمر الذي دفعه إلى الثناء عليها وأن هذا الصنيع منها لم يفعله غيرها من استأجروه وهو مما حببه فيها.

وفي أثناء تناول تلك الأطروفة تجلس معه ومع زميله فليس من أدب الضيافة تركه أو تركهما منفردين إذ فيه قدر من الاستخفاف أو الاستهانة إذ لا يعامل كذلك إلا الرقيق.

وفي تلك الجلسات توقيت أم هند من طلاقة لسان (جد الحسينين) وحسن بيانه وبلاوغته في التعبير وقدرته على التوضيح ومكنته على الإبانة.

وأزداد عندها ذلك ثبوتاً إثر عودته من رحلة الشام التي صاحبه فيها عبدها الأمين ميسرة وما حكاها لها عنه إذ لاشك أنه تطرق إلى رهافة مذرب^(١٨) (محمد) وعذوبية حديثه وكيف أنه سحره وسائل من في القافلة وكل من تعامل معهم من المشترين والبائعين وغيرهم بجمال منطقه وحسن كلامه، وتيقنت

سيدة قريش على بكرة أبيها بنفسها فقد التقت هي به قبل وصول الملوك (إذ الأخير هو الذي أشار عليه في مر الظهران أن يسبقه إليها) واستمعت إليه يشرح لها ما وقع في الرحلة ويقدم لها كشف حساب الأرباح التي حققها لها وقادت فصاحته بدور فعال في اكتسابها.

• • •

إن طلاقة لسان (**الظفور**) أمر مجمع عليه ومعترف به حتى من خصومه الألداء وهي من الأمور البدائية فهو من قريش ولهمجة قبيلته خلاصة لهجات الجزيرة وزبديتها وسبق أن أوضحتنا الأسانيد فيما أورده الثعالبي في (**المضاف والمنسوب**) بشأن قريش.

كما أنه استرضع في بنى سعد ومن ثم سلم من الل肯ة والحبسة والعجمة ثم مشى في الأسواق والتلى بالأعاريض والعرب الذين يحضررون موسم الحج والأسواق (مجنة) (دا المجاز) واستمع إلى الخطباء الفصحاء والشعراء المفاسدين والمنافرين ذرби الألسنة في (عكاظ) وجماعهم أصحاب ذلاقة وإيانة وبلافة فازداد بل تضاعف محصوله المعجمي ومخزونه اللوى ورصيده البياني.

دعاك مما ذهب إليه أبو عثمان بحر الجاحظ (مع تقديرنا البالغ له) في (**البيان والتبيين**) من أن مرجع ذلك إلى عصمة وتأييد وتوفيق من قوى غيبية وتابعه من المحدثين مصطفى صادق الرافعي في مصنفه (**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**).

فتحن نميل إلى الأسباب الموضوعية التي تلمس باليد قبل أن ترى بالبصر أو تدرك بالصيرة.

فالوسط الاجتماعي والموقع الجغرافي (قرية القدسية وما حف بها من أسواق) والاختلاط بحملة اللجهات المتباينة والنشأة الأولى في الbadia حيث النساء من السوقية والهجنة والحوشية مجتمعها ينأى بالـ(**الكريم**) عن العري والفتنة^(١٩) والفهمة^(٢٠) والرتم^{(٢١).. الخ}.

إن هذه الأسباب الموضوعية أقرب مثلاً وأدنى قبولاً وأحكم منطقاً ولماذا نترك الجنُب وتلتمس المفارق وندع اللزيق ونبحث عن القاصي ونذر القار ونطلب البادي ونتصرف عن المقيم وتنقب عن الطاعن.

أليس هذا المسلك يتسم بالبعد عن الحكم والنأى عن المنطق والمجافاة للفطرة السليمة والإعراض عن المنهج القويـمـ.

إذن الأسباب الموضوعية دون غيرها (إذ لا لزوم لهذا الغير) هي التي جعلت من (آبى الأرامل) أعظم الفصحاء وسيد البلاء ومقدم المبينين وزعيم اللسينين وقائد الذريـنـ.

• • •

(عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه قال رجل: يارسول الله ما أفصحك مارأيت الذي هو أعرّب منك، قال حق لى وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين).^(٢٢)

وليختزن القارئ ما جاء بهذا الحديث الشريف وخاصة في عجزه أو مؤخره الذي ربط حسب تعبيره بين فصاحته هو وبين مجئ القرآن المجيد بلسان عربي مبين.

وفي حديث آخر مرفوع إليه ردا على سؤال مماثل أجاب كيف لا يغدو كذلك، وهو من قريش واستعرض في بادية بنى سعد.

إن أحدا لا يجرؤ على أن ينكر (أنه أفصح الناس لسانا وأوضحهم بيانا وأصحهم معانى، لا يظهر فيه هجنة التكلف ولا يتخلله فيهقة التعسف).^(٢٣)

أما عباس العقاد فهو لم ينزلق إلى ماذهب إليه معاصره وغريمه الرافعى فى رد علل فصاحة (قطب الأقطاب) إلى قوى ماورائية وغبية ولا منظورة بل آب بها إلى أسباب موضوعية (فمحمد العربى القرشى الناشئ فى بنى سعد العالم بهجات القبائل حتى ما تقوته لهجة يحتاج تبيانه إلى مراجعة... قبيلة نائية فى أطراف الجزيرة ولم يكن فى كلامه غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة).^(٢٤)

ومن الغريب أن (سيد الكائنات) أرجع بلامته إلى الأسباب الموضوعية . (إنه من قريش وقضى طفولته فى البدية) وهو منهج علمى ومع ذلك يأتى من بعده من يحاول أسطرة سيرته فيزعم أن ذلالة اللسان عنده ربانية والفصاحة هبة إلهية ونصاعة البيان عطية سماوية .. يتساوى فى ذلك القدامى (الجاحظ مثلا) والمحدثون (الرافعى على سبيل المثال).

وبداهة لم يتوقف الأمر عند حلاوة منطق (صاحب الخلق العظيم) بل تعداه إلى غالب مقاطع سيرته المعطاءة التي هي أطيب ريحان (الألوة مع الكافور والزعفران) وهم إذ يفعلون هذا الفعل الغلطان ويسلكون هذا المسلك الفسيد وينتهجون هذا المنهج الخطئ يتوهّمون أنهم به يعلون من قدره ويرفعون مقامه ويحمدون مكانته مع أن العكس هو الصحيح والنقيض هو الصواب فهو أولا ليس في حاجة إلى من يفعله له وأخرا فإن الكتابة الموضوعية هي وحدها التي تقنع من هو في حاجة إلى اقتناع بعظمته وسموه وعقربيته وفدوته .. الخ

بعكس العلل الغبية إذ يرد المعاند ويحيي اللجوء ويقول الخصيم =وما هو دوره إذا وهبته السماء الفصاحة وفتحته البلاغة ومنحته ذراية اللسان؟

أما إذا قيل لذلك اللذوذ المعارض المناوي: إن تلك جماعتها من كسبه الشخصي وبجهده الذاتي وإرادته الفولاذية ودأبه الذي لا يكل .. الخ.

طأطاً رأسه له إجلالاً وأحنى قامته له تعظيمـاً.

سبق لنا أن دعونا الكتبة المحدثين: كفوا عن هذا المنهج الفطير الذى يضر ولا ينفع فإن فى السيرة المحمدية الزكية ما يغنىكم عن اللجوء إلى الماورئيات ولكن (لقد أسمعت لوناديت...).

ولا يخفى السبب الكامن خلف الاستعانة بها فهذا لا يحتاج إلى بذل جهد أو مكافحة عناء أو تحمل مشقة بل يكفى بضع عبارات إنشائية وجمل خطابية وفقرات بيانية وخطب منبرية..

بخلاف البحث الموضوعى فهو يستترر الحفر فى المصنفات والتقىر فى المؤلفات والتدقيق فى الكتب مع استعمال طرائق الاستقراء والاستدلال والتحليل والسير والاختبار والمقارنة والشك فى بعض الأحاديin وسبيل هنا كله شاق وجهد ومتعب.. إلخ.

ولم كل هذا وفي الغيبيات ميدان متسع دون بذل عرق ونطق فسيح بلا إرهاق ومجال عريض بغير نصب؟

• • •

ثم نأتى إلى السؤال المهم الذى تعين علينا تأخيره إلى خاتمة هذه الفقرة التى خصصناها لنصاحة (أحمد):
لأية علة تحتم على سيدة نسون قريش الالتفات إليها بل والتثبت منها فيه
والتي فى نظرنا شكلت باعثاً حيثاً لاختياره؟
نحن نرجح أن القارئ اللقن الفطن لا يغيب عن ذكائه الاهتداء إلى الجواب
الصحيح.

• • •

إن المرشح كيما يغدو (القادم المنتظر) لابد أن يمسك بيده كتاباً يعلنه على أهل مكة. (هاؤم اقرأوا كتابيه). مثلاً قالها موسى ليهود وابن مرريم للنصارى.
والعرب المخاطبون (فتح الطاء) به أهل لسن وفصاحة وبلافة.. ليس لديهم من سمات الحضارة غيرها هذا مع التجاوز الكبير فى عدتها من شارات الحضارة، فهم عراة من العلوم والأداب والفلسفة.. ومن ثم فإن الكتاب الذى يطرح عليهم يجب أن يجعى مثلاً أعلى لهذه السمة اليتيمة المفردة التى يمتلكونها..

وإلا فلا يؤمنون به ولا بمن قدمه إليهم بل إنهم سوف يستهزئون به إذ يصير فى مقدورهم أن يأتوا بمثله أو حتى أبعاض منه.

• • •

إن دروس أو معارف أو معلومات الليالي الطويلة والذى ستختزنها الذاكرة الحديدية ذاكرة الشاب الأمى العبقرى العرى عن الضروب عديم النظير، يتعين بطريق الحتم واللزوم أن تتلى على أهل مكة والحجاج وغيرهما ويعتبر الذكر

المحكم: (الناس) بلسان عربي بلغ القمة في الفصاحة والذروة في اللسان والذوابة في البلاغة كيما يأتي (الكتاب) بمعقوله الأكيد دون ذرة من شائبة أو حبة من كداره.

* * *

من هنا وصل إلى إدراكنا حرص خديجة على الاستيقاظ من فصاحة (صاحب لختم) وهذا وإن نقدمه كأحد الفروض إلا أنه في نظرنا واقع لا محالة وإن سكتت عنه المصادر بيد أنه من بدائله العقول أن تتحتمه طبائع الأمور ويستدعيه ترابط الظروف ويستقره مقتضى الحال ومن ثم فهو فرض معقول ومقبول.

* * *

فوارق عديدة صدعت مابين سيدة قريش و(راكب الأنان):

في العمر: مالا يقل عن خمسة عشر عاما في رأي جمهور الباحثين. في فهرست كتابه (خديجة أم المؤمنين - رض) أورد المؤلف أن هناك فقرة ص ٤٩ عنوانها (تحقيق عمر خديجة عند إتمام هذا الزواج).

وبالرجوع إلى هذا التحقيق نجد أنه لم يستغرق أكثر من ثلاثة أربع صفحة انتهى فيه إلى أن أنها قد بلغت الأربعين واعتمد في ذلك (التحقيق!!) على مقوله لحكيم بن حزام بن خويلد بأن رواتها لا ترقى إليهم الشبهات ولم يبين لنا المؤلف كيما؟

وهو لم يذكر منهم سوى مولى للزبير بن العوام وموسى بن عقبة ولم يوضح لنا عدالتهم؟

ويضيف أن كبار مؤرخي السيرة والمغارزيأخذوا به وهذا غير صحيح فقد أوردنا من بين أولئك الكبار من أكد أنها عند الزواج وصلت إلى سن السادسة والأربعين.

وتتابع المؤلف أن حكيم بن حزام صاحب القولة قد أكرمه واحترمه التيمىء أبو بكر والعدوى عمر في خلافتهما.

أما أن (الجامع) فعل ذلك فهذا مرجعه لقرباته من خديجة وقد دأب على إكرام كل من يمت إلى سيدة نسون قريش بأوهى صلة ولأنه من المؤلفة قلوبهم مثل أبي سفيان وابنه معاوية^(٢٥) ومن الذين اسلموا يوم الفتح فاما أن المؤلف عرف ذلك ودسه وأخفاه وأما أنه لم يعرفه وهذا ما نشك فيه.

إذن هو تعمد إغفال ذكر أن حكيمها هذا من المؤلفة قلوبهم حتى لا يوهن مقولته بأن أم هند عندما غدت بعلا لـ(جهضم) بلغت الأربعين.

واستطرد يقول إنه لا يشك أن حكيمها حضر زواج عمته خديجة ولا ندرى من أين أتاه هذا اليقين مع أن كتب السيرة الذكية لم تورد اسمه بين حضور عقدة النكاح وحتى على الفرض الجدلى أنه فعل ذلك فهل هذا مبرر لترجيح مقولته؟

إن أبسط قواعد التحقيق أن يجمع الروايات التي قيلت بشأن الواقعه ويرجح إحداها ويقدم الدليل أو الأدلة على الترجيح، أما أن ينتهي رواية واحدة ويأخذ بما جاء بها فهذا ليس تحقيقاً لأنه خالف أبسط قواعد منهج التحقيق. ونحن نقدم صنيع صاحب كتاب (خديجة أم المؤمنين - رض) كمثال لما يعلو كتابات المحدثين من خفة وهشاشة وتسطيع ومجانيه^(٢٦).

ورحم الله الشيخ عبدالحليم محمود (يسمونه إماماً!!!) الذي تربى على كرسى رئاسة شئون التقديس فى مصر منذ سنوات فقد أدرك مدى ركاكه وفهاهة ما يدبره الكتبة المحدثون عن خديجة وحقيقة صلتها بـ(الجواب) فكتب: والسيدة خديجة - رض - فى صلتها برسول الله تستحق دراسة أوسع وتفصيلاً أكثر^(٢٧).

ثم نؤوب لاستئناف متابعة سياقة البحث^(٢٨).

وفي المكانة الاجتماعية فهي التجرة الموسرة ذات الحسب والنسب ورغم هيمنة النظرة الذكورية آنذاك على مجتمع مكة فقد استطاعت بصفاتها الشخصية أن تحتل فيها مكانة رفيعة.

وهو واحد من ناشئة قريش فقير يحترف رعي الفنم مرة والعمل التجارية لدى الغير تارة أخرى.

ومن ناحية المال فهي صاحبة القائلة التي لها فيها ما يساوى سطر ما لسائر أساطين قريش. وهو أجير لديها وذكر هنا بتوجيهية عبدمناف أو أبي طالب عندها أن تستأجره في سفرة الصيف إلى الشام وتعطيه ضعف ما تدفعه من العسفة^(٢٩).

وفي جانب النسب أم هند من فرع مليء: بنى أسد وفي يقين نفر من الباحث أنه فاق الهواشم مزلاة ولو أن هؤلاء ارتفعوا إلى الذؤابة العليا لا في قريش وحدها بل في جزيرة العرب جميعها بعد أن تحول (المستقيم) إلى القادر المأمول والمنتظر المرتقب.

ولا بأس تدليلاً وإثباتاً للفوارق التي طرحتناها حتى الآن (هناك أخرى سوف تتواتر) أن نعيد ما أسلفنا: أنه ما صدق أن الطاهرة تقبل أن تباعه وأن الخبر إثر ما وصل مسامع عبد مناف أو أبي طالب ركب الفرح وعمه السرور وهيمون عليه الحبور وفيما تقدم وضعنا أدلة الثبوت المؤثقة على ذلك في حجر القارئ.

● ● ●

وهي ذات تجارب عميقة وخبرات مكينة.

وهي دروب حاذقة مرتنت على شتى الوجوه من العديد من الأمور: فهو صاحبة تجارة واسعة وهو أجير ولا يقارن ذو لب بين خبرة رب العمل والأجير.

وهي تزوجت مرتين أنجبت فيهما أولادا وبنات وهو لم يدخل دنيا^(٣٠).
وهي تجيد القراءة والكتابة وقد طرحتنا البراهين على ذلك وهو أمر لم
يمسك قلما ولا ورقة ولم يطالع صحيفة.
وهي ذات ثقافة دينية متميزة هي حين لم يعرف عنه ذلك.
وهي من فرع (بني أسد) مرق منه ينفر من قرأوا الكتب وتبخروا في العلم
في حين لم يعهد في بنى هاشم من ذلك شيئاً.
وأحاطت بسيدة نسون قريش حلقة من أهل الكتاب تقابلهم وتتقاشهم
وتدارسهم وتباحثهم وهو آثر العزلة وأحب الانطواء ورغب في الابتعاد لأن
ظروف نشأته قست عليه وحرمته وظلمته.

● ● ●

وهي حسبما أبلغنا الإخباريون امرأة ببرة تجالس الرجال مع عفة بالغة
وطهارة كاملة وتحادثهم وتسامرهم وتسمع منهم وهو خجول كالعذراء المخدراة.
وهي ذات حاسية وسعة من الصواب والصديقات يحضرن مجلسها ويتجاذبن
معها أطراف الحكى وينقلن إليها أخبار قرية القدس وما حولها وما وقع من
الأطروفات والأحداث والأعجوبات وخلت مدونات سيرته الفائحة بريح المسك
الأصهب من أسماء من خاله (صادقه) في ذيak الوقت سوى ما رواه عمار بن
ياسر عن نفسه أنه خدنه^(٣١).

ومعلوم أن الاختلاط خاصية في ذيak المجتمع يضاعف المعلومات وينمى
المدارك ويزيد المعارف ويتوسّع الأفق ويعمق النظرة ويحد البصيرة ويصلق
القريحة .. إلخ.

● ● ●

ذلك غيض من فيض من الفوارق التي باينت بين الهنوز و(قدم صدق) بيد
أنها لما تمنت به من عقل راجح وذكاء حاد وفطانة بالغة ولب عميق وحجن
وفي نفتها أن هذه الفوارق سوف تندو عوناً صادقاً لها في إدارة دفة التجربة
إلى الاتجاه الذي تتغبّه والوجهة التي تؤمّها والمنحي الذي تريده. ذلك أنه بهذه
الصورة التي هو عليها وبما بينها وبينه من مسافة وسعة وبون شاسع وبعد
 واضح يراه بعينيه الشريفتين ويلمسه بيديه الكريمتين ويدركه بفطرته الذكية أو
بذكائه الفطري سوف يغدو خير موضوع للتجربة التي عقدت عزمها الصلب
وشكيمتها القوية وإرادتها الحديدة على إنفاذها وسيصبح بلا جدال سلساً
مطواها هينا لينا رقيقاً رفينا .. إلخ.

ولقد ثبت بما لا يدع مجالاً لأى معارضة ولا فسحة لأى مشاكسة ولا موطن
قدم لأى مخاصمة أنها تمنت بفراسة ليس لها ضروب وصدق حدس يعز عن
النديد ونظرة مستقبلية تند عن الشبيه وبرهاننا على ذلك موقف (الخاشع)

الخاضع) في حكاية اختبار ذلك الذي يأتيه: هل هو ملاك الرب أو شيطان ولا
نبغي أن نكررها فقد تقدم سردها مع حجج توثيقها.

● ● ●

تلك فرشة لازمة للدخول في محارب^(٣٢) أروع تجربة أفرزتها العصور
الوسيطة المبكرة وطرحت هي بدورها هذه الشمار التي لا تقدر بثمن ومن بعد
تولدت عنها حضارة عظيمة وعلوم متعددة.

ونحن نقدم محاولة غير مسبوقة لفك طلاسمها وحل ألغازها وفهم شفراتها
وقراءة رموزها التي حيرت منذ قرون عديدة ألف الباحثين من القدامى
والمحدثين والعرب والعمجم والفرنجة والصقالبة.. إلخ والتي ملأت الدنيا وشغلت
الناس.

فهي قد أنتجت معجزة وهي معجزة بكل المقاييس خاصة في ذلك الإبان
وعلى يد من قدمها وهو باطباق البصیرین ودملک من المتذلّقین والمتفیقین
والمتطعین - أمی ..

وقدم نفر من المستشرقين محاولات ساذجة وطروحات عبيطة وأقوالا خائبة
لإزالـة الغموض وكشف الحجاب ورفع الستار بيد أنها اتسمت بالفهامة واتصفت
بالرك وعلـاهـا التهافت مثلـ أنـ مـقاـبـلـةـ قـسـ مـدـةـ يـوـمـ كـاـمـلـ لـصـبـىـ يـافـعـ تـكـفـىـ
للـتـفـسـيـرـ.

● ● ●

والـذـىـ أـوـقـعـ السـابـقـيـنـ وـالـلـاحـقـيـنـ وـالـخـلـفـ وـالـسـلـفـ فـىـ هـذـاـ المرـجـ وـسـاقـهـمـ
إـلـىـ هـذـاـ خـلـطـ وـدـفـعـهـمـ إـلـىـ هـذـهـ خـرـيقـةـ هـوـ عـدـمـ التـفـاتـهـمـ إـلـىـ الـفـتـرـةـ التـىـ
نـسـتـطـعـ أـنـ نـسـمـيـهـاـ (ـالـحـقـبـةـ الـغـامـضـةـ)ـ فـىـ السـيـرـةـ الـمـحـمـدـيـةـ التـىـ هـىـ أـطـيـبـ منـ
عـسـلـ المـوـصـلـ وـهـىـ تـبـدـأـ مـنـذـ أـنـ أـصـبـحـتـ خـدـيـجـةـ لـهـ بـعـلاـ حـتـىـ الرـؤـيـاـ الـنـامـيـةـ
الـتـىـ رـآـهـاـ فـىـ غـارـ حـرـىـ بـمـقـابـلـةـ مـلـاـكـ الـرـبـ جـبـرـيلـ وـأـمـرـهـ إـيـاهـ بـأـنـ يـقـرـأـ باـسـمـ
رـبـهـ الـذـىـ خـلـقـ.

فـىـ ذـلـكـ المـقـطـعـ يـكـمـنـ السـرـ وـيـتـوارـىـ اللـفـزـ وـتـخـبـئـ الـأـحـجـيـةـ.
وـلـدـمـ الـأـنـتـبـاهـ إـلـيـهـ تـضـارـبـ الـطـرـوـحـاتـ وـتـنـاقـضـ الـحـلـوـلـ وـتـخـبـطـ الـأـقـوـالـ،
وـهـمـ مـعـذـورـونـ لـأـنـ دـوـاـيـنـ السـيـرـةـ الـمـعـطـارـ التـىـ هـىـ أـحـلـ مـذـاقـاـ مـنـ تـفـاحـ الشـامـ
شـحـيـةـ بـوـقـائـهـ بـخـيـلـةـ بـأـحـادـاثـهـ،ـ كـزـةـ بـأـخـبـارـهـ يـاـسـةـ بـنـواـزلـهـ بـيدـ أـنـتـاـ تـمـسـكـاـ
بـأـحـبـالـ الصـبـرـ وـطـالـعـنـاـ الـعـشـرـاتـ مـنـهـاـ وـقـرـأـنـاـهـ قـرـاءـةـ هـادـئـةـ مـسـتـأـنـيـةـ وـخـاصـةـ
الـتـرـاثـيـةـ عـدـةـ مـرـاتـ (ـيـتـضـعـ ذـلـكـ مـنـ ثـبـتـ الـمـصـادـرـ)ـ وـلـسـنـوـاتـ طـوـيـلـةـ فـانـفـتـحـتـ
الـأـبـوـاـبـ الـمـغـالـيـقـ وـاسـتـطـعـنـاـ بـعـدـ عـنـاءـ وـجـهـ وـتـعبـ أـنـ نـضـعـ أـيـدـيـنـاـ عـلـىـ السـرـ وـنـحـلـ
الـلـفـزـ وـنـفـكـ الشـفـرـةـ.

● ● ●

ولكن قبل أن تتبع خطوات أو مراحل أو مقاطع التجربة الفريدة نرجع على نقطة مهمة وهي:

هل دخول القايد المأمول والآتى المنتظر التجربة ينزع الموضوع جانبه التيولوجي أو الغيبى أو السماوى إلى آخر هذه التوصيفات التى تعنى في نهاية المطاف: المفارق أو المباین أو المفاصيل للفعل البشرى؟

الدوجماتيقيون أو المتمسكون بالحرف أو الظاهرية (لا تعنى سلاح التفسير الظاهرى للنصوص أ.هـ). هم وحدهم الذى يذهبون إلى ذلك أما الواسعو الأفق والمستيريون فلا يرون فى ذلك تناقضًا ودليلنا على ذلك ما جاء فى القرآن الكريم نفسه (ولتصنعن على عينى)^(٣). فال فعل مبني للمجهول أى أن الصانع غير معلوم بيد أن الصناعة تم تحت رعاية ربه وكىما يزداد المعنى وضوحا نقرأ الآية المذكورة كاملة فبعد قذف موسى فى التابوت ثم فى اليم يأخذه آل فرعون وفي القصر الملكى ينشأ موسى ويشب ويترعرع وينهل من منابع حكمة كهان مصر القديمة ويتبطلع من علومهم وهذه هي الصناعة وهذا هو السر فى بناء فعلها للمجهول لأنه ربما يغدو من غير المناسب الكشف عن هنادزة وأساتذة ومعلمى موسى، المهم أن هذا التصنيع هو الذى أهل موسى لكي ينشئ الديانة الموسوية التى تدين بالكثير الذى لا يحصره أو يبعده أو يخصيه إلا الله إلى مصر القديمة صاحبة أعظم حضارة عرفها التاريخ حتى الآن وصاحبة الفضل العظيم على البشرية جموعه فى العديد من النواحي من الحكم والفلسفه والأداب إلى العلوم والهندسة والطلب والفلك.. الخ.

المهم الذى نقصده أن العلوم التى تلقاها موسى على أيدي كهان قدماء المصريين ومعلميه فى قصر فرعون أو البيت الكبير (برعو) كلها وسائر خطوات الصقل والصنفه والإعداد والتأهيل والتحضير والتدريب والتمرين والتلميع.. الخ والتى عبر عنها الذكر الحكيم بالصناعة (ولتصنعن على عينى) تمت تحت رعاية ربه.

وهى ذات الخطوات التى حققتها الهندوز فى التجربة مع (المُخت) بإشراف اليعسوب أيضا وبذات القدر يمكن أو هى حقيقة الصناعة التى ورد ذكرها فى الآية المذكورة إنما تحت رعاية رب ويتوفيقه.

إن الذى حدث لموسى فى البيت الكبير. برعو. قصر فرعون على يد الكهنة والمعلمين وأساتذة والحكماء.. تكرر مع (المجيب) على يد الطاهرة والقس وفى الحالتين وقعت التجربتان وهما مكلوءتان برعاية رب وتحت بصره ويتوفيقه. ونحن لا ننسى بين كهان وحكماء ومعلمى وأساتذة مصر القديمة بالطاهرة واليعسوب بل ولا نرى وجها للمقارنة بين الفريقين ولعل هذا يظهر بمقارنة الديانة الموسوية بديانة الإسلام.

بيد أن الذى جمع بينهما ودفعنا إلى قرنهما ببعض هو أن السماء دأبت على النظر إلى كل منهما والعناية بهما ورعايتها حتى كتب لكل الفلج والظفر والفوز.

• • •

وقد لا يلقي هذا الرأى قبولاً خاصةً أن كلمة (ولتصنعن) هناك من يذهب إلى أنها بفتح التاء وهو رأى أعجف لأنَّ الرب يرى ما يصنع موسى وغيره من خلق فايبرادها بالفتح عبٰث والذكر الحكيم منزه عنه وعن كافة المطاعن وجمهور السلف والمفسرين مطبقون على أنها بالضم.

وللنقر قدر جهدنا ووسع طاقتنا في كتب التفسير العوالى التي تلقتها أممٌ لا إلا إلا الله بالتجله والتقدير فيما ثبت أنَّ ما ذهبنا إليه من إمكان بل ضرورة تصنيع النبي - أى نبى - بالطرق البشرية تحت رعاية الله له سنته وعليه برهانه وتقوم حجيته من آراء السلف الصالح.

إذا أفلحنا في ذلك بالأدلة القواطع فلا يحق لأى شخص أن يتعرض بل فرض واجب عليه أن يسلم حتى ولو استغرب الفكرة الأولى مرة بل وحتى ولو صدمته لأنَّه لم يسمعها من قبل.

• • •

نستفتح بحبر الأمة وترجمان القرآن^(٣٤).

(عبدالله بن عباس في تفسير جملة (ولتصنعن على عيني) أى وما صنع لك كان في منظري)^(٣٥).

(ومعنى في منظري أى أمام عيني وهذا ما أخبرنا به القرطبي: قال ابن عباس يريد أن ذلك بعيني)^(٣٦).

أما الإمام الفخر الرازي فيزيد الأمر إيضاً.. (قوله تعالى: (ولتصنعن على عيني) قال القفال لترى على عيني أى وافق إرادتي ومجاز هذا أنَّ من صنع الإنسان شيئاً وهو حاضر ينظر إليه صنعه له كما يحب... المراد من العين الحراسة لأنَّ الناظر إلى شيء يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنَّها سبب الحراسة فأطلق اسم السبب على المسبب مجازاً^(٣٧).

فهناك إذن من يصنع ولكن عين الرب ناظرة إلى تصنعيه للقادم المأمول وهي تلاحظه وترقبه وترعاه.

وهذا ما أكدَ الإمام العلامة الحافظ المفسر محمد بن أحمد بن جرzi الكلبي: (ولتصنعن على عيني) أى تربى ويحسن إليك بمرأى مني وحفظ والعامل فى لتصنعن محذوف)^(٣٨).

ومعلوم لدى أهل اللغة أنَّ حذف العامل لا يعني نفيه أو عدم وجوده بل يتم لأسباب عديدة منها ضرورة السياق أو ترك معرفته لتقطن القارئ.

أبو عبيدة معمر بن المثنى من أقدم الذين تناولوا القرآن العظيم بالتفسير إذ أنه توفي سنة ٢١٠ هـ وقد أطلق على كتابه (مجاز القرآن) وفي شرحه (ولتصنع على عيني) يقول: (مجازه ولتعذى وتربي على ما أريد وأحب) (٣٩).

فهو هنا يذكر التربية التي تلقاها موسى في طفولته وصباه وشبابه وكيف أنها حدثت وفق ما أحب وما أراد ربه.

أى أن هناك من باشر التربية والتعليم بيد أن ذلك بنظر الرب وعناته. ويفصل لنا الإمام النسفي ذلك ويوضحه:

(ولتصنع على عيني) أى لتربي بمرأى مني وأصله من صنع الفرس أى أحسن القيام عليه . يعني أنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء وبعينه إذا اعتنى به) (٤٠).

ومفاد ما سطره أن آل فرعون قد ربوا موسى أحسن تربية وأجادوا القيام بشئونه كلها ورعاوه واعتنتوا به على أكمل صورة بيد أن ذلك كله تم تحت رقابة رب موسى وتوجيهه .

ونفحنا العالمة النسفي بذكرة لفظية من الضروري الالتفاف إليها لعلاقتها الحميمة بهذه النقطة (من البحث) التي نبحث فيها وهى أن تولى إنسان أو حيوان بال التربية والقيام بأمره على أميز أية (هيأة) يسمى صناعة أو صنعا . ويخبرنا أبو البركات أن العرب تقول إن من يقوم بالاعتناء بفرسه كيما يصنع كاملاً معجباً يقول عنه إنه صنع الفرس .

وتقريراً على ذلك فإن موسى تلقى صناعة أو تصنيعاً أو صنعاً ممتازاً فائق الجودة في قصر فرعون ولا غرابة في ذلك فمصر مهد الحضارات والعلوم والأداب وعلى أرضها الطيبة تعلم فلاسفة اليونان وغيرهم إنما تم تحت عين رب .

(ويؤكّد الإمام البيضاوي زاوية التربية وإحسانها فيقول (لتربي وبحسن إليك) ثم يزيد فالشرط الجوهرى وهو رعاية الله له (وأنا راعيك وراقبك) (٤١). أما شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبرى فذهب إلى أن هذا المقطع من الآية (قيل لتعذى ولتربي على محبتي وإرادتى .. وقيل بعينى في أحوالك كلها) (٤٢).

فالطبرى ومن يرون أن تغذية موسى وتربيته بشتى ضروبها ومختلف أنواعها وسائل صورها أنجزها أو قام بها فرعون وأسرته ومن ذبهم ولكن على عيني الرب .

ودار في الفلك نفسه مصنفاً (تفسير الجلالين) .. (أى تربى على رعاياتي وحفظى لك) (٤٣).

وكذلك الإمام الختم محمد عثمان الميرغنى :

(ولتصنن تربى.. على عينى.. رعايتها) (٤٤).

ثم نختتم برأى رئيس مؤسسة شئون التقديس فى مصر فى معنى هذا الجزء من الآية (... ولتصنن على عينى أى تحت رعايتها) (٤٥). ففضيلاته هنا يؤكد أن تربية آل فرعون لموسى بدأت وختمت مشمولة برعاية رب موسى وعنايته وحفظه.

ونكتفى بهذا العدد من التفاسير وهى كما اتضح من أوثقها وتتمتع بمكانة طيبة وقد أجمعـت على أن هناك من ينشـئ ويربـى ويعلم ويدرس ويـثـقـف موسى ويلقـنهـ الحـكـمةـ والـعـلـومـ الـلاـزـمـةـ لـكـلـ قـادـمـ معـ الـوـضـعـ فـيـ الـاعـتـارـ الـكـامـلـ أـنـ رـبـهـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ وـيرـاعـيـهـ وـيرـقـبـهـ.

إذن هناك قطـبانـ فـيـ عمـلـيـةـ التـصـنـيـعـ أـوـ بـحـسـبـ تـعبـيرـنـاـ:ـ (ـالـتجـربـةـ):ـ

ـمـنـ يـتـولـيـ التـشـيـةـ وـالتـرـبـيـةـ وـالتـعـلـيمـ ..ـ إـلـخـ.

ـوـالـذـىـ يـهـيـمـ وـيرـعـىـ وـيـبـسـطـ العـنـاـيـةـ وـالـحـمـاـيـةـ ..ـ إـلـخـ.

ـوـإـذـ انـطـقـ هـذـاـ عـلـىـ مـوـسـىـ وـهـوـ رـأـسـ الـدـيـانـةـ الـيـهـودـيـةـ وـمـنـ أـوـلـىـ الـعـزـمـ وـأـحـدـوـثـهـ لـهـ حـيـزـ وـسـيـعـ ..ـ الـقـرـآنـ الـمـجـيدـ،ـ فـأـىـ مـانـعـ يـحـوـلـ دـوـنـ أـنـ يـنـطـقـ عـلـىـ سـارـ عـلـىـ دـرـبـهـ وـأـتـىـ بـعـدـهـ مـنـ الـبـطـارـكـةـ الـمـفـخـمـيـنـ؟ـ

● ● ●

ـوـأـخـيـراـ فـهـنـاكـ مـفـسـرـ مـنـ الـمـحـدـثـيـنـ تـنـاـولـ مـكـانـ صـنـعـ مـوـسـىـ بـمـاـ لـاـ يـدـعـ مـجـالـاـ لـذـرـةـ مـنـ شـكـ (ـفـهـوـ كـبـرـ وـشـبـ فـيـ قـصـرـ فـرـعـونـ وـتـحـتـ عـيـنـ فـرـعـونـ وـلـكـ رـبـهـ فـيـ ذـكـ الـوقـتـ لـمـ يـكـفـ عـنـ حـمـاـيـةـ وـرـعـاـيـةـ)ـ (ـ٤ـ٦ـ).

ـوـمـاـ دـامـ مـوـسـىـ نـشـأـ فـيـ قـصـرـ فـرـعـونـ وـتـحـتـ بـصـرـ الـأـخـيـرـ فـلـابـدـ أـنـ وـفـرـ لـهـ كـافـيـةـ وـسـائـلـ التـرـبـيـةـ الطـبـيـةـ وـالتـعـلـيمـ الـعـالـىـ مـنـ كـهـنـةـ وـحـكـمـاءـ وـعـلـمـاءـ وـمـدـرـسـيـنـ وـهـذـاـ يـبـيـنـ لـلـوـهـلـةـ الـأـلـوـىـ مـنـ قـرـاءـةـ تـورـاهـ مـوـسـىـ وـتـعـالـيمـ كـهـنـةـ مـصـرـ وـحـكـمـائـهـ وـيـخـرـجـ عـنـ سـيـاقـ بـحـثـاـ عـقـدـ مـقـارـنـةـ بـيـنـهـاـ لـإـبـرـازـ أـوـجـهـ الـمـمـاثـلـةـ وـجـوـانـبـ الـمـطـابـقـةـ وـنـوـاـحـىـ الـمـشـاـكـلـ رـغـمـ تـوـافـرـ الـمـصـادـرـ بـيـنـ أـيـدـيـنـاـ.

● ● ●

ـإـذـنـ نـخـلـصـ إـلـىـ أـنـ أـىـ قـادـمـ جـدـيدـ أـوـ مـأـمـولـ مـنـتـظـرـ مـنـ الـحـتـمـ الـلـازـمـ أـنـ يـمـرـ بـفـتـرـةـ إـعـدـادـ وـتـهـيـئةـ وـتـشـذـيـبـ وـصـنـفـرـةـ وـتـعـلـيمـ وـتـدـرـيـسـ لـيـغـدوـ أـهـلـاـ لـحـمـلـ مـاـ سـيـضـطـلـعـ بـهـ وـالـذـىـ وـصـفـهـ الـقـرـآنـ الـمـجـيدـ بـ(ـالـقـوـلـ الثـقـيلـ).

ـهـذـاـ التـصـنـيـعـ وـمـنـ الـبـدـيـهـىـ أـنـ يـتـولـيـ عـبـئـ بـشـرـ مـنـ الـلـزـيقـيـنـ بـهـ تـظـلـ السـمـاءـ تـرـاقـبـهـ فـهـوـ عـمـلـيـةـ بـالـغـةـ الـرـهـافـةـ وـالـحـسـاسـيـةـ.

ـوـلـكـنـ أـنـ تـفـذـهـاـ الـقـوـىـ الـعـلـيـاـ بـنـفـسـهـاـ فـهـذـاـ مـالـاـ يـحـبـكـهـ عـاقـلـ.

ـهـتـىـ مـنـ نـاحـيـةـ الـصـلـاحـيـةـ وـالـكـفـاـيـةـ فـإـنـهـ يـتعـيـنـ أـنـ يـصـيرـ (ـالـمـأـمـولـ)ـ مـحـيـطاـ بـمـجـرـيـاتـ بـيـتـهـ وـمـاـ يـدـورـ فـيـ مـجـمـعـهـ وـمـاـ يـحـدـثـ فـيـ وـسـطـهـ وـهـذـاـ لـاـ يـتـأـتـىـ لـهـ إـلـاـ

إذا جاء صانعوه من قلب البيئة ومن باطن المجتمع ومن داخل الوسط وهو مالا يتحقق إلا في بشر مثله.

يعكس ما إذا تولت صناعته أو تصنيعه كائنات هابطة من الغيب ومجردة أثيرية فهي بالضرورة غير معجونة بتفاعلات زمنه وتجهل مشكلات وقته لا تدرك احتياجات عصره..

إن هذه الكائنات المتعجبة لو باشرت صنفراً القادر وقلوظته^(٤٧) لتحول إلى صورة قد تبدو كالتحفة الفالية أو الظرفية الثمينة إنما لا توائم التعامل البشري.. ومن هنا فإن التعبير الذي ورد بالقرآن المجيد عن البطاركة أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.. بالغ حد الروعة.. لأنه ي Shi بأنهم أفراد من مجتمعهم طبيعتهم بشرية مثل طبيعة سائر الناس ومحروزون في قومهم عليمون بهمومهم وخبراء بغضالاتهم وعارضون بأحلامهم ومدركون مايسرهم وما يسوؤهم.. إلخ.

وبالإضافة إلى عدم معقولية أن تباشر السماء بنفسها أو بواسطه مندوبي عنها تصنيع أو صناعة (المنتظر) فما هو الخطأ أو الخطيئة في أن ينهض بهذا العمل واحد أو نفر من المحيطين به ممن اتصفوا بالشمائل الازمة.

لا يوجد في الذكر الحكيم ولا في السنة الحمدية المطهرة نص واحد يحول دونه بل بالعكس فقد رأينا آية من القرآن المجيد تدل على أو تقطع بوقوعه.

* * *

ومن جانب آخر، فإن نهوض فرد أو اثنين أو ثلاثة.. نفر أو جماعة بتهيئة (المنتظر) لـ(لقول الثقيل) لا يغض من مكانته ولا يخدش كرامته ولا يقلل من مقامه.

وبالنسبة لـ(سيد ولد قصى) فقد سبقه في الطريق سلفه الكرام من البطاركة الأماجد فقد أثبتنا بالأدلة المؤثقة أن موسى تمت تربيته في (برعو) أو البيت الكبير أو القصر العالى وأن فرعون ذاته أشرف بنفسه على أطوار التنشئة ومراحل التعليم وأشواط التربية فأحضر له الكهان والعلماء والحكماء الذين ليس لهم ضريب في العالم المتحضر آذاك ولا نبدو مبالغين إذا قلنا وفي هذا الزمام أيضا.

أما عيسى ابن مريم فالذى تطوع بصنفته وقلوظته وتلميذه هم: زكريا وابنه يحيى أو يوحنا (هو الذى تولى تعميده ومن ثم سمي المعandan) وأمه الصديقة التي قضت شطرها من حياتها الأولى في بيت المقدس وزوج أمه يوسف النجار الذى حصل قدرًا لا يأس به من العلوم الدينية وعندما وجاء المسيح إلى مصر هرباً من بطش الطاغية الرومانى مكث فيها حتى بلغ الثالثة عشرة فاتصل بالكهنة المصريين وافتخر من علومهم الكثير ومنها الطب (إبراء

الأكمه والأبرص) والسحر (إحياء الموتى) وسواء صح هذا المقطع المصلى من التصنيع لابن مريم أم لا فإنه يكفى الشطر الأول.

وهكذا ثبت بالحججة القاطعة أن موسى وعيسى دخلا بوابة التصنيع واجتازا مراحلها وما نال ذلك من قدريهما أو حط من مكانتهما بل إنهم رغم مضي قرون عديدة على ظهورهما فإنهما يزدادان تألقاً وتعاليمهما وحكمتها تترسخان يوماً بعد يوماً.

وخلالصة القول إن كشف الحجاب عن مرور (المنصور) بـ(التجربة) وقطعة أشواطها واحداً وراء الآخر ليس فيه أدنى مساس بمقامه المحمود ومنزلته السامية وقدره الرفيع الذي يغطيه عليه الأولون والآخرون ويصبح مثله كمن تقدموه.

وطالما نادى هو بمشابهتهم بعضهم بعضاً وأنهم بنو علات^(٤٨). وكثيراً ما نهى عن تقضييه على غيره منهم. فلماذا لا نطبق حديثه عملاً وواقعاً فلا تفرق بينه وبين موسى وعيسى إذ نقر أنهم خاضوا تجربة التصنيع التي أنجزها بشر ثم نستهول ونستفطع ونحوقل ونستعيد بالله من الشيطان الرجيم إذ نثبت لهم بالبرهان المبين أنه كسابقه حذوك القدة بالقدة سار في (تجربة) وقطع أشواطها.

● ● ●

ولقد أردى سلفنا الصالح ضرورة خضوع القادر إلى قادم لمرحلة التصنيع التي تتم في أحشائهما أدوار الصنفرة والقلولة والتهيئة والتدريب والتأهيل.. ولكنهم استكثروا أن يحمل ثقلها - في حالة (المنقد) - ناس من الناس فهم من ناحية لا يرون أن واحداً أو نفراً من المخالفين له يصلح لهذا الشرف المنيف ومن ناحية أخرى يتوهمنون أنه يغض من قدره ويحط من شأنه وبهبط بمستواه. فماذا فعلوا؟

هداهم خيالهم الخصيب إلى أن السماء لم توكل بشراً بمهمة التصنيع أو الصنع أو الصناعة، كما فعلت مع موسى وابن مريم، بل تفرغت هي لإنجازها بواسطة ملاك يسمى (إسرافيل) اضطلع بها على أكمل وجه بأن لازم (المعروف عليه مفاتيح خزائن الأرض) لمدة ثلاثة أعوام قبل أن يظهر له جبرائيل في حرى فى النمام ويفته غناً كيما يقرأ باسم ربِّ الذى خلق.. إلخ.

● ● ●

(وفي حديث عبيد بن عمير في خبر نزول جبريل - س. قال رسول الله - ص. فجاءني وأنا نائم فهذه حالة وحديث وغيرها أنه كان في اليقظة وهذه حالة ثانية ولا تعارض لجواز الجمع بينهما بوقوعهما معاً ويكون الإتيان في النوم توطئه للإتيان في اليقظة وقد قالت عائشة: أول مابدئ به - س. من الوحي

الرؤيا الصادقة. وعن الشعبي أن رسول الله ﷺ وكل به إسراويل فكان يتراءى له ثلاثة سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي ثم وكل به جبريل فجأة بالقرآن والوحى وهذه حالة ثلاثة لمحى الوحي: عن قتادة قال: كانت خديجة أول من آمن بالنبي ﷺ من النساء والرجال وهو قول موسى وابن اسحق والواقدى والأموى وغيرهم قال ابن إسحق كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدق ما جاء من عند الله عز وجل وآزرته على أمره فخفف الله بذلك عن رسوله فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكتيّب له فحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت رضى الله عنها^(٤٩).

والشعبي من خيار التابعين ولكن واضح من سياق الخبر أن هذا مجرد رأى ارتاه ومن هنا فمن حقنا ألا نأخذ به نزولاً على السنة القولية التي استنها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان شيخ المذاهب: أما (إذا جئنا إلى التابعين فهم رجال ونحن رجال وعبارة يتراءى له غامضة فهل هي من الرؤيا (أى في المنام كما جاءه جبريل في الغار وأمره بالقراءة مع أنه يعلم أو المفروض أنه يعلم أنه أمن لا يقرأ ولا يكتب أ.هـ) أم هي من الرؤية الواقعية العيانية - ثم جملة ويأتيه بالكلمة من الوحي ماتفسيرها ولأى سبب من الأسباب كتم (المسعود) الكلمات التي أتاه بها إسراويل وهو منهى بصرامة عن الكتمان.

• • •

والذهبى فى السيرة أحضنا بنفس الأثر:

(عن سعيد بن المسيب قال: أنزل على رسول الله - ص - وهو ابن ثلات وأربعين سنة فمكث بمكة عشرًا وبالمدينة عشرًا وعن الشعبي قال: ثلاثة سنين قرن بنبوته جبريل نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسراويل ثلاثة سنوات فكان يعلمه الكلمة والشىء ولم ينزل القرآن فلما مضت ثلاثة سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة وقبض وهو ابن ثلاثة وستين)^(٥٠).

وفيه أضاف الذهبى (كان يعلمه الكلمة والشىء) فنسب التعليم إلى ذلك الكائن المدهش ولم يقل (الكلمة من الوحي) فهل كلمة إسراويل الذاتية تعد وحیا من الله أم هي اجتهاد منه ولم يبين لنا الراوى ما هو هذا الشىء الذى علمه إياه:

هل هو من الاعتقاد أو التعبد أو الطقوس أو الشعائر؟ ولماذا لم يورد الذكر الحكيم تعليم إسراويل لـ(قتول / القتال) كما نص على تعليم جبريل إياه (علمه شديد القوى)^(٥١).

وفي طبقاته ساق إلينا ابن سعد مايلى:

(حدثنا سفيان الثورى قال: سمعت السدى يقول فى قوله تعالى (ووْجَدَك ضالا فَهَدَى) قال كان على أمر قومه أربعين عاما .

عن داود بن أبي هند عن عامر أن رسول الله ﷺ أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة وكان معه إسراويل ثلاث سنين ثم عزل عنه إسراويل وقرن به جبريل عشر سنين بمكة وعشر سنين مهاجره بالمدينة فقبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة .

قال محمد بن سعد فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر فقال ليس يعرف أهل العلم ببلدى أن إسراويل قرن بالنبي ﷺ وأن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون لم يقرن به غير جبريل من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قبضه ﷺ (٥٢) .

وعامر الذى جاء فى الخبر هو عامر الشعبي أى الراوى فى الأخبار الثلاثة واحد وهو الشعبي وبعد قراءته لا بد أن تحركت فى رأس القارئ الأسئلة الآتية : لماذا عزل الملا الأعلى إسراويل ؟ هل قصر فى عمالته (بضم العين أى وظيفته) ، أم أن عقد عمله انتهت مدتة ؟ وإذا صح هذا الفرض : فلماذا لم تجددها له السماء ؟

• • •

(ونقل الماوردي عن الشعبي أن الله قرن إسراويل - س - بنبيه ثلاثة سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ويعلمه الشيء بعد الشيء ولا يذكر له القرآن فكان فى هذه المدة مبشرًا بالنبوة وأمهله هذه المدة ليتأهل لوحيه) (٥٣) .

صاحب (الحلبية) روى هذا الخبر عن الشعبي دون سواه بيد أنه يمنحنا صورة مغايرة فهو لم يقل (يتراءى) له ولكنه جزم بعدم الرؤية وبسماع الحسن ومعاجم اللغة تشرح لنا أن الحسن والحسين هو الصوت الخفى فلماذا دأب إسراويل على وشوشة (سعد الله) وما هي ضرورتها ثم يضيف (ويعلمه الشيء بعد الشيء) كما أسلفنا فهو لم يوضح لنا هذا الشيء .

بيد أن الخبر وضع فى حجرنا معطى مهما هو أن ما نسبه الشعبي (لغيره) إلى ملاك الرب إسراويل إنما يقصد (ليتأهل) (محمد) لوحيه وهو ذات ما أطلقنا عليه عملية التصنيع فراوى الخبر يعترض بضرورة خضوع أى (قادم) للتزاماتها ودخولها وولوج مدخلها ... حتى يغدو أهلا لحمل (القول الثقيل) .. ولكنه يرفض بإصرار أن يجعله منفذوه والمشرون عليها (الصناعة أو التصنيع) من ذرية آدم ولابد من كائن يحير الألباب فهو مختلف لا يرى وإذا تحدث فكلامه حسين وهو يتراءى وهى هيئة ملغزة فلا هى رؤيا (حُلم) ولا هى رؤية (واقع) إنما هى بين بين حسب التعبير الشهير للعميد الدكتور طه حسين حتى مادة تعليميه أحجية (٥٤) .

وعلى الماديات (وما أوتitem من شيء فمتع الحياة الدنيا) ^(٥٥).

وعلى المعنويات (لو كان لنا من الأمر شيء) ^(٥٦).

ودليلنا على إلغاز هذا الشيء أن صاحب (الحلبية) أصابته الحيرة وركبه الدهش وعمه الريح إزاء هذا الشيء فقال:

- (قيل إنه **رسول الله** مكت خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحيانا ولا يرى شخصاً وسبعين سنين يرى نورا ولم ير شيئاً غير ذلك وأن المدة التي بشر فيها بالنبوة كانت ستة أشهر من تلك المدة التي هي اشتان وعشرون سنة وهذا الشيء الذي كان يعلمه له إسراويل لم أقف على ماهو) ^(٥٧).

- (عن عامر الشعبي أن رسول الله **رسول الله** نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة وقرن بنبوته إسراويل ثلاث سنين فكان يعلم الكلمة، والشيء ولم ينزل القرآن، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة عشرابمكة وعشرا بالمدينة فمات وهو ابن ثلاث وستين.

فهذا إسناد صحيح إلى الشعبي وهو يقتضى أن إسراويل قرن معه بعد الأربعين ثلاث سنين ثم جاءه جبريل) ^(٥٨).

وبالمثل ضمن الماوردي كتابه (أعلام النبوة) ذات الخبر عن الشعبي:-

(روى الشعبي وداد بن عامر أن الله تعالى قرن إسراويل بنبوة رسوله **رسول الله** ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ويعلمه الشيء ولا ينزل عليه القرآن فكان في هذه المدة مبشرًا بالنبوة) ^(٥٩).

● ● ●

الخبر الآتي أرجأناه وتمدنا تأخيره نظراً لأنه انطوى على معلومات ذات قدر كبير من الخطورة والأهمية وكعادة صاحب (الشامية) فإنه يستقصى ويطلب في إيراد الأخبار ومن ثم تعد سيرته من أطول السير:

- (روى الإمام أحمد في تاريخه بسند صحيح عن عامر الشعبي قال إن رسول الله **رسول الله** نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسراويل ثلاث سنين فكان يعلم الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة: عشرابمكة وعشرا بالمدينة فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وهذا يقتضي أن إسراويل قرن معه بعد الأربعين ثلاث سنين ثم جاءه جبريل).

- وقال الإمام أبو شامية - رحم - وحديث عائشة لا ينافي هذا فإنه يجوز أن يكون أول أمره الرؤيا ثم وكل به إسراويل في تلك المدة التي كان يخلو فيها بحراً فكان يلقى إليه الكلمة بسرعة ولا يقيم معه تدريجاً إلى أن جاءه جبريل فعلميه بعدها غطه ثلاثة مرات فحكمت عائشة ما جرى له مع جبريل ولم تحك

ماجرى له مع إسراويل اختصاراً للحديث أو لم تكن وقفت على قصة إسراويل.
انتهى.

وقد أنكر الواقدى - رحم - خبر الشعبي قال ولم يقرن به من الملائكة إلا جبريل^(٦٠).

نلاحظ على الخبر مايلي:-

١ - إن الإمام أحمد أورده في تاريخه لافى مسنده أى أن رفعه من مسنده أو لم يذكره فيه ومعلوم أنه تحرى في المسند الأحاديث والأخبار الصحائح.

٢ - الخبر منسوب إلى عامر الشعبي أى هو مصدره الوحيد كما ثبت من سائر المصادر التي ذكرناها.

٣ - أن الملا الأعلى وكل إسراويل (بـ حرز الأميين) وهذا يوثق ما قلناه أن الشعبي يستكثرون أن يتضطلع بالتجربة (التصنيع) إنسان فابتعد حكاية إسراويل.

٤ - إسراويل طفق يخلو (بـ محمود) في غار حراء أى أنهما كانوا على انفراد فلماذا إذن طفق طول ثلاثة أعوام على أن يخاطبه بطريقة الحس أو الوشوша !!

٥ - كيف غابت حكاية إسراويل عن عائشة وهي من أعلم الصحابة وانفرد بها الشعبي دون غيره.

٦ - من هنا أصبح خبر الشعبي عن إسراويل موضع نقد عدد من السلف منهم الواقدى وهو أستاذ ابن سعد الذي أطلق عليه (كاتب الواقدى) وكتابه (الطبقات الكبرى) معروف بل مشهور وصاحب مقام رفيع أما الواقدى ذاته فله اسم لامع بين مؤلفي السيرة المحمدية التي رأيتها أذكي من ريح العود الصنفى.

• • •

خلاصة القول إن أحدوة إسراويل خبر آحاد طلع به علينا الشعبي ونحن لا نبخسه حقه ولا نستهين بقدره ولا ننحيف مكانته كل ما في الأمر أننا في المصادر التي رجعنا إليها وهي بحمد الله تعالى غزيرة وعديدة لم نجد من يعارضه.

بل هناك علماء أثبات أنكروه وجزموا أن ملاك رب الوحيد الذي التقى بـ (أبي قاسم) هو جبريل فحسب وهو نائم في مغارة حري.

• • •

إن الذي ينقض خبر الشعبي من أساسه أنه لم يرد في الأحاديث المحمدية الشريفة حتى الضعفية ولم يأت ذكره في القرآن العظيم ولا ندرى كيف يقص علينا وقائع أقل قدرًا مثل الإعراض عن ابن أم مكتوم (عيسى وتولى أن جاءه الأعمى)^(٦١).

ويغفل هذه الواقعة المهمة خاصة أنها . حسب زعم الشعبى سامحه الله . استمرت أعواما ثلاثة بل إن القرآن المجيد خلا تماما من اسم إسرافيل فى حين أنه ذكر اسم جبريل ثلاث مرات اثنتين فى سورة البقرة والثالثة فى التحرير وهمما سورتان مدينيتان .

وإذ إن الشيء بالشيء يذكر فإن واقعة مغارة حرى ومقابلة جبريل لمحمد فيها مناما لا نقرأها فى المصحف الشريف الأمر الذى دعا بعض الباحثات لعدم تصديقها أو الأخذ بها ^(٦٢) .

كما أنه من اللافت للنظر أن السور الملكية التى ظل (الأمن) يتلوها على تابعيه لمدة ثلاثة عشر عاما خلت تماما من اسم جبريل ^(١) !
بعد هذه التفريعة السريعة ننوب إلى مسلسل الحديث :

إذن هناك من السلف من أدرك ضرورة سبق التجربة أو التصنيع لبزوج المأمول المنتظر وأنه يستحب عقلا أن يظهر فجأة دون إعداد وتهيئة وشحن وصنفرا وقلوظة ... إلخ بيد أن ذلك إن النفر (من السلف) خريق ^(١٢) وضل الطريق وتيهه وهمه وخierre فكره فادعى أن الذى مارس التجربة واضططع بالتصنيع وبasher الإعداد .. إلخ كائن غامض لا يرى لا فى منام ولا فى يقظة كلامه حسيس وحديثه وشوشة مع أنه فى خلوة مع من يخاطبه لا تستدعا الإسرار ولا تتطلب الخفوت وما يلقىه من علم مجھول ولم يجد من نسبه إليه وصفا له سوى أنه شيء ولم ينبع عنه من التقاه بكلمة واحدة بل حتى لم يلحن ولم يشر إليه ولو مرة واحدة .

كل هذا يقطع باستحالة قيام هذا الكائن المعجب بما أضيف إليه وإنما الذى حمل عباء التجربة الثقيلة على كاهله هم بشر ولكنهم امتازوا بمناقب رفيعة .

* * *

هناك أمر آخر تعين على الهندوز أن تقدم عليه إذ بدونه لا تتجه التجربة أو على الأقل يتأخر فلجلها أو يصيب نتيجتها المبتغاة قدر من التلبيس وشيء من التخليط وهو تفريح قلب (القرشى) من هم الرزق تماما وتفريجه للتجربة ومحاجباتها أو التزاماتها إذ إن الجمع بينهما ضرب من المستحيل وتکلیف بما لا يطاق وأمر بما لا يستطيع وفي القرآن العظيم (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ^(١٤) .

وفي الإنجيل أنه من المستحيل أن يخدم عبد سيدين في ذات الوقت أو في وقت واحد وال العامة في مصر تقول (صاحب بالين كداب) ..
وهذا أمر بديهي فالتجارة التي امتنهما (المكي) قبل أن تنكحه أم هند تستنزف وقت من يتعاطها ولا تترك له فسحة لغيرها من الشئون . لهذا قررت سيدة نسون قريش أن ينفرد للتجربة ويولىها كل اهتمامه وينفق فيها وقته كله

فأقالته من عملاته واضطاعت هي بمشغوليات التجارة ووضعت في حجره أموالها يصرف منها كما شاء دون معقب منها أو من غيرها.

وذلك بعد أغرقته بطوفان حبها وألبسته الحرير وأطعنته الخمير فصار لها عاشقا كما قال وكيف لا يفعل وهي قد نقلته نقلة لم يحل بها مجرد حلم: من عسيف يكدر من مكة إلى حباشة ومن قرية القدسية إلى الشام لقاء بكر أو بكرين إلى واحد من السادة الغطارييف الذين يلبسون أغلى الثياب وأرقها ويتلذذون بأشهى الأطعمة وأحلى الأشرب وكظته^(٦٥) إلى التجربة ليترع فيها على مهل ويمرح على ريث.

...عن الزهرى قال: قال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى أطعمنى الخمير وألبسى الحرير وزوجنى خديجة و كنت لها عاشقا^(٦٦).

ولبس الحرير وأكل الخمير بعد رعى الفن تطور مذهل بكل المقاييس.

(في الهدى أنه ﷺ أجر نفسه قبل النبوة في رعيه الفن.. قال رسول الله . ص. وأنا راعى أهل بيأجياد وأجياد موضع بأسفل مكة من شعب بها)^(٦٧).

ولم يحدث ذلك خبط عشواء بل عن رسم وتحيط ليلي (المفتاح) دبر أذنيه زمن المعاناة وسنوات الفقر ومرحلة الشطف ولا يفكر فيها أدنى تفكير.

(روى البلاذرى أن محمداً بعد أن جاءته الرسالة وبدأ يدعو لها جاءه رجل يكلمه عن مال كان له أى لحمد عنده فقال محمد شيئاً فيه معنى أن ذلك الأمر والمال لم يعد يعنيه)^(٦٨).

هنا نجد أن مدیناً أقبل عليه ليوفى ما عليه فيرد عليه بما يفهم منه أن ذياك المبلغ لا يساوى في نظره شيئاً!!!

وكيف لا أليست ثروة خديجة (صاحبة نصف قافلة قريش) أصبحت ملك يديه وفي حوزته ورهن إشارته.

وكيفما نقه عظم النشب الذي أباحته إيه ورحابة التقويض الذي نفتحته نقرأ الخبر الآتى:-

- ويروى أنه ﷺ دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له مالك؟ قال الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحبى منك وإن أنا لم أبذل أخاف الله .. فدعت قريشاً ومنهم الصديق قال الصديق فأخرجت دنانير حتى صبها وبلغت مبلغاً لم يقع بصرى على من كان جالساً قدامي ثم قالت اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه)^(٦٩).

* * *

وشد انتباه أغلب الباحثين في سيرته التي هي أذكي رائحة من الند الهندي هذا الملجم البالغ الأهمية فأدرجوه في مؤلفاتهم:

وشغله هذا الدأب عن تجارة خديجة فلم يخرج فيها إلى الشام كما فعل قبل أن يتزوجها بل كفاه منها أن أغناه الله بها وانصرف يتلمس هذا الحق الذي

شغلت نفسه بالبحث عنه والتفكير فيه يريد أن يراه واضحا صريحا لا لبس فيه ولا غموض.

وكاتب آخر يرى أنه انشغل في تجارة بعله خديجة قليلا ثم تركها لها ونحن نخالفه في منحاه لأن الأمر وتدبره ليس في يد (ذى الهراء) بل هو من إعداد وإنحصار من باعاته فهي صاحبة مشيئة تفريغه (وتزوج محمد خديجة بنت خوبيل وهو في الخامسة والعشرين من عمره وهي في الأربعين فكان زواجا هادئا، وبقى يعني بأمر تجارتها قليلا من الزمن ثم ترك لزوجته شأن هذه التجارة أخيرا فجعلت تقوم عليها كسابق عهدها) (٧٠).

● ● ●

أما هيكل (محمد حسين) فهو يوافقنا على مانذهب إليه ويضيف إلى أن ذلك التفريغ لم يمنعه عن الاختلاط وما درى هذا الباحث أن ذلك (التفريغ) قننته الهندوز ليغدو مقدمة للاختلاط والمشي في الأسواق كما سنوضح في أول مقاطع التجربة الفذة.

(أقام محمد وقد أغناه الله بزواج خديجة في ذروة من النسب وسعة من المال وأهل مكة ينظرون إليه نظرة غبطة وإكبار.

ولكن ذلك لم يصرفه عن الاختلاط بهم والأخذ معهم بنصيب في الحياة العامة على ما كان يفعل من قبل) (٧١).

وأن المرأة ليتولاه العجب ويتساءل:

كيف أن مؤلفا (بكسر اللام) في قامة هيكل لم يلتفت إلى أن حل خديجة يدى (أحمد) من القيود في ثروتها يزعجها كما يريد تم عن وعي كامل وبقصد محدد؟

● ● ●

(كما أن عدم زواجه بأخرى طالما خديجة على قيد الحياة يمكن أن يربط بارتفاع مرکزها الاجتماعي ولأن ثروتها كانت عونا كبيرا له خلال صراعه ولكن يبدو أن شخصيتها كان لها وزن كبير بالنسبة إلى زوجها. على أي حال فالأخبار ترسم صورة جذابة جدا للتأييد الأدبي الذي وفرته في أثناء القلق الذي انتابه عندما نزل الوحي عليه لأول مرة) (٧٢).

وننسك مؤقتا عن التعليق على ماجاء بفاتحة هذه الفقرة بقصد عدم زواج (الشافع المشفع) على خديجة طوال حياتها إذ سنظر له تفسيرا جديدا غير مسبوق . والذى يهمنا الآن نص أصحاب الموسوعة الإسلامية الميسرة على أن ثروة سيدة قريش شكلت عونا له خلال صراعه أي إبان مروره بمحطات التجربة.

● ● ●

(لقد أصبح بعد تزوجه من خديجة هادئ السر وأصبح له منزل يأوي إليه وأهل يسكن لهم) (٧٣).

في تلك الأيام البوادر استقر العرف على سكنا الزوجة بمنزل زوجها الخاص أو بمنزل أسرته بيد أن سيدة نساء الدنيا في سبيل أن تضرر بنكاح (الخافض / خافض الجناح) وتفوز بمعاشرته ضربت بهذا التقليد العربي الراسخ كالأجل عرض الحائط وأسكتته في دارها هي: والإقدام على ذلك جزء من التخطيط الذي أحكمته بشأن التجربة فمن ناحية ليشعر بلذة وجد المسكن بعد الافتقار إليه. ومن ناحية أخرى ليصبح ويمسي بأعينها وتحت رقابتها وفي رعايتها.

قول بنت الشاطئ:

(... فمنذ أن استقرت به الحياة في رعاية الزوجة الرءوم وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومي، أتيح له أن يستجيب لما في نفسه من نزوع إلى التأمل وميل إلى التفكير) (٧٤).

لا بأس أن تتحدث الدكتورة بنت الشاطئ عن التأمل والتفكير وهما مرحلة متقدمة نوعا في مسيرة التجربة لكن المهم أنها فضلت إلى أن إعفاء من عناء الكدح اليومي هو قيدام لما نذرته أو ندبته إليه بعله.

• • •

وفي تفسير القرآن الكريم بيانيًا قالت عائشة عبد الرحمن وهي بصدده تفسير سورة الضحى إن الله أغناه بمال خديجة.

ولذلك فسر جمهور المفسرين آية الضحى بأن الله أغناه في صباح بتربية أبي طالب ولما اختلت أحواله أغناه بمال خديجة، واختصر الشيخ محمد عبد هذه السلسلة الطويلة من الاختلال والإغواء مكتيفا بربح التجارة ومال السيدة خديجة قال: (وكان رسول الله فقيرا لم يترك له والده من الميراث إلا ناقة وجارية فأغناه الله بما ربحه في التجارة وبما وهبته خديجة من مالها) (٧٥).

ثم أوردت أن الأستاذ الإمام محمد عبد اليسيير الذي اكتسبه من احترافه العمالة من أبيه عبدالله بن عبد المطلب والقدر الذي اكتسبه من احترافه العمالة التجارية للغير وبين الثروة الأسطورية التي وضعتها سيدة نسون قريش في حجره وبحسب تعبير الشيخ (وهبته) والهبة في قواميس اللغة: (المال يعطى بلا عوض) وهذا تأكيد وتوثيق أن أم هند دفعت له بدون أي مقابل وذلك قطعا لأى معارضة قد يطرحها لجوج بأن تلك الأموال مقابل عمله لديها في التجارة بيد أن الإخباريين لم يذكروه إما سهوا وإما أنه معلوم ببدائه العقول.

• • •

إن ما فعلته خديجة في هذا الصدد أمر محظوظ كما يشعر (الخاشع)

بالاستقرار الذى بدونه يتذرع عليه أو يستحيل عليه أن يعطى نفسه وعقله
ووجودانه للتجربة لأن الجرى وراء لقمة العيش يهد الجبل ويؤرق العين ويجلب
الهم ويستحضر الغم:-

(وتم الزواج بوفاء سابق للاثنين وهناء عامر واستقرار ورزقهما الله
بالأبناء).^(٧٦)

ويؤكد الخريوطى على أن (جد الحسينين) تلقى من خديجة هدوء السر
وراحه البال وأنها منحته المنزل الذى يأوى إليه والأهل الذين يسكن إليهم:
(لقد أصبح بعد تزوجه من خديجة هادى السر والبال وأصبح له منزل يأوى
إليه وأهل يسكن إليهم).^(٧٧)

أما جلال مظهر فيقطع بأن أم هند أخلته من مشاغل العمل ومؤونته
 وإرهاقه وقرفه^(٧٨) وأنها هي التي حملت على كتفيها كاھل العمل التجارى.

ويؤكد أنها نقلته من حياة الفقر إلى حياة النعيم والثراء.
وهى حقيقة لا ينكرها إلا معاند ولا يرفضها إلا مشاكس ولا يمارى فيها إلا
لوجج.

وبدأت مرحلة جديدة تماماً فى حياته فها هو يتعرف على المرأة ودفعها
وحنانها لأول مرة فى حياته وها هو ينتقل من حياة الفقر إلى حياة النعيم
والثراء.

(خديجة إذ كفت حبيبها محمداً مؤونة العمل وإرهاقه ومشاغله فقامت هي
بشتئون البيت وشئون تجارتها وتركت هذا المتأمل حراً كامل الحرية لا يحمل من
هموم الدنيا شيئاً ليصرف إلى أفكاره وتأملاته التي كانت تشغله الجزء الأكبر
من وقتها).^(٧٩)

• • •

ولكنكم نفتح سيدة قريش (المسعود) من مالها؟

أى ما هو مقدار المنحة التي أضافت بها عليها؟

يذهب باحث عراقي إلى أنها دفعت إليه بكل ثروتها:

(هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى أبوها من أشراف قريش فى
الجاهلية وأمها فاطمة بنت زائدة القرشى كانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة
وتكنى بأم هند، كانت تحت أبي هالة واسمه هند بن النباش فولدت له هندا
وهمة ذكرين ثم خلف عليها بعد وفاته عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومى وبعد
وفاته ظلت حتى لقائها بالنبي محمد ﷺ ومتاجرته لها بأموالها فتزوجته آنذاك
وكانت أول من صدق به وصلى خلفه من النساء ووهبته ما تملك فى سبيل
الدعوة وكانت له الصدر الحنون ساعات روعه ومحنته.
وظلت إلى جانب الرسول ﷺ تعااضده وتعينه على أمور الدعوة حتى توفاتها).

الله قبل الهجرة بثلاث سنين لعشر خلون من رمضان وهي بنت خمس وستين وقد سمي ذلك العام بعام الحزن^(٨٠).

وقد انضم إليه في هذا الرأي باحثان من إخوتنا الشيعة:

١ . كان من الطبيعي بعد ذلك كله أن تكون أول من يصدقه ويؤمن بدعوته وتضحي في سبيلها بكل ما تملك^(٨١).

٢ . وكانت (يعنى خديجة) إلى جانب حبها امرأة شريفة ذات بصيرة تحسن تصريف الأمور.. ثم كانت من أوائل من صدق رسالته وبدلت كل ثروتها من أجل دعوته^(٨٢). ونحن من جانبنا نؤيدهم في هذا الرأي. فيما تضمن تفرغه الكلى والجزئي للتجربة فلا يشغله غيرها ولا شيء يشتت الذهن ويخير الفكر ويقض المضجع قدر الحاجة.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى

فقد ذاق الحرمان وكابد المسفة وكواه الفقر فلا يسكن روعه من هذا الجانب وبهدئ بالله ويطمئن نفسه ويريح خاطره سوى أن يوضع المال جميعه بين يديه.

ومن ناحية ثلاثة:

بهدف أن تحكم قضية رعايتها وتشد وثاق عنایتها له وتضاعف من لحظها إياه وجماع ذياك كله يؤدى إلى سهولة المطاوعة ويسهل المهاودة وسلس الموافقة مما يوصل في نهاية الأمر إلى نجاح التجربة.

• • •

إن توفير مسكن لـ(المتين) من قبل الطاهرة وإيواهه فيه مخالف للتقاليد المستقرة لا في مكة وحدها بل فيسائر أنحاء الجزيرة العربية إذ حتم لازم على الزوجة أن تنتقل إلى بيت زوجها ولو فرضنا أن هذا البيت في نجع أو محلة أخرى نقلت إليها أو إليها وتسمى (الأختينة) الذي أخذها زوجها من مضارب أهلها إلى مضارب عشيرته أو رهطه واللحظة ترسيخ بالمعنى العديدة منها الأسر والاغتراب والبعد والانقطاع ومن ثم درجة النسوة على كراهيتها.

• • •

ثم نستأنف القول:

إذ هو الموضع الثاني الذي تضرب فيه أم هند عرض الحائط بالأعراف (جمع عرف) الرواسخ وسبق أن ذكرنا الموضع الأول.

وهناك الموضع الثالث:

أن تقوم هي (الزوجة) بالعمل وتصر على أنه (وهو الزوج) لا يمارس أي عمل من أي نوع بل إنها تصب كل ثروتها وما تريده بعد أن بعلته في جيبه دون

أن تسأله ولا لمرة وحيدة فيم أنفقت هذا المبلغ؟
فمن البديهي أن نسطر أن المنحى ترفضه التقاليد لا في مجتمع مكة ولا في
قبيلة قريش بل وفي غيرهما من المجتمعات والقبائل.
إذ من المعروف والمجمع عليه أن الزوج هو الذي يكدر ويكتح ويعرق لا الزوجة
وهو الذي يمنع ويعطى لا الزوجة!!
بيد أن خديجة لم تعبا بذلك كله ولم تلتفت إليه ولم تعره اهتماما ولم تأبه
لآلية أقاويل لابد أنها أثيرت في (الندوة) وغيرها من مجالس الرجال والنساء
عن تلك الأفعال التي مارستها بنت خويلد ولم يسبقها فيها أحد.
ولا مشاحة أن تفسيرات شتى وتأويلات عديدة تناشرت هنا وهناك وقد
سمعتها وأعرضت عنها جموع لأن الهدف السامي الذي تتغيه أكبر من أي
اعتراض وأنبل من أي احتجاج وأعظم من أي امتعاض.

• • •

يبقى موقف (الأواه)

كيف يقبل أن زوجته هي التي تهين أو توفر مسكن الزوجية؟
وكيف يوافق أن بعله هي التي تعمل في حين يظل هو بلا عمل خاصة أنه
آنذاك في مطلع شبابه وعز فحولته وقمة فتوته وذروة قوته ونحن نعلم عنه أنه
يتعز بكرامته ومن رهط (بني هاشم) الذي يأبى الضيم وينفر من الذل ويتمسك
بحبال العزة؟

الذى نرجح أنه فى البداية عصلج^(٨٢) وامتنع واحتاج.. إلخ ولكن الطاهرة بما
لها من كيس وقطنه ولباقة وتجربة فى معالجة البعول استطاعت أن تتشيه عن
موقعه وتستل مدافعته وتلين قناته وتأخذ منه صك القبول وشارقة الرضى
وعلامة الوفاق، بداهة هي لم تفاتها بشأن التجربة مباشرة إنما أفهمته
بطريقة خبيئة أن هناك ما هو خير من العمل والتجارة وأن عليه أن يثق فيها،
وفعلاً وثق فيها فريح ما هو أعظم من التجارة ربع خلوداً على مدى الدهر.

• • •

بقيت النقطة الخاصة بانفراد خديجة بعلا لـ(صاحب الشملة) ما يزيد على
خمسة وعشرين عاماً وهو في ذياك الإبان كما أوردنا في ريعان الشباب فضلاً
عن تتمتع بقصامة ظاهرة ووضاءة بالغة وجمال باهر وراثة عن أبيه عبدالله
الذى أحرق قلوب العذارى والأيامى فى قريش لحسنها وطلافة وجهه.
وسبق أن طرحنا تعليلات عديدة لذلك الأمر المحير لبعض الكتبة المحدثين
خاصة أن تعدد الزوجات في ذلك المجتمع يرقى إلى مرتبة العرف المستقر
والعادة المرعية والتقليد الراسخ. يقدم عليه الذكر ويفتخرون به ويعده من شارات
غناء وعلامات رجلته ودلائل فحالته.. حتى إن بعضهم احتبس عشر زوجات

في وقت واحد مثل غيلان الثقفى الذى تزوج عبد الرحمن بن عوف إحدى بناته وأسمها بادية التى وصفها هيـت المختـلـلـلـلـمـسـلـمـيـنـ وـهـمـ يـحـاـصـرـونـ الطـائـفـ أنـهـاـ تـقـبـلـ بـأـرـبـعـ وـتـدـبـرـ بـثـمـانـيـةـ،ـ وـأـضـافـ فـمـنـ اـسـطـاعـ مـنـكـمـ فـلـيـبـادـرـ وـيـنـكـحـهـاـ وـابـنـ عـوـفـ بـدـورـهـ تـزـوـجـ فـيـ الإـسـلـامـ عـشـرـيـنـ مـنـ الـحرـائـرـ بـخـلـافـ مـلـكـ الـيمـينـ مـعـ المحـافظـةـ (الـشكـلـيـةـ)ـ عـلـىـ قـيـدـ عـدـمـ تـجاـوزـ حـبـسـ أـرـبـعـةـ مـنـهـنـ (٨٤ـ).

إذن العـرـفـ وـالـشـيـابـ الـوضـءـ فـىـ جـانـبـ (الـقـمـرـ)ـ لـاـبـدـ أـنـهـماـ وـزـاهـ عـلـىـ الزـواـجـ عـلـىـ أـمـ هـنـدـ بـيـدـ أـنـ هـنـاكـ مـاـقـيـدـ حـرـكـتـهـ عـنـ السـيـرـ فـىـ الـاتـجـاهـ بـلـ رـبـماـ أـوـقـفـاهـ نـهـائـيـاـ حـتـىـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـمـضـىـ فـيـهـ خـطـوـةـ وـاحـدـةـ وـلـوـ بـمـقـدـارـ فـتـرـ (٨٥ـ)ـ مـنـهـاـ الـمـكـانـ الـاـجـتمـاعـيـةـ لـخـدـيـجـةـ ذـاتـهـاـ وـلـعـشـيرـتـهـاـ بـنـىـ أـسـدـ وـمـنـهـاـ وـضـعـهـاـ الـاـقـتـاصـادـيـ فـهـىـ إـحـدىـ رـكـائـزـ أـوـ عـمـدـ الـاـقـتـاصـادـ فـىـ بـلـدـةـ التـقـدـيسـ إـذـ لـهـاـ كـمـاـ كـرـرـنـاـ نـصـ القـاـفـلـةـ،ـ وـثـقـلـهـاـ الـمـالـ فـهـىـ تـمـلـكـ مـنـ النـشـبـ جـمـيعـ أـنـوـاعـهـ =الـعـروـضـ وـالـعـقـارـ وـالـعـبـدـانـ وـالـإـمـاءـ....ـ إـلـخـ إـذـ لـاـبـدـ لـهـ أـنـ يـضـعـ هـذـاـ فـىـ اـعـتـباـرـهـ وـيـعـمـلـ لـهـ أـلـفـ حـسـابــ هـذـاـ مـنـ نـاحـيـةـ،ـ وـمـنـ نـاحـيـةـ أـخـرـىـ فـلـيـسـ بـيـدـهـ الشـرـيفـةـ وـقـتـ ذـاكـ (طـولـ الـحـرـةـ)ـ بـفـتـحـ الطـاءـ وـالـوـاـوـ (٨٦ـ)ـ وـلـاـ (ـثـمـنـ الـأـمـةـ)ـ (٨٧ـ).

هل من المقبول عـقـلاـ أـنـ يـصـرـفـ مـالـ سـيـدةـ قـرـيـشـ فـىـ الإـضـرـارـ بـهـاـ ضـرـاـ فـاحـشاـ إـذـ لـاـ يـغـيـظـ الـمـرـأـةـ وـيـنـكـدـ عـلـيـهـاـ عـيـشـهـاـ قـدـرـ نـكـاحـ زـوـجـهـاـ غـيرـهـاـ عـلـيـهـاـ أـىـ وـهـىـ فـىـ عـصـمـتـهـ.

ولـعـلـ مـنـ دـوـافـعـ إـغـرـاقـ سـيـدةـ الدـنـيـاـ لـ(ـآـكـلـ الشـعـيرـ)ـ فـىـ بـلـهـنـيـةـ الـعـيـشـ وـإـلـبـاسـهـ الـحـرـيرـ وـإـطـعـامـهـ الـخـمـيرـ وـتـسـلـيـمـهـ مـفـاتـيحـ خـرـائـنـ ثـرـوـتـهـاـ الطـائـلـةـ هوـ أـلـاـ يـمـدـ عـيـنـيـهـ إـلـىـ غـيرـهـاـ مـنـ النـسـوـنـ أوـ الـجـوـارـىـ فـهـىـ تـعـرـفـ عـنـهـ شـمـائـلـهـ الرـفـيـعـةـ وـمـنـاقـبـهـ الـسـامـيـةـ وـأـخـلـاقـهـ الـحـمـيـدـةـ وـيـتـرـعـ عـلـىـ رـأـسـهـ الـعـرـفـانـ بـالـجـمـيلـ وـمـنـ ثـمـ فـيـسـتـحـيـلـ عـلـيـهـ أـنـ يـقـدـمـ عـلـىـ مـثـلـ هـذـهـ الـفـعـلـةـ.

(وـلـمـ بـنـىـ بـأـوـلـىـ زـوـجـاتـهـ خـدـيـجـةـ لـمـ تـكـنـ لـدـاتـ الـحـسـ هـىـ الـتـىـ سـيـطـرـتـ عـلـىـ هـذـاـ الزـوـاجـ لـأـنـهـ بـنـىـ بـهـاـ وـهـىـ فـىـ نـحـوـ الـأـرـبـعـيـنـ وـهـوـ فـتـىـ فـىـ رـيـانـ صـبـاهـ وـعـنـفـوانـ شـيـابـاهـ لـمـ يـتـجـاـوزـ الـخـامـسـةـ وـالـعـشـرـيـنـ وـهـوـ رـجـلـ جـمـيلـ الـخـلـقـةـ طـلاقـ الـمـحـيـاـ تـتـطـلـعـ إـلـيـهـ الـأـبـكـارـ وـتـتـمـنـاهـ الـعـذـارـىـ لـكـنـهـ كـانـ مـلـهـمـاـ بـأـمـرـ رـبـهـ فـنـظـرـ إـلـىـ مـكـانـهـاـ مـنـ قـوـمـهـاـ وـمـوـقـعـهـاـ مـنـ عـشـيرـتـهـاـ وـطـهـرـهـاـ وـعـفـتـهـاـ وـكـانـتـ هـىـ الـتـىـ عـرـضـتـ نـفـسـهـاـ عـلـيـهـ فـقـضـىـ مـعـهـاـ الشـيـابـ وـالـفـتوـةـ وـزـمـنـ الـرـجـولـةـ وـالـقـوـةـ وـقـضـىـ زـهـرـةـ عـمـرـهـ مـعـهـاـ خـمـسـةـ وـعـشـرـيـنـ عـامـاـ زـمـنـ الـحـيـوـيـةـ وـالـشـهـوـةـ الـجـنـسـيـةـ وـلـيـسـ لـهـ مـنـ زـوـجـهـاـ غـيرـهـاـ وـلـمـ يـفـكـرـ قـطـ أـنـ يـشـرـكـ مـعـهـاـ غـيرـهـاـ فـىـ فـرـاشـهـ)ـ (٨٨ـ).

فـطـنـ الـبـاحـثـانـ إـلـىـ سـبـبـ مـنـ أـسـبـابـ إـحـجـامـ (ـفـهـمـ)ـ عـنـ الزـوـاجـ عـلـىـ خـدـيـجـةـ أـوـ الـتـسـرىـ فـقاـلاـ (ـنـظـرـ إـلـىـ مـكـانـهـاـ مـنـ قـوـمـهـاـ وـمـوـقـعـهـاـ مـنـ عـشـيرـتـهـاـ)ـ وـالـحـقـ أـنـ غـيرـهـمـاـ مـنـ الـبـاحـثـيـنـ الـمـحـدـثـيـنـ (ـعـلـىـ أـلـقـ الـذـيـنـ طـالـعـنـاـ كـتـابـاتـهـمـ)ـ لـمـ يـجـرـؤـ عـلـىـ

البوج به. ولو أنهما عادا مثل سائرهما إلى كن (بكسر الكاف) الغيب يستترون به أو وراءه ويتمسحون بحيطانه والظروف المادية مجرد ظاهرة تقترب ولا تؤثر والعلل التي تتولد عنها هي والعدم سواء ومن ثم ذهب الكاتبان إلى أن نظر (الراضي) إلى مكانة خديجة من قومها أى (وضعها الاقتصادي) وموقعها من عشيرتها (مكانتها الاجتماعية) ثم بإلهام من ربه وأمره لا أن هذا (الوضع الاقتصادي) (المكانة الاجتماعية) هما اللذان حبساه عن مجاوزة الحد والزواج بغیرها. وأنه ببصره الثاقب وبصيرته النافذة وعقله الراجح أدرك أنه لو فعل لآثار عليه (الملا) الاقتصادي وأخبط الحامة (النخبة الاجتماعية) وهو أذكي من أن يستفرغ غضب أولئك أو هؤلاء.. فالمسألة بسيطة ليست في حوجة إلى إلهام سماوي إنما هذا هو دين الكتابة المحدثين وهو : إرجاع كل الأسباب والعلل إلى قوة غيبية وكفى المؤمنين عناء البحث ومشقة التحليل ووعورة التتفير.

ومن هنا طالما نادينا بضرورة دراسة السيرة المحمدية المعطار والحقيقة الخليفية بل وسائل مقاطع التاريخ الإسلامي دراسة منهجية موضوعية تتأي بها عن الدروشة والشطحات والماورائيات أو تعليل الأحداث بطريقة الوعاظ وآئمة المساجد وخطباء المنابر.

عود إلى السياق :

نحن لا نرفض تلك التعليمات التي سيقت في الفقرة السابقة لتبرير امتناع محمد عن الزواج بغير خديجة حتى توفيت إلى رحمة الله راضية مرضية. بيد أننا نرى أنها غير كافية، إذ في شباب محمد ووضاءته ورقة نسبه ما يجعل البطون المنافسة لبني أسد مثل بني مخزوم وبنى أمية تقبل مصاهرته بذات الطريقة التي استنثها أم هند بل ابتدعتها.

أما النظر بعين الاعتبار لـ(ملا) التجارة والمال و(نخبة) المجتمع فإن أصحابه الجدد لن يتخلوا عنه بل سوف يوازرونه.

أما قول المحدثين الكتبة أو الكتبة المحدثين إنها عصمة من الله فإن الرد عليها : هل هي خطيئة ومن قال إنه (تعنى الزواج بأخرى) خطيئة سواء قبل الإسلام أو بعده؟

ولو أن الأمر كما تقولون (عصمة ربانية) فلماذا تخلفت عنه عندما نزح إلى يثرب فقد أبلغنا الإخباريون أن عدد زوجاته ناهز الخمسة والعشرين بخلاف ملك اليمين ولو أنه لم يدخل ببعضهن وانتقل إلى الرفيق الأعلى وعلى ذمته تسعة منها^(٨٩).

وقد صرّح هو أكثر من مرة أن من أحب الأشياء إليه من شئون الدنيا النساء.

إذن تلك التعليقات ليست كافية في سبب عزوفه عن اتخاذ ضرة للطاهرة
فما هو السبب المانع القاطع في ذلك؟

• • •

خديعة الهندوز المحنكة الدروب لم تضع وقتا في إدخال (الفلاح) في مصنع التجربة وإذ إنه لديه ما يؤهله لقبول هذا العرض فضلا عن فارق السن بين الطرفين (قلنا إنه يبلغ ربع قرن)، وكذا موضعية سيدة قريش كأم رءوم له ثم فطانته رويدا لسمو الدور الذي سيحصل عليه من موجبات والتزامات ثم اشغاله فيها على كتفيه ثم إنجازه لما سيوكل إليه من موجبات والتزامات ثم اشغاله فيها على مدى الأربع والعشرين ساعة في اليوم صباحاً المishi في الأسواق والمجتمع بأصحاب الملل والنحل والأديان والعقائد ومحاورتهم وعند انعقاد الأسواق والمواسم الانتقالية إليها وسماع خطبائها وشعرائها من سائر الاتجاهات ثم القليلة وبعدها في المساء والليل حلقات الدرس والتعليم والتحفيظ من الإصلاحات التي ترجمها القس الذي أتقن اللسانين والكتابتين العربي والبرتغالي.

والحصة التالية تم بحضور اليهود مرة في منزل خديجة وأخرى يذهبان هما إليه وفيها تم المراجعة والاستفسار فالتفسير والتسميع والشرح والتوضيح حتى ينفلق الصبح وهكذا.

في هذه البانوراما التي رسمناها في عجلة أين تتموضع الزوجة الأخرى أو الثالثة؟

يوما بعد يوم تتفتح الآفاق أمام باصرتي (العطوف) ويزداد وعيه ويتعمق إدراكه ويتضاعف فهمه للعمل الجليل الذي تبادره به أو معه سيدة نسون قريش فيعيشها أكثر وأكثر ويتوله لها ويدعوب في هواها، كيف لا وهي قد أغنته ماديا وفي طريقها إلى إثراه روحيا.

ومن الجانب الآخر الخاص بالتجربة ذاته فإنه يزداد تماهيا فيها أى لا يكتفى بالقيام بها بل إنه يندمج (تعبير حديث شائع في مصر المحروسة) فيها فتملک عليه أقطار نفسه وتملأ عقله وتشبع أحاسيسه وتشحن وجданه فيزداد بها تعلاقا حتى إنه يغدو أخيذا لها لا يستطيع مفارقتها ولا طاقة له على مباينتها ولا حيلة له في الابتعاد عنها.

إذن هو بدخوله أو بمعنى أصح وأدق إدخاله التجربة:
تضاعف وتعمق هيامه بالطاهرة وأحاطته التجربة بسيارج روحي متين ليس في مكتنته الخروج من بابه أو القفز على سوره فأنى له الزواج بأخرى؟

• • •

هذا هو التعليل السليم والسديد لعزوفه عن نكاح بعلة أخرى، ونحن نؤكد أنه

لم يسبقنا أحد إليه لا من القدامى ولا من المحدثين ولا نزعم أنه التعليل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بيد أن الذى نؤكده أنه حمل آيات صدقه وبراهين ثبوته وحجج يقينه.

هناك سبب آخر نخته به فاصلة تبيان علل اقتصار محمد على زوجة واحدة هي خديجة في تلك الحقبة المغيبة من سيرته العطرة، هو أن الثقافة الدينية التي سيطرت على عشيرة بنى أسد آن ذاك تحريم تحريراً قاطعاً الزواج بأخرى، فحتى لو فرضنا فرضاً جديلاً أنه فكر في ذلك، فإن الرد سوف يجيء من الطاهرة أم هند: أذكرك يا أبا القاسم (هكذا دأبت على مناداته أ. هـ) بأن ثقافتنا الدينية تحظره حظراً باتاً. وماذا يقول بحيري وورقة وعداس وناضج وميسرة عن!!!

وحتى يزداد القارئ بهذا السبب - الذي لم يسبقنا إليه أحد - اقتناعاً نافتاً انتباهه: إن الذي تولى مراسيم العقد هو ورقة بن نوفل وهو (قس)، أليس كذلك؟!

• • •

(الشكار) عندما نكتبه الطاهرة في مقبل شبابه وتمتع بالصفات الجسدية التي ألمنا بشطر منها وبشمائل باهرة ومناقب منيفة وخصائص حميدة منها: طلاقة اللسان وقوة العقل وسلامة الفطرة ونفذ البصيرة وسعة الأفق وحدة الذكاء وصلابة الشكيمة ومضاء العزيمة واستقامة الخلق وصدق القول وأداء الأمانة والوفاء بالعهد ونكتفي بهذا لأننا لا نستطيع حصرها وكاتب هذه السطور يؤمن أن أمّة العرب عمقت عن إنجاب ضروب له.

بيد أنه من جانب آخر فهو أمي لم يقرأ صحيفة ولم يكتب كلمة ولم يمسك قلماً ولم يخط حرفاً وذلك بشهادة القرآن العظيم. إنما عوض الأممية بذاكرة واعية وحافظة تسمع الجملة فتحتنزها وتستوعبها لا تخرب منها لفظة مفردة. هذه الذاكرة العبقرية لعبت دوراً لا مثيل له في الخطورة إبان التجربة فقد وسعت جميع الدروس والمعلومات والمعارف التي طفت تلاقها في جلسات المدارسة وحلقات التعليم وليلي المراجعة إن على يد الهنوز أو البيعسوب. إن اعتماد الأمي على ذاكرته أمر شائع معروف ليس في حاجة إلى دليل. كما يبدو أن بنى هاشم امتازوا بها فقد حكيت عن الإمام على كرم الله وجهه في هذا المضمار الأعاجيب ثم عن (مسائل نافع بن الأزرق) رأس فرقة الأزرقة من الخوارج أنه: في مقطع من حياته تلقى العلم عن حبر الأمة عبدالله بن العباس في المسجد الحرام.

أن الحبر حفظ قصيدة غزل ملتهب طويلة لعمر بن أبي ربيعة ألقاها عليه مرة واحدة.

وقيل إن الإمام الشافعى ويرتفع نسبه إلى بنى هاشم حفظ حوارا جرى بين يونانيين حدث بينهما خلاف فاستشهاد به أحدهما فأدل بالحوار كما هو أمام القاضى فأحضر مترجما وبعد أن أقر الخصمان بصحة الشهادة وسلامة الترجمة قضى لصاحب الحق^(٩٠).

● ● ●

وفي وقت لاحق امتاز البخارى صاحب الصحيح الذى يوصف بأنه أصح ما كتب بعد القرآن المجيد بذاكرة حديدية وقد ورد فى سيرته أنه حفظ سبعين ألف حديث وبداهه لايعنى هذا أن البخارى أمن ولكن نقدم الخبر لثبت أنه وجد من يتمتع بحافظة واعية تثير العجب والدهش:

وقد جاء فى حق البخارى صاحب (الصحيح) مايلى:

(يقول سليمان بن مجاهد كنت عند محمد بن سلام البikenدى فقال لو جئت قبل لرأيت (صبيا) يحفظ سبعين ألف حديث فخرجت حتى لحقته فقلت له: أنت تحفظ سبعين ألف حديث؟ قال: نعم وأكثر ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ولست أروى حديثا من حديث الصحابة والتابعين إلا ولى من ذلك أصل أحفظه من الكتاب والسنة)^(٩١).

ونحن لا نقارن البخارى بمحمد فأين الثرى من الثريا؟ إنما من حق المرأة أن يتتسائل إذا تمعت هذا الأعجمى بهذه الذاكرة المعجزة فكيف حال ذاكرة (راكب الآتان) العبرى الذى لا يفرى فريه أحد وذلك باعتراف جميع خصومه وأعدائه.

● ● ●

ولقد أطلنا فى التعرية الخاصة بأمية (الفارق) وفي مقابلها ذاكرته الفادحة عديمة النظير لأنها شكلت ركيزة هامة فى بنية التجربة العظيمة وسببًا مؤثرا فى فلجلها وهى التى دعت الناس فى المشرق والمغرب فى القديم والحديث يسألون ويلحضون فى السؤال وما انفكوا يسألون: أى لأمى كل هذا الثراء فى المعارف والفن فى العلوم والملاعة فى المعطيات؟

وإذ إنهم لم يتفرضوا فى الحقبة المتوارية من السيرة المحمدية التى هى أطيب ريحًا من نشر القطر وتعنى بها منذ أن غدت أم هند له بعلا حتى الرؤيا المنامية العجيبة التى خايشه فى مغارة حرى، ولم يمعنوا النظر فيها ولم يحدقو فى قوادها وخوافيها ولم ينفذوا إلى باطنها . كما فعلنا نحن، واستفند (بالدال) ذلك من عمرنا سنتين عددا انقطعنا فيها لها بالكلية حتى قراءة الصحف امتنعنا عنها، ودعك من مشاهدة التلفاز وغيره من وسائل الميديا، نقول إذ إنهم لم يفعلوا تجنبًا للإرهاق وفرارا من المجهود وضنا بالعرق وهرروا من التعب وإيتارا

للراحة وفضلاً للسهولة وأخذوا إلى الماورائيات واعتصموا بالقوى الخبيثة والعوالم المحجوبة والكائنات غير المنظورة والأفاق الخفية ونسبوا إليها ما حدث وأضافوا إليها ما وقع وألصقوا بها ماتم، ووقي الله الكتبة والباحث مؤونة الحضر ومصاعب التقير ومعاناة إعمال العقل فأمنوا على التفسير اللاععاني^(٩٢). والتأويل اللاحياتي والشرح اللامعاشى واستكانوا إليه عاماً بعد وعاماً وعقداً وراء عقداً وقرناً إثر قرن حتى تكلست تلك الحكايات وتجمدت وتحجرت وغدت حقيقة مطلقة.

قطط لم تقف أمية (أبي إبراهيم) حجر عثرة في طريقه ولا عائقاً أمامه ولا سداً في وجهه فقد تسابق معاونوه - الذين مكتنهم ظروفهم من الإفلات من الأمية التي هيمنت على مجتمع القدسية - في كتابة ما يملئه عليهم ورصفه وتدوينه بكل قداسة ورهبة.

● ● ●

كلمات السابقات نعود أدراجنا إلى سياقة القول: في تلك الأيام العجيبة (المضخم) شاب مكتمل الفتوة على أبواب مرحلة الشبيبة سوى الخلق (بفتح الخاء وسكون اللام) رضى الخلق (بضم الخاء واللام) يتمتع بأعلى المواهب العقلية وهو أمرٌ بيد أن الأهم من ذلك كله ليس لديه ثقافة دينية من أي نوع.

وترامت الأسباب لتقنعنا بالمسكب:

فهو قد تجرع مرارة اليتم صغيراً فطبعه بطابع الحزن ثم ذاق شطف العيش مع راعيه وكافله فاستشعر بأن الحياة ظلمته مما ضاعفأساه وانتهى به الأمر إلى إيثار العزلة والبعد عن الناس، والتفور من الاختلاط بهم.

ولما شب وغادر أيام الطفولة اضطررته ظروفه المادية إلى امتهان حرفة فوق أنها لا تليق به شخصياً ولا تناسب مكانته أو رتبته مما زاد الأزمة النفسية فإنها بطبعيتها تستلزم مفارقة الناس وهي رعن الفتن فالراغب يتسلم القطيع من صاحبه ويسوقه إلى موضع يصلح للرعي وفي حالة (المصطفى) هو أجياد.

ويظل معه حتى الغروب فيعيده إلى مالكه ويتسليم منه جعلاته وهي زهيدة قال عنها قراريط ثم يعود إلى داره، وبالنسبة إليه دار عمه عبد مناف (أبي طالب) ويعطيه ما حصل عليه من أجر مساهمة منه في تكاليف المعيشة وهكذا لم تتع له هذه المهنة فرصة أن يغدو خليطاً^(٩٣).

● ● ●

وبعدها عمل أجيراً تجارياً وحفظت لنا دواوين سيرته التي هي أطيب رائحة من بنفسج الكوفة سفريتين له إلى سوق حباشة ورحلة إلى الشام مع ميسرة لحساب خديجة. وحدثنا العبد عن عزوفه عن الاجتماع برجال القافلة، وحتى

لو فرضنا أنه لم يفعل واندمج معهم ومع المشترين والبائعين فهم جميعها بلا ريب مليطون من أي ثقافة وخاصة الدينية وجل حوارهم ينحصر في المعاملات التجارية وأثمان البيع والشراء.

● ● ●

والسبب الثالث والأخير أن الذي حاز الثقافة الدينية آنذاك هم نفر من النخبة القرشية، أما الآخرون وهو العامة الذين يكدون في سبيل لقمة عيش جشب «خشـن» فلا يفكرون فيها مجرد تفكير إذ هي بالنسبة إليهم ترف لا يقدرون عليه، ونحن إذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة عقلانية مجردة لأبد أن نتساءل: أني لفتـي صغير خرج بالكاد من مرحلة الطفولة واشتعل برعى الغنم ثم لما شب قليلاً عمل أجيراً تجاريًا بيكر من الإبل.. أني له أن يحوز ثقافة دينية أو ثقافة من أي نوع؟

ونرجح أن السيدة خديجة تحققت بنفسها فقد بدأت على استقباله غب إياه من سوق حباشه منفرداً أو مع زميله في العمل وتقدم الأطروفة التي خبأتها له أولئما كما أسلفنا، وفي أثناء تناولها لأبد أنها تحدثت معه فعرفت خلوه من أي منزع ثقافي.. ديني..

وعند عودته من الشام إلى دارها يسبق ميسرة الذي تخلف بالبضاعة مع القافلة في مر الظهران جلست إليه وحاورته فيما حدث وسألته عنمن التقى، فتأكد لها أن صفحاته الثقافية الدينية بيضاء من غير سوء^(٤)، فضلاً عن أنه لم يعرف شيء من ذلك عنه والا لوصل إلى مسامع أم هند.. ولقد رضيت كل الرضا لأن بهذه المثابة يغدو هو المطلوب تماماً لأن حاويته أو عاءه فارغ بالكلية من أي أخلاط عقائدية أو شوائب ومن ثم فهو الأصلح لأن يمتلئ بما تصب فيه تحت إشراف اليهود الماهر المجرب.

● ● ●

وربما يحق لنا أن نعتبر ما تقدم توطة أو فرشة أو تمهيدة منتقل منها على مهل شديد وريث بالغ وتأن مضاعف لندرف إلى مقاطع التجربة الفاصلة التي لم تشهد العصور الوسيطة لها مثيلاً ورغم دخولها القرن الخامس عشر من ميلادها المجيد فهي ما انفك عذراء طازجة تستقر الباحثين للحفر في أعماقها والدارسين للغوص في بحورها لاستخراج لآلها.

المرحلة الأولى التي رأت هندوز التجربة أنها تتناسب «راكب الجمل» وهي في الحالة التي وصفناها هي الاختلاط بالناس وأمنت «قصدت» أمرىء:

الأول: أن تكسر طوق العزلة التي تعود عليها قبل أن تتوجه **فذالقادم المنتظر** من باب الحتم واللازم لابد أن يعي أحوال مجتمعه ويعرف على الذين سوف يخاطبهم ويلمس بيديه عقلياتهم وهمومهم ومشاكلهم وألامهم ويزداد

علمًا بطبقاتهم وطرائق تفكيرهم وأليات فهمهم كيما يجيء خطابه إياهم موائماً وهنالك حديث شريف منسوب إليه نصح فيه تبعه أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم وهذا الكم الرائع ثمرة للخطوة البدائية التي قطعها وهو يخب ويضع في مشوار التجربة.

الآخر: من بين من سوف يخالطهم أصحاب شتى الملل والنحل والعقائد والأديان مثل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس الذين ماجت وازدحمت بهم مكة علاوة على سدنة وكهان الأصنام .. إلخ.

«إن محمداً كان في هذه الفترة يختلف إلى الأسواق والمنتديات يستمع إلى أحبار اليهود وكهنة النصارى ما يبشر به كل منهم في أمر دينه وما يعارضون به العرب في شأن الأصنام»^(٩٥).

والتumas بهم على قدر وفيه من الأهمية إذ من البديهي أن «أعظم الكائنات» ناقلهم الحديث واستمع منهم معتقداتهم واستوضحهم إياها ورويداً رويداً حاورهم فيها .. إلخ.

الأمر الذي يرضي أصحابها لأن من بينهم نسبة كبيرة من الدعاة إليها والداعى لا يسره شيء قدر إنصات الناس له والتفاتهم إلى ما يدعوه إليه والإقبال على ما يبشر به.

ويوماً بعد يوم تتمو شفافته الدينية ويزداد معجمه العقائدى ويعمق فهمه لسائر الأديان وفروعها والنحل ومذاهبها والملل وانشقاقاتها.

* * *

إن القرآن الكريم سجل هذه الفترة من حياة «المعطى الوسيلة» وهو شأن بالغ الثمانة عظيم النفاسة. مدید الغلاء مرتفع السعر، كبير القيمة لأن ما ينص عليه الذكر الحكيم في آياته البيانات تعنوا له جبهة كل مسلم ولا يجرؤ على أن ينسب ببنت شفة من معارضة^(٩٦). وقد جاء كرتين:

الأولى: في سورة النحل وهي مكية في الآية الثالثة بعد المائة وقد علقنا عليها في «القيدام» وليس ثمة موجب لتكراره فليفضل القارئ بالرجوع إليه.

الآخرى: في الآية السابعة من سورة الفرقان وهي أيضاً مكية «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق»^(٩٧).

وبديا يلفت النظر أن القرآن الحكيم ذكر المشي في الأسواق دون غيره من شئون الحياة الدنيا مثل الزواج والإنجاب وتملك العقار والسفر والنوم والصحة والمرض. إن العبارة تتفح دلالة أعمق من المتاجرة أى البيع والشراء، إن القرآن المجيد لا يعجزه أن ينص: ويتجاجر أو يبيع ويشتري. ولذا فنحن نعارض من ذهب إلى أنها تحصر في هذا المعنى وتسبح داخله، منهم ابن كثير «ويمشي في

الأسوق أى يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة^(٩٨). خاصة وأن كلمات البيع والشراء والكسب والتجارة لها وجود كثيف في المصحف الشريف.

● ● ●

ومن المؤسف أنه حتى من فسر القرآن من المحدثين لم يفطن إلى هذا المحظ الدقيق «وانظر إليهم وقد ساقوا صفات للنبي ﷺ زعموا أنها تتنافي مع الرسالة وهذه الشبه إن دلت على شيء فإنما تدل على قصر في العقل وسوء في الرأي ومادحة غالبة أضلتهم السبيل وأعمتهم عن الصراط المستقيم: - أكل الطعام - يمشي في الأسواق... إلخ»^(٩٩). وهو إن لم يصرح بأن «المشي في الأسواق» يعني التجارة فحسب إنما يفهم من سياق سرده.

ومفسر آخر ذكره دون مواربة «... ما باله يأكل الطعام كما نأكله ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد»^(١٠٠). وتكتفى بهما لأنهم جمِيعاً دأبوا على النوش^(١٠١)، ومن سبقهم مع تحويل في الألفاظ وتغيير في الكلمات إلا قلة أندر من الكبريت الأحمر. وهذا الحكم يناسب على من يصنفون في سائر العلوم: الفقه. أصول. الناسخ والنسخ، أسباب النزول، القراءات... إلخ وترجعه في المقام الأول إلى الكسل العقلى، ثم بعده إلى الرعب من أصحاب العقلية الدوجماتيقية سدنة الإسطير وحراس النص وأحلام النقل^(١٠٢).

ثم نعود فنستأنف الدراسة:

إذن الفصل الأول من كتاب التجربة المذهلة هو الاختلاط بأهل مكة بكافة طبقاتهم وأجناسهم وألوانهم وألسنتهم دون تفرقة بين مللهم وعقائدهم وأديانهم والاستماع إلى سائر طروحتهم حتى أساطيرهم ومخاريقهم وشعبذاتهم، بل نرجح أن أم هند أوصت بهذا الشق بل إن تشديدها بلغ الغاية وأوفى على النهاية في الإلحاح والإلحاف والتاكيد، ليكتب ما نطلق عليه حديثاً موسوعة أو دائرة معارف دينية للزومها له.

إذ كيف يتصور «بضم الياء أى بصيغة المبني للمجهول» أن تعلنه لأهل بكرة «المأمول» الذي طال شوquetهم إلى مجئه وهو مليط من الفكر الدينى مررت^(١٠٣) من الثقافة العقائدية، قفر من المعرفة بالملل والنحل والمذاهب.. فإذا حاجوه وخاصة موه وجادلوه وحاوروه فكيف يرد عليهم وجعلته خالية وكناهه فارغة ووعاءه فاض؟

وبداهة اعتمدت على ذكاء «أول من تشق عنه الأرض» وفطنته وبالأشخاص على ذاكرته الفادة في فهم واستيعاب وتخزين كل ما يصل إلى سمعه الشريف لا تتد

عنه كلمة ولا تلفت منه لفظة ولا تفوت منه عبارة.
ولك أن تحسّب بدقة مدى ما حصله من معلومات و المعارف طوال أعوامها
لأننا في حلقة التحثّ باللغارة سوف نرى أنه ينجزه في مدة محدودة في السنة
لا تزيد على أسبوعين.

● ● ●

إذن هو كما أثبتنا تفرغ لـ«المشي في الأسواق» لا يشغله عنه شيء ولا يحول
دونه مانع بعد أن ضمنت له أم هند العيش الرغيد.. ومداومته عليه في كل يوم
صيفاً وشتاء لفتت أنظار الماكواة «أهل بكة» فصاحبوا قائلين أو قالوا صائحين:
ما له يأكل الطعام كنياة عن توفير الطاهرة المعاش له، وما يتضى مضاجع
الناس ويتعبعهم ويشقّيهم مثله، وبعد أن اطمأن نفساً وارتاح بالاً وقر عينا ما له
بعده «يمشي في الأسواق»؟

فهم ذكرى الحالتين هو عليهما إبان هذا المقطع:
«يأكل الطعام» الذي أمنته له بعله خديجة البالغة الشراء، ثم «يمشي في
الأسواق» إذ لم يعرفوا له شغله سواهما. وبه شهدت دواوين السيرة المنيفة التي
هي أطيب من رائحة الألوة مع الكافور والزعفران.
إن العادة جرت على أنه لا يقال «ما لك» إلا بقصد أمر غير عادي. مثل:
ما لك مسرع؟ أو ما له مسرور؟ أو مالها مريضة؟ وهو يعنيه أنت في الذكر
الحكيم: «وقال الإنسان ما لها (٢) يومئذ تحدث أخبارها (٣)» (١٤).

فالإنسان عندما أحس أن الأرض زلزلت سأله ما لها.. ما حكايتها؟
فذلك القرشيون عندما لاحظوا أن «المعصوم من الناس» دأب ولسنوات
متواترة يجول في دروب مكة وفي أسواقها لا يكل ولا يمل.. تسألوا ما له وما
حكايتها؟

لعطاء تفكيرهم وضيق أففهم وركاكة فهمهم وضحاللة عقولهم وفهامة ذكائهم
لم ينقوهوا أنه وهو يفعله إنما يؤدى بمهارة أحد الأدوار المهمة في التجربة
العظمى التي بموجتها يتأهل كيما يصبح الذي طلما تحدث حامتهم =
«نخبتهم» عنه وعن قدومه وتقطعت أعناقهم تطلعاً لمجيئه الميمون.

● ● ●

في زمن التجربة دأب العرب على إقامة أسواق في كافة بقاع جزيرتهم
المباركة والذي يتصل بدراستنا التي تتصبّ على منطقة الحجاز ومنها عكاظ
ومجننة ذو المجاز وأشهرها هو الأول وعلاوة على البيع والشراء والمقايضة
وسائل ضروب التجارة، انتهز الشعرا الفرصة لنشر قصيدهم والدعاية من
مختلف الأديان والملل والنحل للدعائية إلى عقائدتهم ومنافرة من يخاصمهم
والرد على مناوئيهم، أي أن الأسواق مجال انتعاش اقتصادي ورواج فكري من

جانبه الدينى إذن فلابد ألا تفوت هذه المناسبات الثرة بالأفكار «المصطفى» والعقل يحتم أنه لابد أن يؤمها من أول ساعة تبدأ فيها حتى تنفس لا يتخلل عنها يوماً ويدور عليها أينما أقيمت لا لبيع ويشترى ويتجار ويفاصل، إذ لا حاجة له بها بعد أن دلقت الهنوز الدروب مالها بين يديها كما أخبرنا التيمى عتيق أو أبو بكر بن أبي قحافة ليتم طقساً من الطقوس المهمة في مجال التجربة وهو الاستماع لكل من يدعوا إلى دين ومن يبشر بملة وينشر عقيدته وينبع نحلة ويروج لمذهب ويتعصب أقوالهم ويختزن معلوماتها في حافظته الوعائية ويحاورهم ويجادلهم حيناً ويستوضحهم ويستفهم منهم حيناً آخر.

والمبشرون في الأسواق - كما في كل زمان ومكان - أطول باعاً وأشد تمكناً وأرسخ قدماً من أندادهم المحليين «إن صح التعبير» لأهمية مناسباتها وكثرة عدد شهودها وكثافة حضورها من اعتنوا المسيحية قبل ظهور الإسلام تأثير نصارى نجران الذين سكنوا بلاد العرب وأرسلوا دعاتهم إلى الأسواق والمواسم التي كان يجتمع فيها العرب للتجارة وغيرها.

وجاء عن أولئك الدعاة أنه كانوا يقصون على الناس حالات البعث والحساب والجنة والنار ويدعون إلى التفكير للدنيا ولملذاتها وإلى النظر إلى الكون والاستفادة من تقلباته وأحداثه»^(١٠٥).

إذن حتم على هنوز التجربة أن تشير على «إمام الأولين والآخرين» بضرورة إلفها ووجوب ملازمتها وتحمية اللزوق بها مع استحضار الوعي الكامل لما يقال جميعه والميقطة التامة لكل خطبة والانتباه البالغ لأى محاورة أو منافرة أو مجادلة حتى لا تفوت شاردة ولا واردة ثم برمجته جمياً في الذاكرة المدھشة ليخرج وقت الحاجة إليه ويصير مددًا إبان الاقتضاء إليه وعوناً ساعدة العوزة له وسنداً عند طلبه ووجوه أخرى للفائدة أو إن شئت الدقة للفوائد:

إن يصبح جماعها كنزاً ثميناً وبحراً زاخراً ومحصولاً وفيراً أغلى من الجوهر والذهب عندما تحين بعد سنوات معدودة ساعة الإملاء ووقت الكتابة وزمن التدوين.

● ● ●

ذكر في وقت متقدم أن معطيات دواوين السيرة الحمديّة التي هي أطيب رائحة من مسك تبت^(١٠٦). عن الحقبة الخبيثة والتي حددناها منذ أن صارت السيدة خديجة بعلاء الشاهد الداعي حتى رؤياه الملائكة في مغارة الجبل «حرى» وهو نائم «المعطيات» شحيحة ونادرة ومتاثرة هنا وهناك.

وكذا بنا في كل ما نكتب نحرص أشد الحرص على التوثيق تمسكاً بالصدقانية واحتراماً لعقلية القارئ المثقف الوعي الذي يفرق بين الغث

والسميين والردىء والجيد والرخيص والثمين فتحن نطرح الخبر وفي ذيله دليل ثبوته أما الرأى فلا يحتاج إليه.

وقدمنا منذ قليل البرهان على اختلاط **محمد** بأهل مكة وجاء هذه المرة من أوثق المصادر وأجلها قدرًا وأصدقها قيلاً وهو القرآن الكريم عندما أخبرنا أنهم تعجبوا لمشيه في الأسواق بعد تناوله الطعام.

● ● ●

أما الأمر بالنسبة لحضور «أحمد» الأسواق الموسمية التي ذكرناها فهو أكثر وعورة والحجة القوية التي تؤيده هي ما جاء في كتب التراث من مقابلته لقس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ وإنصاته لخطبته وبداهه حفظه إياها «وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ فقال رجل منهم: «بيدو والله تعالى أعلم أنه رأى محمداً في عكاظ يستمع إلى قس. أ.ه.» هل تعرف قس بن ساعدة فقال رسول الله ﷺ: ليس هو منكم هذا رجل من إيمان تحنف في الجاهلية فوافي عكاظ والناس مجتمعون فيعلمهم بكلامه الذي حفظ عنه»^(١٧).

هذا الخبر ينقل إلينا أن «المقصوم من الناس» ذاته هو الذي تحدث عن قس ابن ساعدة وخطبته في سوق عكاظ واستماع الناس إليه وحفظهم إياه ومن الطبيعي أنه واحد منهم:

«قس بن ساعدة الإيادي من شخصيات ما قبل الإسلام «يسمون هذه الفترة الجاهلية» من الحنفاء أو المحنفين الذين رفضوا عبادة الأصنام وبحثوا عن دين إبراهيم وقيل إنه اعتنق النصرانية وكان يخطب في الأسواق مثل عكاظ خطباً بلغة يدعوا فيها إلى التوحيد وثبت أن محمداً سمع عدداً منها...»^(١٨).

إنما حتى هذه اللحظة ما قدمناه لا يبلغ إلا إلى مرتبة القرينة البسيطة لا إلى الدليل القاطع بيد أن الأصفهاني صاحب الأغاني يهدى إلينا هذا الخبر.

«عن ابن عباس قال: لما قدم وفد إيمان على النبي ﷺ قال ما فعل قس بن ساعدة. قالوا: مات يا رسول الله. قال: كأنني انظر إليه بسوق عكاظ على جمل أورق وهو يتكلم بكلام ما أجدني أحفظه فقال رجل: أنا أحفظه يا رسول الله. قال: كيف يقول. قال: سمعته يقول: أيها الناس اسمعوا وعوا.... إلخ. فقال النبي: يرحم الله قساً إنّي لأرجو أن يبعث يوم القيمة أمّة وحده»^(١٩).

ولا يغض من قيمة ما رددناه عن قوة ذاكرة «خيرة قرائب الله» قوله في الخبر «ما أجدني أحفظه» ذلك أنه مضى على إنصاته لتلك الخطبة أكثر من عشرين عاماً مرت فيها عليه أحوال وخطوب وشدائد وحرروب، ولنتكئ على ما جاء بعجز الخبر من رجائه أن يبعث قس أمّة وحده وما ذاك إلا بسبب أن ما وعاه أو استوعبه من خطب «قس» وقع في نفسه «لبس الصوف» موقعاً طيباً.

● ● ●

نحن نعلم أن ابن الجوزي طعن في صحة حديث قس لأن طرائقه ضعيفة في نظره، ومع تقديرنا لابن الجوزي فإن كتب التراث عدلت خطباً لابن ساعدة والطعن فيها جميماً بالبطلان أو الضعف فيه شطط ومتلاة لم يفلت منها ابن الجوزي كما يعرف عنه علماء الحديث. هذا من ناحية.

ومن أخرى فالجاحظ على ما عرف عنه من حرص على تحقيق الأخبار ونقدتها لم يشك في حديث قس وقد فضل قساً على خطباء العرب جميماً يجعل لإياد خصلة ليست لأحد من العرب «لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى قس بن ساعدة وموقفه على جمل بعكاظ وموعظته وهو الذي رواه لقريش والعرب وهو الذي عجب من حسنها»^(١١٠).

ونضيف أن الجاحظ ليس أدبياً مقلقاً ومن أعماله أدب العرب فحسب بل تضلع في العلوم الإسلامية وهو أحد كبار فرقـة المعتزلة ورأس شعبـة منها سميت بـ«الجاحظية» فعندما يجزم ويؤكـد ويصحـح خـبر لقاء «المـهاجر إـلى يـثرب» بـقس وسماع خطـبه ورواـيـته إـيـاهـا لـقـريـش ولـلـعـرب فـلا يـنـاقـصـه إـلا شـكـسـ لـجـوجـ.

● ● ●

بهذا يغدو مشـى «من تـنـام عـينـاهـ وـلـا يـنـام قـلـبـهـ» في عـكـاظـ حـقـيقـةـ تـارـيخـيـةـ ومن ثم فـمـشـيهـ في غـيرـ عـكـاظـ مـثـلـ مجـنةـ وـذـىـ المـجاـزـ أـمـرـ طـبـيعـيـ لـأـنـهـ منـ غـيرـ المـعـقـولـ أنـ يـقـتـصـرـ عـلـيـهـ دـوـنـهـماـ .ـ حـقـيقـةـ أـنـ عـكـاظـ أـشـهـرـ مـنـهـماـ لـأـنـهـ أـكـثـرـ وـإـفـادـهـ بـيـدـهـ لـيـسـ هـذـاـ مـسـوـغـاـ لـإـغـفـالـهـماـ إـذـ رـبـيـاـ يـضـمـانـ دـعـاهـ أـفـصـحـ لـسـانـاـ وـأـعـقـمـ ثـقـافـةـ وـعـلـيـنـاـ أـنـ تـفـرـقـ بـيـنـ كـثـافـةـ الـحـضـورـ فـيـ السـوقـ وـنـوـعـيـةـ الـمـبـشـرـيـنـ بـالـعـقـائـدـ وـالـخـطـبـاءـ وـالـبـلـاغـاءـ وـالـفـصـحـاءـ وـالـشـعـرـاءـ فـقـدـ يـوـجـدـ مـنـهـمـ فـيـ السـوقـ الـتـىـ هـىـ أـقـلـ شـهـرـةـ أـوـ أـضـعـفـ شـاهـدـاـ مـاـ لـاـ يـتـوـافـرـ لـلـأـشـهـرـ وـالـأـكـثـرـ.

وهـكـذـاـ فـالـشـطـرـ الـأـوـلـ مـنـ الـمـرـحـلـةـ الـأـوـلـىـ أوـ المـقـطـعـ الـأـوـلـ مـنـ التـجـرـبـةـ الـفـادـةـ المـدـهـشـةـ وـهـوـ الـاـخـتـلـاطـ بـأـهـلـ الـأـدـيـانـ وـسـائـرـ الـمـلـلـ وـالـنـجـلـ وـالـاسـتـمـاعـ إـلـيـهـمـ وـحـفـظـ كـلـامـهـمـ وـخـطـبـهـمـ وـمـحـاـوـرـهـمـ قـامـتـ الشـواـهـدـ عـلـىـ صـحـتـهـ وـجـاءـ فـيـ الـقـرـآنـ الـمـجـيدـ مـاـ يـسـانـدـهـ وـفـيـ مـؤـلـفـاتـ السـلـفـ مـاـ يـؤـازـرـهـ وـيـعـاضـدـهـ.

إنـ إـشـارـةـ الـهـنـدـوـزـ الدـرـوـبـ بـضـرـورـةـ الـبـدـءـ بـهـ أـمـرـ بـدـيـهـيـ فـضـلـاـ عنـ أـنـهـ يـدـلـ عـلـىـ حـنـكـتهاـ وـفـرـاستـهاـ فـإـنـ حـالـةـ «الـصـادـقـ الـمـصـلـوـقـ»ـ فـيـ فـجـرـ التـجـرـبـةـ لـاـ تـصـلـحـ لـهـاـ إـلـاـ هـذـهـ الـجـرـعـةـ الـخـفـيـفـةـ الـوـزـنـ السـائـنـةـ الـطـعـمـ وـكـأـنـيـ بـسـيـدةـ قـرـيشـ «بـمـاـ فـيـهـمـ بـنـوـ هـاشـمـ آـنـذـاكـ وـلـنـدـعـ جـانـبـاـ اـرـتـقـاعـ أـسـهـمـهـمـ بـعـدـ ظـهـورـ .ـ الـمـعـروـضـ عـلـيـهـ مـفـاتـيـحـ خـرـائـنـ الـأـرـضـ .ـ وـعـلـوـ شـائـنـهـمـ فـيـمـاـ بـعـدـ آـهـ»ـ تـنـادـيـهـ مـنـ مـوـقـعـ الـأـمـ الرـؤـومـ الـتـىـ تـكـبـرـهـ بـرـبـعـ قـرـنـ وـتـقـوـلـ لـهـ :

اذـهـبـ يـاـ آـبـاـ الـقـاسـمـ وـاـخـتـلـطـ بـأـهـلـهـاـ وـالـوـاـفـدـيـنـ عـلـيـهـاـ وـنـاقـلـهـمـ الـحـدـيثـ

واستمع إليهم واحفظ عنهم واستوعب كلمتهم خاصة أصحاب الأديان والملل والنحل مثل اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وافهم عقائدهم وحاورهم واستفسر منهم ولا تدع صغيرة أو كبيرة دون فقه وإدراك وتمحيص. وعندما شتد حماره القيظ فى الهاجرة سوف تجدنى مهياً فى انتظارك وقد أعددت لك طعاماً طيباً.

فيسأل متوجباً : ولكن ماذا عن البيع والشراء والمتاجرة؟
و قبل أن يكمل كلامه تقاطعه اطرح كل هذا وراء ظهرك ودبر أذنك ولا تفك
فيه البتة فسوف أكفيك مؤونته كله فإنك لم تخل للصدق في الأسواق بل، لما هو
أعظم منه وأجل شأننا وأسمى قدرًا .. هي يا حبيبي يا أبا القاسم^(١).

• • •

وهذا يؤكد ما قلناه أنها هي هندوز التجربة وهو موضوعها وإن الشيء
بالشيء يذكر فإن «ذئبة قريش» بشر عشرة من أصحابه «ثلاثة منهم حاربوا
بعضهم بعضاً حرباً ضرمواً» بالجنة إنما لم يصف لهم بيوتهم في الجنة كما
وصف لسيدة نسون قريش بيتها الرائع فيها.

• • •

وبعد أن يسير شوطاً كبيراً في الفصل الأول من فصول التجربة تتدرج به
في الشطر الآخر من ذات الفصل وهو مدارسته فيما سمع وحفظ واستوعب
ومذاكرته فيما جمع فأوعى وتبسيط الصعب وحل المعقّد وفك الملغز وتقرير
البعيد وشرح المشكل وتفسير الغامض وتوضيح المتشابه... خاصة أن الأديان
والعقائد والملل حوت كل منها الشر الغزير منها، حتى إنه يمكن أن تقول بغير
افتئات إنها تقوم على الإبهام وتنبني على المحير «بضم الميم وفتح الحاء وتشديد
الياء» وتأسس على الخارق للمألوف ولو لا المرroc عن السياق لوضعنا في حجر
القارئ العشرات من الأمثلة من الديانتين الساميتين الإبراهيميتين.

• • •

ونستأنف البحث:

نذكر بأننا المعنا إلى أن أم هند تمنت بثقاقة دينية ذات قدر معقول جاء
متوافقاً لسد موجبات الشطر الآخر، هذا بمعنى أنه أتي كفيئاً للإجابة على
استفسارات واستيضاحات وتساؤلات «سيد أهل الله» ونأسف للتكرار إذ لا بد أن
نكرر أنه في ذيak الوقت جاوز العشرين من عمره المبارك بما لا يزيد بحال من
الأحوال عن ثلاثة أعوام فضلاً عن حداثة عهده بهذه المسائل التيولوجية
العميقة ومن ثم فإن ما يطلب الرد عليه لا يرتفع عن مستوى ما حصلته هي من
معارف دينية . ولا مشاحة أنها بلماحيتها وزكيانتها نقشت ووعلت وأدركت أنه
«سيد ولد عدنان». بدأ يغوص رويداً رويداً في أمواج التجربة ويستمر في طرحها

وطفقت أسئلته تتعقد واستبياناته تعمق واستيضاحته تتشابك وهنا أيقنت أن ديك المرحلة الثانية أوشك على الصياغ بأن فجرها على وشك البزوع وأنه قاب قوسين أو أدنى من الطلوع.

• • •

العلاقة الحميمة التي ربطت بين الطاهرة خديجة والقس ورقة وقد شرخناها ودللتا عليها آنفًا أباحت لها أن تستعير الأبعاض والإصحاحات التي نقلها الأخير من اللسان العبراني إلى لسان العرب من التوراة ومن إنجيل البروتستانت أو إنجيل متى قبل أن يفسده شاؤول أى بولس وتبعه. يضيق المجال عن حصر أو حتى ضرب الأمثل لمخاريق هذا البولس والخريقات التي أدخلها على الدين الذي جاء به ابن مريم فحوله من دين توحيدى خالص إلى عقيدة تتثبت وجعل عيسى إلهًا يعبد في الأرض في حين أنه واحد من البطاركة أولى العزم مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهم بشر، ومن أطرف الشعوذات التي روجها بولس في الديانة العيساوية فكرة روح القدس أو الروح الأمين التي جعلها ترفرف دائمًا على اجتماعاته المبروكة بيد أنه لم يقل إن لها أجنة^(١٢). ويستمر فيذكر في حين «أن الصدوقين في عهد المسيح لم يكونوا يؤمنون بالروح ولا بالملائكة إذ كانوا متثبتين بالدين العتيق»^(١٣).

وقد انضوت التوراة على قصص الخلق وأحداثه^(١٤) آدم وحواء وإبليس والجنة والإغراء على الأكل من الشجرة المحرمة والطرد من الجنة والطوفان ونوح وسفينته المذهلة التي أنقذت نسل آدم من الفناء ثم إبراهيم وإسحق ويعقوب وخلفائهم الأكابر وقصصهم وأطروفاتهم.

أما البشرية الفادحة والمشهورة بالإنجيل فقد احتوت على الحمل الخارق لمريم والولادة العذرائية لها وكيف أنها ولدت ابنها عيسى ولم تقض وظلت بكرًا والمعجزات والمخاريق المتواتعة التي تمت على يديه الميمونتين وصلبه وقيامته المدهشة من قبره ورفعه إلى السماء ثم ظهوره لتلاميذه أو حواريه بتعبير القرآن الكريم.

• • •

في ليالي مكة الطويلة وخاصة في الشتاء والربيع تشمر أم هند عن ساعديها وتجلس إلى ابنها وزوجها «الأمين» تقرأ له على مهل وتطالع له بتؤدة صفحات من تلك الأبعاض والإصحاحات وتشرحها له بقدر ما تتسع ثقافتها الدينية التي حصلتها من المنبع والروافد الأخرى التي رفعنا الستار عنها فيما سلف وسنوردها فيما يأتي.

وتطلب منه أن يجد معها «يعنى يحفظها» كلها لا يترك منها شيئاً وتنتقبل هي استيضاحته وترتبط له ما قرأته عليه مع ما ينقله لها مما وعاه متعلقاً

بذات الموضوع وما سمعه بخصوصه، كل هذا مع استمراره في المشي في الأسواق والسماع والمحاورة لأن هذه شعيرة أساسية قنواتها متباينة ودائمة الفيض.

● ● ●

وإذا أشكل عليها أمر أو التبس عليها شأن أو أعجزتها مسألة هرعت إلى اليهسوب ورقة تستوضنه ليفسر لها ما أبهم وبين لها ما غمض ويشرح ما خفى، إذن ابن نوفل هو المرجعية التي توضع على اعتاب بابها التساؤلات والاستفهامات والاستفسارات والاستبيانات... إلخ.

هو الذي ينهض بعبء الشروح والتفسيرات والكشف والتآويلات إلخ، أي تتسع حلقة المذاكرة بانتقال خديجة و«أحمد» إلى بحر العلوم وكهف المعرفة عنى ورقة بعد أن تقدم به العمر وأخذ بصره يخبو وفي داره تأسست مدرسة من أميز مدارس العلم الديني التي عرفها تاريخ القرون الوسطى والتي غفل عنها مؤرخو هذا النوع من المدارس، بيد أنه من الآن فصاعداً سيكفرون عن خطئهم وينفحونها حقها من العناية والاهتمام.

● ● ●

في تلك المدرسة أعطى اليهسوب خلاصة علمه وحشاشة معارفه وزبدة تحصيله إلى «المعصوم» بحضور الطاهرة واستمع إلى ملاحظاته وتساؤلاته واستبياناته فشرحها وأوضحها وكشف الستار عن غواصتها وأزاح الغمة عن معضلاتها وسلط الأضواء الكواشف على خوافيها.. وخديجة تنصت وتلاحظ وتشجع «بطل التجربة» على مزيد من التدقيق ومضاعة التمحيق والإكثار من المراجعة وتدفعه إلى التعمق في الحفر والانغماس في التquier والانهماك في البحث.

لأنها بما قرأته قدر طاقتها أوسع مكتنها وحصلتله حسب جهدها أيقنت أن «القادم المأمول» من باب الحتم واللازم يتوجب أن يجيء مخزونه من الثقافة الدينية وفيراً فهي لاشك قرأت ما ترجمه ابن عمها من البشرة أو الإنجيل فعرفت ما لقيه ابن مريم من رؤساء الكهنة والفرسيين من سفالات ورذالت وتحديات وإحراجات ومن ثم نفحت أنه إذا لم يقف **صفوة الباري والقار** على أرض صلبة من المعارف الدينية فلن يصمد لمنازلات أحبّار اليهود ومنافرات قساوس النصارى فتهاج التجربة على رؤوس أصحابها هذا الشّلّاثي الباهر المbeer.

● ● ●

وقد صدق حدتها فقد وقف . فيما بعد . علماء بنى إسرائيل له بالمرصاد وسألوه عن أصحاب الكهف والرقيم وعن الروح... إلخ.

وتحققت فراستها فعندما جاء وفدى نصارى نجران إليه في يثرب في عام الوفود وظلوا بضعة أيام ينazuونه ويحاورونه ويناقشونه وأثبت بجذارة منقطعة النظير أنه كفيئ لهم وما أيقن عنادهم وتشبّثهم بعقائدهم الفواسد طلب مباهلتهم فأصابهم الذعر وركبهم الخوف وشملهم الهلع فتراجعوا وخسروا وتقهقرت.

فلولا الثقافة الدينية التي حصلها في ذلك الزمن المضيء لما استطاع أن يلقمهم حجراً وما صار نداءً لأخبار يهود الذين أكثروا من جداله في يثرب بعد أن نزح إليها وعدن فيها^(١١٥).

● ● ●

ولعله بعد أن كتب له الفاج على هؤلاء وأولئك ترحم علي الهنوز واليعسوب فلولا هما لما تم له شيء منه. إن هذا الجانب الممتاز من حياة أم هند يوضح لنا لماذا سمي عام وفاتها «عام الحزن» وظلت ذكرها حية نابضة في عقله وقلبه ووجدانه وت نفسه حتى آخر نفس من حياته المباركة لأنها لم تكتف بإيساده الفضل المادي «وهو إعفاءه من الجري وراء لقمة العيش وإطعامه الخمير وإلباسه الحرير» بل أضافت إليه جميلاً معنوياً يبزه ويفوقه.

إن المذكرة مع خديجة ثم المدارسة والمراجعة مع ابن نوبل مما عماد الشطر الآخر من المقطع أو الباب الأول من التجربة ولا يعني هذا التقليل بأي حال من الأحوال من الشطر الاستهلالى ويعنى به المشى فى الأسواق أو الاختلاط بالناس وخاصة أصحاب الأديان والعقائد فهو التوطئة والتمهيد والمدخل الذى ظل ممتداً ومستمراً حتى نام محمد فى مغارة حرى وظهر الملك له فى المنام وبعدها أعلنت خديجة أنه هو «القادم المنتظر».

● ● ●

شكل القس المرجعية المباشرة لسيدة نساء الدنيا وهى تنتقل بـ«أكرم الخلق» من شوط إلى شوط ومن مرحلة إلى أخرى في مسيرة التجربة الفذة، ووجد إلى جانبه نفر من ذوى الثقافة الدينية يتقاوتون في استيعابها أى ليسموا على درجة واحدة من التضليل منها.

يأتى فى مقدمتهم بحيرى وهو الذى أشار على الطاهرة منذ سنوات طوال أن تکح «راكب الجمل» ويبعدوا أنه فعله غب مقابلته إياه وهو فى أولى سفراته مع عمه عبد مناف وهو ما دلته عليه فراسته فيه من ألمارات تشير إلى أنه القادر المؤمل.

«بحيرى الراهب الذى توسم فى رسول الله ﷺ النبوة وهو مع عمه أبي طالب حين قدم الشام فى تجار من أهل مكة وعمره إذ ذاك اشترا عشرة سنة فرأى الغمامه تظلله بينهم فصنع لهم طعاماً ضيافة واستدعاهم...

وذكر ابن عساكر أن بحيري كان يسكن في قرية يقال لها الكفر بينها وبين بصرى ستة أميال وهي التي يقال لها «دير بحيري» قال ويقال: إنه كان يسكن قرية يقال لها ميفعة بالبلقاء وراء زيرا^(١٦). وقد رجحنا أن بحيري هذا هو رأس الكنيسة النصرانية في إقليم الحجاز.

● ● ●

«... فإني لا أقف نفس الموقف من حديث بحيري الراهب ومن الجائز أن يكون قد رأى النبي إذا صرخ أنه سافر إلى الشام مع عمّه أبي طالب وهو في الثالثة عشرة من عمره أو في تجارة خديجة مستقلًا عن عمّه أبي طالب ولكن دوره معه إذا صرخ أنه قد التقى به لا يبعد أن يكون دور من يتربّط له النبوة عندما وجد فيه بعض العلامات التي وصفته بها الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما»^(١٧).

هذا الباحث المعاصر يرجح لقاء بحيري مع «صاحب النعلين» في سفرته الأولى بصحبة عمّه عبد مناف «أبي طالب» إلى الشام وأن مأمورية الراهب انحصرت في تنبيه بأنه القادم المنتظر ولنطير جانباً ما ذهب إليه من تحجيم مهمة بحيري إلى هذا الحد القمي، بيد أننا نلقى نظرة واسعة على الخبر عموماً: فما دام بحيري تفروض في «صاحب المدرعة» أنه المأمول الذي تشوّق الناس لظهوره فيصبح ما رقمناه قبل الآن أنه مع ناصح عبدها أشاراً عليها بأن تتخذه بعلاقه وجاهته إذ ما دام الأمر هكذا فتحتم لازم عند بلوغه سن الزواج أن تتوجه كيما تغدو له أما رؤوماً ثم ما يأتي مصلياً «تاليًا» بعده مباشرة عملية التصنيع وطبعاً يتم كله بعين الله وحمایته وحراسته.

أما الخبر الآتي بعد فيكشف عن علاقة أم هند ببحيري الوطيدة:

«وذكر ابن دحية أيضاً أنه رسول الله لما أخبرها «خدیجه» بجبريل ولم تكن سمعت به قط كتبت إلى بحيري الراهب فسألته عن جبريل فقال لها: قدوس قدوس يا سيدة نساء قريش أني لك بهذا الاسم؟ فقالت: بعلى وابن عمّي أخبرني بأنه يأتيه ف قال إنه السفير بين الله وبين أنبيائه وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يسمى باسمه»^(١٨).

إذن بحيري لم يوجد في مكة على مقرية من الطاهرة عندما ظهر ملاك الرب في النوم لـ«النجم» في مغارة حرى وطلب منه أن يقرأ ... الخ. وإذا بها تكتب إليه «بحيري» تخبره بأن الشجرة أثمرت، ونحن نسأل هل تكتب له عن هذا الأمر المدهش فجأة؟ إن العقل يرفضه ويحتم وجود فرشات^(١٩) سوابق له وهي أن بحيري من المتابعين وال媿جهين لسيدة قريش وهي تفزع خيوط التجربة بحنكة وإحكام مع العزم الحديد والصبر الجميل.

ونلاحظ أنه ناداها بلقبها الذي يخاطبها به أهل مكة مما يقطع بمعاشه في قرية التقديس وأنه يردح «يقيم» فيها شطراً من كل عام.

وفيما تقدم أخذنا من كتابة أم هند لبحيري قرينة قوية على إجادتها الكتابة والقراءة ولم نقل دليلاً قاطعاً لأن صاحب «فتح المدى» أورد خبراً فيه «أنها ركبت إلى بحيري بالشام فسألته عن جبريل عليه السلام فقال لها: يا سيدة قريش أني لك بهذا الاسم؟ فقالت: بعلى وابن عمِّي أخبرني أنه يأتيه.

وقال: ما علم به إلا نبأ فإنه السفير بين أنبيائه وأن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يتسمى باسمه^(١٢٠). أن ركبها إليه ينفحنا بمعطيات عديدة منها:

١. اهتمامها المفرط بنجاح التجربة حتى إنها تجسّمت عناء الركوب إليه والسفر من بكرة إلى الشام وسنها في ذيak الوقت جاوزت الخامسة والخمسين بل إنها شارت الستين وهي التي تعودت على العيشة الهنية.

٢. لevityها الشديدة على معرفة التفسير الديني الصحيح للرؤيا المنامية التي حدثت لبعلا الحبيب في مغارة حرى.

٣. لم تذكر لنا كتب السيرة التي هي أللذ طعمها من عسل الموصل أن خديجة ولو مرة يتيمة سافرت مع قافلة قريش التي تملك نصفها لا إلى اليمن ولا إلى الشام ومع ذلك فإنّ سماعها الرؤيا المنامية المدهشة التي حدثت في المغارة لم تتردد في أن ترقل^(١٢١) وتتسافر على عجل إلى بحيري لتحيطة بها علامات ولكن تستوثق من فلنج التجربة.

إذن هذه الأخيرة أهم لديها بما لا يقاس من تجارتها وأموالها. وهذا الخبر أورده الزبيدي والشرقاوي وهما من هما ثم حققه الشيخ أحمد عمر هاشم وهو من ناحية متخصص في علم الحديث المحمدي الشريف ومن أخرى فهو رئيس الجامعة التابعة للأزهر فلو أن الحديث معلول لكشف عن العلة في التحقيق لكنه لم يفعل مما يقطع بصحته ويؤكد سلامته من الجرح وبراءته من العيوب وخلوه من العوار.

• • •

ونحن نقوله لأن د. حسين مؤنس وهو أستاذ تاريخ حاول أن يطعن في خبر مشابه حول ركوب أم هند وسفرها لبحيري ويوجهه بالريب ويلطخه بالشكوك مع أن مؤنساً ليس ابن بجدتها فلا هو من علماء الحديث الشريف ولا حتى من يأخذ برأيه فيه إنما قد تعودنا من الكتبة المحدثين خاصة من جوقة المذاهين والمفخمين والمھللين والمعلميين مثل هذا الصنيع الأعوج والفعل الذميم والمسلك الرديء والمنحر الفسيد والاتجاه العطن وخلاصته أنه عندما يقف خبر أو آخر أو حديث حجر عثرة في سبيلهم ولا يوائم كتاباتهم الإنسانية غير

الموضوعية يطعنون فيه بلا برهان ويعيّبونه دون دليل ويهزّلونه من «التهزيل»
بغير حجة.

• • •

ثم نعود إلى سياقة التقير:

إذن ثبت بأسانيد راسخة رسوخ الأجل أن سيدة قريش كبيرها قبل صغيرها
ركبت إلى بحيري أو كتبت إليه واستبعدنا أن يأتي على غرة أو يتم فجأة بل
بمقدمات أو تمهيدات.

ودلالته أنها على علاقة سابقة حميمة به وأنها دأبت على مدارسته أحوال
التجربة ومذاكرتها معه والاستماع لنصحه والانتباه لإرشاده والإنصات لتوجيهه
كيف لا وقد أشار إليها وكتب أمراها بنكاح محمد.

• • •

ولكن من هو بحيري؟... هل كان بحيري الذي مر ذكره راهباً نصرانياً؟
إنه راهب نسطوري على مذهب أريوس ونسطور وكان ينكر لاهوت المسيح،
وببدأ هذا التعريف بداية خاطئة إذ إن بحيري ليس مسيحيًا ولم يعتنق عقائدها
بل هو نصراني وبرهاننا على عواره أنه لا أريوس ولا نسطور اللذان يقال إن
بحيري هذا على مذهبهما من المسيحيين وأن بحيري ولو صدق عليه وصف
مسيحي لما أنكر لاهوت المسيح لأن أول ركن في المسيحية الإيمان به بل اعتباره
إلهًا وإنكار لاهوت المسيح هو ما جاء به الذكر الحكيم بل حمل على القائلين
بنقيضه حملة شعواء وسفه أحلام من يأخذون بهذه العقيدة الفسيدة.

• • •

«بحيري أو نسطوراً ونحوهما من صدق بأنه رسول نبي هذه الأمة من أهل
الفترة لا من أهل الإسلام لأنهما لم يدركا البعثة»^(١٢).
صاحب السيرة الحلبية يؤكّد أن بحيري صدق بأن «الخاتم» هو القادر
المأمول الذي طال انتظاره وهذا يعطي أدلة الثبوت على عدة أمور منها:
أولاً: أنه لإيمانه به وز الطاهرة أم هند أن تباعله ولا يقدح فيه أنه تم قبل
الزواج بسنوات طويلة.

ثانياً: متابعته للتجربة التي بدأتها خديجة بعد أن نكحته إذ لا معنى لإيمانه
بأنه «القادم المنتظر» ولا بإشارته لها بأن تغدو بعلاقته دون أن يعطي يدًا مؤثرة
لإنجاح التجربة.

ثالثاً: أنه «بحيري» له علم غزير بالكتاب ومن نافلة القول أن نرقم أنه قرأ
في التوراة والإنجيل أن أي قادم جديد لابد أن تسبق ظهوره فترة تأهيل وإعداد
وهي التي سماها القرآن المجيد «التصنيع» على عين الله وأن هذا حدث مع
البطاركة العظام مثل موسى وعيسى ومن ثم فإن «بحيري» قد شارك بصورة أو

بآخرى فى التجربة المفردة بأن عاون خديجة الطاهرة أو الطاهرة خديجة بكل ما استطاع إليه سبيلاً من ضروب المعاضة وأشكال المساعدة وأنواع المؤازرة.

● ● ●

سطرنا فى الفصول الأولى أن «سيرة الزهرى» مفقودة ويبدو أنه تفرد بذكر الأخبار الغربية التى لم يؤيده فيها أحد كما أوضحتنا فى أحدوثة إسرافيل الذى نسب إليه دون غيره من الرواة والإخباريين عملية تصنيع محمد كائنا استهول أن تجز على أيدي بشر أى أناس عاديين وأنها كلما نسبت إلى قوة غيبية وكائن غير مرئى عظمت مكانة «المتوكل» مع أن عظمته ليست فى حاجة لهذا الدليل المنحول.

فى الخبر التالى يطلع علينا الزهرى فى سيرته بتوصيف مغاير لبحيرى فهو «حبر من يهود تيماء» وكل الشواهد تقطع بعدم صحة هذا الخبر وأنه راهب نصرانى.

● ● ●

السهيلى صاحب «الروض الأنف» الذى كشفنا عن مكانته بين كتب السيرة المحمدية التى يقغم «فتح» طيبها سدة المزكوم فى الخبر نفسه ربط بين بحيرى والثالث المنتظر أى محمد وهو تعبير له دالته التى لا تخفى عن الفطن وإذا أنه وجد رباط فى النتيجة إذن لابد وحتماً من قرينة فى السبب نعنى التجربة الفادة.

«في قصة بحيرى وسفر أبي طالب بالنبي ﷺ وقع في سير الزهرى أن بحيرى كان حبراً من يهود تيماء، وفي المسعودى: أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس، وفي المعرف لابن قتيبة قال: سمع قبل الإسلام بقليل هاتف يهتف: إلا إن خير أهل الأرض ثلاثة: بحيرى ورباب بن البراء والثالث المنتظر فكان الثالث المنتظر رسول الله ﷺ»^(١٢).

ما ذكره المسعودى أن بحيرى من عبد القيس ربما اقترب من الحقيقة أى أنه عربي وقبيلته تدخل في زمرة قبائل الجزيرة العربية التي اعتنت ديانة ابن مريم مما يهدى الفرض الذي قدمناه أنه تولى أبرشية الحجاز مزيداً من الصدق إذ سبق أن ثقنا خبراً عن وجود قسّس مضارب الخيام.

فكيف لا تعين الكنيسة الأم أسقفاً لعموم الحجاز؟ ومن هو أكثر صلاحية لهذا المنصب من عربي؟ ومن هنا تصبح الألفة بينه وبين الطاهرة أكثر معقولية وأدنى إلى القبول وأشد سوغاً.

أما أن المسعودى ذكر أنه اسمه سرجيس فقد بينا فى ما تقدم أنه حدث اختلاف كثير فى هذا الشأن بل إن الأسماء فى مرحلة التاريخ الإسلامي المبكر امتازت بهذا الاختلاف الشديد ولنضرب مثلاً سريعاً باسم الصحابي المعروف

● ● ●

عالم دين ثالث اتصلت به أم هند إبان اضطلاعها بأعباء التجربة الفريدة ولو أن علاقتها به وإن شئت دوره فيها يقل عن دورى القس والراهب، أى ورقة وبحيرى ومعنى به سرجيوس وهو راهب نصرانى تمرد على خريقات شاؤول أو بولس ومخاريقه وشعباته وإفساداته لدين ابن الصديقة، ومن ثمة جاء وصفه بالزنديق لأن شيعة المفسد للمسيحية نعنى شاؤول أو بولس تعطفت ولاحتقت معارضيها بباقية من الألقاب البذيئة منها المارق والزنديق والهرطيق... إلخ.

يقص تيوفانيس «طبعة كلاسن» وجورجيوس «طبعة بيكر» أنه بعد أن ارتجف محمد بعد ظهور جبريل له أول مرة . توجهت خديجة وقد استولى عليها قلق شديد إلى سرجيوس وكان راهباً زنديقاً منفياً فطمأنها بأن أكذ أن «الملك» كان يرسل إلى كافة الأنبياء» (١٢٥).

وهناك احتمال لا نستبعده أن يصدق اسم سرجيوس على بحيرى ولعل ما يؤيده ما جاء فى خبر المسعودى «واسمه سرجيس» ويفدو ما جاء فى خبر الموسوعة الإسلامية قد تعلق ببحيرى.

● ● ●

أما آخر المعاونين وخاتم المعاذدين ونهاية المساعدين فهو الراهب عداس وله حضور متميز على صفحات كتب التراث، وأمر غريب أن تتجاهل المؤلفات الحديثة والمعاصرة فى السيرة المحمدية التى هي أطيب ريحًا من مجمر المسك المخلوط بالعتبر ولا تذكر سوى لقائه بـ«الإنسان الكامل» فى الطائف بعد أن صدّه غطاريـف ثقيـف بعـنـف وـأنـهـاـنـاكـمـسـجـدـاـفـىـالـطـائـفـيـسـمـىـ«ـمـسـجـدـعـدـاسـ» بـنـىـفـىـمـكـانـلـلـقاءـالـمـبـرـورـ،ـوـتـشـيـعـ«ـتـلـكـالـمـؤـلـفـاتـ»ـوـتـعـرـضـبـجـانـبـهـاـعـنـلـقـبـحملـهـبـجـدارـةـوـهـوـ«ـالـراـهـبـ»ـوـقـدـسـطـرـنـاهـقـبـلـاـوـفـىـذـيـلـهـسـنـدـهـ.

ولقد وقفت ملياً أمام هذه النقطة على أجدى لها تعليلاً مقبولاً.

هل إعراضها عنه ينفيه أو يرفعه أو ينسخه من كتب السلف الصالح؟
لعل فى نظرهم أن تسطيره فى كتبهم وإطلاع عامة القراء عليه سيلفت الأنظار ولو بدرجة واحدة أو يلقى بصيصاً من الضوء ولو نحيلاً على التجربة الفريدة وهم يؤمنون «يقصدون» أن تظل فى الظلام وتبقى فى العتمة وتستمر فى الغيش أو أنهم . وهذا الرابع أو المؤكد أن التجربة لم تخطر لهم على بال ولم يتبعوا إليها ومن ثم لم يدركوا أهمية سهم عداس فيها.

● ● ●

«وفي بعض الروايات أن خديجة قبل أن تذهب إلى ورقة ذهبت إلى عداس وكان نصرانياً من أهل نينوى: قرية سيدنا يونس . عليه السلام . فقالت له: يا

عداس أذرك الله إلا ما أخبرتني هل عندكم علم عن جبريل . أى فإن هذا الاسم لم يكن معروفاً بمكة ولا بغيرها من بلاد العرب . فقال عداس: قدوس قدوس ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان؟ فقالت: أخبرني بعلمك فيه؟ قال: هو أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى . عليهما السلام . ثم رأيت أن عداساً المذكور هنا كان راهباً وكان شيخاً كبيراً السن قد وقع حاجبه على عينيه من الكبر وأن خديجة قالت له إنعم صباحاً يا عداس، فقال: كأن هذا الكلام كلام خديجة سيدة نساء قريش، قالت: أجل . قال: أدنى مني فقد ثقل سمعي فدنت منه ثم قالت له: ما تقدم . ففي كتاب ابن دحية: عداس كان غلاماً لعتبة بن ربيعة من أهل نينوى عنده علم من الكتاب فأرسلت إليه خديجة تسأله عن جبريل فقال: قدوس قدوس... الحديث»^(١٣٦).

هذا الخبر ثرى فقد أجزل لنا العطاء في دلالاته:

فهو يقطع بأن عداساً راهب وعلى صلة وثيق بسيدة نساء قريش ونظراً لقدمه في السن وسقوط حاجبيه على عينيه فقد عرفها من صوتها وناداها باللقب الذي يناديها به أهل مكة كلها وهو برهان على متانة العلاقة بينهما، وعلى كثرة ترددتها عليه أو بالأقل تعدد مقابلاتها له ولو باستضافته في دارها. وإذا أنها أرقلت «هرعت» إليه فهذا يشي بقوة الوثاق بينهما إذ لو أنه واه لما جرئت على مفاتحته في أمر بلغ الذروة في الخطر والقمة في الأهمية وسنان السرية ونعني الرؤيا المنامية لـ«المنصور بالرعب مسيرة شهر» في مغارة حرى ودليل على ائتمانها إياه.

ونحن نرى أنه ما انفك يقوم بأعباء البديل أو القائم قام لأسقف الحجاز ومكة «بحيري» في حالة غيابه أو سفره خارجها ولا يقدح فيه أنه عبد أي مملوك لكل من عتبة وشيبة ولدى عتبة ابن ربيعة إذ قرأتنا فيما بعد أن نافعاً مولى ابن عباس بلغ من العلم شأواً جعل العديد من الجلة من التابعين يجلسون بين يديه يأخذون منه فقهه ومسند الخبر.

وفي رواية أن عداساً قال لها: يا خديجة إن الشيطان ربما عرض للعبد فرأه أموراً خذى كتابي هذا فانطلقى به إلى صاحبك فإن كان مجنوناً فإنه سيذهب عنه وإن كان من الله فلن يضره فانطلقت بالكتاب معها فدخلت منزلها فإذا هي برسول الله ﷺ مع جبريل يقرؤه الآيات «ن والقلم...» فلما سمعت خديجة قراءته اهتزت فرحاً ثم قالت للنبي ﷺ: هداك أبي وأمى امض معى إلى عداس فلما رأه عداس كشف عن ظهره فإذا خاتم النبوة يلوح بين كتفيه فلما نظر عداس إليه خرّ ساجداً يقول: أنت والله النبي الذى بشر بك موسى وعيسى»^(١٣٧).

من أراد حجة على تردد عداس على أم هند أو كثرة زيارتها هي إليه فليتعمن في مطالعة هذا الأثر فسوف يلقاها بين سطوره فهنا عداس يعطيها كتاباً لاختبار ذاك الذي يأتى «القائق» فهو طائف من الجنة أم غيره؟ ولما وصلت دارها سمعت آيات سورة القلم تتلى بين جنباته ومعلوم أن «محمد» قرأها على تبعه بعد سورتي «أقرأ» و«المدشر» أي أنها تأخرت تسبباً مما يشف عن استمرار العلاقة بعد واقعة رؤيا المغارة وأثبتتا م坦تها قبلها. ومنناولة عداس لها كتاباً فيه الشفاء لتعلق به لصاحبها على حد عبارته لمعرفة ما إذا ألم به مس شيطاني أم لا دليل يرتفع بذاته دون حاجة إلى سواه على قوة العلاقة وأنها منفتحة على الجانب الديني أو اللاهوتي تحديداً وأن الراهب عداساً حريص على فلوج أم هند في عملية التصنيع التي تمارسها بعونه ومن سبق ذكرهم.

وأيضاً مضت «بمحمد» إليه فلما ثبتت من أمرات مادية فيه قرأها في أسفاره المقدسة بالإضافة إلى أنه بالقطع جرت محاورة بينهما عرف منها أحواله المعنية فانحنى له تقديرًا إذ ثبت في يقينه أنه «المنتظر» وهو بهذا الصنيع يؤكد للطاهرة نجاحها بامتياز في إدارة سكان سفينة التجربة الفذة بتتمكن واقتدار حتى رست على شاطئ الفلج وميناء الفوز وبر الأمان.

* * *

ينفرد هشام جعيط المعجزات التي حدثت لـ محمد شأنه فيه شأن الكتبة المحدثين المعاصرین فيقول: «قصة علامة النبوة بين كتفيه ونبوءة بحيرة الراهب وتظليله بالسحابة كل هذا مختلف ولا أساس له في التاريخ إنما يدخل في المخيال الديني الشعبي الذي أخذ يتامى في آخر العهد الأموي»^(١٢٨). ومما يؤسف له أن هذا مجرد كلام وبعيد عن العلم والموضوعية ويفنده على وجه السرعة بالأعلى:

١. من قال إن المخيال الديني الشعبي أو غير الديني مثل المخيال الشعبي الملحمي كسير أبي زيد الهلالي وعنتر بن شداد والأميرة ذات الهمة مختلف ولا أساس له؟ كل ما في الأمر أنه لا يخلو من المبالغة لزوم الإبهار ولضرورات الحكى والقص.
٢. أي تاريخ هذا الذي استند إليه جعيط في الاستعلاء على تبؤ بحيري وعلامة النبوة في الكتف ولماذا لم يشير إلى المصادر التاريخية المعتبرة والمحترمة التي تقول بالأخلاق واللاؤسانية وما رأيه في المصادر التاريخية التي تحظى بكل الاحترام وبالغ التقدير التي تؤكدتها، هل نقدفها في المحيط ونأخذ باستكرياراته هو ومن على شاكلته؟ وبالمناسبة شك هشام في وجود موسى تاريخياً (ص ١٢٤) ونحن لا نتصادر حق

- أى باحث فى وصف حادث تارىخى بالاختلاق والافتقار إلى الأساس ونفس وجود أى شخصية تاريخية ولكن بشرط أن يقدم أسانيده النقلية والعقلية معاً أما إلقاء الكلام على عواهنه فهو لا يليق بباحث جاد رصين مثله.
٣. من المعلوم أن العهد الأموى بفرعيه السفيانى والمروانى ليس من صالحه تضخيم صورة «المسطفى» وأسطرتها فى المخيال الشعبي لأنهم لو فعلوا لزادوا إقناع المحكومين بأحقية بنى هاشم رهطه فى الحكم بدلاً منهم.
٤. اختلاق هذه العجزات وأسطرتها فى زمن بنى أمية علاوة على سقوطه عقلياً فإنه باطل تاريخياً لأن من أوائل من كتب فى سيرة «خيره ولد قصى» هو عروة بن الزبير بن العوام أخوه عبد الله بن الزبير أحد أشد أعداء بنى أمية الذى انتزع منهم الخلافة فى الحجاز والعراق وغيرهما لمدة سبع سنوات كما أن عروة كاتب السيرة ولد قبل أن يغتصب بنو أمية الخلافة من أصحابها الشرعيين بنى هاشم.

● ● ●

وفي الخبر أن الطاهرة إثر سماعها «أكرم الخلق» يتلو آيات سورة **«فَنَّ وَالْقَلْمَ»** اهتزت فرحاً، ونذكر القارئ أنها فى تلك اللحظة شارفت الستين مع رصانتها ورزانتها.. إلخ، إلا يدل هذا الفرح الاهتزازي أو الاهتزاز الفرج على شدة البحور وعمق السرور وقوة الانبساط وعساه ينضوى على تقنيد مُفحِّم للذين يرددون كالببغاء دون أدنى تفكير ولا أقل مسكة من تدبر ولا ذرة من تعقل أن الطاهرة أول من آمن به وببعضهم يقول من الرجال والننسون والآخر يقدمها على النساء فحسب!

إن عجبى لا ينتهى من هؤلاء ومن المؤسف أن ينقلها الخلف عن السلف والمصلى عن المجلى واللاحق عن السابق الأمر الذى يقطع بأنهم طالعوا السيرة الحمدية التى هى أذكى رائحة من نفحات المسك الأصهب مطالعة خفيفة هوجاء.

● ● ●

والأخبار التى حملتها إلينا دواوين السيرة الحمدية المعطار تدلنا على استمرارية لقاء أم هند بعداس فبعد أن أخبرها «محمود» بمنامه المدهش فى المغارة وهرولتها إلى عداس تسأله عنه إذا بها فور أن يخبرها باستدعاء جبريل إليه تسرع إليه «إلى عداس» مرة أخرى وتقص عليه الواقعه الجديدة.

«قال الزهرى: كانت أول من آمن بالله وقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه وانصرف إلى بيته وجعل لا يمر على شجر ولا صخرة إلا سلمت عليه فلما دخل على خديجة قال: أربتك الذى كنت أحدثك أنى رأيتها فى المنام فإنه جبريل استعلن على أرسله إلى ربى، وأخبرنا بالوحى. فقالت: أبشر فوالله فلا يفعل

الله بك إلا خيراً فأقبل الذي جاءك من الله فإنه حق.
وانطلقت به إلى عداس غلام عتبة بن ربيعة نصرانيًّا من أهل نينوى فقالت:
اذكر الله إلا ما أخبرتني هل عندك علم بجبريل؟ فقال عداس: قدوس قدوس.
قالت: أخبرني بعلمك فيه. قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبئين وهو
صاحب موسى وعيسى - عليهما السلام - فرجعت من عنده إلى ورقة وذكر
الحديث^(١٢٩).

إن الذي وضع تحت أبصارنا هذا الأثر الشميم هو الذهبي في «السيرة
النبيوية» والذي شد انتباھي فيه أيضًا علاؤة على توثيقه ل蔓انة الصلة بين
الهنوز والمعاون أنها بعد أن سمعت منه «رجعت من عنده إلى ورقة» إلى
اليعسوب، وهذا يقطع بأن أم هند أيام ذاك لم تهدأ ولم تكل بل في حركة دائمة
نشيطة رغم سنها ورفاهية عيشها ومكانتها الاجتماعية السامقة ولحرصها
المضاعف على سرية الأمر لم ترسل مرسالاً من قبلها بل انطلقت بنفسها رغم
ما فيه من مشقة.

ألا تقدم كل هذه الواقعـات التي تفضـلت بها علينا أمـهـات مؤـلفـات الأـكـابرـ في
سـيرـة «ـسـعـدـ اللـهـ» أدـلة ثـبـوتـ قـواـطـعـ على حدـوثـ التـجـرـيـةـ فعلـاًـ وـوـاقـعاًـ وـعـلـىـ قـيـادـةـ
سـيـدةـ قـرـيـشـ لـحـرـكـتـهـ؟

● ● ●

نظـراًـ لـلـأـهـمـيـةـ الشـدـيدـةـ لـإـحـکـامـ الـرـیـاضـ بـینـ کـلـ مـنـ خـدـیـجـةـ وـعـدـاسـ فـإـنـاـ
نـسـتـمـيـحـ القـارـئـ عـذـرـاًـ فـىـ أـنـ نـعـرـضـ عـلـيـهـ فـيـمـاـ يـلـىـ مـاـ جـاءـ «ـبـخـلـافـ مـاـ سـبـقـ»ـ فـىـ
ثـلـاثـ مـنـ الـقـمـمـ الـشـوـامـخـ الـتـىـ تـنـاوـلـتـ سـيـرـةـ «ـالـحـبـيـبـ»ـ وـنـرـجـىـ التـحـلـيـلـ التـعـقـيـبـ
أـوـ التـعـقـيـبـ التـحـلـيـلـ فـيـمـاـ بـعـدـ:

«ـعـنـ الـوـاـقـدـىـ عـنـ نـجـيـحـ أـبـىـ مـعـشـرـ عـنـ مـحـمـدـ بـنـ قـيـسـ:ـ أـنـ خـدـیـجـةـ لـمـ أـتـاـهـاـ
رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ فـأـخـبـرـهـاـ بـمـاـ بـدـئـ بـهـ جـمـعـتـ عـلـيـهـ ثـيـابـهـ وـأـتـ وـرـقـةـ فـحـدـثـهـ
وـقـالـتـ لـهـ:ـ مـاـ جـبـرـيلـ؟ـ فـقـالـ وـرـقـةـ:ـ سـبـحـانـ اللـهـ الـقـدـوـسـ جـبـرـيلـ نـامـوـسـ اللـهـ
الـأـكـبـرـ وـسـفـيـرـهـ إـلـىـ أـنـبـيـائـهـ لـثـنـ كـانـ صـاحـبـكـ رـأـيـ هـذـهـ الرـؤـيـاـ إـنـ لـنـبـيـ لـوـدـدـتـ أـنـ
يـكـوـنـ ذـلـكـ فـأـكـوـنـ لـهـ وـزـيـرـاـ وـابـنـ عـمـ،ـ ثـمـ خـرـجـتـ فـحـدـثـ عـدـاسـ غـلامـ عـتـبـةـ بـنـ
رـبـيـعـةـ وـكـانـ نـصـرـانـيـاـ فـقـالـتـ:ـ يـاـ عـدـاسـ أـخـبـرـنـيـ عـنـ جـبـرـيلـ؟ـ فـقـالـ:ـ قـدـوـسـ قـدـوـسـ
وـمـاـ ذـكـرـ جـبـرـيلـ فـىـ الـبـلـدـ الـذـىـ أـهـلـهـ عـبـدـةـ أـوـثـانـ؟ـ جـبـرـيلـ نـامـوـسـ اللـهـ الـأـكـبـرـ وـلـمـ
يـأـتـ قـطـ إـلـىـ نـبـيـ،ـ فـرـجـعـتـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ وـأـخـبـرـتـهـ بـمـاـ قـالـ الرـجـلـانـ
وـبـشـرـتـهـ بـذـلـكـ»ـ^(١٣٠).

«ـثـمـ انـطلـقـتـ مـنـ مـكـانـهـ فـأـتـتـ غـلامـاـ لـعـتـبـةـ بـنـ رـبـيـعـةـ بـنـ عـبـدـ شـمـسـ نـصـرـانـيـاـ
مـنـ أـهـلـ نـينـوـيـ يـقـالـ لـهـ عـدـاسـ فـقـالـتـ لـهـ:ـ يـاـ عـدـاسـ أـذـكـرـكـ بـالـلـهـ إـلـاـ مـاـ أـخـبـرـتـيـ
هـلـ عـنـدـكـ عـلـمـ عـنـ جـبـرـيلـ؟ـ فـقـالـ:ـ قـدـوـسـ قـدـوـسـ،ـ مـاـ شـأـنـ جـبـرـيلـ يـذـكـرـ بـهـذـاـ

الأرض التي أهلها أهل الأوثان. فقالت: أخبرنى بعلمك فيه؟ قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى - عليهما السلام . فرجعت من عنده فجاءت ورقة بن نوفل فذكرت له ما كان من أمر النبي وما ألقاه جبريل فقال لها ورقة: يا بنية أخي.. ما أدرى لعل صاحبك النبي الذى ينتظر أهل الكتاب الذى يجدونه عندهم فى التوراة والإنجيل وأقسم بالله لئن كان إيه ثم أظهر دعوته وأنا حى لأبلين الله فى طاعة رسوله وحسن مؤازرته للصبر والنصر، فمات ورقة رحمة الله^(١٣).

«ثم انطلقت حتى أتت غلاماً لعبدة بن ربيعة بن عبد شمس نصرانياً من أهل نينوى يقال له «عداس» فقالت له: يا عداس أذكري بالله ألا ما أخبرتني هل عندكم علم من جبرائيل؟ فقال عداس: ما شأن جبرائيل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل الأوثان؟ فقالت: أخبرنى بعلمك فيه؟ قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى، فرجعت خديجة من عنده فجاءت ورقة بن نوفل فأخبرته فقال: لعل صاحبك النبي الذى ينتظره أهل الكتاب الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ثم أقسم بالله لئن ظهر دعاؤه وأنا حى لأبلين الله فى طاعة رسوله وحسن مؤازرته، فمات ورقة^(١٤).

لا يمارى أحد فى القيمة العلمية لهذه المؤلفات الثلاثة ولا أن الأمة تلتقتها بالقبول ولم يطعن فيها طاعن ولا غض من مكانة مصنفيها فرد أما الطريقة الانقائية التى يلجأ إليها جل الكتبة المحدثين والمعاصرين بعيدة عن الموضوعية بعد السماء عن الأرض، وتعنى بها أخذهم لبعض ما فيها إذا راق لهم وناسب طريقتهم التفخيمية ونبذ البعض الآخر لا طعنًا فى الرواية أو السند إنما بسبب أنه يعارض منهجهم الفاسد ويناوئ منحاجهم الباطل وبتضاد مسلكهم المعوج.

إن البلاذرى وابن كثير والسيوطى شموس ساطعة فى سماء الفكر الإسلامى ينحى لهم كبار رجال الدين الإسلامى المعاصرون إجلالاً فإذا اتخاذناهم سندًا لنا فى تدعيم أفكارنا وأرائنا فيتعين على هؤلاء إذن أن يسلموا بها لأننا لم نتوکأ على مؤلفين مغموريين أو متهمين ببدعية أو مغموز فى دينهم وأخلاقهم.

فبالإضافة إلى ما قدمناه من مصادر تساميها فى الدرجة وتساوتها فى الرتبة وتتناظرها فى المكانة فإنها جماعة تتضاهر على القطع بانعقاد حلقة متينة ثلاثة الأطراف «القس . الراهن . الطاهرة» موضوع حفلها هو التجربة وما يقع فيها من وقائع وإصدار مشورتها بشأنها وأن مهندستها اجتازت الامتحان بكفاءة عليها وأن نتاجها هو القاسم المأمول «الذى ينتظره أهل الكتاب الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل».

نسائل الكتبة المحدثين والمعاصرين:
لماذا لم تسأل الطاهرة «نساءها» وعلى رأسهن نفيسة بنت منية التي لعبت

دوراً بارزاً في صيورتها بعلاً لـ«صاحب التجاج» وأمينة سرها؟ أو إحدى زوجات أعمامه مثل فاطمة بنت أسد زوجة عبد مناف «أبي طالب» وهي في ذات الوقت أم على، أو أم الفضل زوجة العباس ابن عبد المطلب وهما من لداتها فضلاً عن أن مستقبل «الشاهد» يهمهما؟
 ولا نذهب بعيداً فلماذا لم تتجه إلى عمه وكافله عبد مناف «أبي طالب» أو إلى عميه الآخرين العباس وحمزة ولدي عبد المطلب خاصة وأن الأخير حضر عقد القران والحمل الذي أعقبه^(١٣٣).
 الإجابة معروفة: لو أن الأمر عادى وليس خارقاً ولم تكتمه مدة تقرب من عشرين عاماً لأغدت إليهم أو إلى أحدهم إغداداً^(١٣٤).
 ولكن من الحال أن تقنع، وقد يرد معترض أن الشأن يخص مسألة دينية أو تيولوجية ولم يعرف عن هؤلاء رجال ونسون أي اهتمام بمثل هذه الشئون!
 فتجيبه أن قرية القدس آنذاك عجت باليهود والنصارى ولو أن الآخرين أصحاب النصيب الأوفر في الكثافة لا فيها وحدها بل في أطرافها كما وضحناء في حينه، ومنهم رهبان أطباء في عدة نواح ومنهم من ربطه صلة بعلية القوم أو بالملأ القرشى كما سطرناء في وقته فلم لم تهرع الطاهرة إليهم أو إلى نفر منهم أو إلى أحدهم وتستشيرهم فيما وقع لزوجها في المغارة أو فيما بعدها أو فيما قبلها؟
 نعتقد أننا لن نسمع ردًا مقنعًا أو إحاطة شافية.

* * *

إذن الحقيقة التاريخية المؤثقة أن هناك علاقة وطيدة ربطت بين الطاهرة والقس وبخيри وعداس وإلى حد ما سرجيوس لأن ما جاء بشأنه من آثار قليل حتى يمكن التفاضل عنه دون أن يؤثر على التجربة أو يمس بها أدنى مساس، وأنها اقتصرت عليهم وأنهم أخفوها وأسدوا عليها ستائر تخينة كيما لا يتسرّب خبرها إلى أحد خاصه وأن أعداء كثيرين وشرسين يقفون بالمرصاد وعلى استعداد لبذل كل مسعى وسلوك أي طريق ودفع أغلى ثمن لا لإجهاضها فحسب بل لتدميرها عن آخرها حتى لا يبقى لها أثر.

* * *

فرد واحد من غير هؤلاء أنسنت إليه هندوز التجربة دوراً صغيراً حقيقة إنه لا يدعو ما يؤديه «كومبارس» في شريط سينمائى أو مسرحية بيد أنه بكل المعاييس يعد مشاركة ولو أنها عجفاء هزيلة ضامرة ناحلة. إن السبب في خروج الطاهرة عن قاعدة السرية ومبدأ التكتم والتزام الحذر يؤود إلى أمرتين: ثقتها فيه وحميمية الصلة التي ربطته ربما منذ أعواام بحسيد ولد عدنان» والفرد الذي نعنيه هو أبو بكر بن أبي قحافة وكنيته «عنيق» من تيم^(١٣٥). والأخبار التي

طالعتنا بها مصنفات السيرة المحمدية الأطيب رائحة من بنفسج الكوفة عن علامة صاحبها بابن أبي قحافة تشي بمتانة الصلة بينهما:

«وأخرج البيهقى وأبو نعيم من وجه آخر عن أبي ميسرة أن النبي ﷺ كان إذا برز سمع من يناديه يا محمد فإذا سمع الصوت انطلق هارباً فأسر ذلك إلى أبي بكر وكان نديماً له في الجاهلية»^(١٣٦).

وأخرج أبو نعيم من وجه آخر عن أبي ميسرة أن النبي ﷺ كان إذا برز سمع من يناديه يا محمد فإذا سمع الصوت انطلق هارباً فأسر ذلك إلى أبي بكر وكان نديماً له في الجاهلية وأخرج أبو نعيم بسند موصول عن بريدة مثله»^(١٣٧).

في الخبر أن «صاحب السيف» وعيقا نديمان قبل الإسلام ومن ثم أسر إليه بالذى ما أنفك يسمعه من أصوات تناديه إذا جاوز العمran.

والسيطرة نقله عن البيهقى وعن أبي نعيم وثلاثتهم من الوزن الثقيل والقام الطيب.

أما عن ثقة سيدة نسون قريش بابن أبي قحافة فإنها تمثل في مناداته بكنيته «عيقا» فإن من يفعلها يقدم القرينة على أنه رفع الكلفة بينه وبين من يخاطبه^(١٣٨).

«فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ثم ذكرت له خديجة فقالت: يا عيقا اذهب مع محمد إلى ورقة»^(١٣٩) وبقية الخبر أنه امتنى لأمر الطاهرة وأخذ بيد محمد «هكذا» وانطلق به إلى ورقة بعد أن سأله: من أخبرك فأجاب: خديجة. ولنرجع إلى قصة مغزى وهى أن المراحل التي تنقل فيها «الشهم» في مسيرة التجربة وقصص أنبياء بنى إسرائيل التي دأبت الطاهرة وابن عمها القس يحكيانها له مترجمة عن التوراة ما انفك تؤتى ثمارها المرجوة بأن تفرز إيحاءات متوعنة عليه منها سماع أصوات إذا أبعد وخلا دون أن يرى مصدرها، وقد عبر عنها مرة بـ«نداء» وثانية تخاطبه باسمه ففزع وخشي على نفسه إما من الجنون أو أنها مس من الشيطان فينطلق هارباً وكالعادة لا يجد ملجاً أو منجي إلا بين ذراعى الأم الرؤوم، وفي الحضن الدفىء للبعل الحبيب، خديجة فتهدهئه وتنهنهه وتطمئنه وسترى أن الفعل تكرر مرات عديدة وأهدته إيانا مصادر كثيرة بيد أن كل واحد منها يقص علينا رواية مغايرة مما يؤازرنا فيما نذهب إليه عن «تقرار الواقع».

«عن ابن إسحاق بسنته إلى أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إنني إذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر. قالت: معاذ الله ليفعل ذلك به فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثم ذكرت خديجة له فقالت يا عيقا اذهب مع محمد إلى ورقة فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده وقال:

انطلق بنا إلى ورقة، فقال: من أخبرك؟ قال: خديجة.
فانطلق إلينه فقص عليه فقال: إنني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً من خلفي
يا محمد يا محمد فانطلق هارباً في الأرض، قال: لا تفعل إذا أتاك فأثبت حتى
تسمع ما يقول لك ثم ائتنى فأخبرنى، فلما خلا ناداه يا محمد يا محمد قل
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين.. حتى بلغ ولا الضالين.. قل:
لا إله إلا الله.

فأتى ورقة فذكر له ذلك فقال له ورقة: أثبت فانا أشهد أنك الذي بشر به
ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى وأنكنبي مرسل وأنك ستؤمر بالجهاد
بعد يومك ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك.

فلما توفي ورقة قال رسول الله ﷺ: لقد رأيت القس في الجنة وعليه ثياب
من حرير إنه آمن بي وصدقني.. يعني ورقة^(١٣٩).
في هذا الأثر سمع «خيرة بن هاشم» نداءً ثم أضاف أنه تكرر بالاسم مرتين
والمناسبة هي البعد عن الناس أو العزلة عنهم «إذا خلوت وحدي» وأن الذعر
أصابه فوخد السير^(١٤٠). إلى الطاهرة ليجد عندها الأمان والأمان.

وإن ابن أبي قحافة من المترددين على دارهم وأن أم هند نادته بكنيته بيد
أنها أمرته بالذهاب مع محمد إلى ورقة ولا ننسى أنها في مجتمع ذكوري
الهيمنة فيه للرجال مما يقطع بمكانتها السامية التي أتاحت لها أن تأمر الرجال
فينصاعون على الفور لا على التراخي إذ ما إن يدخل «الضحاك» حتى يأخذ
بيده ويهرول به إلى القس.

وان ورقة هو يعسوب التجربة الذي تعود به عند كل حدث فيسمع منه
ويطلب إليه أن يثبت ولا يهرب لأن «القادمين» وخاصة من يؤهلون لتأسيس
ديانة جديدة لا يزوغون.

وهذه الواقعة تعلقت بها سورة فاتحة الكتاب وهي بإجماع لاحقة لسورة
«اقرأ» وإن جاء ترتيبها في المصحف الشريف أنها المجلية أو السابقة أو
المقدمة.

وإنه امتد لما أشار به القس وثبت وسمع ما قاله الصوت وإن لم يعين
مصدره ولما انتهى من قصه كرر القس شهادته له بأنه الذي بشر به ابن مريم..
إلخ.

وقد أوردها البلاذري بكلمات مشابهة أو مطابقة ووثق تعلقها بسورة
الفاتحة^(١٤١)، ومثله صنع ابن كثير^(١٤٢).

● ● ●

إنما صاحب السيرة الشامية يحدد مصدر الصوت وينظر أنه جبريل، إنما لم
يذكر أن حواراً دار بينهما بل مجرد تعريف من ملاك الرب بنفسه.

وفيه أيضاً: أمرت سيدة قريش كلها أبو بكر «هذه المرة خاطبته باسمه لا بكليته» بالتوجه مع محمد إلى ورقة.. الذي أمره بالثبات أى عدم الهروب ففعل ولكن لبرهة يسيرة بقدر السلام عليكم، ثم هرع إلى أمه الحنون ونظرأ لما تمنت به من ثقافة دينية جيدة فقد أدركت على الفور أن الذي خاطبه كائن خير لأن الأشرار لا يعرفون السلام.

«فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة له وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل فإنه رجل يقرأ الكتب فيذكر ما يسمع فانطلقنا إليه فقصا عليه فقال: إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفي: يا محمد أنا جبريل فانطلق هارباً، فقال ورقة: سبوح وما لجبريل يذكر في هذه الأرض التي يعبد فيها الأوثان، جبريل أمين الله بيته وبين رسله، لا تفعل فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتي فأخبرني.

فخرج ذات ليلة فسمع: السلام عليكم. قال: فظنها فجأة الجن فجاء مسرعاً حتى دخل على خديجة فقالت: ما شأنك فأخبرها، فقالت: أبشر فإن السلام خير». (١٤٢).

وواضح من ثنايا الخبر أنه يحكي عن حادث مغایر لما سبق وأن اللجوء إلى اليعسوب مستمر ومتكرر مما يثبت صورته كمرجعية لا غنى عنها.

أما السيوطي: فإن الأثر الذى نفحنا به فى خصائصه الكبرى جمع بين تعليم الصوت الخفى «راكب الأثان» للركن الأول فى الإسلام ومعنى به الشهادة وبين قراءة فاتحة الكتاب معاً بعد أن شدد عليه القدس على ضرورة الثبات، وأنه لما نقل إليه الحديث شهد أنه المأمول المنتظر الذى يبشر به ابن مريم . كما علم من مطالعاته فى التوراة والإنجيل . وعندما تمضى سنوات عديدة نسمع «المصطفى» يحدث أنه بشرى عيسى.

وصحبه أبو بكر بأمر صارم من سيدة نسوان قريش كما حدث فى الكرات السوابق.

- فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حدثه وقالت له: اذهب مع محمد إلى ورقة فانطلقنا فقصا عليه، فقال: إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فانطلق هارباً في الأرض، فقال: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتي فأخبرني.

فلما خلا ناداه قال: يا محمد قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده رسوله، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين، ثم قال: قل لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له فقال له ورقة: أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذى يبشر به ابن مريم وإنك على مثل ناموس موسى وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا وإن يدركنى ذلك

لأجاهدن معك.

فلم توفي ورقة قال رسول الله ﷺ: لقد رأيت القس عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني - يعني ورقة»^(١٤٤).

• • •

هذا هو الدور اليتيم الضعيف الذي اضطُّلَّ به ابن أبي قحافة في التجربة ولا نعرف له سواه.

الآثار التي طرحناها في هذه الخصوصية أطلعت القارئ على مقطع مهم في التجربة وهو مرجعية اليусوب الأكيدة والتي لا غنى عنها لا من ناحية الطاهرة ولا من جانب صاحب المدرعة وزادت في قناعته «القارئ» بصدق ما ذهبنا إليه والذي آزرناه بمصادر تقف على أرض صلبة.

• • •

«حدثنا يحيى بن بکير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»^(١٤٥).

هذا الحديث في نظرنا يعلن بداية مرحلة جديدة وهامة من مراحل التجربة العظيمة ورغم أنه يكفي لصحة وروده في صحيح البخاري فإن دوافين السنة الحمديّة العوالى وفتنه وعلى رأسها صحيح مسلم وهو المصلى «التالى» للبخاري في مجموعة الصحاح الستة.

«حدث عروة بن الزبير عن عائشة: أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة.. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، وأحمد في مسنده والبخاري ومسلم في صحيحهما وابن جرير الطبرى وغيرهم في سند متصل»^(١٤٦).

ويؤكد لنا السيوطي في الخصائص الكبرى أن الشيختين أخرجاه في صحيحهما والشيخان في نطاق علم الحديث هما البخاري ومسلم، أما الشيخان في التاريخ الباكر للإسلام فهما التيمي أبو بكر بن أبي قحافة والعدوى عمر بن الخطاب. أخرج الشيخان «عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح».

«أخرج أبو نعيم عن على بن الحسن قال: إن أول ما أتى رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فكان لا يرى شيئاً في المنام إلا كان كما يرى»^(١٤٧).

وأهدانا السيوطي مصدراً آخر هو أبو نعيم صاحب حلية الأولياء وأن راوية على بن الحسن وترجح أنه من العترة الطاهرة آل البيت عليهم أذكى السلام.

• • •

- مؤلفات السيرة المحمدية الزكية كما المسك الفائق نستطيع أن نؤكد أنها أجمعت على صحة الخبر الذى جاء على لسان التيمية عائشة بنت أبي بكر:
١. «السيرة النبوية» لابن إسحق، ص ١٩١، من المجلد الأول، طبعة أخبار اليوم، مصدر سابق.
 ٢. «السيرة النبوية» لابن هشام، الأول، ص ٢٣٤ سابق.
 ٣. «السيرة الحلبية» الجزء الأول، ص ٣٧٧، سابق.
 ٤. «السيرة الشامية» الجزء الثاني، ص ٣٠٨ سابق.
 ٥. «مولد النبي ﷺ» للبرزنجي، ص ١٣ سابق.
 ٦. «السمط الشميم» للمحب الطبرى، الأول، ص ٤١ سابق.
 ٧. «السيرة النبوية» لابن كثير، الأول، ص ٤١ سابق.
 ٨. «إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأبناء والحفدة والماتع» للمقرizi، الأول ص ٣٨ سابق.
 ٩. «السيرة النبوية» لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، الأول، ص ٢٨٥ سابق.
- وفي مضمون المراجع ونعني الكتب الحديثة في السيرة المعطرة:
١. «تهذيب سيرة ابن هشام» الأول، ص ٥٨، لعبد السلام هارون، سابق.
 ٢. «خديجة أم المؤمنين» لعبد المنعم محمد عمر، ص ٩١، سابق.
 ٣. «خلاصة السيرة النبوية وحقيقة الدعوة الإسلامية» تأليف السيد محمد.
 ٤. «خاتم النبيين ﷺ» لمحمد أبو زهرة، الأول، ص ٣٠٣ سابق.
 ٥. «فقه السيرة» لمحمد الغزالى، ص ٩٢، سابق.
 ٦. «سيرة النبي محمد» تأليف كارين آرمسترونج ترجمة د. فاطمة نصره، د. محمد عنانى، ص ١٣١، ١٩٩٨ م كتاب «سطور» الأول.
- ولكنها تضييف الآتى:

- وفيما بعد كان يتلقى الرؤى إلى جانب الجبل وكان أيضاً في كل مرة يسرع إلى خديجة راجياً إياها أن تحضنه وتذرثره في عبأته^(١٤٨).

● ● ●

لقد عمدنا إلى هذا التوثيق الشديد الذي ربما يرى فيه البعض مبالغة لأهمية مرحلة «الرؤيا» لأن موضوعها شديد التركيب والتعقيد إذ له جذور في العقائد القديمة وله أصل في الديانتين الساميين الإبراهيميتين السابقتين على ظهور الإسلام، كما أن الفلسفه والمتصوفة وأهل الشريعة لهم فيه نظريات وقدم علم النفس في دائرته إضافات ثرة عميقه. وجماعها من الحتم اللازم لا نقول الإحاطة به بل على الأقل الإمام به.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن «الرؤيا الصادقة أو الصالحة» هي التي أدت بالتدريج إلى الرؤيا التي أخبر «الصادق المصدوق» أنه رأى فيها بمغارة حرب الملائكة جبريل أو الكائن العلوي الذي أمره بأن يقرأ فقراء، وأفرزت طاعته له أو استجابته للأمر افتتاحية لأخطر ما أنتجته أو ولدته التجربة وعليه بصفة رئيسة تمحورت الديانة التي أسسها محمد، فإذا عد هو من مؤسسي الديانات الكبرى مثل إبراهيم وموسى وعيسى وكوفنفوشيوس وماي وبودا فإن الكتاب الذي بدأ به سورة «اقرأ» يعد من أعظم الكتب التي خلفها المؤسرون الأكابر والبطارقة الأمائل المذكورون.

«رؤيا» مغارة حرب اعتبرتها سيدة نسون قريش إعلاناً على نجاح التجربة بدرجة امتياز وأنه قد آن لها الأول أن تهدأ بالاً وتستقر نفسهاً وتستريح خاطراً وتتأكد أنه القادر أو المنتظر أو المأمول من «العرب» وقد غدا حقيقة بعد أن ظل سنوات حلمًا وطيفاً.

• • •

أما أن ما حدث في المغارة مع ملوك الرب أو جبريل أو الشخص أو الكائن العلوي فهو مجرد «رؤيا» فهذه حقيقة مؤكدة جاءت بها المصادر العلواني في سيرة **سيد الناس وديان العرب** ولا شأن لنا بالمعارضين الذين يناؤون دون دليل أو حجة أو بالتجاهل أو لـ«أعناق النصوص أو بالتعليق المضحك أنها وقعت في المنام مرة ثم في اليقظة كأنما الحضرة الإلهية انحصر اهتمامها في مغارة حرب ولديها من الفراغ ما يسمح لها أن تكرر الحدث مرتين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وسوف نقدم الأدلة الدوامغ في الفاصلة القادمة الخاصة بـ«الخلوة» على صحة ما نذهب إليه.

بيد أنها وهي «رؤيا» فقد تحتم علينا هنا أن نعرج عليها ونمسها ولو مسراً رقيقاً. ثم كالعادة نعود إلى سيادة البحث.

• • •

يلزم في البدى أن نورد تعريف «الرؤيا» كما سطره أصحاب كتب المفردات والتعريفات والمعاجم:

١. «الرؤيا ما يرى في المنام وهو فعلٌ»^(١٤٩).
 ٢. «رأيته بعيني رؤية ورأيته رأى العين ورأيته في المنام رؤيا»^(١٥٠).
 ٣. «الرؤيا المشاهدة بالبصر حيث كان أى في الدنيا والآخرة»^(١٥١).
 ٤. «ورؤية العين معايتها للشيء - يقال رؤية العين - ورأى في منامه رؤيا على فعلٍ غير منصرف لألف التأنيث»^(١٥٢).
- في هذه التعريفات نلغى تركيزاً شديداً على أنها «=الرؤيا» مجالها المنام في

حين أن «الرؤيا» مضمارها اليقظة والتها العين أو البصر.

أما الأولى «الرؤيا» فإذاً إن الشخص نائم فإن بصره معطل ومن ثم فإن إدراكتها يتم بالمخيلة وهذه العلة «يرى المعتزلة أن الأحلام أصناف وأوهام»^(١٥٣). والمعزلة هم فرسان العقل في كتائب الفكر الإسلامي.

ويباحث حديث ذهب إلى أوعر مما قرره المعتزلة إذ انكر بحراة فكرية نادرة المثال أن «الرؤيا الصادقة» جزء أو مقدمة أو إرهاص للنبوة لأنها تقع للفاسق والخمير والمدعس وناقص الأهلية فكيف يصح في حكم العقل أن واحداً منهم يحوز على شطر من النبوة لأن الرؤيا الصادقة أو الصالحة في رأى الفكر الإسلامي جزء من ستة وأربعين أو سبعين من النبوة «ولكن هذا الحكم الإسلامي شرعى بحث إذ الرؤيا الصادقة تقع للكافر وكذلك للفاسق أو السكير وغير الطاهر والطفل من المسلمين فتكون صادقة أحياناً ولكنها في هذه الأحوال لا تكون جزءاً من النبوة»^(١٥٤).

أما أن الإسلاميين يرون أنها جزء من النبوة فهذا لا مشاحة فيه. «كانت الرؤيا ستة أشهر ومدة النبوة ثلاثة عشرين سنة فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً.. في رواية أنها جزء من سبعين جزءاً.. لاحظ أن السبعين عشرة أضعاف السبعة أ..هـ. وذكر الحافظ ابن حجر أن أصبح الروايات مطلاقاً رواية ستة وأربعين وليها رواية أنها جزء من سبعين جزءاً.. فعلم أن الرؤيا المذكورة جزء من مطلق النبوة»^(١٥٥).

يبين من هذا الخبر وجود حديث محمدي عنه له روایات عديدة أصحها في تقدير الحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب الفتح أنها جزء من ستة وأربعين فعندما يتصدى الدكتور توفيق الطويل أحد أساتذة الفلسفة في مصر والذى أقام له المجلس الأعلى للثقافة ندوة خاصة وأصدر له كتاباً تذكارياً . نقول عندما يتصدى فينكر اعتبار الرؤيا الصادقة جزءاً من النبوة فإما أنه لم تثبت لديه صحة الحديث أو أنه يرفض أي حديث ينسب إلى «راكب الأлан» إذا تناقض مع العقل لأن «لا ينطق عن الهوى» ومجاهدة المنطق ومخالفة العقل ومنافية الإدراك السليم تدخل جميعها في دائرة النطق بالهوى الذي عصمته الذكر الحكيم منه.

● ● ●

وعند أهل الكتاب نجد أن معنى «الرؤيا» قريب جداً من الذي أمه «قصده» الإسلاميون:

«رؤيا وجمعها رؤى وفيها يرى النبي ما لا يراه غيره من إعلانات الله عن ذاته ويسمع ما لا يسمعه غيره من أقواله بطريقة الإلهام الموصومة . أن الله لا يمكن أن يعرف إلا بإعلان منه وقد سر الله أن يعلن أفكاره سواء في الحلم أو

في منظر «رؤيا» عندما يكون النبي تحت تأثير روح الله لما كان صموئيل صبياً صغيراً أعلنت له كلمة الله في وقت لم تكن رؤيا كثيرة . وقد رأى دانيال النبي رؤى كثيرة وكذلك غيره من الأنبياء.

وفي المستقبل عندما ينسكب الروح القدس سيتبناً بنوهم وبناتهم ويرى شبابهم رؤى سفر الرؤيا في العهد الجديد هو سلسلة رؤى^(١٥١).

ولا غرابة في الأمر فإن النبوة في الإسلام سارت على منوال النبوات اليهودية . المسيحية واتخذت «النسق الديني» وفاصلت «النسق الميثولوجي» الذي سارت عليه نبوءات عرب ما قبل الإسلام.

وإذ إن مسار حركة «النسق الديني» تهبط من أعلى إلى أسفل أو من الله إلى الإنسان فتعين أن تغدو «الرؤيا» إحدى الوسائل المهمة في نقل رسالة الأعلى إلى الأسفل ولذا نجد للرؤى مكاناً فسيحاً لدى أنبياء بنى إسرائيل وسنتائى بمثل أو اثنين .

● ● ●

«يبدو أن فعالية الإنسان هي البنية الجوهرية التي تبلورت حولها طرق التبؤ عند العرب مما يؤكد أن نبوءات عرب ما قبل الإسلام تتبع إلى نبوءات «النسق الميثولوجي» الذي تتأسس فيه النبوة على «مبادرة إنسانية خالصة» يكون «الرد الإلهي» جواباً مباشراً عليها، ولذا كان ضرورياً أن تتفاوض «نبوة الإسلام» مع نبوءات «النسق الميثولوجي» إذ تنتهي «نبوة الإسلام» إلى ما أسميناها نبوءات النسب الدينى الذى تتخذ فيه النبوة مساراً لحركتها يتوجه . على عكس «النسق الميثولوجي». - من الأعلى «الله» إلى الأسفل «الإنسان» أو بعبارة أخرى تتأسس فيها النبوات على مبادرة «إلهية خالصة» دون طلب مباشر من الإنسان^(١٥٧).

لم يقدم صاحب كتاب النبوة تعليلاً لسياسة النبوة العربية في مجرى النبوة اليهودية المسيحية بل أكتفى بالتوصيف ولعله وقف حائراً ينش عن السبب الخبيء الكامن وراء مفاصلة النبوة العربية نبوات عرب ما قبل الإسلام^(١٥٨) ييد أتنا على ثقة أنه بعد أن يقرأ مؤلفنا هذا سيعثر عليه وربما يضيفه إلى مصنفه إذا قرر أن يطبعه مرة أخرى .

● ● ●

من بين الرؤى التي رأها «الأكرم» آنذاك والتي لها دلالتها العميقه وهي في ذات الوقت تعارض على فهم الشرح التي سنطرحها بعد قليل: رؤيا شق بطنه . «عن ابن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزام قال: كان من بدء أمر رسول الله ﷺ أنه رأى في المنام فشق ذلك عليه فذكر ذلك لصاحبه خديجة رضي الله عنها بنت خويلد فقالت: أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً قال فذكر لها أنه رأى بطنه أخرج فطهر وغسل ثم أعيد كما كان. قالت: هذا خير فأبشر .

آخرجه الدولابي»(١٥٩).

هذا المصدر من علوم القرآن من أمهات كتب التفسير.

وإذ أخبرنا القمي النيسابوري صاحب الغرائب أن الشق حدث للبطن فإن السيوطي في «الزهر» جاءنا بموضع مغایر وهو القلب وأنه غسل من ماء زمزم البئر المقدسة التي حضرها جده عبدالمطلب والتي كاد أبوه «عبدالله» أن يدفع حياته ثمناً لها وفأه لذر الجد وليس هذا فحسب بل أضاف: نفعه الخاتم الذي يوثق أنه القادر المنتظر وأنه مسك ختامهم.

قال الحافظ ابن حجر وهو أثبت من القولين الأولين: وفي حديث عائشة

عند الطیالسی وابن أبيأسامة وأبینعمیم فی الدلائل:

أن جبريل و咪کائیل لما نزل إلیه عندبعث هبط جبريل فأصلقانی بحلوة الفقا ثم شق على قلبي فاستخرجه ثم غسله في طشت من ذهب بما زمزم ثم أعاده مكانه ثم ألقاني وختم في ظهرى حتى وجدت مس الخاتم في قلبي وقال: اقرأ»(١٦٠).

وروى الزهرى عن عروة عن عائشة بنت التيمى ابن أبي قحافة ومن وجهة أخرى رواها كل من البيهقي وصاحب الحلية أبو نعيم عن عروة أيضاً أى أن الحديث راوية فرد هو عروة إنما بطريقين نقلها إلىنا أعلام في ميدان الحديث المحمدى وقد جمعه السيوطى وأورده على الوجه التالي:

ثم خرج البيهقى وأبو نعيم من وجه آخر عن عروة بن الزبير نحو هذه القصة وفى أولها بعد فشق عليه ورأى أنه بينما هو فى مكة أتى إلى سقف بيته شبحة «عوداً» حتى إذا نزع أدخل فيه سلم من فضة نزل إلیه رجلان قال رسول الله ﷺ: فأردت أن أستغيث فمنعت الكلام فقعد أحدهما إلى رأسى والآخر إلى جنبى فأدخل أحدهما يده فى جنبى فتنزع ضلعين منه فأدخل يده فى جوفى وأنا أجد بردها فأخذ قلبي فوضعه على كفة فقال لصاحبه: نعم القلب قلب رجل صالح ثم أدخل القلب مكانه ورد الضلعين ثم ارتفعا ورفعا سلمهما فاستيقظت فإذا السقف مكانه هو فذكرها لخديجة فقالت: إن الله لن يفعل بك إلا خيراً.. ثم إن جبريل فجر عيناً من ماء فتوضاً ومحمد ﷺ بنظر إليه فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين ثم نضج فرجه وسجد سجدين مواجهة البيت ففعل محمد كما رأى جبريل يفعل»(١٦١).

وأخرجه أبو نعيم من وجه ثالث عن الزهرى عن عروة عن عائشة.

وفي الثقافة التي هيمنت أيام «صاحب النعلين» يستقر العلم والفكر والحفظ والفقه في القلب أو الصدر ومن ثم نقرأ في الذكر الحكيم: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكْثَرَهُ أَن يَفْقَهُوهُ»(١٦٢).

وعن الصدر: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ»(١٦٣).

هذه الرؤيا المعقبة أوردناها بأكثـر من رواية كـيـما تـغـدو المنطلق الذى نـبدأ منه تعليـل حدوث «الرؤـيا» أو «الرؤـى» بالـجـمـع لـسـيـد ولـد عـدنـان، وهذا يـسـتـلزم لـفـتـةـ خـاطـفـةـ إـلـىـ الـخـلـفـ وـهـىـ أـنـ التـجـرـيـةـ بـدـأـتـ بـالـمـشـىـ فـيـ الـأـسـوـاقـ ثـمـ بـالـمـارـسـةـ بـسـائـرـ ضـرـوبـهـاـ مـنـ قـرـاءـةـ عـلـيـهـ وـتـحـفيـظـ وـشـرـحـ وـتـفـسـيرـ..ـ إـلـخـ، جـمـاعـ كـلـهـ شـكـلـ شـحـنةـ بـالـغـةـ الـكـثـافـةـ فـيـ نـفـسـهـ وـطـقـقـ بـعـدـ أـنـ أـدـرـكـ غـاـيـةـ الـمـسـعـىـ وـهـدـفـ التـجـرـيـةـ وـقـصـدـ الـمـجـهـودـ، وـلـسـنـاـ بـحـاجـةـ أـنـ نـذـكـرـ أـنـ عـبـرـىـ فـطـنـ لـمـاحـ جـعـلـتـهـ يـتـوقـ أـنـ يـصـبـحـ وـاحـدـاـ مـنـ أـوـلـئـكـ الـرـجـالـ الـذـينـ أـحـاطـ خـبـراـ بـحـكـاـيـاتـهـمـ.

وـإـذـ إنـ الـأـمـرـ يـحـتـاجـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ الـمـلـأـ الـأـعـلـىـ وـالـكـائـنـ الـأـسـمـىـ فـلـابـدـ وـبـطـرـيقـ الـحـتـمـ وـالـلـزـومـ أـنـ يـصـيـرـ الـجـسـمـ حـصـرـاـ وـتـحـديـداـ الـأـعـضـاءـ أـوـ الـأـوـعـيـةـ الـتـىـ تـتـلـقـىـ فـيـوـضـانـهـ إـشـرـاقـاتـهـ مـهـيـأـةـ لـاستـقـبـالـهـاـ فـمـنـ الـضـرـورـىـ غـسـلـهـاـ وـتـطـهـيرـهـاـ وـحـبـداـ لـوـتـمـ بـمـاءـ مـقـدـسـ.ـ هـذـهـ الـطـلـبـةـ الـعـارـمـةـ الـتـىـ مـلـأـتـ عـلـيـهـ أـقـطـارـ نـفـسـهـ وـحـنـايـاـ عـقـلـهـ وـجـوـانـبـ قـلـبـهـ وـبـوـاطـنـ وـجـدـانـهـ يـقـولـ لـنـاـ عـلـمـ النـفـسـ إـنـهـ تـتـحـولـ إـلـىـ حـلـمـ أـىـ رـؤـياـ.

«تـسـمـىـ نـظـرـيـةـ فـرـويـدـ بـنـظـرـيـةـ «الـحـافـزـ النـفـسـيـ»ـ وـهـىـ بـهـذـاـ الـاعـتـبارـ تـقـابـلـ نـظـرـيـةـ «الـحـافـزـ النـفـسـيـ»ـ الـتـىـ الـمـحـنـاـ إـلـيـهـاـ مـنـ قـبـلـ وـهـوـ يـحـصـرـ نـظـرـيـتـهـ بـكـلـمـتـيـنـ حـيـثـ يـقـولـ بـأـنـ الـحـلـمـ لـيـسـ سـوـىـ «تـحـقـيقـ رـغـبـةـ»ـ..ـ جـعـلـ «تـحـقـيقـ الرـغـبـةـ الـأـسـاسـ الـتـىـ تـقـومـ عـلـيـهـاـ الـأـحـلـامـ»ـ.^(١٦٤)

أـمـاـ أـدـلـرـ تـلـمـيـدـ فـرـويـدـ فـيـنـيـضـمـ إـلـىـ أـسـتـاذـهـ فـيـ أـنـ غـرـضـ الـحـلـمـ الرـئـيـسـىـ هوـ أـنـ يـحـقـقـ النـائـمـ وـهـوـ وـسـنـانـ مـاـ يـشـتـهـيـهـ بـقـوـةـ فـيـ الـيـقـظـةـ بـيـدـ أـنـهـ بـذـاـ يـفـاصـلـ أـدـلـرـ أـسـتـاذـهـ فـيـ الـغـرـضـ «يـعـنـ هـدـفـ التـحـقـيقـ»ـ وـيـذـكـرـ أـنـهـ الـتـعـالـىـ وـالـسـيـطـرـةـ.

«وـيـفـسـرـ أـدـلـرـ الـأـحـلـامـ فـيـ ضـوءـ مـاـ جـاءـ بـهـ مـنـ نـظـرـيـةـ الشـعـورـ بـالـنـقـصـ فـالـأـحـلـامـ فـيـ رـأـيـهـ لـيـسـ سـوـىـ تـحـقـيقـ لـمـاـ كـانـ إـلـيـسـانـ يـشـتـهـيـهـ أـشـاءـ يـقـظـتـهـ مـنـ

الـتـعـالـىـ وـالـسـيـطـرـةـ»ـ.^(١٦٥)

● ● ●

ولـكـنـ ماـ هـوـ دـورـ الـهـنـدـوـزـ وـالـيـعـسـوبـ فـيـ هـذـهـ الـمـرـحلـةـ؟ـ

لاـ نـظـنـ أـنـ الإـجـابـةـ عـلـىـ هـذـاـ السـؤـالـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ فـطـانـةـ كـبـيرـةـ فـهـمـاـ اللـذـانـ يـتـولـيـانـ وـخـاصـةـ خـدـيـجـةـ مـلـازـمـتـهـ إـعـدـادـهـ وـحـفـزـهـ وـدـفـعـهـ وـتـشـوـيفـهـ وـتـشـوـيفـهـ كـيـماـ يـتـشـكـلـ إـلـىـ «ـالـمـنـتـظـرـ»ـ وـ«ـالـمـأـمـولـ»ـ.

● ● ●

ابـنـ خـلـدونـ سـبـقـ فـرـويـدـ وـأـدـلـرـ وـخـطاـ خـطـوـةـ أـوـسـعـ وـهـىـ أـنـ إـلـيـسـانـ الـمـتـشـوـفـ أـوـ الـمـتـمـنـىـ لـيـجـعـ مـوـقـفـهـ سـلـبـاـ حتـىـ تـتـحـقـقـ الرـؤـيـاـ بـلـ قـبـلـ أـنـ يـضـعـ جـنبـهـ عـلـىـ السـرـيرـ لـيـضـطـبـعـ عـلـيـهـ أـنـ يـشـحـنـ بـطـارـيـتـهـ الـنـفـسـيـةـ بـالـفـكـرـةـ الـتـىـ يـحـنـ إـلـيـهـاـ وـيـرجـوـهـاـ وـيـؤـكـدـ اـبـنـ خـلـدونـ أـنـ سـيـرـاهـاـ فـيـ نـعـاسـهـ.

«يقول ابن خلدون: إن الإنسان إذا أعد نفسه قبيل النوم إعداداً نفسياً في سبيل فكرة فإنه سيرى تلك الفكرة في منامه ويستفيد منها... فهو يعتقد أن النفس البشرية إذا تشوّفت إلى شيء قبيل نومها وقع لها في المنام ما كانت متشفوفة إليه»^(١٦٦).

فما بالكم إذا انضم إلى الشخص المتشوف اثنان من اللزقيين به أحدهما يظل معه حتى يأوي إلى فراشه ويستمر في تعبئته حتى يداعب الكري جفنيه الشريفين.

• • •

يتهادى سؤال مهم:

ما أهمية ذيak العمل «الشحن والتعبئة والحفظ... إلخ» بالنسبة لأم هند بالدرجة الأولى ثم للقس في المقام المصلى «التالى»؟^(١٦٧) لأنهما - بما لهما من علم بثقافة أهل الكتاب - فإن «الحميد» سيرى في البداية رؤى تمهدية مثل شق البطن أو القلب أو الصدر ثم تدرج حتى تظهر على شاشة مخيّلته وهو وسنان رؤيا الإعلان أو التدشين.

وكان لما رأيت أنا دانيال الرؤيا وطلبت المعين إذا به شبه إنسان وافق قبالي وسمعت صوت إنسان بين أولادي فنادي وقال: يا جبريل فهم هذا الرجل الرؤيا فجاء إلى حيث وقفت، وقال أما الكيش الذي رأيته ذا القرنين فهو ملك مادى وفارس والتيس العافى ملك اليونان»^(١٦٨).

الإسرائيليون ليسوا هم الذين ابتدعوا تلك الفكرة بل نقشوها أو اقتبسوها كما فعلوا في الكثير من العقائد والعبادات إما من قدماء المصريين أو من الديانات السامية العتيقة وأخصها البابلية والأشورية، وتلك الفكرة بالذات جاءت إليهم من الآخرين فيما نرجحه:

«أما البابليون فقد اعتقدوا أن الإله يكشف عن نفسه في الحلم» معلنًا إرادة السماء وكاشفاً المستقبل».

في هامش الصفحة: ومن هنا اتسم التنبؤ في إطار المدن بطابع شخصي جعله يقوم أساساً على الأحلام . وهكذا التنبؤ مرأة عصره . أو كما قال هيجل عن الفلسفة . وليد عصره»^(١٦٩).

• • •

ويرى د. توفيق الطويل أن المفكرين المسلمين توصلوا إلى فكرة أن الحلم أو الرؤيا تتحقق عندما ينام الشخص وتفكيره مستغرق في موضوع معين وصراه عن استخدام حواسه ففى هذه الحالة تقوى مخيّلته وتشطط في القيام بمهام وظيفتها فتطبع عليها صور ومعانى الموضوع الذى استحوذ عليه وهو يقطان . «وإذا كان المفكرون المسلمون قد أنكروا على أرساطه رفضه للرؤيا وصدقه

فإنهم قد تأثروا برأيه في المرئيات الغيبية بوصفها أحلاماً من صنع المخيلة وهذا ما أخذه عنه الكندي الذي رأى أن المخيلة قوة تتوسط القوة الحساسة والقوة الناطقة أداة تحصل بها المرئيات من غير مادة أى في غيبة موضوعاتها عن الحواس لأن المخيلة على عكس الحواس تقوى على تركيب الصور وبخاصة عندما تنشط أثناء النوم ودليل ذلك أن الإنسان كلما استوعبه التفكير في موضوع ما وصرفه عن استخدام حواسه قويت مخيلته وصارت تنشط في أداء وظيفتها وما النفس إلا طابع الصور التي تركبها المخيلة ومحل معانى الأشياء «معقوله أو محسوسة»^(١٦٩).

● ● ●

تأثر محمد تأثراً عميقاً إذن بما قرئ عليه بمعرفة الطاهرة من الإصلاحات والأبعاض التي ترجمها ورقة إلى اللغة العربية وما حصله قبلها وهو يحوب الأسواق من قصص أنبياء بنى إسرائيل والرائين جمع «راء» «من روى : جمع رؤيا بالألف» وما يسمعونه من أصوات مثل أشعيا وعاموس : «والرائي : كان النبي قديماً يقال له «الرائي» لأن الله أعطاه أن يرى الحوادث مقدماً قبل أن تحدث وهذا ما قيل أيضاً في إش ٢٠:١٠ أن الإسرائليين المتمردين قالوا للرائين : لا تروا ولم يروا شيئاً»^(١٧٠).

«اسمعي أيتها السموات وأصفي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم»^(١٧١).
«اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة»^(١٧٢).

«فهنا سمع أشعيا صوتاً اعتقد أنه كلام الرب فنقله بدوره إلى بنى إسرائيل . ومثله عاموس «فقال إن الرب يز مجر من صهيون ويعطى صوته من أورشليم...»^(١٧٣).

«اسمعوا هذا القول الذي تكلم به الرب عليكم يا بنى إسرائيل على كل القبيلة التي أصعدتها من أرض مصر... إلخ»^(١٧٤).
وجدير بالذكر أن هذا العاموس راعي غنم وهو يفتخر بعمالاته هذه «فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لي الرب اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل»^(١٧٥).
ونكتفى لأننا لسنا بصدده بحث فى علم الأديان المقارن.

● ● ●

هذه القصص المعجبة التي سمعها «المصطفى» سواء في أسواق مكة أو التجمعات الموسمية أو في جلسات القراءة في لياليها الطويلة أو في حلقات المدارسة والمراجعة على يدي اليهود، تركت في نفسه ووجوده أحاديد عميقة وأصبح على اقتطاع بأن «القادمين» و«المنتظرین» بفتح الظاء و«المأمول مجئهم» لابد أن يسمعوا أصواتاً يقولون عنها آتية من الملأ الأعلى.

وإذ استمر جميعه بلا كلل ومن غير ملل ودون نصب سنين عدداً وأعواماً طوالاً تسرت الفكرة إلى الأعمق وتغلغلت في الغور وهو ما سوف يحدث مع الخطوة القادمة ونعني بالفكرة: الرؤى التي بدأت بأصوات يسمعها تماماً مثلما حدث مع أشعيا وعاموس وغيرهما من بنى إسرائيل. فيتحقق للمنتظر العربي أن يؤكد لن يتحلقو حوله أنه يسمع أصواتاً ويرى أصواتاً معها في بعض الأوقات، إنما لم يحل زمان البوح بمصدرها أو لأن «أحمد» أمين فلم ينسبها لشخص معين أو جهة مخصوصة.

- «أخرج أحمد وابن سعد وأبو نعيم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لخديجة: إني أسمع صوتاً وأرى ضوءاً، فذكرت ذلك لورقة قال: هذا ناموس موسى فإن يبعث وأنا حي فسأعزره وأنصره وأعينه»^(١٧٦).

هذا المقطع بمقدورنا أن نسميه «فترة الصوت والضوء» فقد نقل إلينا ابن سعد في كبرى طبقاته أخبارها من روايتين الأولى عن هشام بن عمروة بن الزبير بن العوام أى ابن أخت التيمية عائشة بنت ابن أبي قحافة وهي من أكثر زوجاته رواية لأحاديثه.

والأخرى عن طريق حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن العباس^(١٧٧). «عن هشام بن عمروة أن رسول الله ﷺ قال: يا خديجة إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً فقالت: إن الله لا يفعل بذلك يا ابن عبد الله إنك تصدق الحديث...»

عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: يا خديجة إني أسمع صوتاً وأرى ضوءاً وإنني أخشى أن يكون بي جن.

قالت: لم يكن الله لي فعل بذلك يا ابن عبد الله. ثم أتت ورقة فذكرت له ذلك فقال إن يك صادقاً فهذا ناموس موسى فإن يبعث وأنا حي فسأعزره وأنصره وأؤمن به»^(١٧٨).

● ● ●

وفي عجز الخبر أن الطاهرة بعدها سمعت من المكي رؤيته للصوت والضوء وأنه خاف على نفسه وظن أنه ألم به جن أو سيتحول إلى كاهن من كهان الوثنية لاذ بالطاهرة الملحة الوحيدة لها فهدأت روعه وطمأنته أن ربه لن يسمع بأى شر يمسه لأنه يصل الرحم ويصدق الحديث.. ثم اندفعت إلى اليусوب تستخلص منه المشورة.

«زملته فانجذب عنه كل شيء ودعنته فثار إليه هداءً كى يسمعها تقول له: والله ما يخزيك الله أبداً فأخذ بيثها هوا جسسه الباقية في نفسه ويقول: إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً وإنني أخشى أن أكون كاهناً فنفت عنه هذا الخوف. قالت: كلا يا ابن عم لا تقل ذلك.. إن الله لا يفعل ذلك أبداً إنك لتصل... إلخ»^(١٧٩).

● ● ●

طلع علينا صاحب «السيرة الحلبية» بأثر فيه إشكال ملخصه أن «الحبيب» ما انفك يرى الضوء ويسمع الصوت وهو يقطن وليس نائماً، مما يشي بأن غيره من الآثار يفهم منه أنها يتمان في النوم ويرجوعنا إلى الأخبار التي مسحت هذا المقطع من مقاطع التجربة الهائلة لم نجد ما يفهم منه على الإطلاق حدوثهما وهو وستان.

وفي أثر صاحب السيرة الحلبية لفتة تقدم دليلاً على تمكن الطاهرة من الثقافة الدينية بقدر لم يتح لكثير من رجال زمنها فهي ربطت بين حسن الخلق وبين الانعتاق من أسر الشيطان والواقع في حيائه وشباكه.

وقد جاء هذا المعنى فيما بعد في القرآن العظيم: «وَمَنْ يَتَّبِعُ خُطُواتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»^(١٨٠)، والعكس صحيح أي من لا يتبع الشيطان لا يقارب الفحشاء ولا يقترب من المنكر وهو عين ما قالته الطاهرة قبل سنوات: «إن خلقك كريم فلا يكون للشيطان عليك سبيل».

كما أنه يقطع بأن دروس أم هند انحرفت في ذاكرة «سيد ولد آدم» وأنها ظلت كامنة فيها فإذا أتيحت لها فرصة مررت من مخبئها.

- « جاء عن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إذا خلوت سمعت نداءً أن «يا محمد» وفي رواية: أرى نوراً أى يقطة لا مناماً وأسمع صوتاً وقد حسبت أن يكون والله لهذا أمر. فقالت: كلا يا بن عم ما كان الله ليجعل بك فوالله إنك تؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث، وفي رواية أن خلقك لكريم أى فلا يكون للشيطان عليك سبيل»^(١٨١).

● ● ●

ويؤكد صاحب السيرة الشامية أيضاً ثقافة سيدة نسون قريش بالربط بين الخلق واستحاله قرب الشيطان أى أن من يجيء مسلكه حميداً وشمائله طيبة وأفعاله زكية لا يستطيع الشيطان أن يقترب منه أو يمسه بسوء جن أو غيره.

«روى البيهقي عن الزهرى قال: بلغنا أن أول ما رأى رسول الله ﷺ أن الله أراه فشق ذلك عليه ذكرها لخديجة فقالت: أبشر إن الله لا يصنع بك إلا خيراً، وروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: يا خديجة إن أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً. قالت: إن الله تعالى لا يفعل ذلك بك، إنك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم»^(١٨٢).

أورد باحث معاصر أن الضوء يأتي «المصطفى» في نومه ولم يكشف لنا عن مصدره وسبق أن رقمنا ملاحظات على كتاباته وكيف أنها اتسمت بالخفة وعدم التثبت كما يفعل كثير من أنداده من الكتبة المحدثين وخلط هنا بين «النور الباهر» والرؤى «جمع رؤيا» التي أخذ «راكب الأثان» يراها كفلق الصبح قبل رؤياه «المنامية» في المغارة وهو ما جاء على لسان التيمية بنت ابن أبي قحافة أم

عبدالله في الحديث الذي رواه البخاري في «باب بدء الوحي» وهو خلط غير محمود من جانبه أنتج للبس لديه في شأن رؤية الضوء وسماع الصوت وهل هما في اليقظة أم في المنام.

ولم يكتف الخريوطلى بذلك بل حدد مدة الصوت والضوء بأنها عشرة شهور تقدمت المنام الذي رأه «صاحب المراوة» في مغارة حرى والخاص بسورة العلق ولا ندرى كيف توصل الكاتب إلى هذا التحديد الدقيق وما هي أسانيده فيه، إنما ثمة لمحات سطرها دون قصد. تحسب له لا عليه. هي أن كل المراحل: سماع الصوت ورؤيا الضوء ثم الرؤى التي تتحقق كأنها انفجار الصباح شكلت إرهاصات لرؤيا مغارة حرى التي رآها وهو مستغرق في نوم عميق وهى التي اهتزت فرحاً السيدة خديجة غب علمها بخبرها لأنه دشنست نجاح التجربة.

أضاف الخريوطلى أن جماعها خطوات تهيئة له يبيّد أنه عزاهما إلى ربه وسيق أن ألمعنا أن التجربة يمارسها بشر من الناس «بني آدم» والرب هو الذي يرعاها ويبارك خطها ويكلاها بعنایته ويحفظها برعايته:

«طيلة العشرة شهور التي تقدمت الوحي كان يتخلل نومي نور باهر يشبه فلق الصبح وكانت حينما أبتعد عن الديار أسمع أصواتاً تناولى: يا محمد يا محمد فكنت أنظر يمنة ويسرة ومن خلف فلا أرى إلا شجيرات وصخوراً فيأخذنى القلق والحيرة».

إننى ما أبغضت شيئاً بغضى للكهان والسحراء وقد خشيت أن أكون قد أصبحت على غير علم مني واحداً منهم فيكون الذى ينادينى خفياً مستوراً تابعاً من الجن الذين يتحدثون إلى السحراء والكهان بخبر السماء ويساعدونهم على القيام بمهنتهم الأثمة...

أسر الرسول ﷺ بمخاوفه إلى خديجة وأظهرها على ما يرى وأنه يخاف عبث الجن به فطمأناته الزوجة المخلصة الوفية وجعلت تحدثه بأنه الأمين وأن الجن لا يمكن أن يقترب. وإن لم يدر بخاطرها أن الله عز وجل يهئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم وإلى النبأ العظيم يوم الوحي الأول ويهيءه إلى البعث والرسالة^(١٨٢).

● ● ●

أما ابن عباس ونحن نقله عن ابن الجوزى فيؤكد أن رؤية الضوء والتور استمرت سبع سنين ونميل بدورنا إلى صحته إذ في الأعوام السبعة استمرت حلقات الدرس والتحفيظ والمراجعة بالإضافة إلى الاختلاط بأهل الكتاب وغيرهم من أصحاب العقائد الأخرى وتخزين جماعة من الذاكرة العبرية لتخرجه بياناً رائعاً وقت اللزوم.

و قبل أن نغادر هذه النقطة نلفت الانتباه إلى أن تحديد المدة بسبعة أعوام

يعود لقدسية هذا الرقم في الديانتين الساميتين نقشًا عن الديانات السامية القديمة.

● ● ●

أما الإمام الخازن فهو يختار لها عامين قبل منام المغارة وثلاثةً بعدها قبل أن يصعد بدعوته أي أن مجتمعها من الأعوام خمسة.
ونحن لا يعنينا التحديد الدقيق للمنامة إنما الذي يهمنا وضعه تحت باصرة القارئ الفطن أن مرحلة الضوء والصوت مقدمة لمرحلة الرؤى «في جمع رؤيا»
وهما معاً تقليد ديني راسخ لدى بنى إسرائيل وأن «الأمين المأمون» سمع بهما من أهل الكتاب الذين مأسفهم في دكاكين مكة، وفي الأسواق الخارجية الموسمية ثم تعلم دقائقهما في حلقات الدرس والمراجعة وأن إيحاءها كلها كثيف حتى أخبر الهندوز أنه أصبح صاحب أصوات وأصوات «هنا حتم لازم نذكر القارئ بأشعيا وعاموس» ثم لا يمضى إلا زمن يسير فيبلغها أنه ترقى إلى أصحاب الرؤى المدهشة مثل دانيال كما سنسطر بعد قليل:

«ويروى ابن الجوزي عن ابن عباس قال: أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة سنة سبعاً يرى الضوء والنور ويسمع الصوت وثمانين سنين يوحى إليه.
وقال الخازن: وهذا إن صح فيحمل على سنتين قبل النبوة فيما كان رسول الله ﷺ يراه من تباشير النبوة وثلاث سنين بعد النبوة قبل إظهار الدعوة وعشرين سنين معلنًا بالدعوى بمكة»^(١٨٤).

● ● ●

يتقى المفكرون المسلمين «القادمي» في اعتقادهم في صدق الرؤى، وأنها تتراءى للقادم أو المنتظر أو المأمول وإن اختلف في تفسيرها أهل الشريعة وأهل الحقيقة والفلسفه ونحن لسنا بصدد استقصاء اختلافاتهم بل الذي يهمنا أنهم على اجتماع بضرورة ترثيئها للقادمين:

«ولكن الأغلبية من المفكرين المسلمين هم الذين يعتقدون في صدق الرؤى وعلاقتها بالوحى والنبوة والولاية، سواء أكانوا رجال شرع أم متصرفين أو حتى فلاسفة، وعلى رأسهم الكندي الذى فسر الرؤيا الصادقة بصفاء النفس وبعدها عن الأغراض التى تقصد قبول قواها، وقد شاع هذا التعبير بين الصوفية ورجال الشرع بصفة خاصة ويتفق كل من الفارابى وابن سينا وابن رشد فى الرأى القائل بأن الوحى والرؤيا يحدثان عند اتصال النفوس الناطقة بعالم علوى فوق عالمنا فيحدث لها إشارات على حقائق الكون المنبثة فى العالم العلوى، وهذا الاتصال ممكن عن طريق المخلية التى تقوى فى النوم إلى درجة تتمكن فيها عند بعض ذوى الموهاب الروحية من الاتصال بالعقل الفعال الحالى من المادة فتأخذ عنه ما يفيض عليها من عالم الغيب»^(١٨٥).

من المعلوم أن مغارة حرى التي تقع في قلعة جبل حراء تتسم بالقداسة التي تستمدّها منها إذ هو واحد من أعلى الحرم.

والحجّة طرحتها فيما سلف حينما رقمنا أن الجد شيبة الحمد أو عبد المطلب ومن هذا حذوه طفقو يتحنثون في مغارته في شهر رمضان من كل عام ولو لا قداسته لما اختاروه لتحنثهم.

ويخبرنا علماء الأنثروبولوجيا الدينية والاجتماعيّة الدينى أن النوم في الأماكن المقدسة أو التي تحظى بقدر من التقديس ينفع النائم فيما روى لها صلة وتقى بالمسائل التيولوجيّة ونذكر القارئ بواقعيتين:

الأولى: رؤيا الجد شيبة الحمد أو عبد المطلب بحفر بئر زمزم وهو نائم في رحاب الكعبة وأنها تكررت.

الآخرى: رؤيا الإسراء والمعراج التي سوف يراها «سيد الناس» ففي إحدى رواياتها أنها أتته وهو نائم بجوار الكعبة.

وهذه الرؤيا الفاذة هي التي ألمّت عدداً من المبدعين منهم أبو العلاء المعري في «رسالة الغفران» والشاعر الإيطالي العظيم دانتي اليجيرى في «الكوميديا الإلهية»^(١٨٦).

ومن جانب آخر نتعرف فيها على تأييد ما ذهب إليه عدد من علماء النفس والفلسفة أن الحلم تعويض للننسان عمّا لاقاه من إخفاق في بعض أيام حياته إذ إن «راكب البغلة» رأى الإسراء والمعراج بعد وفاة الحبيبة الطاهرة الأم الرؤوم وموت الكافل والحامى والعم عبد مناف أو أبي طالب وعقب أن صده طواغيت ثقيف بخلافة وبداوة عندما نزح إلى الطائف يدعوهم إلى ديانة الإسلام التي بدأ في تأسيسها في بكة.

ونضيف من جانبنا أن من بين أهداف تلك السفرة علاوة أيضاً: مقابلة الراهب عداس آخر الأحياء من أعضاء الحلقة الخارجية واستشارته أو الاتفاق معه على ما يتّخذ من خطوات بعد وفاة خديجة^(١٨٧).

• • •

النوم في حمى الأماكن المقدسة لجلب رؤى لها نكهة ثيولوجية أو للتواصل مع الملائكة أو لتحسّس اتجاهات السماء أو معرفة الأمور المغيبة تقليد قديم اهتدت إليه العقائد والأديان القديمة في العديد من بلاد العمومرة.

«وبحاله عن حكام اسبارطة أنهم كانوا يعتمدون النوم في معبد معين لكي يتلقوا أشلاء نومهم فيه أنبياء الغيب»^(١٨٨).

ومما يجعل الرؤى بالإضافة إلى ما ألمّنا إليه إقدام النائم على الصيام أو على الأقل التخفف من الطعام والتجافي عن الأكلات الشهية والاقتصار على الوجبات الخشنة الجشية:

«في تلك الأيام أنا دانيال كنت نائماً ثلاثة أسابيع أيام لم آكل طعاماً شهياً ولم يدخل في فمي لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع أيام وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول كنت على جانب النهر العظيم هو دجلة رفعت عيني ونظرت فإذا ب الرجل... إلخ»^(١٨٩).

وهذا يكشف لنا الغطاء عن العلة في اختيار سيدة قريش «الكعك بالزيت» وهو كما أورد أحد الشرح: طعام الرهبان ليغدو طعام «لابس الشملة» إبان دفعه للخلوة في المغارة وهي الخطوة التالية لحقيقة الرؤى بما فيها فاصلة «الصوت والضوء» أي مقدمها وإذا إن الشيء بالشيء يذكر وهو ما يطلق عليه تداعي الأفكار فقد تعلمت ألا أمر على واقعة أو خبر أو أثر أو حدث في السيرة المحمدية المعطار مروراً عابراً مهما بلغ حجمه.

فالقارئ العادى من المؤكد أنه يقرأ خبر إمداد الطاهرة لسيد بنى هاشم بالكعك الملتقط بالزيت دون أن يشد انتباهه أو يلفت نظره أو يثير بصيرته فلا يتساءل لماذا اقتصرت سيدة نساء الدنيا على هذا الصنف الفقير من الإدام^(١٩٠).

مع أنه من الميسور عليها أن توفر له الأكل الدسم.

عندما وقعت على هذه الجزئية البالغة الصغر أخذت أفكر فيها عدة مرات خاصة وقد ساعدنى الشارح الذى وصفه بأنه «طعام الرهبان» ففطنت إلى أن الذى يملأ معدته من الطعام المرىء الشهى اللذيد لا تتراءى له فى نومته الرؤى المنشودة فى هذا المقام وهو ذات ما أدركته الطاهرة من ثقافتها الدينية ومن قراءة سير البطارقة والترااث اليهودى - المسيحى.

* * *

الفرقة الوحيدة فى سماء الفكر الإسلامى التى ذهبت إلى أن الأحلام ما هي إلا أحضاث وأوهام: هي المعتزلة^(١٩١).

ويرى بعض المتصوفة أن النوم يقطنة واليقظة نوم، فالنفس البشرية مشغولة أثناء اليقظة بصور المحسوسات وهموم البدن وهى عندهن نائمة لا تفهم سوى ما يأتي به الحس من أوهام وأباطيل أما فى النوم فينجلى عن بصرها الغشاء وتحلق فى سماء طليقة لا يشغلها شاغل^(١٩٢).

* * *

أما الغزالى فله وجهة نظر على قدر لا يأس به من الجرأة الفكرية فهو يذهب إلى أن الناس أنبياء بدرجات متفاوتة ونرجح أنه أدلى بهذا الرأى وهو فى الحقبة العقلانية «إن صح هذا التعبير» من حياته وقبل أن «ينجذب» فهو يعتقد الغزالى أن ما يبصره الإنسان أثناء نومه أولى بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس وبعد الغزالى الرؤيا طوراً ضعيفاً من أطوار النبوة ومعنى هذا أن

الناس جمِيعاً أُنبِياء على درجة متفاوتة وكلما صفت النفس وتحلَّصت من أدranها الدنيوية انكشف بين يديها عالم الغيب وارتقت في سلم النبوة والوحى^(١٩٣). أو لعله «=الغزالى» من شدة «انجدابه» صرَّح بهذا المعتقد إذ من المعلوم أن فلاسفة التصوف أو المتصوفة المتكلمين يذهبون إلى أن النبوة درجة سامية من صفاء النفس والقدرة على التغلب على شهوات البدن وكدراته وأوهام الحس وأباطيله وبذلك كما اعتقاد الغزالى أنه كلما ترقى الإنسان في هذا السبيل ارتقى صدراً وحصل قدرأً من النبوة.

وعموماً ففي أي حقبة فاه الغزالى بهذا الرأى فقد حالفته الشجاعة الفكرية فيه وربما شكل وأضرابه الدوافع التي وزَّت مناؤيه إلى حرق كتبه.

• • •

«وذهب البعض من المسلمين إلى القول بأن النبي نفسه تلقى الوحي في أول أمره عن طريق الرؤيا الصادقة ثم تدرج بعد ذلك في مراتب النبوة»^(١٩٤). الذي لا شك فيه أن هذ الكاتب ثقافته الإسلامية وشلة وهذا عيب يسم الكثير من الكتبة غير الإسلاميين بل إنه يلطاً «يلصق» بأغلبية من يتناولون الإسلاميات خاصة من ركبوا الموجة الإسلامية مؤخراً كرامة للبترودولار، إذ إن أي مبتدئ في فضاء العلوم الإسلامية يعلم أن **صلحب زرمز** أول طريقه الرؤى:

«عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.. ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحمَّل فيه والتَّعبُ الليلي أولات العدد»^(١٩٥).

وسبق أن أوردنا أنه جاء في صحيح البخاري في السيرة الحلبية:
 «عن عائشة رضي الله عنها أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله تعالى كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصالحة... إلا جاءت كفلك وفي رواية كفلك الصبح أي ضيء وإنارتة.. فلا يشك فيها أحد كما لا يشك أحد في وضوح ضوء الصبح ونوره.

وفي لفظ فكان لا يرى شيئاً في المنام إلا كان أي وجد في اليقظة كما رأى فالمراد بالصالحة الصادقة»^(١٩٦).

ولاحظ حرص مؤلفها أو مصنفها وهو على بن برهان الدين الحلبي على شرح أو توضيح حقيقة الرؤى التي طفق «الصفح» يراها وهو وسنان فهمي صالحة وصادقة وهما بمعنى، وهو لا يشك فيها مثل ما أنه لا تخالج عاقلاً ذا بصيرة ذرة من ريب في وضوح ضوء الصبح ونوره، وأن ما يراه محمد وهو نعسان يراه وهو صاح.

وتعليقه ما أسلفنا: مضاعفة الشحن وشدة الحفز وقوة الوز من الطاهرة والقس وعمق الشوق وعرامة التوق وكثرة التشوف من قبله فإذا كل ما يراه ولو في سنة خاطفة أو نفحة سريعة أو نومة عجل يراه وهو يقطان. مما يؤسف له أن كتب سيرته التي هي أذكى ريحًا من مسك التبت لم تضرب مثلاً عن تلك الرؤى المدهشة التي تحققت في صحوه ما خلا رؤيا شق البطن أو الصدر.

● ● ●

لعل ما يلفت الانتباه ويتعين اللبث عنده قليلاً وعدم المرور عليه سريعاً هو أن تلك الرؤى شديدة الوطأة على «المبتهل» يقول ابن كثير: «وكان أول شيء اختصه من النبوة والكرامة رؤيا كان يراها فقص ذلك على زوجه خديجة فقالت أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً.. فلما انتهى إلى زوجه خديجة أبصرت ما بوجهه من تغير لونه فأفزعها ذلك فقامت إليه فلما دنت منه جعلت تماسح وجهه وتقول: لبعض ما كنت ترى وتسمع قبل اليوم فقال: يا خديجة أرأيت الذي كنت أرى في المنام والصوت الذي كنت أسمع في اليقظة وأهال منه... إلخ»^(١٩٧).

إن هذا الأثر غنى بالمعطيات التي تبلغ درجة مهمة من الخطر منها:

(أ) أنه دأب على قص رؤاه على الطاهرة ولا غرابة في ذلك فهي الأم الرؤوم من جهة والهندوز الضروب من أخرى.

(ب) أن أم هند لم تستغريها أو تستهولها أو تتذكرها وكيف تفعل وهي التي شحت بطارية الخلية التي تظهر على شاشتها تلك الرؤى.

(ج) أنه يهال من الصوت الذي يسمعه وهو يقطان.

(د) يتغير لونه من الرؤى ويظهر جلياً على وجهه.

(هـ) أنه فور ما يحدث له شيء منه لا يجد أمامه إلا حضن بعله الحبيبة خديجة فيرتمي فيه ويلجاً إليه ويجد فيهطمأنينة، إذن عبارة «دثرني يا خديجة» التي صاح بها إثر الرؤيا التي عرضت له في مفارقة حرى وانتهت بتقرئته الشطر الأول من سورة العلق ليست الأولى من نوعها.

(و) إن سيدة نسون قريش فور ما يلوذ بصدرها الحنون تقوم بدور الأم الرؤوم فتهده وتهننه حتى يفارقه الروح ويذهب عنه الخوف وينادره الهمم.

(ز) فرأتنا في الخبر موضع التحليل أن خديجة أفزعها ما أبصرت بوجهه من تغير في لونه وحق لها أن تفعل لأنها تخشى أن يؤثر عليه فلا يمضى في التجربة قدماً وبذا يذهب ما أنفقته من مال وجهه... إلخ بدأ.

(حـ) أنها لم تكتف بالطمأننة والتفرير والتسكن بل تمده بالبشرى وتقدم سندها حتى يزداد افتئاماً أنه المأمول والمنتظر والمرقب.

(ط) ولعل مما ضاعف فزع سيدة نساء الدنيا من تغير لونه أن التجربة آنذاك تمر بالمرحلة الأخيرة وقاربت النهاية وشارفت الوصول إلى هدفها المنشود.

● ● ●

أما بقية الأثر فيسيطرها ابن كثير على الوجه الآتي:

«فإنه جبريل استعلن لي وكلمني واقرأني كلاماً فزعت منه ثم عاد إلى فأخبرنى أنى نبى هذه الأمة فأقبلت راجعاً.. فقالت خديجة: أبشر فوالله لقد كنت أعلم أن الله لن يفعل بك إلا خيراً وأشهد أنك نبى هذه الأمة الذى تتظره اليهود. قد أخبرنى به ناصح غلامي وبعيرى الراهب وأمرنى أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»^(١٩٨).

فيه أخبر «العزيز» أنه فزع من الكلام الذى أقرأه إياه ولللاحظ أنه سماه كلاماً ولم يسمه وحياً أو قرآنًا «هناك فرق بينهما أ.هـ» لأن ثقافته الدينية حتى ذلك الحين لم تترسخ بعد.

وفيه «=الخبر» بشرته سيدة نساء قريش كلها وأقسمت وهذا له دلالته العميقية إذ يشي بوثيقة الاعتقاد لديها بأنه «المأمول والمنتظر» لا مشاحة، ثم شهدت له أنه الذى ينتظره اليهود.

من أين علمت إن لم تطلع على علوم أهل الكتاب وتقرأ الأبعاض والإصلاحات التى نقلها القس يعقوب إلى اللسان العربى.

فى مؤخرة الحديث تقبع النصيحة أو المشهورة التى ألقاها إليها بعيرى الراهب مقدم الحلقة الخارجية وناصح غلامها أحد أعضاء وليجتها بأن تصير بعلاً لـ«المذكور» وأنها صدرت من عشرين سنة سابقة على الرؤيا المنامية.

وقلنا فيما سبق إن هذه المشورة شاطرت غيرها من الدوافع على إقدام الطاهرة على نكاحه ومباعلته.

● ● ●

ويؤكد المحب الطبرى ما ذهب إليه ابن كثير وعلى برهان الدين الحلبى.

«أول شيء أراه الله تعالى من النبوة: الرؤيا فى المنام فشق ذلك عليه فلما دخل على خديجة رضى الله عنها، قال: يا خديجة أرأيت ما كنت أراه فى المنام وأحدثك به استعلن وإنه جبريل عليه السلام أرسله ربه. وأخبرها بالذى رأى وسمع فقال: أبشر فوالله لا يفعل إلا خيراً، وأنا أقبل الذى أتاك من الله تعالى فإنه حق وأبشر فإنك رسول الله حقاً»^(١٩٩).

يعمل كتاب السيرة المحمدية التى هى أذكى ريحاناً من بنفسج الكوفة روى «المبيح» بأنها تمرين لقواه البشرية لتحمل «القول الثقيل» وأنها من تباشير الكرامة وأوائل خصائص «القادم المأمول»:

«وبدىء إلى تمام ستة أشهر بالرؤيا الصادقة الجلية فكان لا يرى رؤيا إلا

جاءت مثل ظلق صبح أضاء سناء وإنما ابتدئ بالرؤيا تمرينًا للقوى البشرية لثلا
يتجأه الملك بتصريح النبوة فلا تقوى قواه وحجب إليه الخلاء فكان يتعهد بحراء
الليالي ذوات العدد فيه، إلى أن أتاه صريح الحق ووافاه وذلك في الاثنين لسبعين
عشرة ليلة خلت من شهر الليلة القدرية» (٢٠٠).

والى هذا المعنى أيضًا ذهب صاحب «السيرة الشامية»:

قال القاضى وغيره: وإنما ابتدئ رسول الله ﷺ بالرؤيا لئلا يتجأه الملك
ويأتيه بتصريح النبوة بفترة فلا تتحملها القوى البشرية فبدئ بأوائل خصال
النبوة وتبشير الكرامة وصدق الرؤيا وما جاء في الحديث الآخر من رؤية
الضوء وسماع الصوت وتسليم الحجر والشجر عليه بالنبوة حتى استشعر عظم
ما يراد به واستعد ما ينتظره فلم يأته الملك إلا بأمر عنده مقدماته» (٢٠١).
وما رقمناه هو تعبير عما أسميناه «مراحل التجربة» وإن اختلف أسلوباهما
في الحديث عنها.

أما عبارة «أوائل خصائص النبوة» فهي إشارة واضحة لا تستفهم على اللقن
ولا تغمض على الفطن ولا تستشكل على الذكى إلا أن هذا الدور ذاته هو ما مر
به أنبياء إسرائيل الذين ذكرنا منهم على سبيل المثال: أشعيا وعاموس ودانיאל.

* * *

ومن المحدثين نكتفى بما سطره عبد السلام هارون فى «التهذيب» وهو
محقق ثبت ومدقق عميق.

«عن عائشة رضى الله عنها أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين
أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في
نوم إلا جاءت كفلق الصبح وحباب الله إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من
أن يخلو وحده» (٢٠٢).

ومما يعطى رأيه وزنا أنه نقله من «سيرة ابن هشام» عمدة السير التي قام
بتهدئتها:

ولعلنا بما قدمنا في هذه الفاصلة قد أوفينا هذا المقطع من هذه المرحلة
ونعني به «مقطع الرؤى» تتمة «مقطع الصوت والضوء» حقه من التمحيس
والتنقير والتحليل الموضوعى.

ثم يحين الأوان لتناول المرحلة الأخيرة «من مراحل التجربة» وهى كبراما
ونعني بها «الخلوة» التي حدثت في خاتمتها المسك رؤيا مغارة حرى.

* * *

إعلان نجاح التجربة العظيمة وبوقوعها حق لخديجة أن تخاطب أهل مكة
بأعلى صوتها: ها هو «القادم الأم المؤمل» الذى طال انتظاركم له وكذا سائر عرب
الجزيرة لتقاهموا به اليهود ولتقاهموا به النصارى، إذ لم يعد لأى منها فضل

عليكم وسوف يرفع بيمينه كتاباً مثل كتبهم وسترونـه رائعاً معبجاً.
كيف لا وهو من قريش ونشأ في بادية بني سعد فغداً أفصحـكم وأعـرـيـكم
وأبلغـكم ومن ثم فإن كتابـه كأنـه هو سـيـاتـي مـثـلـاً في الإـبـانـة وـقـمـة في الطـلاقـة
وـذـرـوة في الإـنـشـاء.

من الذين جاءـت أـسـفـارـهـم بـلـيـغـة فـصـيـحـة تـبـعـا لـذـلـاقـة لـسانـهـم وـنـصـاعـة بـيـانـهـم:
«الـنبـي يـشـوـع يـاهـو بـنـ أـمـوـصـ» الـمـشـهـور عـنـ عـامـة مـمـن يـقـرـأـونـ «الـكـتـاب المـقـدـسـ»
بـأشـعـيـا فـهـو عـبـقـرـيـة أدـبـيـة لـيـس هـنـاكـ مـنـ فـاقـهـ فـي بـرـاعـة التـعـبـيرـ وـتـأـلـقـ الـخـيـالـ
وـأـسـلـوبـهـ قـمـةـ فـيـ الأـدـبـ «الـعـبـرـى» وـهـوـ فـنـانـ بـارـعـ فـيـ اـخـتـيـارـ الـكلـمـاتـ وـمـنـ ثـمـ
تـمـيـزـ سـفـرـهـ بـجـمـلـهـ وـتـعـبـيرـاتـهـ الـوـصـفـيـةـ الـدـقـيـقـةـ رـفـيـعـةـ الـمـسـتـوـىـ وـفـيـ عـمـومـهـ يـتـسـمـ
بـالـجـمـالـ وـالـقـوـةـ مـعـاـ وـيـمـتـلـئـ بـالـعـبـارـاتـ الـبـارـعـةـ وـالـاسـتـعـارـاتـ الـجـمـلـةـ»^(٢٠٢).

أـىـ أنـ الـكـتـابـ يـدـورـ مـعـ صـاحـبـهـ الـقـادـمـ بـهـ فـصـاحـةـ وـرـكـةـ تـمـاماـ، كـماـ فـيـ
الـمـذـهـبـ الـتـجـرـيـيـ.ـ يـدـورـ الـحـكـمـ مـعـ الـعـلـةـ جـوـدـاـ وـعـدـمـاـ فـإـنـ وـجـدـتـ الـعـلـةـ وـجـدـ
الـحـكـمـ إـذـاـ لـمـ تـظـهـرـ اـخـفـىـ اوـ اـنـقـىـ،ـ وـيـاخـتـصـارـ إـذـاـ اـمـتـازـ الـقـادـمـ بـطـلاقـةـ الـقـوـلـ
وـحـلـوـةـ الـمـنـطـقـ جـاءـ كـتـابـهـ مـثـلـهـ أـمـاـ إـذـاـ لـمـ يـحـظـ بـتـلـكـ الـمـوـهـبـةـ:ـ طـرـحـ كـتـابـاـ فـاتـرـاـ
ضـانـوـيـاـ دـاـوـيـاـ وـهـذـاـ مـاـ نـلـمـسـهـ فـيـ بـعـضـ أـسـفـارـ الـعـهـدـ الـقـدـيمـ بـمـنـتهـيـ الـوضـوـحـ.

* * *

«عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى الرؤيا إلا إذا جاءت مثل فلق الصبح ثم حب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فیتحنى فيه وهو التعبد الليلية ذات العدد .. إلى آخر الحديث»^(٢٠٤).

هـذـاـ الـحـدـيـثـ يـكـادـ يـبـلـغـ حدـ التـوـاتـ إـذـ حـمـلـهـ الـعـدـيدـ مـنـ كـتـبـ الـأـحـادـيـثـ
وـمـصـنـفـاتـ السـيـرـةـ الـمـحـمـدـيـةـ الـزـكـيـةـ فـلـاـ حـاجـةـ بـنـاـ إـلـىـ توـكـيـدـهـ أوـ زـيـادـةـ توـثـيقـهـ
وـيـكـفـيـ أـنـ بـيـنـ دـفـتـرـيـ صـحـيـعـ الـبـخـارـيـ الـذـيـ أـطـبـقـ أـهـلـ السـنـةـ وـالـجـمـاعـةـ عـلـىـ أـنـهـ
أـصـحـ كـتـابـ بـعـدـ الـقـرـآنـ الـعـظـيمـ.

وـمـمـاـ لـاـ يـفـوتـ الـعـيـنـ الـفـاحـصـةـ وـهـيـ تـمـالـعـهـ أـنـ لـفـظـةـ «ـحـبـ»ـ بـنـيـتـ لـلـمـجـهـولـ
وـبـحـسـبـ تـعـبـيرـ الـإـمـامـ اـبـنـ حـجـرـ الـعـسـقلـانـيـ فـيـ «ـالـفـتـحـ»ـ:
لـمـ يـسـمـ فـاعـلـهـ لـعـدـ تـحـقـقـ الـبـاعـثـ عـلـىـ ذـلـكـ»^(٢٠٥).

وـعـبـارـةـ صـاحـبـ الـفـتـحـ «ـلـعـدـ تـحـقـقـ الـبـاعـثـ عـلـىـ ذـلـكـ»ـ عـمـيـقـةـ الـعـنـ قـوـيـةـ
الـدـلـالـةـ خـاصـةـ وـأـنـ صـاحـبـتـهـ هـىـ التـيـمـيـةـ بـنـ اـبـىـ قـحـافـةـ الـتـيـ كـشـفـنـاـ فـيـماـ
سـلـفـ عـنـ غـيـرـتـهاـ الـطـاغـيـةـ لـسـيـدـةـ نـسـاءـ الـأـرـضـ خـديـجـةـ هـنـدـوـزـ الـتـجـرـيـةـ الـمـاهـرـةـ
الـمـحـكـمـةـ.

وـنـحـنـ لـاـ نـوـافـقـ اـبـنـ حـجـرـ فـيـمـاـ قـالـهـ:ـ «ـ...ـ وـإـنـ كـانـ كـلـ مـنـ عـنـ اللـهـ أـوـلـ نـبـيـ
عـلـىـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ مـنـ بـاعـثـ الـبـشـرـ أـوـ يـكـونـ ذـلـكـ مـنـ وـحـىـ الـإـلهـامـ»^(٢٠٦).

فالعقلاني يسير في ركاب من يرى أن التصنيع والتهيئة للقادم أو المأمول أو المنتظر لابد أن يوكل إلى قوى ما ورائية وغير منظورة.

ولو صح ما ذهب إليه لنصت عليه التيمية أم عبدالله «عائشة» ولقالت «حبب ربه إليه الخلاء» وقد وصفها شيعتها أنها من علماء الصحابة^(٢٠٧).

ونرد على ابن حجر أن الخلوة أو الخلوة تم فعلاً من باعث من البشر الطاهرة المطهرة خديجة إذ لم يعرف عن «الفرط» حبه للخلاء قبل أن تصير هي له بعلا.

حقاً إنه في سنوات حياته الأولى مال إلى العزلة أو الانفراد وسبق أن أزحنا الغطاء وفرعنا الستار عن العلة.

ومن ناحية أخرى فيوجد بون شاسع وفرق واسع واختلاف كبير بين الانفراد بالنفس أو اعتزال الناس أو البعد عن البشر وبين الخلاء أو الخلوة التي تحمل معنى تيولوجيًّا ويفوح منها عبق ديني وتتصفح برائحة عقائدية.

* * *

بيد أنه من أين علمت خديجة أن الخلوة مرحلة ضرورية يتبعها على القادر المنتظر أن يمر بها؟

سبق أن وثقنا مطالعتها للأبعاض والإصلاحات التي نقلها إلى اللسان العربي ابن عمها ورقة الضليل في علوم الكتاب المقدس وتحدثنا عن علاقتها الحميمة به وما طفقت تسمعه منه من أقوال ومواعظ ودروس ومن بينها أقصاص البطاركة الذين ذكرهم ذلك الكتاب المعبّ.

نبأ بأحد أكابرهم ومؤسس أعرق الديانات العظمى: موسى «وأما موسى فصعد إلى الله فناداه رب من الجبل قائلاً: هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بنى إسرائيل... إلخ»^(٢٠٨).

«ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل فصعد موسى...»^(٢٠٩).
«... فقال موسى للرب لا يقدر الشعب أن يصعد إلى جبل سيناء لأنك أنت حذرتنا قائلاً أقم حدوداً للجبل وقدسه.. فقال له الرب اذهب انحدر ثم اصعد أنت وهارون معك، وأما الكهنة والشعب فلا يقتربوا ليصعدوا إلى الرب لئلا يبطرش بهم فانحدر موسى إلى الشعب وقال لهم»^(٢١٠).

فهناك يلقاه ربه على انفراد في أعلى جبل سيناء الذي غدا مقدساً وتحديداً تم اللقاء بين المتكلم والكليم على رأس «قلة الجبل» كنایة عن ذروة الخلوة أما ألفاظ الانحدار والاقتحام والصعود فهي تثبت معانٍ الارتفاع والعلو والذروة والقمة والقلة حيث تمت الخلوة أو الانفراد وحرم على الشعب أن يصعد إلى بقعة اللقاء وتلقى الأحكام والوصايا.

والحق أنها قطعة أدبية رائعة وإن سرت في كثير من جوانبها الرائحة الذكية

المعطار لنصائح ووصايا حكماء مصر القديمة من أمثال: «باتح حوت» «محوت» و«حردادف».

إذن في الخلوة التي استمرت أربعين يوما وبأعلى الجبل التقى الرب موسى؛ إذ من المحال أن يقابله في زحمة وفي سفل، ويبدو أن هذه التجربة لم تعجب الرب إذ نراه بعدها ينبع عنه رئيس الملائكة جبريل ليظهر للبطاركة والقادمين ومؤسس الأديان وبلغهم كلامه ونرجح أن هذا التطور يرجع إلى تحول اجتماعي طرأ على العلاقة بين الملوك وشعوبهم^(٢١١).

ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعام يوحنا المعمدان «الذى كان يكرز فى برية اليهودية» جرadaً وعسلاً برياً^(٢١٢).

وهذا المقطع صريح النص والدلالة معاً على أن يحيى أو يحنا المعمدان تعود على الخلوة في برية اليهودية فالذى يتذرث بوبر الإبل ويقتات بالجراد والعسل البرى لابد أنه في خلوة.

● ● ●

أما ابن مريم فـ... أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس بعدهما صام أربعين نهاراً أو وأربعين ليلة جاء أخيراً^(٢١٣). عبارات تكشف بذاتها عن أن عيسى مر بطقوس أو مرحلة الخلوة، ولم يكتفى ابن مريم بالخلوة الخاصة به بل أخذ يدرب تلاميذه عليها^(٢١٤).

وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين^(٢١٥).

وُسوف يرى القائل بعد قليل أن المغارة موضع خلوة «محمد» تقع في قلة^(٢١٦) جبل حراء الذي يبعد عن مكة بثلاثة فراسخ. الأمثلة الأخيرة هي من إنجليل متى الذى رجح الباحثون الإثبات فيما أسلفنا أنه يهد النصارى الهاريين من اضطهاد شاؤول أو بولس قبل أن يحرفه ويضيف إليه ما يؤيد عقيدة التثليث التى دسها فى ديانة يسوع الناصرى فأفسدها وبالتالي فهو «إنجيل» الذى وصل إلى القدس فترجمه أو أجزاءً منه إلى اللغة العربية.

أما إنجليل مرقس فقد وصف يوحنا المعمدان أنه صوت صارخ في البرية وأنه كان يعمد فيها^(٢١٧). ونحن لا نذهب إلى أن اليهوسوب اطلع عليه إنما أتينا بهذه الفقرة لندعم خبر خلوة يحيى أو يوحنا المعمدان.

وثق هذا الإنجليل مقولة تدريب أو تمرين الناصرى ابن مريم لتلاميذه أو حواريه على الخلوة في الجبل العالى منفردين^(٢١٨).

وبذا غدت هذه الواقعة حقيقة تاريخية ثابتة.

● ● ●

أما إنجيل لوقا فيحدثنا عن خلوة زكريا في الهيكل وظهور ملاك الرب له واقفاً عن يمين مذبح البخور.. «فَلَمَّا خَرَجَ لَمْ يُسْتَطِعْ أَنْ يَكُلْ جَمِيعَ الشَّعْبِ فَفَهَمُوا أَنَّهُ قَدْ رَأَى فِي الْهِيْكَلِ فَكَانَ يُؤْمِنُ إِلَيْهِمْ وَبِقِيَّ صَامِتًا»^(٢١٩). ولنلاحظ ارتباط ظهور ملاك الرب لزكريا بالخلوة، وقد جاءت هذه الأقصوصة في القرآن المجيد فيما بعد^(٢٢٠).

● ● ●

ويشير إلى خلوة مريم أم عيسى بعيداً عن أهلها في المكان الشرقي وظهور ملاك الرب جبريل لها في الخلوة ليهب لها الغلام الراكي الأعجوبة عيسى أو يسوع^(٢٢١).

ثم حكى هذا الإنجيل خلوة ابن مريم في البرية أربعين يوماً وعدم تناوله أي طعام إبانها وعند تمامها عضه الجوع^(٢٢٢).

وفي موضع آخر جاء به: «وَلَا صَارَ النَّهَارُ خَرْجَ وَذَهَبَ إِلَى مَوْضِعِ خَلَاءٍ»^(٢٢٣). ومما هو جدير بالالتفات مجيء كلمة «خلاء» بنصها وفصها.

وهكذا يثبت بالأدلة أن الخلوة أو الخلاء تقليد أو تراث يهودي - نصراني طالعنه في العديد من الموضع في الكتاب المقدس: كتاب اليهود والنصاري، الذي تبحر في علومه القدس ورقة وتطلع منها حتى صار بحراً فيها ووصفته كتب التراث أنه بلغ في إتقانها درجة منيفة حتى إنه لم يوجد في مدينة القدس في أيامه من يساميه فيها وأنه أعلم رجال مكة بها.

ولقد نقل الكثير من إصلاحات وأجزاء الكتاب المقدس إلى اللسان العربي والطاهرة أجادت القراءة والكتابة وطرحت البراهين على هذه الحقيقة فإذا ربطتها آصرة وثقب بين عمها ورقها؛ فاستواعت ترجماته وحضرت دروسه وشروحه وتقاسيره، ومن جماعته انتهى إلى علمها أن الخلوة أو الخلاء مرحلة لازمة للقادم المأمول وتيقنت أن ملائكة الرب لا يحلو لها أن تظهر للبطارقة والأشخاص المباركين ومؤسسى الديانات إلا فيها وهذا يصل إلى حد البداهة إذ كيف يتمنى لها أن تبدو لأحد هم وهو في جلوة!!

● ● ●

ثمة سؤال على قدر وفير من الأهمية لابد أن يرفف في الذهن: ما الأدلة على أن الطاهرة هندوز التجربة البالغة الروعة هي التي وزت «الرقيق» على الخلوة أو الاختلاء؟

قبل أن نجيب عليه ونقدم البراهين السواطع والمكينة الموثقة نبدأ بطرح فرض قريب التصديق موجزه أن «مرحلة الخلوة» بدأت قبل سنوات خمس من

حدوث الرؤيا المنامية التي رأها «الضياء» في مغارة حربى وإذا إنها وقعت له وهو في الأربعين من عمره المبروك فبالتالى يصير بده المرحلة الأخيرة «الخلوة» وهو في الخامسة والثلاثين، وإذا إن أهل السنة والجماعة أطبقوا على أن فارق العمر بيته وبين أم هند خمسة عشر عاماً إذن عند ذياب البدء وصلت إلى الخمسين ولو أتنا نصر على أن المسافة العمرية بينهما لا تقل عن العشرين عاماً وقدمنا الأدلة النقلية والعلقية المثبتة.

ومع التسليم الجلى البحث بالفارق الأول فمن حقنا أن نتسائل: ما الذى دفع خديجة إلى مرافقته واصطحابه إلى جبل حراء كيما يؤدى طقس الاختلاء في المغارة التي تقع في قلته؟

هنا نلمح قارئاً فطنأً يرفع أصبعه ليستعلم: هل هذا فرض من الفروض التي ذكرتها فيما سلف، أم هو حقيقة تاريخية وما هي حججك عليها؟
والحق أنه استفهام وجيه نرد عليه بالآتى:

بل هو حقيقة تاريخية وضعتها في حجورنا المؤلفات العوالى التى غطت السيرة الحمدية التي تزري حلاوتها بطعم تفاح الشام.

ونظراً لأهميتها القصوى في لحمة هذا البحث وسداه فإننا نستمتع القارئ المعدرة ونحن نطيل في الاستشهاد بها ونحن إذ نفعل نوم «نقصد» إقناعه بها «الحقيقة التاريخية».

● ● ●

١. نبدأ بسيرة محمد بن إسحاق التي متح منها ما جاء بعده والتي تعد من أقدم السير التي وصلت إليها « لأن سيرة الزهرى . كما أسلفنا ما زالت مفقودة». حتى إذا كان الشهر الآخر الذى أراد الله عز وجل ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها وذلك شهر رمضان فخرج رسول الله ﷺ كما كان يخرج لجواره وخرج معه بأهله...»(٢٤). ومعلوم أن أهله هي بعله سيدة نسوان قريش.

٢. ونشى بعمدة السير ونعني سيرة ابن هشام: «حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله...»(٢٥).

٣. «عن محمد بن إسحاق... فقال عبيد وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس: كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحدث به قريش فى الجاهلية والتحدث: التبرر قال أبو طالب: «وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه وراق فى حراء ونازل» فكان رسول الله ﷺ يجاور فى ذلك الشهر من كل سنة يطعمن من جاء من المساكين فإذا قضى

رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه بذلك في شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره . معه أهله» (٢٢٦).

إن تاريخ الطبرى من أوثق مصادر التاريخ الإسلامى وتفسيره من أجل التفاسير.

٤. «عن عبيد بن عبيد: كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحدث به قريش فى الجاهلية والتحنث التبرر فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم المساكين فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله فيه ما أراد من كرامته وذلك الشهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله تعالى . قال رسول الله ﷺ: فجاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: أقرأ فقرأتها ثم انتهى فهبيت من نومى فكأنما كتبت فى قلبي حتى بعثت خديجة رسالها فى طلبى فبلغوا مكة حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيضاً إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك فحدثتها بالذى رأيت فقالت: أبشر يا ابن عم وأثبت فوالذى نفسى بيده إنى لأجو أن تكون نبى هذه الأمة» (٢٢٧).

٥. «بعثت خديجة رسالها فى طلبى فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف مكانى ذلك .. ثم انصرف عنى وانصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة أى فى الغار فجلست إلى فخذها مضيضاً إليها مستدلاً إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك فبلغوا مكة ورجعوا إلى أقول وهذا يدل على أن خديجة رضى الله عنها كانت معه بغار حراء وهو الموقف لما تقدم من قوله ومعه أهله أى خديجة رضى الله عنها على ما تقدم» (٢٢٨).

هنا نجد صاحب «السيرة الحلبية» يؤكّد أن أم هند دأبت على مرافقته فى ذهابه إلى المغارة واللبث معه وأن المقصود بكلمة أهله خديجة.

٦. «وحتى إذا كان الشهر الذي أراد الله كرامته وذلك الشهر رمضان خرج ﷺ إلى حراء ومعه أهله .

جائنى وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: أقرأ فقرأتها ثم انتهى عنى وهببىت من نومى وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى

ناحية منها إلا رأيته كذلك فما زلت واقفاً حتى بعثت خديجة في طلبى
فبلغوا أعلى مكة».

فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلى في طلبك حتى بلغوا
أعلى مكة^(٢٢٩).

الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد الذهبي صاحب التصانيف المشهورة يذكر
بجلاء لا لبس فيه ووضوح لا غموض يشوبه أن «الأمن» لا يتوجه إلى مغارة
حرى إلا وسيدة قريش معه^(٢٣٠).

بيد أنها تظل في سفح وأوسط الجبل بينما يصعد إلى المغارة في الذروة وسوف
نشرحه تفصيلاً.

٧. ... حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه من كرامته من السنة التي بعثه
فيها وذلك الشهر رمضان خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه
أهلها...»^(٢٣١).

● ● ●

سبعة مصادر من الذرى الشامخة والقمم العالية والقلل المنيفة من كتب
التراث في السيرة الحمديّة التي هي أطيب من ريح الخزامي تنصل صراحة
وبلا جمجمة على وجود الطاهرة المطهرة مع «أبى القاسم» وهو يتحنث أو
يتحدث في الغار الكائن أعلى جبل حراء.

الم تصبح بعد كل ما قدمناه حقيقة تاريخة لا يماري فيها إلا شكس ولا
يعارضها إلا مناكف^(٢٣٢). ولا يشكك إلا معاند ولا يقدح فيها إلا لجوج ولا يعييها
إلا يلندد^(٢٣٣).

● ● ●

بعدها نقدم أدلة إضافية على مصاحبتها له في كل مرة بين مرات الخلوة
التي تخبرنا المصادر الموثوقة أنها تتم في شهر رمضان . وعندما رأى وهو نائم
فيها ملاك الرب جبريل وأمره بقراءة الشطر الأول من سورة العلق، أو رأه لأول
مرة عند باب المغارة أو في أفق السماء على تعدد الروايات التي جاوزت الثلاثين
بخصوص هذه الواقعة، انتابه الفزع من هول المفاجأة فخرج من المغارة وأبعد
في طريق الجبل واستبطأته أم هند بعثت رسليها يبحثون عنه وهذا يقطع بأنها
وحاشيتها معها يمكثون في وسط الجبل أو في سفحه وهذه مسألة طبيعية
لأنها مثلها لا تقدر مسكنها إلا وهي محفورة^(٢٣٤) محسوبة^(٢٣٥). حتى وصلوا
مكة، فلو أنها مقيمة في دارها آن ذاك فكيف ترسلهم إليها؟
إن العقل والمنطق يرفضانه.

● ● ●

ولقد تتبه صاحب «السيرة الحلبية» كما سطرناه في الدليل السادس الذي

قدمناه في الفاصلة السابقة . إلى دالة عبارة «بلغوا مكة» وخرج منها بالنتيجة المنطقية وهي بحسب حروفه «وهذا يدل على أن خديجة كانت معه بغار حراء وهو الموفق لما تقدم من قوله: ومعه أهله» أ.ه.

ومن ذكر بعث أم هند رسلاها في طلبه حتى بلغوا مكة ابن سيد الناس في عيون الأثر وقد رقمناه في الدليل الرابع .

● ● ●

إذن قدمنا من الأدلة الإضافية أشين ونواصل فيما يلى باقيها :

«أخرج ابن إسحاق أنه عليه السلام جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله عز وجل وهو بحراء في شهر رمضان وكان يجاور بحراء في كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحثت به قريش في الجاهلية والحنث التبرر .

قال وكان رسول الله صلوات الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر ويطعم من جاء من المساكين فإذا قضى رسول الله جواره من الشهر كان أول ما يبدأ إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف سبعاً أو ما شاء الله تعالى من ذلك ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله فيها، وذلك في شهر رمضان خرج رسول الله صلوات الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى . قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: أقرأ . قال: قلت ما أقرأ . قال: فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: أقرأ . ماذا أقرأ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود مثل ما صنع قال: أقرأ باسم ربك الذي خلق حتى... ما لم يعلم فقال، فقرأتها ثم انتهى فانصرف عن فهبيت من نومي كأنما كتبت في قلبي كتاباً قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فوقفت أنظر إليه فما أتقصد أو أتأخر وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية إلارأيته كذلك فمازلت واقفاً ما أتقصد أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة سمعت صوتاً من السماء يقل: بلغوا مكة ورجعوا وأنا وقف في مكانى ذلك ثم انصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلسست إلى فخذها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ثم رجعوا إلى، ثم حدثتها بالذىرأيت فقالت: أبشر يا ابن عم وأثبتت قولذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة . ثم ذكر معنى حديث ورقة بن نوفل بتغيير بعض لفظه» (٢٣٦) .

هذا الخبر مع طوله انطوى على الحقائقتين :

الأولى: أن «الآمنين المأمونون» لا يخرج إلى حراء إلا بملازمة بعله خديجة .

الأخري: أنها وزّت رسلاها يطلبونه حتى بلغوا مكة .

«حتى بعثت خديجة رسلاها في طلبى فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف
مكاني ذلك ثم انصرف عنى وانصرفت عنه راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة
فجلست إلى فخذها مضيماً إليها «متلصقاً بها».. فقال: يا أبا القاسم أين كنت؟
فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى، فحدثتها بالذى
رأيت فقالت: أبشر يا ابن عمى وأثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن
تكون نبى هذه الأمة»^(٢٣٧).

وأهمية هذا الخبر أنه حديث مرفوع إلى **«المصطفى»** ذاته أى أنه هو الذى
يقص الواقع لا غيره يحكىها.

● ● ●

وبرهان أخير نقدمه على صحبة خديجة له إبان وجوده في المغارة وهو
حديث صحيح مشهور ورد في العديد من كتب السنة ذات المقام محمود
والدرجة الرفيعة وعلة شهرته هو إعلام جبرائيل لـ«الأزهر» أن ربه يأمره أن
يقرئ خديجة السلام ويبشرها ببيت في الجنة:
«حدثنا أبواليد قال: حدثني جدّي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ حدثنا عبد الجبار بن
الورد المكي قال: سمعت بن أبي مليكة يقول:

جاءت خديجة إلى النبي ﷺ بحيس وهو بحراء فجاءه جبريل فقال: يا
محمد هذه خديجة قد جاءت تحمل حيساً معها والله يأمرك أن تقرئها السلام
وتبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، فلما أن رقيت
خديجة قال النبي ﷺ: يا خديجة إن جبريل قد جاءنى والله يقرئك السلام
ويبشرك ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، فقالت خديجة: لله
السلام ومن الله السلام وعلى الله وعلى جبريل السلام»^(٢٣٨).

و قبل أن نشرع في تحليل هذا الحديث الثر بالمعطيات نشرح للقارئ معنى
كلمة «الحيس» التي جاءت في ثيابه:

الحيس تمر ينزع نواه ويبدق من أقطاف ويعجنان بالسمن ثم يدلّك باليد حتى
يبقى الثريد وربما جعل معه سويق»^(٢٣٩).

● ● ●

سيدة نساء الأرض مع تعدد من حولها ممن يخدمونها من العبيد والإماء
تحرص بنفسها على أن تقوم بواجباتها فترى من وسط أو سفح الجبل حاملة
إناء فيه حيس إلى المغارة في القلة لتقدمه له.

لماذا؟ ولم تكلف واحداً من العبدان أو الجواري به؟
لعل الجواب لا يحتاج إلى زكانة أو فطانة.

ليشعر أنها معه لا تقارقه وكيف لا يمل من الخلوة ولا يضيق بالوحدة ولا
ينفر من العزلة ولا يضر إذا ما ظهر له ملك أو سمع حسيساً أو رأى ضوءاً.

وكلمة «ترقى» تؤكد وجودها في الجبل ولكن في مستوى أخفض وعندما نصل إلى الفاصلة الخاصة بـ«وصف جبل حراء» سوف يدرك القارئ مدى المشقة التي طفت سيدة نسون قريش تكابدها سواء في الانتقال من دارها إلى الجبل أو الصعود إلى المغارة ناهيك عما يلاقيه أي شخص من متاعب عندما يفارق داره فما بالك بسيدة غنية مترفة تعيش في بلهنية وقد جاوزت الخمسين من عمرها أو الخامسة والخمسين.

● ● ●

نأمل أن التوفيق حالفنا ونحن نضع تحت باصرة وبصيرة القارئ الأدلة الدامغة والبراهين الساطعة والحجج القاطعة سواء من العقول أو صريح المنقول على أن خديجة هي التي دفعت محمداً على ولوح مرحلة «الخلوة» لأنها من ناحية هي طقس لازم مر به من سبقه من القادمين والمنتظرین والمأولين. ومن ناحية أخرى أنها المكان الوحيد الذي يظهر فيه ملاك الرب فيبدو إعلاناً بنجاح التجربة العظمى.

قد ينبرى أحدهم فيفترض: وماذا فيه إن خديجة إذ ترافق محمداً إلى حراء فإنها تفعله من باب التسرية عن النفس أو كما تقول العامة في مصر «تغير جواً».

وهذا يفرض علينا أن نلقي ولو نظرة عجلى على ذيak الغار لنقيم هذا الاعتراض وهل الذهاب إليه للMutation والفسحة والترويح عن النفس أم هو عناء وشقاء وقطعة عذاب وأنه لولا الدافع الحثيث والباعث الشديد لما أقدمت عليه بل ولا فكرت فيه ولم يتحمل لنا تاريخ تلك الحقبة الباهرة خبراً ينبع أن النسوة كن يتحنفن أو يتحنثن فيه كما فعل شيبة الحمد أو الجد عبدالمطلب ومن سار على دربه وسلك مسلكه.

«جبل حراء: وهو الذى كان يتحنث فيه رسول الله ﷺ قبل الوحي وفيه نزل عليه جبريل أول ما أوحى إليه وفيه بشره بالنبوة وبينه وبينه مكة ميل ونصف، وهو جبل منفرد على طريق حنين من مكة وهو منيف صعب المرتفق لا يصعد إلى أعلى إلا من موضع واحد في صفة ملساء.

والموقع الذى نزل فيه جبريل عليه السلام في أعلىه من مؤخره، فبني آدم البيت الحرام «الكعبة» من خمسة أجبل من طور سيناء وطور زينا ولبنان والجودى وبنى قواعده من حراء» (٢٤).

هذا وصف أحد الجغرافيين العرب الذين عنوا بـ«المسالك والممالك» أي الطرق والبلدان ويلفت النظر في طرحه قوله عن حراء إنه: منيف وصعب المرتفق ولا سبيل للصعود إلى أعلى إلا من موضع فرد في صخرة ملساء أو أن ارتقاءه عملية شاقة.

وعندما زار د. محمد حسين هيكل الحجاز وعاد وكتب مصنفه «في منزل الوحى» حرص على أن يقدم للقارئ أبعاد جبل وغار حراء وهما متميزان ونأمل أن يعيه القارئ لأننا نؤكد حقيقة تاريخية ثابتة . ولو حاول كثير من المحدثين تمييعها . هى أن الطاهرة عندما دأبت على أن تصحب «الختار» إلى الخلوة اقتصرت على المكوث فى الجبل بعد صعوده أما هو فيوواصل الارتفاع إلى المغارة ثم نعود إلى سياقة القول :

فهيكل قاس المسافة «بالمتر» من الأرض أو السفح إلى القمة وأفاد بأنها عشرون متراً ومثلها ما بين القمة والغار أى أن الصعود يقتضى من الصاعد عشرين متراً والارتفاع يلزم أربعين متراً .

ولا سبيل إلى المغارة إلا بالمرور بين صخرتين متلاصقتين يمر بينهما النحيف بصعوبة أما الغار ذاته فقد حجبته الصخور عما حوله ولا يمنع لمن أراد النوم فيه إلا غفوة خشنة جافية أى الأفضل له أن يظل مستيقظاً .

«من الأرض إلى القمة عشرون متراً ... وبين الغار والقمة عشرون متراً أو نحوها وهو مقدار ما بين السطح الأول والقمة وللوصول إليه «الغار» يقتضى المرور بين صخرتين تكادان تتلاصقان فلا يتخطى الإنسان ما بينهما إلا بمشقة وإن كان نحيفاً .

إذا تخطاها وجد الغار فى داخل الجبل محجوباً عن كل ما حوله بالصخور الضخمة وهو أشد من كل ما فى الجبل وحده وعزلة وهو لا يتسع لأكثر من شخص ينام نوماً خشناً جافياً كل الجفاء»^(٤١) .

• • •

وبعد الجبل عن مكة بمسافة قدرها ثلاثة أميال فى رأى كاتب آخر فحتى لو قطعت ركوباً على ناقة أو جمل فإنها لا شك تضنيه وترهقه فما بالك إذا عرفنا أنها سيدة قاربستين أو بالقدر المتين جاوزت الخمسين .

«يقع غار حراء فى جانب من جبل النور ذلك الجبل الذى يقع على بعد ثلاثة أميال تقريباً من مكة شمال طريق عرفة وقد اختار محمد هذا الغار الذى هياته الطبيعية داخل حجر الصوان الأحمر ليتحصن فيه شهراً كل عام مراعياً ليلاً ونهاراً الخلوة التامة وكان يحمل معه الزاد المكون فى جوهره من الكعك»^(٤٢) .

بيد أن المتخفين أو المتبررين أو المتخفين ذوى الشحنات الدينية المرتفعة لا تهمهم المشقة لأن ذلك الجبل وفي ذروته المغارة يتیحان لهم الفرصة كاملة للخلوة والاعزال والتفرد :

«اعتاد بعض الحنفاء أن ينقطعوا للعبادة زمناً كل عام يقضونه بعيداً عن الناس فى خلوة يتقربون إلى الله تعالى بالزهد والدعاء ويلتمسون عنده الخبر

والحكمة وكانوا يسمون هذا الانقطاع التحفن أو التحنت^(٢٤٣). أطبق الباحث قدامي ومحدثون على صلاحية جبل حراء ومغارته للانقطاع فيه ومن يؤمه يعزل عن دنيا الناس فيما يتفرغ لما نذر نفسه إليه.

«غار حراء كهف صغير بأعلى حراء، وحراء جبل في الشمال الشرقي في مكة يبعد عنها بأقرب من ثلاثة أميال، وهذا ليس بذى زرع ولا غرس بل هو مملوء بالصخور لا عمران به ولا يأوى إليه الناس ولا يستأنسون به، ويمشى الماشى فيه طريق مد عثر لا يصل إليه إلا فى مقدار من الزمن قد يسير فى طريق غير ممهد إلى نحو الساعتين».

فإذا وصل إلى سفح الجبل بعد هذه المدة لا يرتفع إلى الغار إلا فيما يقرب من الساعة وإذا ارتفع وجده موحشاً يحس فيه الداخل برهبة وهو إلى الجبل فيزداد الم قبل عليه عزلة عن الناس بل عن الأرض وما فيها ويكون الغار من وراء صخرتين كبيرتين تعترضان داخله، وقد ضيق الله ما بينهما وإذا تجاوزها ودخل الغار أحسى بأنه صار معزولاً عن العالم عزلة كاملة^(٢٤٤).

ونحن نرجح أن هذا الوصف التفصيلي الذى نفحنا إياه المؤلف نتاج زيارة شخصية لجبل النور الذى شهدت قلته الرؤيا المنامية.

وابن كثير يذكر أن المغاراة تشرف على الكعبة وهذا ملمع مهم إذ إنها قدس الأقدس سواء في الحقبة السابقة على الإسلام «يسمونها الجاهلية» أو في الإسلام ذاته:

«حراء يقصر ويمد ويصرف ويمنع «أى من الصرف» وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أمثال منها على يسار المار إلى منى له قلة مشرفة على الكعبة من حيثية والغار في تلك الحنية وما أحسن قول رؤبة بن العجاج: فلا ورب الآمنات القطن ورب ركن من حراء منحنى»^(٢٤٥).

● ● ●

واختيار حرى المطل على الكعبة إرث إبراهيم وأبن العرب وكبير البطارقة أمر له دلالة عميقه وهو أن «القادر المنتظر» يسير على دربه ويعظم بيته وسوف يتضح ذلك عندما سيقرأ «تمم مكارم الأخلاق» على صحابته: «فَوْلَ وَجْهُكَ شَطَرُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»^{٤٦} ويا أمرهم وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين: «وَحِيثُ مَا كُتُّمْ فَوْلُوا وَجُوهُكُمْ شَطَرُه»^(٢٤٦).

● ● ●

أخطأ د. على حسن الخريوطى عندما ذكر أن «غار حراء بجبل أبي قبيس»^(٢٤٧).

وهذا مثل لما ذكرناه من قبل أن غالبية المحدثين تناولت السيرة المحمدية العطرة التي هي أحلى من عسل الموصى بقدر لا تحسد عليه من العجلة

والخفة.

وكيمما لا يقال إننا نتحامل على المحدثين فإننا نورد خطأً أفدح تردى فيه واحد من القدامى من النجوم الساطعة والبدور اللامعة في سماء الفكر الإسلامي إذ ادعى أن من «سيفه على عاتقه» لم يأمره بالاختلاء في المغاربة أحد ولا رأى أسوة قبله فعله:

«كان رسول الله ﷺ ينفرد متقريراً إلى الله عز وجل في غار معروف بحراء حبب إليه ﷺ لم يأمره بذلك أحد من الناس ولا رأى من يفعل ذلك فتأسّي به إنما أراده الله تعالى لذلك فكان يبقى فيه ﷺ الأيام والليالي ففيه أتاه الوحي»^(٢٤٨).

وكان نأمل ألا ينزلق من هو في قامة ابن حزم إلى هذا الغلط: أما أن أحداً لم يأمر به «صاحب القلم» وإنما إرادة الله تعالى له فينضوي على تحليل مجاني مرهق الإحجام عن بذل أي عناء في قراءة الأسباب الموضوعية التي تكتمن وراء أي حدث تاريخي وإرجاعه إلى السماء، وعن زعمه أنه لم يتأس بأحد قبله فيه فهذا يكشف لنا عن أن ابن حزم سامحه الله لم يكلف نفسه مطالعة ما كتب عن التحنت والتحنثين والتحنف والتحنفين وخاصة في شهر رمضان وعلى رأسهم عبدالمطلب جده وورقة وأبو أمية بن المغيرة وغيرهم... إلخ.

بل إن ذاك شكل طقساً من الطقوس المستقرة لديهم أو سنة من سنتهم: «قال الحافظ وكانت قريش تفعله «التحنث أو التخلّى أو التحنف» بغار حراء كما كانت تصوم عاشوراء.. لأن جده عبدالمطلب أول من كان يخلو فيه من قريش»^(٢٤٩).

ونكتفى بهذه المصادر الخمسة التراثية ذات الدرجة الرفيعة لإثبات خطأ ابن حزم لا حبأ في التجريح ولا رغبة في التشهير ولا ودأ في التجربة إنما لنبين أن من يقدسون ابن حزم ومن على شاكلته أو في منزلته ويأخذون أقوالهم حجة مسلمة وأراءهم حقيقة مطلقة لا يأتيها الباطل من أي جانب، إنهم كما قلنا لهم مراراً وتكراراً بشر من البشر يخطئون وكل بني آدم خطاء، بل إن منهم من يأتي بأغلالط فواحش ويسقط سقطات وجيعة وهم أيضاً يصيرون، فضعوهم في مواضعهم الصحيحة وانزعوا عنهم هالات القداسات الزيف التي تصنعنها بأيديهم ثم تضعونها على رؤوسهم، وهم أنفسهم ما ادعوا لأنفسهم عصمة ولا نعموا ذواتهم بغير البشرية متأسين في ذلك بالجبيـ المصطفـيـ» الذي جاء في حقه في القرآن العظيم: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّنْكُمْ»^(٢٥٠).

فإن قصد الأندلسي ابن حزم من وراء زعمه أن ينفع «العروة الوثقى» منقبة هي أنه أول من سن الاعتكاف في مغاربة حراء في شهر رمضان.. فهذا منهج فسيـدـ:

ففى البدء هو ليس فى حاجة إلى منقبة مصطنعة إذ فى جانبه من المناقب
الحقيقة الثابتة ما يفوق العد ويعجز الحصر.

وفى المختتم فإنه عندما سيكشف أن المنقبة التى أضيفت إليه مزورة ونسبت
إليه كذباً فنى هذا ضرر أكيد إذ غبها سيرد المشاكس ويعلق المخاصم ويعقب
المعاند أنه لولا حاجته إلى مناقب لما اضطر تبعه إلى تزييفها ونسبتها إليه.
وطالما بع صوتنا وجف حبر قلمنا فى تتبیه الكتبة المحدثين إلى مخاطر هذا
السلوك المغيب.

وشبيه به الإرقال «الهرولة» إلى نسبة أى نظرية عملية أو طبية أو هندسية
يعلن عنها الفرنجة، نسبتها إلى القرآن المجيد فيتمحلون آية كريمة فيه ويدعون
أن النظرية كامنة فى أحشائهما وبذا سبق الذكر الحكيم علماء الغرب الكفرة
الملاعين بأربعة عشر قرناً فى الكشف عن هذه النظرية!!

بعد هذه التفريعة نستأنف العودة إلى سياق البحث والتنوير.

• • •

هل الغار هو الكهف أم هما أمران مختلفان.

«وهو حراء جبل بينه وبين مكة ثلاثة أميال على يسار الذاهب إلى منى له
قلة مشعرة على مكة «لم يقل على الكعبة» منحنية والغار نقب فيه وهو بمعنى
الكهف»^(٢٥١).

ويذهب مجمع اللغة العربية فى مصر إلى أن الكهف هو المغارة الواسعة فى
الجبل^(٢٥٢). ويسمى الفيروز آبادى بينهما فيقول: والكهف كالغار والمغار
والغار... والغار كالبيت فى الجبل^(٢٥٣).

ونكتفى بهذا، ونتسأى: هل فى مخطط هندوز التجربة ويعسوبها أن يجدوا
«حبيب الله» مثل أصحاب الكهف آية عجب؟

إن الخروج إلى البرية وهو ما يوازى الاختلاء فى المغارة طقس من أبرز
طقوس الديانتين الإبراهيميتين السابقتين على الإسلام وله معنى روحى عميق
والأهم أنه رمز التمحيق وشارارة الامتحان ومعلم الاختلاء «... فكانت البرية
«القفر» مكان الاختبار لإسرائيل، وهى أيضاً مكان اختبار المسيحيين كما قال
الرب لإسرائيل: وتتذكر كل الطريق التى فيها سار بك الرب إلهك هذه الأربعين
سنة فى القفر لكي بذلك يعرف ما فى قلبك. تث/٨. ففى البرية نعرف ذواتنا
ونعرف نعمة الله التى تحفظنا لكي نتعلم أن نتكل على الرب الذى لا يفشل فى
معونتنا»^(٢٥٤).

• • •

إن الاختلاء أو الاعتزال تجربة روحية مر بها البطارقة الأولئ وهى فى
مدلولها الذى طالعناه قبيل قليل لا تخرج عن دلالة كلمات الاعتزال أو الاعتكاف

أو الاختلاء أو التحنف أو التحنث أو التبرر كما وردت في الكتب التراثية والحديثة وهذا ما سنطرحه عنه في الفترة المفصلية «التالية».

«وكان محمد ﷺ يهجر مكة كل عام ليقضى شهر رمضان في غار حراء وهو على مسافة بضعة أميال من «القرية» الصالحة.. يتبعد ويصدق قلبه وينهى روحه ويقترب من الحق جهده ويبعد عن الباطل»^(٢٥٥).
«في سيرة ابن هشام والتحنث هو التبرر»^(٢٥٦).

وأورد المحقق السرجاني في هامش الصفحة ما يلى: «التبّر تفعل من البر والتحنث من الحنث وهو الحمل الثقيل وأما التحنف فهو من باب التبر لأنّه من الحنيفية دين إبراهيم».

«و عند صاحب السيرة الحلبية أنه الانقطاع عن الناس»^(٢٥٧).
ويرى ابن كثير أنه: التبعد هكذا بإطلاق.

«ولما أراد الله تعالى رحمة العباد وكرامته يارساله إلى العالمين حبب إليه الخلاء وكان يتحنث «يتبعد» في غار حراء كما يصنع ذلك متبعدو ذلك الزمان
كما قال أبو طالب في قصيده المشهورة اللامية:
«ومن أرسى ثيراً مكانه وراق ليرقى حراء ونازل»^(٢٥٨).

ولصاحب «السيرة الحلبية» تأويل آخر للتحنث وهو التأله وهو قريب من التبعد ومن ثم فهو يطلق على المحنثين وصف «المتألهين» ويضع في مقدمتهم الجد عبد المطلب وأن من فعل ذلك بعده تابع خطاء ومنهم اليهود ورقة:
«عن عبيد بن عمير رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء في كل سنة شهراً كذلك كما تتحنث فيه قريش في الجاهلية أي المتألهين منهم وكان أول من تتحنث عليه من كان يتأله «يتبعده» كورقة بن نوفل وأبي أمية بن المغيرة»^(٢٥٩).
وفي «السيرة الشامية» تفسير آخر: التحنث فهي تعنى السلب أو الاجتناب أو وبعد مثل تأثم أي أعرض عن الأثام وتحوب نأى عن الحروب ويفرق بينه وبين التحنف وهو اتباع الحنيفية:

«يتحنث وفي رواية يتحنف وهو من الأفعال التي معناها السلب أي اجتناب فاعلها لمصدرها مثل تأثم وتحوب إذا اجتنب الإثم والحروب، وبالفاء يتحنف أي يتبع الحنيفية دين إبراهيم»^(٢٦٠).

أما أبو ذر الخشنى وهو الشارخ لغويًا لسيرة ابن هشام فهو يعارض الأخير فيما ذهب إليه أن التحنف والتحنث متساويان في الدلالة فإن التحنف وحده هو الذي يعني الدخول في الحنيفية أما التحنث فينظره خلاف ذلك إذ يدل على الخروج من الإثم أو الحنث:

«مما تحدث به قريش قد فسره ابن هشام على أنهم يريدون به الحنيفية

فأبدلوا من الفاء ثاء كذا قال ابن هشام، والجيد فيه أن يكون التحث هو الخروج من الحنث أى الإثم كما يكون التأثم الخروج عن الإثم لأن تفعل قد تستعمل في الخروج عن الشيء وفي الانسلاخ عنه ولا يحتاج فيه إلا الإبدال الذي ذكره ابن هشام»^(٢٦١).

● ● ●

بعدها نؤم شطر ضرب آخر من الشراح وهم اللغويون أصحاب المعاجم والقواميس . تحث: تبعد واعتزل الأصنام مثل تحنف وتحث أيضاً من كذا أى تأثم منه^(٢٦٢) . تحث: إذ فعل ما يخرج به من الحنث قال ابن فارس: التحث التبعد ومنه كان النبي ﷺ يتحث في غار حراء^(٢٦٣) .

ـ حنث الحانث نقىض بره . هو يتحث من القبيح يتخرج ويتأثم . وكان رسول الله ﷺ يتحث بحراء أى يتبع ويتأثم وقالوا: تحثت بصلتك وبرك.

ويعجز أن تعاقب الثناء الفاء من التحث^(٢٦٤) .

ـ تحث: تبعد الليالي ذوات العدد واعتزل الأصنام وتحث من كذا تأثم منه^(٢٦٥) .

هؤلاء كما هو واضح لم يبعدوا كثيراً عما رمى إليه كتاب السيرة المحمدية التي تفوق رائحتها الذكية ريح عنبر الشحر^(٢٦٦) . بل إن أفراسمهم مرجحة في ذات المرعى .

وزيادة البحث أن الخلوة في مغارة جبل حراء، وهي إحدى العلامات الفارقة في طريق التجربة الفادحة، تدور في ذات الفلك الذي رسّمه البطارقة الطيبون . وقد ذكرنا بعضاً منهم على سبيل المثال منعاً للملالة . وهم يفرون إلى البرية ونعني بالفلك مجموعة الطقوس والتمرينات والرياضيات والمجاهدات الروحية توصلًا إلى قوى علوية وعوالم خفية وكائنات لا مرئية واستعداداً وتأهيلاً ليغدو الواحد منهم فم السماء والقادم المنتظر من قبلها والناطق بسانها .

والذى لا مرية فيه أنه بعد أن تصر اليусوب بإجماع كل من كتب عنه من القدامى والمحاذين وقرأ الكتب وتضلّع في النصرانية وشرب منها نهلاً بعد علّ وصار أعلم أهل الحجاز بها: أحاط خبراً بهذا المنسك الذى نسكه السلف من البطاريق وهم بين السرّي «السير فى أول الليل» والإسراء «السير فى آخر الليل» إذ يقطعون الطريق إعداداً «سرعة السير» للحاق بأخر الشوط ونهاية المطاف ومحط الوصول، كيما يتحول الواحد منهم إلى شخصية قدسانية بينه وبين الأملاء العليا وشائج «محاكمات القوى بعقد شديد»^(٢٦٧) .

وفي ليالي مكة الطويلة وفي جلسات البحث الجادة وعت الطاهرة الدرس وحفظته واستوعبته، ومن ثم أدخلته ضفيرة قوية في نسيج التجربة الكبرى ونفذت المنسك أو الطقس بكل حنكة ودرية .

وكيما تتجح تلك الشعيرة وتطرح ثمرتها أصرت السيدة ذات العزم الصلب والإرادة التي لا تلين والشकيمة القوية على مصاحبة بعلها «الملعى» وهو يؤدّيها. فهى وقد بلغت الخامسة والخمسين في مذهب من يدعى أنها نكحته وسنها أربعون تترك دارها المليئة بالإماء والعبدان وتتسى أنها سيدة غنية منعة قد أفضى الله إليها من نعمه وخيراته الشيء الكبير، وتسيير معه إلى الجبل والمغاربة اللذين قدمنا أوصافهما من مصادر موثوق بها، ولقد حاول كثير من الكتبة المحدثين نزع هذه المنقبة عن أم هند ونفيها عنها والادعاء بكل جرأة على الحق أن صاحب النعلين» دأب على الذهاب منفرداً إلى حرثى وسبق أن قدمنا الأدلة على فساد هذا الزعم من واقع كتب السيرة عالية الدرجة وهذا مثال لما يزعمه أحدهم:

«كانت خديجة ترسل إليه طعامه وشرابه هناك وأحياناً تعيش معه في الغار لمعاونته ومشاركته فيما أعده الله له والتفكير في خالق الشمس والقمر والسموات والأرض»^(٢٦٨).

وكذلك شاعر فيه آخر عهتنا فيه كما سبق أن أوضحتنا مخالفته دون سند لما هو ثابت في أمهات كتب السيرة لمجرد مصادمتها لهواه ونذكر القاريء بهجومه الضارى على الإمام التيمى لأنه كتب في سيرته أن الطاهرة كتبت أو ركبت إلى بحيرى وهو بالشام تسأله رأيه عن رؤيا «راكب الجمل» المنامية فى المغاربة.

هذا الكاتب هو د. حسين مؤنس: «ولهذا كانت ترافقه في ذهابه إلى الغار فاما بقيت معه وإما عادت لتتظر أوبته وكل ذلك كان تقديرًا من الله سبحانه وتعالى لأن محمدًا ﷺ إذا كان الله قد هيأه لتلقى الوحي فلا بد أن يكون قد هيأ خديجة أيضًا»^(٢٦٩).

لا الأبراشي ولا مؤنس بين لنا سنه فيما نخوه^(٢٧٠)، إنما كالعادة جاء ادعاء كل منهما مرسلًا وعاطلاً عن السند الذي يشد أزره.

وعلاوة على البراهين القوية التي طرحتها تأكيداً لما نذهب إليه من ملارمة الهنوز له طوال مدة مكوثه بالمغاربة فإننا ندع اثنين من الباحثين يردان عليهما: أولهما: قريب العهد بهما وبينا وله مكان مرموق في محاولة إنهاض الأمة من كبوتها ونعني به الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى بك:

«كان ﷺ يختلى في كل سنة شهراً مع أهل بيته في غار حراء بقرب من مكة فيتعبد الليالي ذوات العدد»^(٢٧١).

وآخرهما: هو الشيخ عبد السلام هارون وهو باحث محقق مدقق - معاصر - ذو ثقافة إسلامية ثرة اكتسبها من تحقيق بعض من أمهات ذخائر التراث الإسلامي والعربى ويحظى بتقدير هو أهله أو أهل له:

«حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتى إذ كان الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى»^(٢٧٢).

ومع تقديرنا لمؤنس والأبراشى وعدم بخسهما حقيقهما فإنـه لا وجه للمقارنة بينهما وبين الشيخ رفاعة الطهطاوى والشيخ عبدالسلام هارون فى فضاء العلوم الإسلامية ولو وضعنا مؤنساً والأبراشى فى كفة الطهطاوى وهارون فى أخرى لشالت كفة الأولين ولربما طارت فى الهواء.

ألم يفكر مؤنس والأبراشى فيما يحدث للتجربة الرائعة لو أن ملاك الرب جبريل أو غيره ظهر له فى منامه بالغاره ولم يتحمل وقع الرؤيا عليه وأصابه الرؤى كما حدث فعلًا وواقاً والهندوز بعيدة عنه على بعد ثلاثة أميال فى رواية أو ثلاثة فراسخ فى أخرى؟

أليس من الجائز أن تتعرض التجربة التى أنفقت فيها الكثير من المال والجهد والصحة والأعصاب... إلخ إلى الخربة والإفساد.

نـحن هنا نستـغير لسان الطاهرة المطهرة أم هند ونعرض تفكيرها.

ألا يحتم العقل عليها ألا تفارقـه لحظة واحدة وهـى صاحبة الحجـى الوفـير؟ وهذا ما حدث بالفعل فعندما علمت بغيابـه عن المـغارة وترـكه إـيـاهـا، فـورـاً أطلـقت رسـلـها فـى طـلـبـه فـى سـائـر الاتـجـاهـات حتـى وصلـوا قـرـية التـقـديـسـ. إنـما سـطـره هـذـان الكـاتـبـان فـى هـذـه الـخـصـوـصـيـة قـدـمـنا الأـدـلـة النـقـلـيـةـ والـعـقـلـيـةـ عـلـى فـسـادـه وـعـطـنـه وـطـفـاستـهـ.

● ● ●

إذن الثابت من جمـاعـ ما طـرـحـنا أـمـامـ بصـيـرـةـ القـارـئـ وبـاصـرـتـهـ.

أـ.ـ أـنـ الطـاهـرـةـ هـىـ التـىـ وزـتـ «ـالـاحـىـ»ـ عـلـىـ دـخـولـ آخرـ مـراـحلـ التـجـرـبـةـ الـفـادـةـ وهـىـ مرـحـلـةـ «ـالـخـلـاءـ»ـ.

بـ.ـ أـنـهـ فـىـ كـلـ مـرـةـ لـازـمـتـهـ فـيـهاـ مـلـازـمـةـ الـظـلـ لـاـ تـرـكـهـ يـغـيـبـ عـنـ عـيـنـهـ لـحظـةـ وـاحـدـةـ أـوـ حتـىـ طـرـفـةـ عـيـنـ.

جـ.ـ أـنـهـ اـخـتـارـتـ لـهـ هـذـهـ مـرـحـلـةـ لـأنـهـ فـىـ ثـقـافـتـهـ ذـاتـ الـدـينـيـةـ ذاتـ الـمـصـادرـ المتـعـدـدةـ أـدـرـكـتـ خـطـرـهـ.

دـ.ـ أـنـهـ لـمـ تـفـكـرـ مجـرـدـ تـفـكـيرـ فـىـ الـمـتـاعـبـ الـمـصـاعـبـ الـجـهـودـ الـمـشـاقـ الـتـىـ سـوـفـ تـتـعـرـضـ لـهـ وهـىـ تـذـهـبـ معـهـ فـىـ كـلـ عـامـ شـهـرـاـ كـامـلـاـ إـلـىـ الجـبـلـ إـذـ تـقـهـتـ آـنـهـ ثـمـ قـلـيلـ لـنـجـاحـ التـجـرـبـةـ.

هـ.ـ أـنـهـ فـىـ إـحـدىـ الـمـرـاتـ نـضـجـتـ الـثـمـرـةـ وـتـمـثـلـ نـضـجـهـاـ فـىـ الرـؤـيـاـ الـنـانـمـيـةـ فـىـ الـمـغـارـةـ بـظـهـورـ كـائـنـ عـلـىـ لـهـ فـىـ أـمـاـكـنـ اـخـتـافـتـ الـرـوـاـيـاتـ فـىـ تـحـدـيـدـهـاـ وـأـشـهـرـهـاـ

مغارة حرى.

و هنا تنفست الهندوز الصعداء فقد تكلل صبرها بالنجاح الباهر.

• • •

إن التقاء ملاك الرب جبريل بمحمد الذى اعتبرته خديجة ختم التصديق على فلوج التجربة حملت لنا كتب السيرة المحمدية أكثر من ثلاثين رواية له كل واحدة منها بصورة مختلفة وموضع مغاير ووقت مباین ووصف مفارق أما الكائن العلوى الذى التقاه فمرة هو ملاك وأخرى شئ وثالثة جبريل مع أن اسمه لم يرد فى السور المكية بل المدنية فى هذه الخصوصية.
وهذه المسألة برمتها تحتاج إلى دراسة معقمة تحيط بها من كافة أقطارها وسائل ملابساتها وتعمق دخائلاها وتتفرس فى ملامحها الخارجية إلى آخره... نظراً لأهميتها القصوى.

بيد أن الكتبة المحدثين والخطباء والوعائظ تتبع مؤسسة شئون التقديس ومن خارجها لا يلوكون إلا حكاية واحدة وهى أن جبريل ظهر لـ«المسيد» فى مغارة حرى فى إحدى ليالي شهر رمضان التى أصبحت ليلة القدر وخير من ألف شهر، وقال له «اقرأ» ثم غنه أو غطه ثلاثة مرات وهو يقطان وفي كامل وعيه وبعد انصرافه كأنما نقشت أو كتبت فى قلبه.

حقيقة أن بعض الباحث المعاصرين لم يطاووه ضميره العلمي ولم يفرط فىأمانة الكلمة فرقم فى مصنفه أن المسألة لا تعدو رؤيا وأنها لم تغادر نطاق الأحلام وفيما سبق أوسعنا مسألة الأحلام بحثاً ودراسة لدى الجميع.

إنما الإصرار ما زال مستمراً على أن المقابلة بين القطبين تمت فى الصحوة وفي كامل الوعي، وبعض المتخذلين من القدامى والمعاصرين عندما يستيقظ ضميره العلمي ويشرع فى عضه بل نهشه يأتى بالحيلة الخائبة التى تصادفها فى كثير من مصنفات العلوم الإسلامية وهى تكرار الحديث الذى يحارون فى تعليله تعليلاً عقلانياً وبالمثل فإنهم يدعون أن اللقاء تم فى المنام أولاً ثم فى الصحوة!!

لماذا؟ لتمرير **سعد الخلاق** على لقاء جبريل عندما يظهر عياناً بياناً فلا يصيبه الهلع إذن فما رأيك وقد حدث الرعب والفزع وارتباك البوادر فعلاً كما أخبرتنا كتب السيرة بل أطبقت عليه؟
إذن تعليلكم هذا غير مقنع.

• • •

والذى ندرىء على وجه التحقيق أنه لا يغض من قدر **«الأطيب»** أن يأتى لقاوه بجبريل أو ملاك الرب أو الشئ... إلخ فى المنام وأنه مجرد رؤيا لأن إبراهيم أبا الأنبياء رأى مع المنام أنه يذبح ابنه^(٢٧٣). يوسف الجميل الملبح الذى استأثر

بـشـطـرـ الـحـسـنـ وـتـرـكـ لـسـائـرـ الـبـشـرـ ذـكـورـاًـ إـنـاثـاًـ مـنـذـ زـمـانـهـ حـتـىـ الـآنـ الشـطـرـ الآـخـرـ (٢٧٤)ـ رـأـىـ عـدـةـ أـحـلـامـ نـصـ عـلـيـهـ الـقـرـآنـ الـمـجـيدـ بـلـ يـمـكـنـ أـنـ نـصـفـهـ بـأـنـ خـرـبـتـ فـيـ تـفـسـيرـ الرـؤـىـ وـالـأـحـلـامـ،ـ فـضـلـاًـ عـنـ أـنـ عـدـدـ أـنـبـيـاءـ بـنـىـ إـسـرـائـيلـ رـأـىـ رـؤـىـ بـلـ إـنـ مـنـ بـيـنـ هـؤـلـاءـ مـنـ أـخـذـ يـصـرـحـ بـأـنـ كـلـامـ الـرـبـ الـذـىـ يـنـقـلـهـ إـلـىـ بـنـىـ إـسـرـائـيلـ إـنـماـ جـاءـهـ وـحـيـاـ مـنـامـاـ.

• • •

إـذـنـ لـوـ دـرـسـ أـولـئـكـ الـكـتـابـ الـمـاعـاصـرـونـ وـرـجـالـ مـؤـسـسـةـ شـئـونـ التـقـديـسـ تـنـفـاـ فـيـ عـلـمـ الـأـدـيـانـ الـمـقـارـنـ أـوـ طـرـفـاـ مـنـ تـارـيـخـ الـأـدـيـانـ لـفـقـهـواـ أـنـ بـدـوـ الـمـلـاـكـ جـبـرـائـيلـ لـ«ـالـبـهـيـ»ـ وـهـوـ نـعـسـانـ فـيـ مـغـارـةـ حـرـىـ أـمـرـ لـغـيـارـ عـلـيـهـ وـلـاـ يـهـبـطـ بـوـصـةـ وـاحـدـةـ بـمـقـامـهـ الـعـالـىـ وـدـرـجـتـهـ الـرـفـيـعـةـ.

• • •

بـعـدـ هـذـهـ الفـرـشـةـ السـرـيـعـةـ التـىـ لـاـ مـحـيـصـ عـنـهـاـ نـسـرـدـ الـبـرـاهـينـ وـالـحجـجـ وـالـأـدـلـةـ عـلـىـ أـنـ وـاقـعـةـ مـغـارـةـ حـرـىـ حـدـثـتـ فـيـ الـنـمـامـ،ـ فـهـىـ مـجـرـدـ رـؤـىـ مـثـلـ باـقـىـ الرـؤـىـ التـىـ رـأـهـاـ مـنـ قـصـصـنـاـهـمـ،ـ وـنـذـكـرـ الـقـارـئـ بـمـاـ ذـهـبـ إـلـيـهـ الـإـمـامـ الـفـزـالـيـ بـأـنـ كـلـ إـنـسـانـ عـلـىـ دـرـجـةـ مـنـ النـبـوـةـ لـأـنـهـ يـرـىـ رـؤـىـ وـلـاـ تـسـتـطـعـ مـؤـسـسـاتـ شـئـونـ التـقـديـسـ سـوـاـ فـيـ مـصـرـ الـمـحـرـوـسـةـ أـوـ فـيـ غـيـرـهـاـ مـنـ دـوـلـ أـهـلـ الـسـنـةـ وـالـجـمـاعـةـ إـلـاـ تـحـنـىـ هـامـانـهـ الـقـدـسـانـيـ إـجـلـالـاـ لـحـجـةـ إـلـاسـلامـ.

أـلـاـ:ـ المـصـادـرـ أـوـ كـتـبـ التـرـاثـ:

- ١ـ.ـ «ـ...ـ فـقـالـ رـسـوـلـ الـلـهـ ﷺـ:ـ جـاءـنـىـ أـىـ جـبـرـيلــ.ـ وـأـنـاـ نـائـمـ فـقـالـ اـقـرـأـ...ـ»ـ (٢٧٥)ـ.
- ٢ـ.ـ «ـ...ـ قـالـ رـسـوـلـ الـلـهـ ﷺـ:ـ فـجـاءـنـىـ جـبـرـيلــ وـأـنـاـ نـائـمـ بـنـمـطـ مـنـ دـبـيـاجـ فـيـهـ كـتـابـ فـقـالـ اـقـرـأـ...ـ»ـ (٢٧٦)ـ.
- ٣ـ.ـ «ـقـالـ رـسـوـلـ الـلـهـ ﷺـ:ـ فـجـاءـنـىـ وـأـنـاـ نـائـمـ بـنـمـطـ وـهـوـ ضـرـبـ مـنـ الـبـسـطـ،ـ وـفـيـ رـوـاـيـةـ:ـ جـاءـنـىـ وـأـنـاـ نـائـمـ بـنـمـطـ مـنـ دـبـيـاجـ فـيـهـ كـتـابـ أـىـ كـتـابـ فـقـالـ:ـ اـقـرـأـ فـقـرـأـتـهـاـ فـاـنـصـرـفـ عـنـ وـهـبـتـ أـىـ اـسـتـيقـظـتـ مـنـ نـومـهـ فـكـانـمـاـ كـتـبـ فـيـ قـلـبـيـ كـتـابـاـ»ـ (٢٧٧)ـ.
- ٤ـ.ـ «ـوـفـيـ حـدـيـثـ عـبـيـدـ بـنـ عـمـيرـ بـنـ عـمـيرـ أـنـهـ بـيـلـهـ رـأـىـ فـيـ مـنـامـهـ أـيـضاـ جـبـرـيلـ وـمـعـهـ نـمـطـ مـنـ دـبـيـاجـ فـيـهـ كـتـابـ فـقـالـ لـهـ:ـ اـقـرـأــ.ـ فـقـالـ لـهـ:ـ مـاـ اـقـرـأـ فـفـتـهـ بـهـ حـتـىـ ظـنـ رـسـوـلـ الـلـهـ ﷺـ أـنـ الـمـوـتـ ثـمـ أـرـسـلـهـ فـقـالـ:ـ اـقـرـأــ.ـ قـالـ:ـ مـاـ اـقـرـأــ.ـ مـاـ قـالـ ذـلـكـ اـفـتـداءـ مـنـهـ أـنـ يـعـودـ إـلـيـهـ بـمـثـلـ مـاـ صـنـعـ قـالـ:ـ اـقـرـأـ بـاسـمـ رـبـكـ الـذـىـ خـلـقـ..ـ فـقـرـأـهـاـ رـسـوـلـ الـلـهـ ﷺـ ثـمـ اـنـتـهـىـ فـاـنـصـرـفـ جـبـرـيلـ وـهـبـ رـسـوـلـ الـلـهـ ﷺـ مـنـ نـومـهـ قـالـ:ـ فـكـانـمـاـ كـتـبـ فـيـ قـلـبـيـ كـتـابـاـ فـذـكـرـ ذـلـكـ لـخـدـيـجـةـ فـقـالـتـ:ـ أـبـشـرـ فـإـنـ الـلـهـ لـاـ يـصـنـعـ بـكـ إـلـاـ خـيـراـ»ـ (٢٧٨)ـ.
- ٥ـ.ـ «ـقـالـ رـسـوـلـ الـلـهـ ﷺـ:ـ فـجـاءـنـىـ وـأـنـاـ نـائـمـ بـنـمـطـ مـنـ دـبـيـاجـ فـيـهـ كـتـابـ فـقـالـ:ـ اـقـرـأـ

فقرأتها ثم انتهى فانصرف وهببت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتاباً^(٢٧٩).

٦. قال رسول الله ﷺ: فجاءنى وأنا نائم فقال: أقرأ. قلت: ما أقرأ فغطنى حتى ظننت أنه الموت ثم كشفه عنى فقال: أقرأ، قلت وما أقرأ فعاد لى بمثل ذلك ثم قال: أقرأ، قلت وما أقرأ فقال: «أقرأ باسم ربك الذى خلق» إلى قوله: «ما لم يعلم»، ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومي فكأنما صور في قلبي كتاب^(٢٨٠).

ونقتصر على الستة مصادر هذه وهى من القمم الشوامخ بين دواوين السيرة المحمدية العطرة التى هي أجمل رائحة من نشر القطر ويكتفى أنه جاء على رأسها سيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام.

آخرًا: المراجع الحديثة والمعاصرة:

١. «وفيما هو نائم يوم جاءه ملك وفي يده صحفة فقال له: أقرأ. فأجاب مأخوذًا: ما أقرأ فأحسن لأن الملك يخنقه ثم يرسله ويقول له: أقرأ، قال محمد: ما أقرأ فأحس لأن الملك يخنقه كرة أخرى ثم يرسله، ويقول: أقرأ. قال محمد وقد خاف.. فقرأها فانصرف الملك عنه وقد نقشت في قلبه»^(٢٨١).

٢. «فأقبل عليها ﷺ وجلس إليها ملتصقاً بها فقالت له: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا... فقال ﷺ: جاءنى جبريل وفي يده منديل من حرير فيه كتاب فقال: أقرأ فجذبني بشدة حتى احتبس مني النفس فظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: أقرأ. قلت: ما أقرأ فضمنى إليه حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: أقرأ. قلت: ماذا أقرأ؟ فقال: «أقرأ باسم ربك...» ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومي فكأنما كتب في قلبي فخرجت»^(٢٨٢).

٣. «قال رسول الله ﷺ: فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: أقرأ باسم ربك.. حتى ما لم يعلم.. قال: فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتاباً»^(٢٨٣).

٤. «حدث ومحمد ينفق وقته فى الغار.. فأدركته سنة خفيفة من النوم.. ولكنه سمع صوتاً كأنما يأتي من بعيد.. قال له الصوت: أقرأ.. فنظر النبي فى منامه فإذا شئ يشبه اللوح قد سطرت عليه سطور لم يفقه منها شيئاً فقال فى صوت به رجفة: ما أقرأ.. وانصرف عنه هذا الطارق الذى ألم به فى نوم فهب من فراشه.. فقال: فانصرف عنى وهببت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتاباً...»^(٢٨٤).

٥. «وبينما محمد نائم فى الغار ذات يوم وكان قد بلغ الأربعين من عمره فى ذلك

الوقت إذ به يسمع صوتاً يقول: أقرأ. فقال محمد: ما أنا بقارئ. فقال: أقرأ. فقال: ماذا أقرأ؟ قال: «أقرأ باسم ربك الذي خلق...» إلى «ما لم يعلم» فقرأها محمد ثم هب من نومه فزعًا»^(٢٨٥).

٦. قال الرسول: أتاني جبريل في غار حراء وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب يقول: أقرأ.. وهببت من نومي كأنما كتبت في قلبي كتاباً^(٢٨٦). إن أهمية المرجع الأخير لا تعود إلى أن مؤلفه الأول من الفرنج حتى ولو اعتق الإسلام فكاتب هذه السطور من الذين لا يتلقون علوم دينهم من هؤلاء لأن حاجز إتقان اللسان العربي وإجادته يحول دون فهمهم للإسلام فهم سديداً وقد قرأت لعدد منهم تعليقات وتحليلات تبعث على الضحك لعدم معرفتهم باللغة العربية على وجهها الصحيح ولو أن هذا لا يمنعنى من تقدير ما بذلوه أو كثير منهم فى هذا المضمار خاصة تحقيق كتب التراث بيد أن هناك صدعاً يفصل بين تقديرك لأى شخص وبين صيرورته لك أستاذًا... إلخ ثم سياق الكتابة.

إنما يؤوب «أهمية المرجع» إلى أن من عريه هو الشيخ عبدالحليم محمود «يسمونه الإمام» الذى تربى فيما بعد على عرش مؤسسة شئون التقديس الرسمية فى مصر ومعه ابنه وهو أستاذ فى جامعة الأزهر ولعله نقل أن نزير «يعنى نكتب» لو أن خبر الرؤيا المنامية مضروب^(٢٨٧). لبادر هذان الشيخان إلى الاعتراض عليه وتبيين بعده عن المصداقية.

• • •

هذه ستة مراجع «عنى مؤلفات حديثة أو معاصرة» تؤكد أن واقعة المغارة مجرد رؤيا ولم تطاوع مصنفوها نزاهتهم الفكرية أن ينكروها كما يفعل غيرهم وهم يدعون بالعشرات ودعك من الوعاذه وأنئمة المساجد وخطباء الجمعة فهو لاء مع تقديرنا لهم لا يطروحن بحوثاً علمية أو دراسات موضوعية إنما كل همهم ينحصر فى دغدقة عواطف الجماهير والحصول على صيحات إعجابهم... إلخ.

لا نريد أن نجور على الكتبة المحدثين أو المعاصرین فهم لم ينفدوها بهذا المسلك المعيب والمنهج الخاطئ والمنحنى المعوج بل سبقهم على الدرب شيوخ من السلف نكتفى بـ:

«فقول أم المؤمنين عائشة «ولما بدئ به من الوحى الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» يقوى ما ذكره محمد ابن إسحق بن يسار عن عبيد بن عمير الليث أن النبي ﷺ قال: فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: أقرأ. فقلت: ما أقرأ ففتى حتى ظنت أنه الموت ثم أرسلنى، وذكر نحو حديث عائشة سواء فكان هذا كالتوطئة لما يأتي بعده من

البيضة وقد جاء مصرياً بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهرى أنه رأى ذلك في المنام ثم جاءه الملك في البيضة.

وقد قال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى في كتابه «دلائل النبوة»:
«حدثنا... عن علقة بن قيس قال: إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد وهذا من قبل علقة بن قيس نفسه وهو كلام حسن يؤيده ما بعده»^(٢٨٨).

وواضح أن ما أتوا به لا يصل إلى مرتبة الدليل بل قرائن واهية اتسمت بالتمحّل وعلّاها الفتور وبدا على ملامحها الخور وظهر على قسماتها الإعياء وشابها البوح «الانتفاء» وامتطاها البهـر «شدة التعب» وركبها الإفلاس، وفندناها ولا داعي لتكراره.

● ● ●

وليس معناه أن واقعة مغارة حرى إذ حدثت في المنام وليست سوى رؤيا أن «الحميد» لم يقابل ملوك الرب جبريل على الإطلاق فهذا ما لا نذهب إليه البتة ولم ولن يخطر لنا على بال إذ أن القرآن الكريم والسنة المطهرة فيهما نصوص تقطع به وأنه في مرات نزل على هيئة الصحابي دحية الكلبي الذي نافس الفتى الحليوة يوسف في حسنه وبهائه لدرجة أنه «الكلبي» تعود عند الخروج من داره على أن يضع نقاطاً على وجهه كما تفعل المرأة الحسنة لأن نسون يثرب «ثيبات وأبكاراً» عندما يرونـه سافراً يتـدلهـنـ بهـ ويفـتنـ بـجمـالـهـ . بـيدـ أنـ الـذـيـ لمـ أـقـفـ عليهـ: هلـ فعلـ جـبـرـائـيلـ مـثـلـهـ عـنـدـمـاـ تـشـكـلـ عـلـىـ صـورـتـهـ أـمـ لـ؟ـ وـلـوـ أـنـىـ أـرجـعـ أـنـهـ لاـ حاجـةـ لـهـ بـهـ «ـبـالـنـقـابـ» لـأـنـ جـمـاهـيرـ الـمـسـلـمـينـ «ـإـنـاثـاـ وـذـكـرـاـ» لـمـ تـتـحـ لـهـمـ الفـرـصـةـ أوـ الصـلـاحـيـةـ لـمـ شـاهـدـهـ رـسـوـلـ السـمـاءـ إـلـىـ الـأـنـبـيـاءـ.

ومقابلة جبرائيل لـ«ـالـفـطـمـطـمـ» عـقـبـ رـؤـيـاـ المـغـارـةـ الـنـامـيـةـ لـاـ يـدـخـلـ فـيـ إطارـ بـحـثـاـ الـذـيـ يـتـوقـفـ عـنـ هـذـهـ الـوـاقـعـةـ الـمـدـهـشـةـ الـتـىـ أـعـلـنتـ نـجـاحـ الـتـجـرـيـةـ الـمـذـهـلـةـ بـأـنـ قـدـمـتـ «ـالـمـأـمـولـ» الـذـيـ أـوـشـكـ صـبـرـ الـعـرـبـ أـنـ يـنـفـدـ وـهـمـ يـنـتـظـرـوـنـهـ.

تلك التجربة التي خططت لها الطاهرة المطهرة خديجة ثم نفذتها بمهارة يعز نظيرها وأثبتت أنها هندوز لا يشق لها غبار وأشرف عليها الشيخ الجليل والقس العالم اليهسوب ورقة بن نوفل.

ونأمل أن التوفيق حالفنا في عرضها عرضاً موضوعياً وتحليلها تحليلاً علمياً خاطباً عقل القارئ الحصيف الفطن قبل وجданه ولاقياً منه القبول والاقتناع.

● ● ●

الهواش

- (١) ونحن نلتمس العذر لصاحب هذا الرأى فقد طالعت. من بين المراجع التي قصدتها . واحداً ضخماً ومع ذلك فلم تتجاوز مصادره ومراجعه العشرة إلا بواحد أو اثنين ومؤلفه له اسم لام وطبع عدة مرات ومن ثم فلا عجب أن يمثل بالجمل الخطابية.
- (٢) الأنصار فيما بعد وهي تسمية تعبوية لا نسبة جاءت على خلف مع تقاليد العرب . أ.ه.
- (٣) أخبرتنا كتب السيرة التي هي أعلى من سكر الأهواء أن زوجات «صاحب السيف» بلغن أكثر من العشرين بخلاف ملك اليدين ولو أنه لم يدخل ببعضهن وصفصف العدد على تسع بخلاف من تهب نفسها إليه . في «القاموس المحيط»: الصفصف المستوى من الأرض أ.ه. في حين أنه ظل مع سيدة نسون قريشاً ما ينبع على ربع قرن، لم يتزوج غيرها ومكتف بها مع أنه في ذيak الوقت في عراة الشباب وقمة الرجلة وعنوان الفحولة وهذه مسألة تحتاج إلى دراسة مستفيضة من كافة النواحي وخاصة الجانب السيكولوجي أ.ه. والديني .
- فهو «محمد» قد تزوج خديجة رضي الله عنها وكانت أكبر منه بعده سنوات وسبق أن تزوجت عتيق بن عابد بن مخزوم وأنجبت له ثم تزوجت من أبي هالة بن مالك وأنجبت له وكان رسول الله عليه السلام في الخامسة والعشرين وقيل الواحد والعشرين، أو نحو ذلك أى في شرخ الصبا وريان الشباب.. ومع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجته ما يقرب من ثمان وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين». «زوجات الرسول عليه السلام وتعدد الزوجات في الإسلام: إعداد أصلان عبدالسلام حسن، ص ١١، ط ١٩٨٧، العدد ٤١٨ من سلسلة المكتبة الثقافية الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٤) دراسات في السيرة وعلوم السنة: ملوك شاهين لاشين وآخرون، ص ١٦.
- (٥) الرحمة المهداة محمد عليه السلام: للشيخ محمد سيد ملطاطاوي، شيخ الأزهر، ص ١٩٢، الجزء الثاني، هدية مجلة الأزهر ربيع أول ١٤١٩هـ.
- (٦) يوكى: يملأ وأوكى الطائف بين الصفا والمروءة، ملأهما سعيماً، من «كتاب الأفعال» تأليف أبي عثمان سعيد بن محمد المعافري والساقطي، الجزء الرابع، القسم الأول تحقيق د. حسين محمد محمد شرف، ود. محمد مهدي علام مجمع اللغة العربية . الإدارية العامة للمعجمات وإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠، الأهرية المصرية العامة للكتاب.
- (٧) في صحيح اللغة لا يقال يتم الولد إلا إذ فقد أبوه ومن غير الآدميين إذا ماتت أمه، انظر على سبيل المثال «كتاب الأفعال» لأبي عثمان الساقطي، مصدر سابق.
- (٨) الرسول في رمضان: ص ص ١٦ - ١٨.
- (٩) نقلاً عن المسالك والمالك: لأبي عبيد البكري.
- (١٠) سبق شرحها.
- (١١) الآياتان: ٦، ٧ من سورة العلق.
- (١٢) الآية الأولى من سورة التكاثر.

- (١٢) الآيات الأولى والثانية من سورة الماعون.
- (١٤) الآيات ٢، ٣ من سورة الهمزة.
- (١٥) الآيات الأولى والثانية من سورة المسد.
- (١٦) الآيات ١٢، ١٣ من سورة المدثر وهي من أوائل سور القرآن العظيم.
- (١٧) محمد رسول الله: مولاي محمد على، رئيس الرابطة الأحمدية لإشاعة الإسلام بlahor ترجمة مصطفى فهمي وعبدالحميد جودة السحار، ص ٥٤، ١٩٧٨م، مكتبة مصر، الفجالة، مصر.
- (١٨) في المعجم الوجيز: المذرب اللسان.
- (١٩) الفقمة هي الجمة والأغتم الذي لا ينصح شيئاً من «المختار من صحاح اللغة».
- (٢٠) العى وقد فهفه أى كل لسان «المعجم الوجيز».
- (٢١) عقد في الكلام من «نظام الغريب في اللغة» للوحاطي الحميري، مصدر سابق.
- (٢٢) السيرة النبوية: للذهبى، ص ٣٢٧، ١٩٧٣هـ، مصدر سابق.
- (٢٣) أعلام النبوة: لأبى الحسن الماوردى، ت ٤٥٠هـ، ص ٢١٢، الطبعة الأولى ١٢٩٢هـ/١٩٧٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (٢٤) عبقرية محمد: عباس محمود العقاد، ص ٨٢، مرجع سبق لنا ذكره.
- (٢٥) والد الخمير السكير اللاعيب بالطنابير يزيد.
- (٢٦) خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها: تأليف عبد المنعم محمد عمر، ص ٤٩ من الطبعة الثالثة ١٩٩٤م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٢٧) دلائل النبوة ومعجزات الرسول: عبدالحليم محمود وآخر، ص ٢٢٠، مصدر سابق.
- (٢٨) ونحن نرى أنه «الفارق ناهز الرابع قرن».
- (٢٩) في معاجم اللغة: العسيف هو الأجير.
- (٣٠) تبیر شعبی مصری منه أنه فتی بکر لم يتزوج ولا نزی بائساً من استعارته.
- (٣١) عمار هذا مولى لبني مخزوم رهط سامق في قريش وفيما بعد أخطأ في حق خالد بن الوليد المخزومي في حضور «سيد ولد آدم» فقال: أترك هذا العبد يشتمني.
- (٣٢) في المعجم الوسيط: المحراب: صدر البيت وأكرم موضع فيه.
- (٣٣) الآية ٢٩ من سورة طه.
- (٣٤) أحد الكتبة المحدثين أطلق على واعظ ونجم تليفزيون أنه ترجمان القرآن مشبهًا إياه بعبد الله بن عباس ولا ندرى كيف وصلت به الجرأة إلى هذا المدى الفلوق!
- (٣٥) توير المقبايس تفسير ابن عباس: لصاحب القاموس الفيروز آبادى المتوفى سنة ٨١٧هـ، الطبعة الثانية ١٢٧٠هـ/١٩٥١م، نشرته مكتبة مصطفى البابى الحلبى بمصر، ونحن نعلم أن هناك من يشك فى نسبة ما ورد به إلى الخبر.
- (٣٦) الجامع لأحكام القرآن: المشهور بتفسير القرطبي، طبعة كتاب الشعب.
- (٣٧) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: للإمام فخر الدين الرازى ٥٤٤هـ، المجلد العاشر، الطبعة الأولى ١٩٩٢م/١٤١٢هـ، الناشر دار اللذ العربى، العباسية، مصر.
- (٣٨) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: لابن جری الكلبی، الجزء الثالث، د.ت.ن، دار الكتب العربي بيروت.
- (٣٩) مجاز القرآن: لأبى عبيدة معمر بن المثنى التیمی، الجزء الثاني، تعليق د. محمد فؤاد، سركیس، د.ت.ن، الناشر مكتبة الخانجي بمصر.
- (٤٠) تفسیر النسفي: للعلامة أبى البرکات عبد الله النسفي، الجزء الثالث، د.ت.ن، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- (٤١) أنور التنزيل وأسرار التأویل: المسمى تفسیر البيضاوی: تأليف الإمام ناصر الدين الشیرازی البيضاوی، د.ت.ن، دار الفكر للطباعة والنشر دون ذكر المدينة.
- (٤٢) المختصر في تفسير القرآن: مختصر تفسير الإمام الطبرى لابن صمادح التجيبي، تحقيق د.

- عدنان زرزور، الطبعة الأولى ١٣٩٩ م ١٩٧٩ م مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (٤٣) تفسير الجلالين: تأليف الإمامين الحلى والسيوطى، دون تاريخ نشره عبدالفتاح عبد الحميد مراد، مكتبة الجمهورية العربية، الأزهر، القاهرة.
- (٤٤) تاج التفاسير لكلام العلام الكبير: المجلد الثاني، الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة القرآن والسنن، مصر.
- (٤٥) التفسير الميسّر: لـ د. محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، هامش على مصحف الأزهر، وهو بذلك حاز التوثيق الرسمي من جهتين: .الجهة التي أصدرته: الأزهر.. الذي حرره هو شيخه.
- (٤٦) في ظلال القرآن: سيد قطب، المجلد الرابع ص ٢٢٥، الطبعة الحادية عشرة، دار الشروق بمصر.
- (٤٧) في المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية: قلوظة: صنعه على هيئة القلابوظ وهو المسمار ذو السن الملول الذى يثبت بالتدوير لا بالدق.
- (٤٨) في مختار الصحاح للرازى: بنو علات: أولاد الرجل من نسوة شتى أى إخوة غير أشقاء.
- (٤٩) عيون الأثر: ابن سيد الناس، ص من ٩١ - ٩٤، من المجلد الأول د.ت. الناشر: دار المعرفة ببيروت.
- (٥٠) السيرة النبوية: للذهبى، ص ٦٥.
- (٥١) الآية الخامسة من سورة النجم.
- (٥٢) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١٧٥.
- (٥٣) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٠.
- (٥٤) العامة فى مصر تقول: فزورة . فهى شء والشء يطلق على الكل بديا بالذات العلية ﴿لَيْسَ كُمْثُلُهُ شَيْءٌ﴾ الآية الحادية عشرة من سورة الشورى.
- (٥٥) الآية ٦٠ من سورة القصص.
- (٥٦) آية ١٥٤ من سورة الإسراء.
- (٥٧) السيرة الحلبية: ص ٣٨١، الأول.
- (٥٨) السيرة النبوية: لابن هشام، الأول، ص من ٣٨٨ - ٣٨٩.
- (٥٩) أعلام النبوة: للماوردى، ص من ٢٥٤ - ٢٥٧.
- (٦٠) السيرة الشامية: الثاني، ص ٣٠٩، لمحمد يوسف الصالحي الشامي.
- (٦١) الآية الأولى من سورة عبس.
- (٦٢) انظر على سبيل المثال «قصة الفار ولماذا اختلفت؟» ص ٣٣ وما بعدها وهو الفصل الثالث من كتاب «فى السيرة النبوية، القسم الأول، الوحي والقرآن والنبوة» د. هشام جعيط، الطبعة الأولى ١٩٩١ م، دار الطليعة، بيروت، لبنان.
- (٦٣) خريق محل: أفسدته «المعجم الوسيط».
- (٦٤) سورة الأحزاب الآية: ٢٢.
- (٦٥) وकظه أى دفنه من «كتاب الأفعال» لأبى عثمان سعيد المعاافرى السرقسطى، الجزء الرابع، القسم الأول، مصدر سابق.
- (٦٦) المستدرك: للحاكم التيسابوري، الحديث ٤٨٤ / ٤٨٠، المجلد الثالث.
- (٦٧) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٠٦.
- (٦٨) دراسات فى السيرة النبوية: د. حسين مؤنس، ص ٧٩، مرجع سابق.
- (٦٩) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للقمى التيسابوري تحقيق حمزة النشرتى وآخرين، ص ٤٢٨، المجلد الحادى عشر.
- (٧٠) محمد الثائر الأعظم: فتحى رضوان، ص من ٩٢ - ٩٣.
- (٧١) حياة محمد: لهيكل ، ص ١٤٦ .

- (٧٢) الموسوعة الإسلامية الميسرة: أشرف على تحريرها نيابة عن الأكاديمية الهولندية، الملكية: هـ ١٥، وجب. كالمرز ترجمة د. راشد البراوي، الجزء الأول، طبعة ١٩٨٥م، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٣١٤، ٣١٢.
- (٧٣) الرسول في رمضان: الخريوطلي، ص ٢٠ وما بعدها.
- (٧٤) نساء النبي: ص ٣٤، بنت الشاطئ.
- (٧٥) التفسير البياني للقرآن الكريم: الجزء الأول، ص ٤٨، د. عائشة عبد الرحمن. بنت الشاطئ. مكتبة الدراسات الأدبية، ٢٥ الطبعة الثانية ١٩٦٨م، دار المعارف بمصر.
- (٧٦) سلام على النبي وأصحابه: مصطفى بهجت بدوى، ص ٤٩، الطبعة الأولى مايو ١٩٨٦م، العدد رقم ٤٢٥، في سلسلة كتاب الهلال، دار الهلال بمصر.
- (٧٧) الرسول في رمضان: ص ٢٠ الخريوطلي.
- (٧٨) في المعجم الوسيط: القرف: مخالطة ما يستكره.
- (٧٩) محمد رسول الله: جلال مظہر، ٤٦.
- (٨٠) أوائل العرب عبر العصور والحقب: طاهر جليل حبوش، الجزء الثاني، الخلافة الراشدة: هامش ص ١٠١، دن بغداد، العراق.
- (٨١) سيرة المصطفى . نظرية جديدة: تاليف هاشم معروف الحسني، ص ١١٩، ط أولى، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.
- (٨٢) سيرة المصطفى ﷺ: لعبد الزهراء عثمان محمد، ص ١٥، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٢م، مؤسسة الفكر الإسلامي للثقافة والإعلام، بيروت، لبنان.
- (٨٣) كلمة عربية فضيحة وتدل على ذات المعنى الذي تهدف إليه العامة في مصر.
- (٨٤) عبد الرحمن بن عوف هو أحد المبشرين العشرة أو العشرة المبشرين بالجنة والذي قام بدور بالغ البطل في حربة أبي الحسنين من حقه الشرعي في الخلافة وتوليه الأموى عثمان بن عفان إياها فبدأ بتحويلها إلى ملك عضوض ثم أكمل المسيرة ابن عمّه معاوية ومن جاء بعده من السفيانيين والمرؤانيين الأماجد !!
- (٨٥) في معاجم اللغة: الفتر ما بين السبابة والإبهام.
- (٨٦) صداقها وكلفتها.
- (٨٧) ما يشيرى به الجارية.
- (٨٨) دراسات في السيرة وعلوم السنة: موسى شاهين لاشين وآخر، ص ٩١، سابق.
- (٨٩) هذا الرقم من خصائصه إذ المسلم لا يحل له سوى أربع زوجات في وقت واحد.
- (٩٠) نحن نرجح أن الشافعى تعلم اليونانية وقرأ كتب أرسطو واستفاد منها كثيراً فى ابتداعه علم «أصول الفقه» كما أنتنا نذهب إلى أن أول من تكلم فيه هو الإمام الأعظم أبو حنيفة وجاء الشافعى بعده فقدمه ومنهجه لأن العقل العربى ليس مؤهلاً لإبداع علم فى المنطق.
- (٩١) الطبقات الكبرى: ابن السبكى الجزء الثاني من ٢١٨، نقالا عن ترجمة فتح المبدى، «شرح مختصر الزبيدي» للشرقاوى، الجزء الأول ١٤٢٠هـ / ١٩٩٠م، كتاب الشعب، دار الشعب بمصر.
- (٩٢) مرات عديدة نقلت إلينا كتب السنة المشرفة أن «الفضيلة» كثيراً ما قال لصاحبه وتبعه «إني داع فأنمنوا» فيهربون إلى التأمين على الفور لا التراخي لأن البركة في الإدعان والتسليم والاتباع أما المبتدعون فلهم نار الحطمة وما أدراك ما هي ولذا قال «كل بذلة ضلالة وكل ضلالة في النار».
- (٩٣) الخليط الذى يختلط بالناس كثيراً والجمع خلطاء من «المصباح المنير» للمقرن الفيومى.
- (٩٤) تقول العامة في مصر: انظف من الصيني بعد غسله.
- (٩٥) محمد رسول الله: ص ٤٧، جلال مظہر.
- (٩٦) تقول العامة في مصر: ما يقدرش يكبح.
- (٩٧) اتبعنا في هذا الترتيب ما جاء من المصحف لا الترتيب الذي تلاه «محمد» على صحابته لأنه

- معضل لم يتوصل إلى ضبطه أحد لا من السلف ولا من الخلف.
- (٩٨) التيسير خلاصة تفسير ابن كثير: المتوفى ٧٧٤ بقلم محمود محمد سالم، خريج الأزهر ص ٨٠٢، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، نشرته دار الشعب في مصر.
- (٩٩) التفسير الواضح: لمحمد محمود حجازي من علماء الأزهر، الجزء التاسع عشر ص ٧، الطبعة الأولى «دون تاريخ» دار الكتاب العربي بمصر.
- (١٠٠) المصحف المفسر: د. حمزة عبدالله الشترتي، ص ٣٥، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م دون ذكر الناشر.
- (١٠١) كلمة عربية صحيحة سبق شرحها وأنها تتفتح أو تمنع الدلالة ذاتها التي تتصدّها العامة في مصر.
- (١٠٢) في أساس البلاغة: للزمخشري: أخلاق الشيء . الملزمان له والألفون له.
- (١٠٣) في المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية: مكان مرت . لا نبات فيه ورجل مرت الحاجب . ليس على حاجة شعر.
- (١٠٤) سورة الزلزلة الآيات الثلاثة والرابعة.
- (١٠٥) سيرة المصطفى . نشرة جديدة: لهاشم الحسني، ص ص ٢٠ - ٢١ سابق.
- (١٠٦) سبق شرحها.
- (١٠٧) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الجزء الثاني، ص ٨٠، مصدر سابق.
- (١٠٨) دولة يثرب . بصائر في عام الوفود: خليل عبد الكريم، ص ٧٤، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، دار سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.
- (١٠٩) الأغاني: للأصفهاني، الجزء ١٥، ص ٩٥ نقلًا عن «قبيلة إياد من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي» د. محمد إحسان النص ص ٤٦، الحولية الثامنة، الرسالة السابعة والأربعون ١٩٧٨/١٤٠٨/١٤٠٧هـ، حلويات كلية الآداب، جامعة الكويت.
- (١١٠) البيان والتبيين: للجاحظ، الجزء الأول، ص ٥٨، نقلًا عن «قبيلة إياد» للنص ص ٤٧، مرجع سابق.
- (١١١) ما برحت المطاهرة تناديه يا أبا القاسم ولم يحدث أنها خاطبته بيا رسول الله إلا في ما ندر أى استثناء واستثناء لا يقاس عليه . هذا فيما طالعنه من كتب تراجمة دعك من المؤلفات الحديثة التجيلية . ولم ترو عنه حديثاً واحداً بل هو الذي نقل إليها تحيات الله والروح الأمين ذي القوة وتبشيره إياها ببيت في الجنة أ.هـ.
- (١١٢) في السيرة النبوية: لهشام جعيط، الجزء الأول، ص ١٢٠، مرجع سابق.
- (١١٣) ص ١٢ من ذات المرجع.
- (١١٤) سبق شرحها والغاية في القاهرة تقول: حدونة، أما في صعيد مصر فتقول: حكية أ.هـ.
- (١١٥) عدن أى أقام ومنها جنة عدن المؤوى والإقامة الدائمة.
- (١١٦) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول ص ١٤٠.
- (١١٧) سيرة المصطفى . نظرة جديدة: لهاشم الحسني، ص ٥٥، مرجع سبق ذكره.
- (١١٨) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٩٤.
- (١١٩) فرشت فرشا . بسطت فرشا أو كلاما من «كتاب الأفعال» لأبن عثمان السرقسطي، سابق.
- (١٢٠) فتح المبدئ شرح مختصر الزبيدي: للشرقاوي، تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم، ص ٩١، الجزء الثاني، طبعة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م، كتاب الشعب، الشعب للنشر بمصر.
- (١٢١) معناها أن تهرون أو تسرع وقد سبق شرحها أ.هـ.
- (١٢٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ١٩٨.
- (١٢٣) الروض الأنف: للسهيلي، الأول، ص ٣٠٦، ط شقرورون.
- (١٢٤) أبو ذر الغفارى من القلة القليلة وربما النادرة من صحابة محمد الذين عاشوا حياتهم بعد انتقاله

إلى الرفيق الأعلى كما عاشهما في حياته، أما الأغلبية العظمى فقد غيرتهم الدنيا باعتراف العدوى عمر بن الخطاب ومن أراد المزيد من العلم بهذه النقطة فعليه بكتابنا «شدو الراية بأحوال مجتمع الصحابة» بأسفاره الثلاثة، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، دار سينا للنشر بالاشتراك مع مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

- (١٢٥) الموسوعة الإسلامية الميسرة: المجلد الأول ١٤١، ص ١٤٢، سابق.
- (١٢٦) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٩٣.
- (١٢٧) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٩٤.
- (١٢٨) في السيرة النبوية . ١ - الوحي والقرآن والنبوة: لهشام جعيط، ص ١٢٥، مرجع سابق.
- (١٢٩) السيرة النبوية: للذهبي، ص ٧٠.
- (١٣٠) أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول، ص ١١١.
- (١٣١) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ص ٤٠٣-٤٠٦.
- (١٣٢) الخصائص الكبرى: للسيوطى، المجلد الأول ص ٢١٦.
- (١٣٣) لابد أن الحمزة هذا شهد رقص الجواري في حفلة العرس وعب وتنعل من «الخمرة» حتى ثمل فقد عرف عنه تعاطيها وعندما نزع إلى يثرب نقلت كتب السيرة المحمدية العظيمة واقعة عن سكره البين إذ عقر ناقة مملوكة لابن أخيه على بن أبي طالب الذي استجد بدالحبيب المصطفى» فيما إن بدأ في معايبة عمه المخمور حتى وجه إليه كلاماً قالاً لا يجرؤ مسلم على مخاطبته به فتركه وانصرف إذ إنه ظل طوال حياته كريم الأخلاق حليماً صبوراً لم تر قريشاً ولا جزيرة العرب مثله في عظم شأنه.
- (١٣٤) الإغداد: سرعة السير من كتاب «نظام الغريب في اللغة» لعيسى الحميري، مصدر سابق.
- (١٣٥) هو فرع متدن من قريش ولو أن واحداً من بنيه يسمى عبد الله بن جدعان جمع مالاً ممودداً من الريا والتخصasse وعرق العبدان وأفخاذ الجواري صواحب الرايات الحمر، حاول أن يرفع من قدره دون جدوى وحتى بعد أن اغتصب هذا «العتيق» الخلافة من صاحب الحق الشرعي فيها على بن أبي طالب لم يتزحزح بنو تميم عن موقفهم الخفيف في قريش.
- (١٣٦) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول ص ٢٢١.
- (١٣٧) رفعت الصدقة الكلفة بينهما: رفعت ما يتجمش من أنواع المجاملات، «المجمع الوسيط».
- (١٣٨) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ١-٣٩٨، مصدر سبق ذكره.
- (١٣٩) عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ص ٨٢-٨٤، المجلد الأول، د.ت الناشر دار المعرفة، لبنان.
- (١٤٠) وخذ: سار بخطى واسعة «أساس البلاغة» للزمخشري.
- (١٤١) أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول، ص ص ١٠٥-١٠٦.
- (١٤٢) السيرة النبوية: لابن كثير ذات الجزء أو المجلد ذات الصفحة.
- (١٤٣) السيرة الشامية: ص ٢١٢ وما بعدها.
- (١٤٤) الخصائص الكبرى: الأول، ص ٢١٩ السيوطى.
- (١٤٥) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، الحديث الثالث.
- (١٤٦) الدر النظيم فيما ورد من أخبار حول آى الذكر الحكيم: لحمزة النشري وآخرين، المجلد الأول، ص ٢٠٧، د.ت. دن.
- (١٤٧) الخصائص الكبرى: للسيوطى، ص ٢١٥.
- (١٤٨) مما هو جدير بالذكر أن ليس العبادة من قبل رجل الدين هو تقليد يهودي أخذوه عن رجال الدين في مصر القديمة عندما لجأوا إليها هرباً من المجاعة والقحط ١.هـ.
- (١٤٩) المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، سابق.
- (١٥٠) أساس البلاغة: للزمخشري.
- (١٥١) كتاب التعريفات: للجرجاني ٨١٦/٧٤، حققه إبراهيم الأبياري، الطبعة ١٤٠٥/١٩٨٥م، دار

- الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- (١٥٢) المصباح المنير: للفيومي.
- (١٥٣) الأحلام بين العلم والعقيدة: د. على الوردي، ص ٣٩، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، دار كوفان، لندن.
- (١٥٤) الأحلام: للدكتور توفيق الطويل، ص ٩٤ نقلًا عن بحث «تحليل كتاب الأحلام» لـ د. حسن الساعاتي في الكتاب التذكاري لتوفيق الطويل، ص ١٠٠.
- (١٥٥) السيرة الحلبية: الأولى، ص ٢٧٨.
- (١٥٦) القاموس الموجز للكتاب المقدس: ترجمة مختصرة لقاموس موريش، ص ١٩٦، الطبعة الثانية ١٩٩٢م، الناشر مكتبة كنيسة الأخوة، شبرا مصر.
- (١٥٧) النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ: تأليف على مبروك، ص ٩٨، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار التتوّر، بيروت، لبنان.
- (١٥٨) نحن نعييه لأنه لم يقل عنها: الجاهيلية ١ـهـ.
- (١٥٩) غرائب القرآن: للنبيابوري، مجلد ١١، ص ٤٢٦.
- (١٦٠) في هامش الصحفة: انظر «دلائل النبوة» لأبي نعيم حيث أورده من حديث طوبل رقم ٢١٦/٢١٥/١٠٣٦، وحلوة القفا: وسطه كما في «المجمع الوسيط». «زهر الخمائل على الشمائل». أوصاف النبي ﷺ: جلال الدين السيوطي ٩١١-٤١، تحقيق مصطفى عاشور، ص ٤٧، ط ١،١٩٨٨، مكتبة القرآن.
- (١٦١) الخصائص الكبرى: للسيوطى، المجلد الأول ص ٢١٦.
- (١٦٢) الإسراء: الآية ٤٦.
- (١٦٣) العنكبوت: الآية ٤٩.
- (١٦٤) الأحلام: د. على الوردي، ص ٧٤، سابق.
- (١٦٥) الأحلام: د. على الوردي، ص ٩٦، مرجع سابق ذكره.
- (١٦٦) الأحلام: لـ د. على الوردي، مرجع سابق لنا ذكره.
- (١٦٧) دانيال ٨: ٢٢-٥.
- (١٦٨) النبوة. من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ: على مبروك، ص ٦٢، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار التتوّر، بيروت، لبنان.
- (١٦٩) الأحلام: لـ د. توفيق الطويل، ص ١٢٥، نقلًا عن دراسة د. حسن الساعاتي «تحليل كتاب الأحلام لتوفيق الطويل» بالكتاب التذكاري د. توفيق الطويل مفكراً عربياً ورائداً للفلسفة الخلقية بعونه ودراسات مهادة. إشراف وتصدير د. عاطف العراقي ١٩٩٥م، المجلس الأعلى للثقافة، وزارة الثقافة، مصر.
- (١٧٠) القاموس الموجز للكتاب المقدس: ص ١٩٦، مرجع سابق.
- (١٧١) أشعياء الأول: ١٠.
- (١٧٢) عاموس الأول: ٢.
- (١٧٣) عاموس: الثالث، ١، ٢.
- (١٧٤) عاموس: السابع، ١٥.
- (١٧٥) الخصائص الكبرى: الأولى، ص ٢٢٢، للسيوطى.
- (١٧٧) نحن نشك في نسبة هذه الأوصاف إلى محمد ونرجح أنها أضيفت إلى جانب ابن عباس إبان خلافة أحفاد العباسين. لأن هذا العبد الله عندما لحق «من جعلت له الأرض مسجداً» بالرفيق الأعلى بالكاد. العامة في مصر نقول: يا دوبك. راهق الثانية عشرة من عمره فكيف يطلق «الفارق بين الحق والباطل» على حدث «خبر الأمة وترجمان القرآن».
- وبعد سنوات ولاه ابن عمه الإمام على مفاتيح بيت مال الكوفة فلما سمع عنه أبو الحسن أشياء تمس الذمة طفق يحاسبه وضيق عليه الخناق فاستولى على جميع ما فيه وكتسه ورشه وهرب

- بليل في حراسة أصهاره واشترى بالمال جاريتين وضيئتين من السبايا وعدن في الطائف ليجتمع له طيب هواها مع جمال... أ.هـ.
- (١٧٨) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ص ١٧٨ - ١٨١.
- (١٧٩) محمد الثائر الأعظم: لفتحي رضوان، ص ١٠٤.
- (١٨٠) الآية ٢١ من سورة النور.
- (١٨١) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٠.
- (١٨٢) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٣٠٦، ٣٠٧ سابق.
- (١٨٣) الرسول في رمضان: على الخريوطلي، ص ص ٢٠ - ٢٤.
- (١٨٤) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٣٠٦، ٣٠٧.
- (١٨٥) الأخلاقيات: للدكتور توفيق الطويل، ص ص ١٢٨ - ١٢٥، نقلًا عن دراسة د. حسن الساعاتي، مرجع سابق.
- (١٨٦) من الذين اتجهوا إلى تأثير دانى بالتراث الإسلامي وخاصة حديث الإسراء والمعراج ورسالة الغفران للمعراج وكتابات بعض المتصوفين مثل محبي الدين بن عربي: المستشرق الأسپاني ميجوويل أسين بلايثوس ولقد أيده بعض الباحثين وعارضه آخرون، ص ص ٦١-٦٠ من «الكوميديا الإلهية» التشيد الأول، الجعيم، لدانى الجيجرى. ترجمة حسن عثمان الطبعة الأولى ١٩٥٩، دار المعارف بمصر.
- (١٨٧) هنالك شبه إجماع من المؤلفين قدامى ومحدثين في السيرة المحمدية التي هي أذكر ريعاً من المسك الأصهب على التضييب على هذه الحادثة مع أنها في نظرنا تسم بقدر من الأهمية أ.هـ.
- (١٨٨) الأخلاقيات بين العلم والعقيدة: د. على الوردي، ص ٣٣، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، دار كوفان، لندن.
- (١٨٩) (١٩٠) آدم: مس الخيز بالأدائم مسأً رقيأً ثم أخذت معنى اقتصر.. «المعجم موسوعة لغوية علمية فنية» القسم الأول، للشيخ عبد الله العلائي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧، دار الجديد، بيروت، لبنان.
- (١٩١) الأخلاقيات: د. على الوردي، ص ٣٩، مرجع سبق ذكره.
- (١٩٢) ذات المراجع والصفحة.
- (١٩٣) ذات المراجع والصفحة.
- (١٩٤) الأخلاقيات: د. على الوردي، ص ٤٠ سابق.
- (١٩٥) السمط الشرين: للمحب الطبرى، ص ٤١.
- (١٩٦) إنسان اليون في سيرة الأمين المأمون. الشهير بالسيرة الحلبية: لعلى بن برهان الدين الحلبي ٩٧٥ - ١٤٤٠، الجزء الأول، ص ٣٧٧، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، بمصر.
- (١٩٧) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول، ص ص ٤٠٧ - ٤١٠.
- (١٩٨) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول، ص ٤٠٧، ٤١٠.
- (١٩٩) السمط الشرين: للمحب الطبرى، ص ٣٩، وما بعدها سابق.
- (٢٠٠) مولد النبي ﷺ: للإمام السيد جعفر البرزنجي، تصحيح وضبط ومراجعة أبو الفضل الصديق الغمارى، ص ١٢ - ١٥، د.ت.ن. مكتبة القاهرة الصناديقية بمصر.
- (٢٠١) السيرة الشامية: الثاني، ص ٣٨.
- (٢٠٢) تهذيب سيرة ابن هشام: الأول، لعبد السلام هارون، ص ٥٨.
- (٢٠٣) دائرة المعارف الكتبية: الجزء الأول، ص ٣٠٧، مصدر سابق.
- (٢٠٤) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي.
- (٢٠٥) فتح الباري: للعسقلانى، ص ٢١ في شرح الحديث الثالث، إصدار المطبعة السلفية، مصدر سابق.
- (٢٠٦) ذات المصدر والصفحة.

- (٢٠٧) يلاحظ أنه عندما انتقل «الإنسان الكامل» إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها !!.
- (٢٠٨) خروج : ١٩ - ٢١٠ (٢١١) وإذا إن الشيء بالشيء يذكر فهناك خناقة لرب السماء «حسب تعبير عامي شائع في مصر» بين المسلمين والنصارى «المسيحيين حالياً» على من يستحق لقب رئيس الملائكة فهو جبرائيل أو ميكائيل ؟ ولا أدرى ما أهمية أن يحمل اللقب هذا أو ذاك !
- (٢١٢) إنجيل متى: الإصلاح الثالث.
- (٢١٣) إنجيل متى: الإصلاح الرابع.
- (٢١٤) المسلمين يسمونهم الحواريين والمسيحيون يلقبونهم بالرسل أهـ.
- (٢١٥) إنجيل متى: الإصلاح السابع عشر.
- (٢١٦) في المختار من صحاح اللغة: القلة أعلى الجبل وقلة كل شيء أعلاه.
- (٢١٧) إنجيل مرقس: الإصلاح الأول.
- (٢١٨) إنجيل مرقس: الإصلاح التاسع.
- (٢١٩) إنجيل لوقا: الإصلاح الأول.
- (٢٢٠) الآية العاشرة من سورة مريم.
- (٢٢١) الآية السادسة عشرة وما بعدها من سورة مريم.
- (٢٢٢) إنجيل لوقا: الإصلاح الرابع.
- (٢٢٣) نفس الإنجيل وذات الإصلاح.
- (٢٢٤) السيرة النبوية: لابن إسحاق، ص ٩١، المجلد الأول، من إصدارات القطاع الثقافي، بدار أخبار اليوم، مصدر سابق.
- (٢٢٥) السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق د. محمد فهمي السرجاني، ص ٢٤٤، من الجزء الأول، ساق.
- (٢٢٦) تاريخ الطبرى: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثاني، ص ٢٩٨ - ٣٠٢ الطبعة الرابعة ١٩٧٧، دار المعارف بمصر.
- (٢٢٧) عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ص ٨٥، ٨٦، من المجلد الأول، دٌت الناشر دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- (٢٢٨) الجزء الأول من «السيرة الحلبية» ص ٢٨٦.
- (٢٢٩) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . المتوفى سنة ٧٤٨، المجلد الأول، السيرة النبوية الطبعة الأولى ١٩٩٦م، دار الفد العربي، مصر ص ٥٩.
- (٢٣٠) العامة في مصر تقول: رجالها برجله.
- (٢٣١) السيرة النبوية: لابن كثير، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد، الجزء الأول، ص ٤٠٢، مصدر سابق.
- (٢٣٢) في أساس البلاحة: للزمخشري نكت: امتنع واقبض أناها وحمية.
- (٢٣٣) من اشتلت خصومته.
- (٢٣٤) حولها الحفة وهم الخدم والأعوان من «المصابح المنير» على الفيومى.
- (٢٣٥) في «أساس البلاحة» للزمخشري: رجل محفود محضوى . مجتمع عليه.
- (٢٣٦) السمحط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين: للمحب الطبرى، ص ص ٤٠ - ٤٢، مصدر سابق.
- (٢٣٧) الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء: للكلاغى، ٥٦٥، ٦٢٤، ت تحقيق مصطفى عبد الواحد، ص ٢٦٥ . الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٢٨٧، ١٩٦٨م، الناشر مكتبة الخانجي، مصر.
- (٢٣٨) أخبار مكة للأزرقى: الثاني، ص ٢٠٤ .

- (٢٢٩) المصباح المنير للمقرن الفيومي.
- (٢٤٠) كتاب المسالك والمالك: لأبي عبد البكرى الجزء الأول، حققه أدريان فان ليوفن وأندريه فيرى، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، بيت الحكمة، تونس.
- (٢٤١) في منزل الوحي: هيكل، ص ٢٥٢.
- (٢٤٢) محمد رسول الله: لناصر الدين آتىين دينيه وسلمان بن إبراهيم، ترجمة الشيخ محمود عبد الحليم وابنه الشيخ محمد، ص ص ١٠٨ - ١٠٩، ط أولى سنة ١٩٧٩م، دار المعارف بمصر.
- (٢٤٣) الرسول في رمضان: د. على حسن الخربوطلى، ط أولى ديسمبر ١٩٦٧م، العدد ٣١١ من سلسلة «اقرأ» دار المعارف بمصر.
- (٢٤٤) خاتم النبيين ﷺ: للشيخ محمد أبو زهرة، هامش ص ص ٣٠٦ - ٣٠٧، المجلد الأول.
- (٢٤٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٣٨٩ وما بعدها، سابق.
- (٢٤٦) البقرة: ١٤٤ - ١٥٠.
- (٢٤٧) الرسول في رمضان: د. على حسن الخربوطلى، ص ٦ وما بعدها سابق.
- (٢٤٨) جوامع السيرة النبوية: لابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦هـ، ص ٢٦، ط ١٩٨٢م، «أول طبعة» مكتبة التراث الإسلامى، الأزهر، القاهرة.
- (٢٤٩) السيرة الشامية، الجزء الثاني، ص ٢١٦ وما بعدها سابق - سيرة ابن هشام: الأول، ص ٢٤٢، تحقيق السرجانى سابق - السيرة الحلبية: الأول، ص ٢٨٢ سابق. الفصول فى اختصار سيرة الرسول: لابن كثير، ص ٨٢ وما بعدها، سابق. شرح السيرة النبوية برواية ابن هشام: لأبى ذر الخشنى، ٦٠٤/٥٢٢، ص ٧٥ وما بعدها سابق.
- (٢٥٠) فصلت: ٦.
- (٢٥١) فتح المدى شرح مختصر الزبيدي: ص ص ٧٠ - ٧٤، سابق ذكره.
- (٢٥٢) المعجم الوسيط: والغار - مكان منقول فى الجبل يشبه البيت.
- (٢٥٣) القاموس المحيط.
- (٢٥٤) القاموس الموجز للكتاب المقدس: ص ٥٥، الطبعة الثانية ١٩٩٢م، مرجع سابق.
- (٢٥٥) فقه السيرة: لمحمد الفزاوى، ص ٩٠ وما بعدها، مرجع سابق.
- (٢٥٦) سيرة ابن هشام: الأول، ص ٢٤٢، ت. السرجانى.
- (٢٥٧) السيرة الحلبية: الأول، ص ٢٨٢.
- (٢٥٨) الفصول فى اختصار سيرة الرسول ﷺ: لابن كثير، ص ص ٨٣ - ٨٤ - ٨٥.
- (٢٥٩) السيرة الحلبية: الأول، ص ٢٨٢.
- (٢٦٠) السيرة الشامية: الجزء الثانى، ص ص ٢١٦ - ٢٣٠.
- (٢٦١) شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام: لأبى ذر الخشنى ٦٠٤/٥٢٢، ص ٧٥ تصحيح بولس برونلة د.ت: دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٢٦٢) مختار الصحاح: للرازى.
- (٢٦٣) المصباح المنير: للمقرن الفيومي.
- (٢٦٤) أساس البلاغة: للزمخشري.
- (٢٦٥) القاموس المحيط: للقىروز آبادى.
- (٢٦٦) سبق توضيعها وشرحها.
- (٢٦٧) شطر استشهاد به أبو عثمان كما جاء فى «كتاب الأفعال» للسرقسطى، الجزء الرابع، القسم الأول، فى باب الثالثى الصحيح من «الواو» فعل «وشج» ص ٢٥٥، سابق.
- (٢٦٨) حياة سيد المرسلين محمد ﷺ: لمحمد عطية الإبراشى، ص ص ٤٣ - ٤٤، طبعة أولى ١٩٨٠م، مكتبة مصر، القاهرة.
- (٢٦٩) دراسات فى «السيرة النبوية»: د. حسين مؤنس، ص ص ٩٠ - ٩١، مرجع سابق ذكره.

- (٢٧٠) في الحديث «إن أنفع الأسماء أن يتسمى الرجل بملك الأموال» أي أشدتها إهلاكاً والعامة في مصر تقول «فلان ينفع» أي يحكي الأهاويل التي لا أساس لها أبداً.
- (٢٧١) نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز: لرفاعة رافع الطهطاوى، تحقيق وتعليق د. فاروق أبو زيد، الجزء الثاني، ص ١٢ - ١٤، الطبعة الأولى ١٩٧٦م، دار الفكر والفن، القاهرة.
- (٢٧٢) تهذيب السيرة ابن هشام: الأول، عبدالسلام هارون، ص ٥٦ سابق.
- (٢٧٣) مازالت المعركة مستمرة بين تبع موسى وتبع محمد على اسم هذا الابن هل هو إسحق أم اسماعيل ورغم مرور أربعة عشر قرنا لم تصل الطائفتان فيها إلى حل.
- (٢٧٤) وتنتهز هذه المناسبة لنسطر أن عبدالله بن عبد الله بن عبد المطلب . أبي محمد . أطلق عليه القرشيون «يوسف مكة» لأنه من شدة وضاعته وقامته أحرق قلوب نسوانها ثياباً وعذاري أهـ.
- (٢٧٥) السيرة النبوية: لابن إسحق، الأول، ص ١٩١ سابق.
- (٢٧٦) السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق السرجاني، الأول ص ٢٤٤، ٢٤٥.
- (٢٧٧) السيرة الحلبية: ص ٣٨٥.
- (٢٧٨) السيرة الشامية: الثاني، ص ص ٣١١ - ٣١٢.
- (٢٧٩) الاكتفاء في مفازى رسول الله والثلاثة الخلفاء: لأبي الريبع الكلاعي، الجزء الأول، ص ٢٦٢ وما بعدها، تحقيق مصطفى عبد الوارد، الطبعة الأولى ١٣٨٧-١٩٦٨م، مطبعة الخانجي، بمصر.
- (٢٨٠) الخصائص الكبرى: للسيوطى، الأول، ص ٢١٦.
- (٢٨١) حياة محمد: لهيكل ص ٤٨.
- (٢٨٢) قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، ص ٣٠٢، ٣٠٤.
- (٢٨٢) تهذيب سيرة ابن هشام: لهارون الأول، ص ٦٠.
- (٢٨٤) بحث جديد عن القرآن الكريم: لمحمد صبيح، ص ٢٠ - ٢١، الطبعة السادسة، دار الثقافة العامة بالقاهرة.
- (٢٨٥) محمد رسول الله: ص ٤٨، جلال مظہر.
- (٢٨٦) محمد رسول الله: ناصر الدين آتىين دينيه وسلمان بن إبراهيم، ترجمة الشيخ عبد الحليم محمود وابنه الشيخ محمد، ص ص ١٠٩ - ١١٠، ط أولى ١٩٧٩م، دار المعارف بمصر.
- (٢٨٧) العامة في مصر تقول عن الشيء الزائف أو الفسيد مضروب «وهو تعبير جديد» مثل الشيخ بدون رصيد أو قطعة الغيار المغشوشة أو العملة الورقة المزيفة ... إلخ أهـ.
- (٢٨٨) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

•••

القرآن العظيم

الكتاب المقدس

أولاً: المصادر

١. أخبار مكة وما جاء بها من الآثار للإزرقى.
٢. أسد الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزري.
٣. «أعلام النبوة» لأبى الحسن على الماوردى.
٤. «الاكتفاء فى معازى رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء» للكلاعى.
٥. «إمتع الأسماع بما للنبي ﷺ من الآباء والحفدة والمتابع» للمقرىزى.
٦. «إنجيل لوقا».
٧. «أنساب الأشراف» للبلاذرى.
٨. «أنوار التزيل وأسرار التأويل» ناصر الدين الشيرازى البيضاوى.
٩. «تاريخ الإسلام» للذهبى.
١٠. «تاريخ الطبرى» تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم.
١١. «تاريخ اليعقوبى» لليعقوبى.
١٢. «التسهيل لعلوم التزيل» لأبن جزى الكلبى.
١٣. «تفسير الجلالين» للحنى والسیوطى.
١٤. «تفسير النسفى» لأبن برکات عبدالله النسفى.
١٥. «توبير المقباس فى تفسير ابن عباس» للفيروز آبادى.
١٦. «ثمار القلوب» لأبى منصور الثعالبى.
١٧. «الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبى» للقرطبى.
١٨. «جمهرة أنساب العرب» لأبن حزم الأندلسى.
١٩. «الخصائص الكبرى» للسيوطى.
٢٠. «الدرر فى اختصار المغازي والسير» لأبن عبد البر.
٢١. «الروض الأنف» للسهيلى.
٢٢. «زهر الخمائى على الشمائى - أوصاف النبي ﷺ» لجلال الدين السیوطى.
٢٣. «السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين» للمحب الطبرى.
٢٤. «السيرة الحلبية» لبرهان الدين الحلبى.

٢٥. «السيرة الشامية» للصالحي الشامي.
٢٦. «السيرة النبوية» لابن إسحق.
٢٧. «السيرة النبوية» للذهبي . تحقيق حسام الدين القدسى.
٢٨. «السيرة النبوية» لابن كثير.
٢٩. «السيرة النبوية» لابن هشام . تحقيق السرجانى .
٣٠. شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام» لأبي ذر الخشنى.
٣١. «الطبقات الكبرى» لابن سعد.
٣٢. «الطبقات الكبرى» لابن السبكي . غير مباشر.
٣٣. «عيون الأثر» لابن سيد الناس.
٣٤. «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للقمي النيسابوري.
٣٥. «كتاب المسالك والممالك» لابن عبيد البكري.
٣٦. «كتاب نسب قريش» لابن عبدالله بن المصعب الزبيرى.
٣٧. «مجاز القرآن» لابن عبيدة عمر بن المثنى.
٣٨. «مختصر سيرة الرسول» لمحمد عبد الوهاب مقدمة لمحمد حامد الفقى.
٣٩. «المختصر فى تفسير القرآن» أو «مختصر تفسير الطبرى» لابن صمادع التجيبي.
٤٠. «مفاسد الغيب أو التفسير الكبير» لفخر الدين الرازى.
٤١. «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزى.

ثانية: كتب الأحاديث وشروحها:

١. «جمع الجوامع» أو «الجامع الكبير» لجلال الدين السيوطي.
٢. «صحیح البخاری».
٣. «صحیح مسلم».
٤. «فتح الباری شرح صحیح البخاری» لابن حجر العسقلانی.
٥. «فتح البدی شرح مختصر الزبیری» للشرقاوی.
٦. «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشیخان» لفؤاد عبدالباقي.
٧. «المستدرک» للحاکم النيسابوری . تحقيق مصطفی عبد القادر.
٨. «المسنن» لأحمد بن حنبل.

بخلاف العشرات من كتب الصحاح والمسانيد والجوامع والسنن والموط والمختارات والمنقيات والمستخرجات والزوائد والمصنفات والزوائد ... إلخ ا وردت بمن کتاب.

ثالثاً: المراجع:

١. «الأحلام» لتوفیق الطویل . غير مباشر من بحث بعنوان «تحليل ک الأحلام» بقلم د. حسن الساعاتی ص ١٠٠ من الكتاب التذکاری عن ت الطویل من إصدارات المجلس الأعلى للثقافة بمصر.

٢. «الأحلام بين العلم والعقيدة» لعلى الوردى.
٣. إظهار الحق» للشيخ رحمت الله بن خليل الهندي «غير مباشر».
٤. «أوائل العرب عبر العصور والحقب» لحبوش.
٥. «تاج التقاسير ل الكلام الكبير» ل محمد عثمان الميرغنى - الختم.
٦. «تاريخ الشعوب العربية» لجورج حورانى، ترجمة نبيل صلاح الدين.
٧. «تاريخ الصحابة والتابعين» لحمزة النشرى وآخرين.
٨. «تاريخ القرآن» لعبد الصبور شاهين.
٩. «التفسير البىانى للقرآن الكريم» لبنت الشاطئ د. عائشة عبد الرحمن.
١٠. «التفسير الميسر» لمحمد سيد طنطاوى.
١١. «التفسير الواضح» لمحمد محمود حجازى.
١٢. «الтиفسير خلاصة تفسير ابن كثير» لمحمد محمد سالم.
١٣. «تهذيب سيرة ابن هشام» لعبد السلام هارون.
١٤. «حجۃ الله على العالمين في معجزات سید المرسلین» للبهانی . تحقيق حمزة النشرى وآخرين.
١٥. «حياة الصحابيات» لحمزة النشرى وآخرين.
١٦. «حياة سید المرسلین» للأبراہشى.
١٧. «حياة محمد» ل محمد حسين هيكل.
١٨. «خاتم النبيین» ل محمد أبو زهرة.
١٩. «خدیجة أم المؤمنین» لعبد المنعم محمد عمر.
٢٠. «خلاصة السیرة النبویة وحقيقة الدعوة المحمدیة» للسید محمد.
٢١. «دائرة المعارف الكتابية» المحرر ولیم وهبة.
٢٢. «الدر المنثور في طبقات رباث الدخور» غير مباشر.
٢٣. «دراسات في السیرة النبویة» لحسین مؤنس.
٢٤. «دراسات في السیرة وعلوم السنة» لموسى شاهین وآخر.
٢٥. «الدر النظيم فيما ورد من أخبار حول آی الذکر الحکیم» لحمزة النشرى وآخرين.
٢٦. «دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرین» ل محمد أبو شهبة.
٢٧. «دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ» لعبدالحليم محمود ومحمد بن الشريف.
٢٨. «دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى» لأمال قرادش بنت الحسين.
٢٩. «دولة يثرب بصائر في عام الوفود وفي أخباره» لخليل عبد الكريم.
٣٠. «الرحمة المهداة محمد ﷺ» ل محمد سيد طنطاوى.
٣١. «الريحق المختوم» للمبارك فوري.

٣٢. «الرسول في بيته» لعبد الوهاب حمودة.
٣٣. «الرسول في رمضان» لمحمد حسني الخريوطى.
٣٤. الرسول ﷺ ملحوظات من حياته ونفحات من هديه» لعبد الحليم محمود.
٣٥. «زوجات الرسول ﷺ وتعدد الزوجات في الإسلام» لأصلان عبد السلام حسن.
٣٦. «سلام على النبي وأصحابه» لمصطفى بهجت بدوى.
٣٧. «سيرة المصطفى ﷺ» لعبد الزهراء عثمان محمد.
٣٨. «سيرة المصطفى - نظرة جديدة» لهاشم معروف الحسن.
٣٩. «السيرة النبوية» لأبى الحسن الندوى.
٤٠. «سيرة النبي محمد» لكارين أرمسترونج.
٤١. «شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ» لمحمد على الصابوني.
٤٢. «شدو الريابة بأحوال مجتمع الصحابة» ثلاثة أسفار لخليل عبدالكريم.
٤٣. «صفوة السير» إعداد محمد جيش.
٤٤. «عقبرية محمد» لعباس محمود العقاد.
٤٥. «عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية» لحسن يوسف الأطير.
٤٦. «العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدى والخليفى» لخليل عبدالكريم.
٤٧. «علم الفولكلور - دراسة في المعتقدات الشعبية» لمحمد الجوهرى.
٤٨. «فقه السيرة» لمحمد الفزالي.
٤٩. «في السيرة النبوية - الوحي والقرآن والنبوة» لهشام جعيط.
٥٠. «في ظلال القرآن» سيد قطب.
٥١. «في منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل.
٥٢. «قبيلة إياد من العصر الجاهلى حتى العصر الأموي» لمحمد إحسان النص.
٥٣. «القديسة مريم أم المخلص» ملاك لوقا.
٥٤. «قصص الأنبياء» لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين.
٥٥. «الكوميديا الإلهية - النشيد الأول - الجنحيم» لدانى إيجيرى - تر. حسن عثمان، الطبعة الأولى ١٩٥٩، دار المعارف بمصر.
٥٦. «محمد الشائر الأعظم» لفتحى رضوان.
٥٧. «محمد» ل توفيق الحكيم.
٥٨. «محمد رسول الله» لجلال مظهر.
٥٩. «محمد رسول الله» ل محمد رضا.
٦٠. «محمد رسول الله» لمولاي محمد على.
٦١. «محمد رسول الله» ناصر الدين آتين دينيه وآخر، ترجمة عبد محمود وابنه محمد.

٦٢. «المسيح بين الحقائق والأوهام» لمحمد وصفى.
٦٣. «المسيحية لأحمد شلبي «غير مباشر».
٦٤. «المسيحية والحضارة العربية» لجورج قنواتي.
٦٥. «المصحف المفسر» لحمزة عبدالله النشرتى.
٦٦. «مع المصطفى فى عصر المبعث» لبنت الشاطئ.
٦٧. «المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد على.
٦٨. «مكة والمدينة» لأحمد إبراهيم الشريف.
٦٩. «الموالد» دراسة للعادات والتقاليد البعثية فى مصر، لفاروق أحمد مصطفى.
٧٠. «موسوعة آباء الكنيسة» المحرر المسئول عادل فرج عبد المسيح.
٧١. «موسوعة أمهات المؤمنين» لعبد الصبور شاهين وأخرى.
٧٢. «الموسوعة الإسلامية الميسرة» إشراف راشد البراوي.
٧٣. «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» للدكتورة فاطمة محجوب.
٧٤. «النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ» لعلى مبروك.
٧٥. «نساء النبي» لعائشة عبدالرحمن.
٧٦. «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» للحضرى.

ابعاً: المعاجم والقاموسات وكتب المفردات:

١. «قاموس وبستر للعالم الجديد».
٢. «المعجم الوسيط» لمجمع اللغة العربية.
٣. «القاموس الموجز للكتاب المقدس» الطبعة الثانية ١٩٩٢م، مكتبة كنيسة الأخوة بمصر.
٤. «مفردات غريب القرآن» للراغب الأصفهانى، تحقيق محمد سيد كيلانى، طبعة ١٤٢٨هـ / ١٩٦١م، مكتبة مصطفى البابى الحلبي بمصر.
٥. «لسان العرب» لابن منظور، باب أنقاب الحروف وطبعاتها وخواصها، المجلد الأول، نقلًا عن كتاب «نقد العقل العربي». إشكاليات العقل العربي» لجورج طرابيشى، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار الساقى، بيروت، لبنان.
٦. «القاموس المحيط» للفيروز آبادى.
٧. «المصباح المنير» للمقرن الفيومى.
٨. «مختر الصحاح» للرازى.
٩. «تاج العروس من جواهر القاموس» للزيىدى.
١٠. «المعجم الوجيز» لمجمع اللغة العربية.
١١. «المعجم الكبير» لمجمع اللغة العربية.
١٢. «تنقيف اللسان وتقييح الجنان» لابن مكى الصقلى.
١٣. «أساس البلاغة» للزمخشري.

١٤. «نظام الغريب في اللغة» لعيسي الريعي الوحاظي.
١٥. «المذكر والمؤنث» لأبي بكر الأنباري.
١٦. قاموس العادات والتقاليد المصرية» لأحمد أمين.
١٧. «تصحيح الفصيح وشرحه» لابن درستويه.
١٨. «المختار من صاحب اللغة» لمحمد محبي الدين عبدالحميد وأخر.
١٩. «إصلاح المنطق» لابن السكين.
٢٠. «مختصر العين» لأبي بكر الزبيري الأشبيلي.
٢١. «كتاب الأفعال» لأبي عثمان سعيد المعاذري السرقسطي.

ملحوظة تهم القارئ:

تاريخ النشر ودار النشر والمدينة التي صدر فيها الكتاب جميعها مرقوم
تفصيلاً في الهوامش.

ملحوظة أخرى:

هناك العديد من المصادر والمراجع والمعاجم... إلخ لم يتم رصدها في هذا
المثبت.

• • •